الحالة الخطرة لدونالد ترامب

سبعةٌ وعشرونَ طبيباً وخبيراً في الصِّحَّةِ النَّفْسِيَّةِ يُحَقِّقُون وَضعَ رئيس

باعتناء وتحرير: د. باندي إكس. لي

بسم الله الرحمن الرحيم

اللّٰهُمَّ صل على محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين

القسم الأول
ظاهرة ترامب

مذهب اللذة الحاضرة الجامح المفرط
كيف برهن زعيم العالم الحر، مَرَّةً تلو أخرى على قصوره عن الاضطلاع بمهام منصبه
فيليب زيمباردو وروزماري سورد

في صيف عام خمسة عشر وألفين، استفتحنا حديثاً ما انفك متصلاً عن دونالد ترامب. وكان يومئذٍ قد ألقى للتو بدلوه في حلبة المرشحين للرئاسة عن الحزب الجمهوري، فجاءت محاورتنا الأولى عنه مقتضبة: إنما دخل المعترك طمعاً في ذيوع الصيت. ولقد كان ترامب، في نظرنا كما في نظر كثير من الأمريكيين، قابعاً في حواشي وعينا سنين عدداً، عُرف أول أمره رجلَ أعمالٍ ذائع الصيت في مدينة نيويورك، ثم آل به المطاف شخصيةً تلفازية ضحلة الشأن. وكشأن السواد الأعظم من الناس، لم نأخذه مأخذ الجد. ولِمَ نفعل؟ إذ لم يكن له في السياسة باعٌ ولا ذراع، وأخفق في إبداء أي رغبة صادقة في أعمال البر، بله مساعدة الشعب الأمريكي أو

الشركات التي لا تدور في فلكه. كانت بضائعه تُصنع خارج تخوم الولايات المتحدة، ودلت دعاوى قضائية جمة على أنه كان يبخس صغار التجار حقوقهم، أولئك الذين أمدوه بالسلع والخدمات. وهو الذي أنشأ "جامعة ترامب" لراغبي نيل الشهادات في إدارة الأعمال، لقاء رسمٍ يبلغ ثلاثة وأربعين ألف دولار في الحول الواحد. وما كانت إلا أُحبولة؛ إذ كانت الدروس عينها مبذولة في الشابكة (الإنترنت) مجاناً لكل طالب علم، وأما الموجهون الذين أُنيط بهم إرشاد الطلاب شخصياً، فكانوا في حكم المعدوم. ولما اختصم الطلاب جامعة ترامب أمام القضاء، أفلحوا في دعواهم، وطُويت صفحة الجامعة. وجماع القول: إن دونالد ترامب لم يكن سوى رجل أعمالٍ جُلُّ همه منصبٌّ على المنفعة الشخصية، متوسلاً في ذلك، حيناً بعد حين، بسبلٍ لا خَلاق لها.

وكنا نعلم أيضاً أن ترامب، على امتداد عقود خلت، كان يتقلب تقلب ذات الوجهين بين الأحزاب السياسية؛ فبدأ ديمقراطياً، ثم انضوى تحت لواء حزب الإصلاح، ثم عاد جمهورياً، فديمقراطياً، لينتهي به المطاف جمهورياً كَرَّةً أخرى. والذي يظهر أن "الدونالد" إنما خاض غمار السباق ليحظى بتغطية إعلامية، وليتبوأ منزلةً أرفع تتيح له إبرام صفقات أضخم، والارتقاء بصنف بضاعته الأثيرة: دونالد جيه ترامب.

ثم، وتوالي الشهور، أخذ الروع يساورنا من أن مظهره "الصريح" أو هيئته كـ"رجل من خارج المؤسسة"، وما أوتيه من سحر التأثير (الكاريزما)، أمورٌ خليقةٌ بأن تستهوي أقواماً غافلين عن غوائل النرجسية في أقصى تطرفها، أو عن المسالك المستهجنة التي قد تلازمها. وإذ لسنا نروم هاهنا إطلاق أحكام تشخيصية (وهو أمرٌ يكاد يكون محالاً على أية حال)، فإننا نبتغي لفت أنظار القراء إلى مسالك مقترنة بهذه الحالة، تشتمل، ولا تقتصر، على: الاستعلاء، والمبالغة الفجة (الكذب)، والبطش (التنمر)، والحسد، وهشاشة تقدير الذات، وتبلد الوجدان، والنظر إلى العالم من منظور "نحن في مواجهتهم". ولما كنا قد عاينّا أساليب الفتوة الصبيانية التي توسل بها ترامب إبان المناظرات الجمهورية، وعرضه المتبجح السخيف في أثناء المقابلات، فقد ألفينا لزاماً علينا أن نوقظ الوعي إزاء هذه الجملة من المسالك. وعليه، نشرنا في يناير من عام ستة عشر وألفين مقالاً في مجلة "علم النفس اليوم" (Psychology Today) عبر الشابكة، تناولنا فيه المتسلطين والبيئات الاجتماعية العدائية التي يفرزونها في المدارس وأماكن العمل.

ولما أخذت حملة ترامب، ونرجسيته، تكتسب زخماً، اشتد عزمنا على تبصير الناس بما ينطوي عليه من أخطار محدقة بديمقراطيتنا. ففي مارس من العام نفسه، نشرنا مقالاً عن شخصية النرجسي. أوردنا فيه سلوكيات نرجسية موثقة سريرياً، راجين أن يسهل على القراء استخلاص أحكامهم بأن ترامب يجسد كل مثالٍ منها. ولم نأتِ على ذكر نزواته الغرامية المتعددة، أو دعاوى التحرش الجنسي المتكاثرة التي واجهها، أو زيجاته الثلاث التي كان يستبدل فيها بامرأته من هي أصغر سناً وأبهى طلعة. وكل واحدة من هذه الخصال، مفردةً، ليست بالبدع من الأمر، بيد أنه لا يفتقر المرء إلى خبير في الصحة النفسية ليدرك أن هذه المسالك، مقترنةً بتقلباته الحزبية التي لا تستقر على حال (وهي تقلبات يُنظر إليها بوصفها ذرائع لتعزيز صورته وإشباع غروره)، تدل دلالة قاطعة على أن بؤرة اهتمام هذا الرجل هي مصلحته الذاتية، وأنها تتنافر تنافراً جلياً مع خصلة عظيمة الشأن طالما أحلها الشعب الأمريكي محل الإجلال في رؤسائه، أقله حتى نوفمبر من عام ستة عشر وألفين: ألا وهي الاستقرار.

وعلاوة على ذلك، فقد تجلى لنا من خلال رصدنا، وبناءً على نظرية زيمباردو في "منظور الزمن" (التي طورتها سورد وسورد لاحقاً إلى "علاج منظور الزمن")، أن ترامب يجسد نمطاً فريداً من الشخصيات: إنه معتنقٌ لمذهب اللذة الحاضرة، جامحٌ ومفرط. وكما يشي اللفظ، فإن أتباع

هذا المذهب يحيون في لحظتهم الحاضرة، غافلين عن عواقب أفعالهم أو عما يخبئه المستقبل. وإن المفرط في هذا المذهب لخليقٌ بأن يتفوه بكل ما من شأنه أن ينفخ في كير غروره ويسكن من روع تدني تقديره لذاته، غير عابئ بواقع الماضي أو بما قد يؤول إليه كلامه المرتجل أو حتى قراراته الكبرى من مآلات مستقبلية مدمرة. وتدل مسالك ترامب على أن مناظيره الزمنية مختلة اختلالاً تاماً. ولا حاجة به إلى الخضوع لاختبار زيمباردو لمنظور الزمن (بنسختيه الطويلة أو القصيرة) لنخلص إلى هذا الحكم. إن زعمنا بأن ترامب يُعد من أشد المفرطين في مذهب اللذة الحاضرة ممن عايناهم قط، إنما يستند إلى فيض غامر من المواد المكتوبة والمرئية عنه، تشمل مقابلاته كافة، ومئات الساعات من التسجيلات، وتغريداته التي يبث فيها خلجات نفسه.

وما يلي من سطور إنما قُصد به إعانة القراء على إدراك الكيفية التي خلصنا بها إلى أن دونالد ترامب يُظهر أشد صور المنظور الزمني خطراً، ألا وهو الإفراط في مذهب اللذة الحاضرة، وأنه من ثم "قاصرٌ عن الاضطلاع بمهام منصبه".

نظرية منظور الزمن وعلاج منظور الزمن

كلنا خبيرٌ بالمناطق الزمنية الثلاث الكبرى: الماضي، والحاضر، والمستقبل. وفي "علاج منظور الزمن"، تنقسم هذه المناطق إلى فروع: الماضي الإيجابي والماضي السلبي، ولذة الحاضر وجبرية الحاضر، والمستقبل الإيجابي والمستقبل السلبي. ومتى ما رجحت كفة أحد هذه المناظير رجحاناً شديداً، فقد نُحرم من إدراك ما يجري في اللحظة الراهنة، و/أو نغفل عما قد يقع في مستقبلنا. وهذا خليقٌ بأن يجعلنا متأرجحين، أو مختلي التوازن، أو متحيزين زمانياً.

وهذا الاختلال يلقي بظلاله على طرائق تفكيرنا، ويفسد علينا اتخاذ قراراتنا اليومية. فلو أنك، على سبيل المثال، حبيس تجربة ماضية سلبية، فقد يخيل إليك أن كل ما سيصيبك من الآن فصاعداً سيكون سلبياً. وقد تقول في نفسك: لِمَ أكلف نفسي عناء التخطيط للمستقبل؟ فما هو إلا امتداد لتلك المآسي القديمة. أو لو كنت مفرطاً في مذهب اللذة الحاضرة، مدمناً على إفراز الأدرينالين، فقد تقتحم لجج المخاطر التي تعرضك أو تعرض غيرك للهلكة بغير قصد، لأنك تحيا في اللحظة ولا تتدبر عواقب أفعال اليوم في الغد. وإذا اختل توازنك في منظور المستقبل، فبتَّ دائم التفكير والتوجس من كل ما سُطر في قائمة مهامك

التي لا تنقضي، فقد تغفل أو تُحرم من مباهج الحياة اليومية التي تتفتح في حياتك وحياة أحبابك هنا والآن.

المناظير الزمنية الستة الكبرى في علاج منظور الزمن

أصحاب الماضي الإيجابي: يركزون على المحاسن التي خلت.

أصحاب الماضي السلبي: يركزون على كل ما ساء في الماضي.

أصحاب اللذة الحاضرة: يحيون في اللحظة، ينشدون المتعة، والجدة، والإثارة، ويفرون من الألم.

أصحاب الجبرية الحاضرة: يرون ألا طائل من التخطيط لقرارات المستقبل، إذ إن القدر المحتوم هو الموجه لحياة المرء.

أصحاب المستقبل الإيجابي: يخططون للمستقبل ويثقون بأن الأمور ستؤول إلى خير.

أصحاب المستقبل السلبي: يشعرون بأن المستقبل محتوم وكارثي، أو أنهم فاقدون لأي توجه مستقبلي.

التحيزات الزمنية الثلاثة الكبرى

تحيز الماضي: الخير والشر يصيبان كل امرئ. فمنا من يرمق العالم من وراء نظارة وردية (الماضي الإيجابي)، ومنا من يبصره عبر عدسة قاتمة (الماضي السلبي). ولقد ألفينا أن القوم الذين ينصب جل اهتمامهم على الماضي يُجِلُّون القديم على الحديث؛ والمألوف على المبتدع؛ والنهج الحذر المحافظ على النهج الجسور المتحرر أو المحفوف بالمخاطر.

تحيز الحاضر: القوم الذين يحيون في الحاضر قلما يتأثرون بتجارب الماضي أو اعتبارات المستقبل، إن لم يكونوا بمعزل عنها تماماً. فهم لا يلتفتون إلا إلى الحاضر المباشر—ما يقع الآن (لذة الحاضر). وتُبنى قراراتهم على المثيرات الآنية: الإشارات الهرمونية الباطنة، والمشاعر، والروائح، والأصوات، ومفاتن موضوع الرغبة، وما يحثهم الآخرون على إتيانه. والمتحيزون للحاضر، ممن يرزحون تحت وطأة تجارب الماضي السلبية، خليقون بأن يشعروا بأنهم غارقون في أوحال الماضي الآن (جبرية الحاضر).

تحيز المستقبل: لا يولد المرء مفطوراً على التخطيط للمستقبل. بيد أن جملة من الظروف، كالسكنى في منطقة معتدلة المناخ (حيث تشتد الحاجة إلى ترقب تعاقب الفصول)، والعيش في كنف أسرة مستقرة أو مجتمع مستقر اقتصادياً وسياسياً (حيث يتعلم المرء الثقة بالوعود التي تُبذل له)، ونيل قسط من التعليم، من شأنها أن تخلق أفراداً ذوي توجه مستقبلي إيجابي. وعلى وجه العموم، يفلح الموجهون نحو المستقبل في حيواتهم؛ فهم أقل عدوانية، وأبعد عن الاكتئاب، وأوفر طاقة، وأشد عناية بصحتهم، وأقدر على كبح جماح نزواتهم، وأعظم تقديراً لذواتهم. أما الحبيسون في الماضي، المرتهنون لذكرياتهم السلبية، فيستشعرون الجبرية إزاء الحاضر، وربما فقدوا القدرة حتى على تصور مستقبل يبعث على الأمل (المستقبل السلبي).

المناظير الزمنية السوية مقابل المعتلة

عبر سنين من البحث والتنقيب، اكتشفنا أن القوم الذين يحيون حيوات سوية، منتجة، ومتفائلة، يشتركون في الخصال الآتية—وهي ما نسميه "منظور الزمن المثالي":

• ماضٍ إيجابي مرتفع / ماضٍ سلبي منخفض؛

• جبرية حاضرة منخفضة / لذة حاضرة منتقاة ومعتدلة؛ و

• توجه مستقبلي إيجابي مرتفع باعتدال.

وعلى النقيض من ذلك، ألفينا أن أصحاب المناظير الزمنية المتشائمة، والذين غالباً ما يكون تشاؤمهم وليد صدمة، أو اكتئاب، أو قلق، أو ضغط نفسي، أو كرب ما بعد الصدمة، يشتركون في هذا التكوين الزمني:

• ماضٍ سلبي مرتفع / ماضٍ إيجابي منخفض؛

• جبرية حاضرة مرتفعة و/أو لذة حاضرة مرتفعة؛ و

• توجه مستقبلي منخفض / انعدام التوجه المستقبلي.

وإن وجود قسط من اللذة الحاضرة المنتقاة في التكوين الزمني الشامل للمرء لأمرٌ ذو بال، إذ إن استمتاع المرء بوقته وترويحه عن نفسه يمثل شطراً صحياً من الحياة. بيد أن الإفراط في المباح قد يفضي إلى معضلات جمة.

لذة الحاضر وتوقف النمو الوجداني

كما أسلفنا، فإن أصحاب اللذة الحاضرة يحيون ويتصرفون في اللحظة، وغالباً ما يغفلون غفلة تامة أو شبه تامة عن المستقبل أو عن عواقب أفعالهم. وجل الأطفال والمراهقين هم من أصحاب اللذة الحاضرة. فهم في كل يوم يبنون على تجارب الماضي، غير أن تصورهم للمستقبل لا يزال في طور التكوين. والذين يعانون من توقف النمو الوجداني، والذي غالباً ما ينشأ عن صدمة في الطفولة، هم أيضاً من أصحاب اللذة الحاضرة. وبغير علاج، يغدو ارتقاؤهم الوجداني لتجاوز عمر الصدمة أمراً عسيراً بل محالاً. ولما يبلغوا أشد الرشد، قد يفلحون في إخفاء قصور نضجهم الوجداني حيناً من الدهر، ولكن متى ما ألمت بهم ملمة أو ضائقة، نكصوا على أعقابهم ليتصرفوا وفق العمر الوجداني الذي كانوا عليه حين دهمتهم الصدمة الأولى. وبحسب مبلغ أثر صدمة الطفولة في نفس المصاب

بتوقف النمو الوجداني، قد يتبين لهم، بمرور الأيام، أن منظورهم الزمني القائم على لذة الحاضر قد استحال إلى لذة حاضرة مفرطة.

وبغير تقييم فردي دقيق، لا يسعنا إلا أن نضرب أخماساً في أسداس حول ما إذا كان دونالد ترامب يعاني من توقف النمو الوجداني، وهو أمر قد يكون له دخل في إفراطه في مذهب اللذة الحاضرة أو لا يكون. بيد أنه، وفي ضوء ما تيسر لنا من ركام هائل من المواد المقروءة والمرئية التي تفضح مسالكه البطشية، وتعليقاته الفجة عن الجنس، وحاجته الطفولية إلى لفت الأنظار، يسعنا أن نخمن أن الحادثة الصادمة وقعت حين أُقصي إلى مدرسة عسكرية وهو في الثالثة عشرة من عمره. وبحسب ما أورده أحد كتاب سيرته، مايكل دانتونيو، فإن ترامب "قد نُفي فعلياً من بيت الأسرة. لم يكن يعهد سوى العيش في كنف أسرته في مرابع البذخ، وفجأة، أُقصي بعيداً". وهذا خليقٌ بأن يفسر نكوصه إلى طور المراهقة كلما واجه خصومه.

لذة الحاضر المفرطة

إن المفرط في لذة الحاضر ليتفوه أو يأتي بأي فعل، في أي وقت، بغية تعظيم ذاته ودرءِ الشبهات عن أفعاله السالفة (التي غالباً ما تُرى بعين السخط)، غير مبالٍ بالمستقبل ولا بمآلات أفعاله. وهذا الإفراط، متى ما اقترن بقسط من جنون الارتياب (الزُّوَار)—وهو الغالب—يغدو أشد المناظير الزمنية تقلباً وخطراً، نظراً لعنصر "الفعل" الكامن فيه. وبيان ذلك كالآتي:

إن نزوة المفرط في لذة الحاضر تفضي إلى فعلٍ أهوج يجعله يتشبث برأيه ويعاند متى ما جوبه بعواقب فعله. فإن كان هذا المرء في سدة السلطة، تهافت من حوله إما للإنكار أو لتلمس الذرائع التي تسوغ ذلك الفعل الأهوج الأول. وفي مجرى الحياة اليومية المعتادة، تؤول هذه الرعونة إلى سوء الفهم، والكذب، والعلاقات المسمومة. أما في حالة دونالد ترامب، فإن خاطراً أهوج قد يطلق سيلاً من التغريدات أو التصريحات (الفعل)، التي تستحث الآخرين إثر ذلك لمحاولة تحقيق هذا الفعل الطائش أو إنكاره.

وشاهد ذلك: تغريدة ترامب الهوجاء "إلى أي درك انحط الرئيس أوباما ليتنصت على هواتفي إبان العملية الانتخابية المقدسة جداً. هذا هو نيكسون/ووترغيت. رجل سيئ (أو مريض)!"، والتي دفعت حاشيته إلى التهافت بحثاً عن دليل يضفي صفة "الحقيقة" على هذا الادعاء الباطل المفتري. والمفارقة أن تلك التغريدة المفرطة في لذة الحاضر قد أفضت إلى تحقيقات متطبعة حول صلات محتملة لحملة ترامب بروسيا، وكل ذلك على نفقة دافعي الضرائب من كد يمينهم.

ومن الخصال المروعة الأخرى للمفرطين في لذة الحاضر، ميلهم—الذي غالباً ما يكون غير واعٍ، إذ نؤثر أن نحسن الظن ببعضهم—إلى سلب الآخرين إنسانيتهم بغية استشعار الفوقية. وهذا القصور في بعد النظر وانعدام التعاطف هو أيضاً من سمات النرجسية والبطش، وهو ما سنأتي على بيانه لاحقاً في هذا الفصل.

مأثورات دونالد ترامب المفرطة في لذة الحاضر

قد يجادل مجادل بأن أي امرئ يمكن تصويره في قالب ذميم متى ما وُضع تحت مجهر الفحص أو اقتُطعت أقواله من سياقها. بيد أن من يروم بلوغ أرفع منصب في البلاد، ثم يظفر به، فخليقٌ به أن يتوقع مثل هذا الفحص. وفي حالة دونالد ترامب، نلفي كنزاً دفيناً من الشواهد المسجلة التي ترسم لنا صورة جلية لدخائل نفسه المختلة. إن المأثورات الذائعة الآتية، والتي بوبناها في فئات—وبعضها يتداخل في فئات عدة—والتي جمعها مايكل كروز ونوح وايلاند لمجلة بوليتيكو ("أعظم تناقضات دونالد ترامب الذاتية"، ٥ مايو ٢٠١٦)، لتجلي ميله المفرط في لذة الحاضر إلى الخروج عن النص المكتوب و/أو التفوه أو التغريد بكل ما يسنح في خاطره، أو اختلاق الأباطيل، أو ترديد الأخبار الزائفة، أو محض الكذب:

سلب الإنسانية

• "أحياناً، يكون الحط من قدر خصمك شطراً من إبرام الصفقة" (فن الصفقة، ١٩٨٧).

• "حين ترسل المكسيك أناسها، فهم لا يرسلون خيارهم... بل يرسلون قوماً مثقلين بالآفات، وهم يجلبون تلك الآفات إلينا. يجلبون المخدرات. يجلبون الجريمة. إنهم مغتصبون. وبعضهم، كما أفترض، أناس صالحون" (خطاب في تجمع جمهوري، ١٦ يونيو ٢٠١٥).

• "كُتبت بقلم مراسل لطيف. والآن انظروا إلى هذا المسكين. ينبغي لكم أن تروا هذا الرجل" (تعليق قاله وهو يلوي وجهه ويحرك ذراعيه ويديه بحركات خرقاء، في تجمع انتخابي في ساوث كارولينا، ٢٤ نوفمبر ٢٠١٥، غامزاً قناة الصحفي سيرج كوفاليسكي، المصاب باعوجاج المفاصل، وهو داء خلقي يحد من حركة المفاصل أو ييبس الأطراف).

الكذب

• "صُنع في أمريكا؟ باراك أوباما وصف 'مسقط رأسه' هاواي بأنها 'هنا في آسيا'" (تويتر، ١٨ نوفمبر ٢٠١١).

• "شاهدتُ مركز التجارة العالمي وهو ينهار... وشاهدتُ في جيرسي سيتي، بولاية نيوجيرسي، ألوفاً مؤلفة من الناس يهللون والمبنى يتهاوى. ألوف من الناس كانوا يهللون" (في تجمع في برمنغهام، ألاباما، ٢١ نوفمبر ٢٠١٥). وفي اليوم التالي، أشار جورج ستيفانوبولوس، مقدم برنامج "هذا

الأسبوع"، إلى أن "الشرطة تقول إن هذا لم يقع". فأصر ترامب على خلاف ذلك: "لقد عُرض على التلفاز. رأيته يقع".

• "علاوة على فوزي بالمجمع الانتخابي فوزاً ساحقاً، فقد فزت بالتصويت الشعبي إذا ما أسقطتم ملايين البشر الذين اقترعوا بصورة غير شرعية" (تويتر، ٢٧ نوفمبر ٢٠١٦).

ازدراء الإناث

• "كان بوسعك أن ترى الدم ينفر من عينيها. الدم ينفر من—أينما كان" (تعليقات في مقابلة مع شبكة سي إن إن بشأن ميغين كيلي، غداة مناظرة فوكس نيوز التي شاركت كيلي في إدارتها وسألت فيها ترامب عن معاملته المزدَرية للنساء، ٧ أغسطس ٢٠١٥).

• "انظروا إلى هذا الوجه! أيعقل أن يصوت أحد لهذا؟ هل تتخيلون هذا، وجه رئيسنا القادم؟... أعني، إنها امرأة، ولا ينبغي لي أن أقول كلاماً سيئاً، ولكن بحقكم يا قوم، أجادون نحن؟" (تعليقات في مقابلة مع رولينغ ستون بشأن المرشحة الرئاسية الجمهورية كارلي فيورينا، ٩ سبتمبر ٢٠١٥).

• "حين تكون نجماً، يدَعونك تفعلها. يمكنك أن تفعل أي شيء... أمسك بهن من الفرج... يمكنك أن تفعل أي شيء" (تباهٍ سُجل خلسة

عبر ميكروفون مفتوح لبرنامج أكسيس هوليوود في عام ٢٠٠٥ ونشرته صحيفة واشنطن بوست في أكتوبر ٢٠١٦).

جنون الارتياب (الزُّوَار)

• "العالم مكان شرس ووحشي. نخال أننا متحضرون. والحق أنه عالم قاسٍ والناس فيه غلاظ الأكباد. يتصنعون اللطف في وجهك، ولكنهم في الباطن يتربصون بك الدوائر ليقتلوك... حتى أصدقاؤك يتربصون بك: يطمعون في وظيفتك، يطمعون في بيتك، يطمعون في مالك، يطمعون في امرأتك، بل يطمعون حتى في كلبك. هؤلاء هم أصدقاؤك؛ أما أعداؤك فأدهى وأمر!" (فكر على نطاق واسع: حقق ما تصبو إليه في العمل والحياة، ٢٠٠٧).

• "شعاري هو 'استأجر خيرة الناس، ولا تثق بهم'" (فكر على نطاق واسع: حقق ما تصبو إليه في العمل والحياة، ٢٠٠٧).

• "إذا كان يعمل لديك أناس أذكياء، فسوف يحاولون الإيقاع بك إن ظنوا أنهم قادرون على بلوغ شأوٍ أفضل من دونك" (ديلي ميل، ٣٠ أكتوبر ٢٠١٠).

العنصرية

• "لم يُؤذن لك بالكلام، عُد إلى يونيفزيون" (حين طرد المراسل اللاتيني خورخي راموس في تجمع في آيوا، أغسطس ٢٠١٥).

• "دونالد جيه ترامب يدعو إلى حظر تام وشامل لدخول المسلمين إلى الولايات المتحدة" (في تجمع في تشارلستون، ساوث كارولينا، ديسمبر ٢٠١٥).

• "انظروا إلى أمريكيي الأفريقي هاهنا. انظروا إليه" (في ظهور انتخابي في كاليفورنيا، يونيو ٢٠١٦).

تعظيم الذات

• "أنا، كما تعلمون، شخص ذكي جداً" (في مقابلة في فينيكس، أريزونا، ١١ يوليو ٢٠١٥).

• "من العسير عليهم جداً أن يهاجموني في مظهري، لأنني وسيم جداً" (في مقابلة في برنامج واجه الصحافة على شبكة إن بي سي، ٧ أغسطس ٢٠١٥).

• "أنا أستشير نفسي، في المقام الأول، لأنني أمتلك عقلاً راجحاً جداً وقد تفوهت بأشياء كثيرة... مستشاري الأول هو أنا" (من مقابلة مع شبكة إم إس إن بي سي، ١٦ مارس ٢٠١٦).

ويُظهر ترامب أيضاً خصلتين من خصال الشخصية المعرفة، متى ما اجتمعتا مع الإفراط في لذة الحاضر، ضاعفتا من روعنا: النرجسية والبطش (التنمر). وبغية إعانة القراء على إدراك تعقيدات النرجسيين والمتسلطين، وكيف تتضافر هاتان الخصلتان مع لذة الحاضر المفرطة، ولبيان كيف يُظهر الرئيس هذه الاستعدادات، فقد أوجزنا سنين من البحث في هذين المضمارين.

شخصية النرجسي

"أنا وحدي القادر على إصلاح الأمر."

دونالد ترامب، المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري، يوليو ٢٠١٦

في أوائل القرن العشرين، أدخل سيغموند فرويد النرجسية كشطر من نظريته في التحليل النفسي. وعلى امتداد العقود التوالي، هُذبت هذه الحالة وأُطلق عليها حيناً جنون العظمة (الميغالومانيا) أو التمركز الشديد

حول الذات. وبحلول عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف، تطورت الحالة لتغدو اضطراباً مشخصاً يُعرف باضطراب الشخصية النرجسية.

والنرجسيون قوم مختلو التوازن، إذ يجلون أنفسهم إجلالاً عظيماً، وفي الوقت عينه يحتقرون كل من يرونهم دونهم منزلة، وهم السواد الأعظم من الناس. والنرجسيون انفعاليون، دراميون، وقد يفتقرون إلى الرحمة والتعاطف، إذ إن هذه الخصال منوطة بالشعور بالآخرين.

وما يلي بعضٌ من أعراض اضطراب الشخصية النرجسية. (ولما كان الحديث هنا عن النرجسيين، فإننا نوجه الخطاب بضمير المخاطب "أنت").

• اعتقادك بأنك خيرٌ من غيرك: هذا يسري على كل شأن في عالمك؛ فأنت ترمق الناس من علٍ.

• الاستغراق في خيالات السلطة والنجاح والجاذبية: أنت بطل خارق، من أنجح الناس في مضمارك؛ صورتك خليقة بأن تتصدر غلاف مجلة جي كيو أو غلامور، ولا تدرك أن هذا كله محض خيال في رأسك.

• المبالغة في إنجازاتك أو مواهبك: حلولك في المرتبة التاسعة في دورة الغولف يستحيل مرتبة أولى في أعين من لم يشهدوا الحدث، بل وحتى في

أعين من شهدوه إن أوتيت من الصفاقة ما يكفي. ورغم أنك كنت تعزف على القيثارة عزفاً رديئاً في المدرسة الثانوية قبل أن تزهد فيها، فإنك تخبر الناس أنك تلقيت دروساً على يد كارلوس سانتانا.

• ترقب الثناء والإعجاب المتصل: تبتغي من الآخرين أن يقروا بفضلك في كل شاردة وواردة تأتيها، حتى وإن كانت إخراج القمامة.

• اعتقادك بأنك فريد من نوعك والتصرف على هذا النحو: توقن أنك هبة الله للنساءِ/للرجالِ/لمجالك/للعالم، وأنك حقيقٌ بأن يعاملك الجميع على هذا الأساس. وهم إنما يجهلون ذلك.

• العجز عن إدراك عواطف الآخرين ومشاعرهم: لا تفقه لِمَ يغضب الناس منك حين تصارحهم بما تراه حقاً أو بما تظن أنهم أخطأوا فيه.

• توقع إذعان الآخرين لأفكارك وخططك: ليس ثمة إلا طريق واحد وهو طريقك، لذا يضيق صدرك حين يبدي الآخرون آراءهم أو خططهم، إذ لا ريب في أنها ليست في جودة خططك.

• استغلال الآخرين: تأخذ سيارة/أدوات/بطاقة ائتمان/ثياب والدك أو صديقك بغير إذن، أو تتخطى الصف أمام شيخ طاعن في السن، أو ترتقب مقابلاً أعظم شأناً لقاء إسدائك معروفاً يسيراً. "وما العيب في ذلك؟"

• إبداء الازدراء لمن تراهم دون مقامك: "ذلك المتشرد لا يرتدي معطفاً ولا حذاءً في هذا الزمهرير. ياله من أبله!"

• حسد الآخرين: أنت، لا فلان، من كان حقيقاً بالجائزة/الكأس/الثناء والتقدير. وكذلك، إن خيل إليك أن امرأً ما أوسم/أذكى/أفطن منك، أو يمتلك سيارة أفخم/شريك حياة أفضل/بيتاً أوسع، مقتَّه ولعنته.

• اعتقادك بأن الآخرين يحسدونك: توقن أن كل امرئ يود لو كان أنت.

• العجز عن الحفاظ على علاقات سوية: أهلك وصحبك لا يفهمونك، لذا تقطع حبل الوصل معهم. وتزهد في علاقاتك الغرامية كلما لاح لك من هو أفضل؛ وتخوض غمار علاقات متكررة لا تروي غليلك.

• رسم أهداف لا تمت للواقع بصلة: توقن أنك يوماً ما ستغدو مديراً تنفيذياً/رئيساً/موسيقياً عظيماً/فناناً/مؤلفاً ذائع الصيت، أو تتزوج من نجم سينمائي، أو تحوز مليارات بيل غيتس.

• سرعة التأثر والرفض: لا تفقه لِمَ يتعمد الناس جرح مشاعرك، وإما أن يستغرقك برؤك من ذلك أمداً طويلاً، أو أنك لا تبرأ منه أبداً.

• هشاشة تقدير الذات: في قرارة نفسك، لست سوى كائن رقيق، وهذا ما يجعلك فريداً، ولا تفقه لِمَ لا يبصر الناس فيك هذه الخصلة.

• التظاهر بصلابة العقل أو تبلد المشاعر: أي: تتصنع هيئة السيد سبوك.

ولئن بدت بعض هذه الأعراض وكأنها مجرد ثقة عالية بالنفس أو تقدير مرتفع للذات، إلا أنها تفترق عن ذلك في القوم الذين أوتوا قسطاً سوياً من الثقة وتقدير الذات؛ إذ إن هؤلاء لا يفضلون أنفسهم على غيرهم، في حين أن النرجسي يرمق الآخرين من عليائه. وغالباً ما يبدو النرجسي متبجحاً مغروراً، يستأثر بأطراف الحديث ويستشعر الاستحقاق. يبتغي صفوة ما هو متاح، فإن لم يبلغ مأربه، تبرم أو استشاط غضباً. إنه يغدو تجسيداً حياً للنزق.

ومن العجيب أن ما يكمن تحت قشرة هذا النمط من الشخصيات غالباً ما يكون تقديراً متدنياً جداً للذات. فالنرجسيون لا يطيقون النقد بأي وجه من الوجوه، وسيعمدون إلى تحقير الآخرين أو يستشيطون غضباً أو يستعلون عليهم ليروحوا عن أنفسهم متى ما استشعروا أنهم عُرضة للنقد. وليس من المستغرب أن يعمى النرجسي عن مسالكه، لأنها لا تتسق مع رؤيته لذاته الكاملة المهيمنة. بيد أن النرجسي قادر على تفرس قرينه من على بعد ميل، وسيعمد إما إلى الحط من قدر ذلك النرجسي المنافس الخالي الوفاض، أو اجتنابه بالكلية.

وللأسف، قد يلفي النرجسيون علاقاتهم تتداعى من حولهم. فبعد حين، ينفر الناس من مجالستهم؛ وتستحيل علاقاتهم كافة (الشخصية، أو في العمل، أو المدرسة) إلى معضلات. وأحياناً ما تضطرب شؤونهم المالية أيضاً، إذ يعسر عليهم الحفاظ على واجهتهم بغير مقتنيات باهظة الأثمان.

شخصية المتسلط الباطش (المتنمر)

"أرجو أن تختار هيلاري كلينتون الفاسدة إليزابيث وارن الحمقاء نائبةً لها. سأهزمهما كلتيهما."

دونالد ترامب، تويتر، ٦ مايو ٢٠١٦

يُعرَّف البطش (التنمر) بأنه إلحاق الأذى البدني و/أو الكرب النفسي بشخص أو أكثر، على نحو منهجي ومزمن، سواء أكانوا طلاباً في مدرسة، أم أقراناً في مكان عمل، أم أفراداً في أسرة. وتدل البحوث على أن بعض المتسلطين قد يعانون من اضطراب الشخصية النرجسية، في حين قد يعسر على آخرين تأويل المواقف الاجتماعية وأفعال الآخرين أو الحكم عليها—إذ يؤولون أفعال الآخرين على أنها عدائية وإن لم يُقصد بها ذلك. فمثلاً، قد يصطدم امرؤ بمتسلط عن غير قصد، فيرى المتسلط في هذا

الحادث العارض عملاً عدوانياً؛ ومن ثم يبالغ في رد فعله، مما يثير نزعة البطش لديه لطلب الثأر.

وغالباً ما يُكتسب السلوك البطشي في كنف الأسرة من أفرادها، كالآباء أو الإخوة الكبار الذين يُظهرون هذا النمط من العدوان. وعلى وجه العموم، ينشأ السلوك البطشي عن الضغوط النفسية في حياة المتسلط. فغالباً ما يكون المتسلطون قد تعرضوا للإساءة أو تحركهم زعازعهم النفسية. وهم عادة ما يبتغون السيطرة على الآخرين والتلاعب بهم ليستشعروا الفوقية. فالغضب الذي يضطرم في نفوسهم جراء ما كابدوه من أذى، يوجهونه شطر الآخرين. وضحاياهم هم من يرونهم أضعف منهم و/أو مختلفين عنهم.

وأفعال المتسلط مقصودة: غايتها إلحاق الأذى النفسي أو البدني بشخص أو أكثر، وغالباً ما يكون ذلك على نحو متكرر. وقد يستحضر كثير من القراء أنماطاً أساسية للمتسلط كما صُورت في السينما أو التلفاز، كشخصية "بيف" في فيلم "العودة إلى المستقبل" أو "إيدي هاسكل" في المسلسل التلفازي "اتركها لبيفر". ومع توالي العقود وتطور تقنياتنا، تضاعفت أعداد المتسلطين وتنوعت أنماطهم.

• البطش البدني: يقع حين يتوسل الناس بالأفعال البدنية لبسط سطوتهم وسيطرتهم على ضحاياهم. وهو أيسر الأنواع تمييزاً، وغالباً ما يتبادر إلى أذهان الناس حين يذكرون التنمر.

• البطش اللفظي: ينطوي على استخدام الكلمات، والعبارات، والتنابز بالألقاب لبسط السطوة والسيطرة على الضحية. وعادة ما يتوسل المتسلطون اللفظيون بإهانات لا هوادة فيها لتحقير الآخرين، وإذلالهم، وإيذائهم.

• البطش القائم على التحيز: يُبنى على أحكام مسبقة يحملها الناس تجاه أقوام من أعراق، أو أديان، أو ميول جنسية مختلفة. وهذا النمط من البطش قد ينطوي على سائر أنماط البطش الأخرى. وحين يقع البطش القائم على التحيز، يُستهدف أولئك الذين يُعدون "مختلفين" بوجه من الوجوه، ويُشرع الباب أمام جرائم الكراهية.

• العدوان العلائقي: والذي يُشار إليه غالباً بالبطش العاطفي، وهو نمط خبيث متسلل من البطش يتجلى في التلاعب الاجتماعي. وغاية المتسلط العلائقي هي نبذ الآخرين لبلوغ مكانة اجتماعية والسيطرة عليهم.

• البطش السيبراني (الإلكتروني): يُقصد به استخدام الشابكة (الإنترنت)، أو الهواتف المحمولة، أو غيرها من التقنيات لمضايقة شخص

آخر، أو تهديده، أو إحراجه، أو استهدافه؛ وغالباً ما ينخرط فيه مراهق أو يافع. فإن كان الجاني بالغاً، سُمي ذلك تحرشاً سيبرانياً أو مطاردة سيبرانية. وقد اكتسب هذا النمط من البطش زخماً، إذ إن خطر الانكشاف فيه أقل بكثير.

• البطش الجنسي: يتألف من أفعال متكررة، ومؤذية، ومهينة (كالتنابز بألقاب جنسية، أو التعليقات الفجة، أو الإيماءات البذيئة، أو اللمس غير المرغوب فيه، أو المراودة عن النفس) تستهدف المرء جنسياً. وقد يقع في جماعة ويُعد ضرباً من التباهي بين الجناة؛ أما إذا وقع بين فردين، فقد يفضي إلى اعتداء جنسي.

وإذا ما أخذت في الحسبان دعاوى التحرش/الاعتداء الجنسي التي لاحقت ترامب على امتداد السنين، فستلفي أنه قد أظهر كل نمط من هذه الأنماط البطشية. والبطش ليس سلوكاً "سوياً"، ومن ثم فهو سلوك مستهجن—أو، على الأقل، كان مستهجناً حتى الانتخابات الرئاسية في عام ستة عشر وألفين. ففي الماضي، كان البطش يُعد في العرف الثقافي طقس عبور طبيعياً (وإن كان هذا الضرب من التفكير لم يمت للواقع بصلة قط)؛ بيد أنه قطعاً ليس كذلك اليوم. ومع تفشي البطش المتطرف

تفشياً متزايداً، والذي غالباً ما يفضي إلى مآلات فاجعة، لم يعد يسعنا أن ننظر إليه بوصفه مجرد شطر من مرحلة النضج، بله أن يكون شطراً من شيم البالغين.

أثر ترامب

"سوف أقصفهم قصفاً مبرحاً!"

دونالد ترامب إبان تجمع انتخابي في فورت دودج، آيوا، ١٣ نوفمبر ٢٠١٥

إن بوسع امرئ واحد أن يترك بصمته على أمة بأسرها، ولا يتجلى لنا هذا في موضع أجلى مما نراه في "أثر ترامب"، والذي عُرف في الأصل بأنه تصاعد وتيرة التنمر في المدارس جراء الخطاب الذي توسل به دونالد ترامب إبان حملته الانتخابية. وهذا التعريف المخصوص لأثر ترامب—والذي لا ينبغي الخلط بينه وبين تعريفات تشير، على سبيل المثال، إلى سوق الأوراق المالية، أو إلى مراوغة ترامب العلنية للحقيقة، أو إلى تصاعد المد الشعبي في أوروبا—قد اكتسب رواجاً في وسائل الإعلام مع اشتداد وطأة الموسم الانتخابي وفوز دونالد ترامب بالرئاسة.

وفي غضون أمد يسير، زحف البطش ليتجاوز أسوار المدارس ويشمل البطش الديني والعرقي على أيدي البالغين. فأُحرقت أربعة مساجد على الأقل وسُويت بالأرض. ودُنست مقابر اليهود في أرجاء أمتنا. وأُطلق الرصاص على مهندسين هنديين بريئين وهما يتناولان عشاءهما، وكذا على أمريكي أبيض حاول الذب عنهما. وقضى أحد المهندسين نحبه، ولكن ليس قبل أن يمطره قاتله بوابل من الشتائم العنصرية التي بلغت ذروتها بصرخة: "اخرج من بلادي!". وفي الآونة الأخيرة، توارى ذكر "أثر ترامب" في المقالات ليحل محله التغطية المتصلة لتغريدات ترامب، ومسالكه الشاذة، والصلات غير المشروعة المحتملة لحملته بروسيا. ومهما بدا الأمر غريباً، فإن "أثر ترامب" واقع لا محالة، وهو ظاهرة آخذة في التنامي.

إن التقرير الذي أعدته مورين كوستيلو من مشروع "تعليم التسامح" التابع لمركز قانون الحاجة الجنوبي (SPLC)، والموسوم بـ "أثر ترامب: وقع الحملة الرئاسية لعام ٢٠١٦ على مدارس أمتنا"، ليجلي بعبارات لا لبس فيها العواقب الوخيمة لمسالك دونالد ترامب. فهو يشير إلى أن الطلاب المهاجرين، وأبناء المهاجرين—إذ يقارب ثلث التلاميذ في الفصول الأمريكية أن يكونوا من أبناء آباء ولدوا خارج البلاد—والأمريكيين الأفارقة، وغيرهم من الطلاب الملونين، كانوا يتملكهم الروع، في حين كان أقرانهم يشفون عليهم ويرومون الذب عنهم.

بيد أن كثيراً من الأطفال لم يساورهم الخوف البتة. بل إن بعضهم اتخذ من اسم "ترامب" سُبة أو أهزوجة يرددونها وهم يتكالبون على غيرهم. فنُعت الأطفال المسلمون بالإرهابيين؛ وقيل للمنحدرين من أصول مكسيكية إنهم أو آباءهم سيُرحلون؛ وساور الروع الأطفال الملونين من أن يُساقوا زُمراً ويُزج بهم في معسكرات. ولقد أفضى هذا البطش ببعض هؤلاء الأطفال إلى مكابدة نوبات هلع ومراودة أفكار انتحارية.

ولقد برزت تيمة مطردة عبر مختلف المراحل الدراسية: لقد أدرك الطلاب أن المسلك المعروض أمامهم ليس بالسوي. كما كشف بحثنا أن السواد الأعظم ممن يشهدون هذا البطش يقفون مكتوفي الأيدي، وكثير من هؤلاء المتفرجين السلبيين يكابدون خزياً مديداً لتقاعسهم عن نصرة أصدقائهم وزملائهم إزاء هذا الحيف—وهي غائلة أخرى من غوائل البطش، تتجاوز ضحاياه المستهدفين.

ولئن كان قياس الأثر البعيد المدى لهذه التجارب السامة في عافية الأطفال أمراً متعذراً، إلا أن الطلاب كانوا يرزحون تحت وطأة ضغط وقلق هددا صحتهم، وحالتهم الوجدانية، وتحصيلهم الدراسي. ومن المعلوم بالضرورة أن الطلاب المكروبين يعسر عليهم التحصيل، والواقع أن التقرير أشار إلى حالات جمة كان القلق فيها يلقي بظلاله على الدرجات

ويوهن قدرة الطلاب على التركيز. بيد أن الطلاب كافة، سواء أكانوا من الفئات المستهدفة أم لا، عُرضة لضغوط "أثر ترامب".

وإذا ما غصنا أعمق قليلاً، أدركنا أن الأطفال مرآة لتنشئتهم. فالأرجح أن التنفيس الغاضب الذي يمارسه بعض الطلاب ضد غيرهم في مدارسنا إنما هو انعكاس لما يعاينونه في بيوتهم. فكيف إذن تفاعلت شريحة يسيرة ولكنها نشطة من شعبنا مع رئاسة دونالد ترامب؟ تدل الإحصاءات على أنهم ازدادوا جسارة، وفي الأشهر الأخيرة، انخرطوا في جرائم كراهية ضد اليهود وكذا ضد المسلمين والمكسيكيين؛ وإن التكهنات برضا ترامب عن جماعات التفوق الأبيض/المعادية للسامية قد زادتهم عتواً.

وبحسب مركز قانون الحاجة الجنوبي، ففي غضون الأسبوعين الفاصلين بين يوم الانتخابات والتاسع من فبراير عام سبعة عشر وألفين، وقع سبعون حادثاً معادياً لليهود وواحد وثلاثون حادثاً معادياً للمسلمين، وجلها تهديدات بوضع قنابل. وهذه الأرقام تتناسب مع التعداد السكاني لليهود والمسلمين في الولايات المتحدة، مما يعني أن حظوظ اليهود والمسلمين في الوقوع ضحايا تكاد تكون متساوية.

إن الموجة الأخيرة من تدنيس مقابر اليهود ودور عبادتهم، وإحراق المساجد، لخليقة بأن تثير بالغ قلقنا جميعاً كأمريكيين، إذ نحن أمة قوامها الأكبر من المهاجرين. إن هذه الإساءات الموجهة إلى هوية اليهود والمسلمين لتشيع سلب الإنسانية عن بني جلدتنا من البشر. ولئن كان الرئيس قد أُجبر في نهاية المطاف على استنكار أفعال معاداة السامية، فإننا في بحثنا لهذا الفصل، لم نكد نقع على دليل يثبت استنكاره للاعتداءات على المسلمين الأمريكيين. وهذا النكوص عن خدمة شرائح من شعبه والذب عنها، لهو إشارة أخرى للمتسلطين بأن مسلكهم مرضيٌّ عنه عند الرجل القابع في سدة الحكم.

مخطط ڤِن المروع

إننا نلفي في دونالد ترامب مخطط ڤِن (Venn diagram) مروعاً يتألف من ثلاث دوائر: الأولى هي لذة الحاضر المفرطة؛ والثانية، النرجسية؛ والثالثة، السلوك البطشي. وتتقاطع هذه الدوائر الثلاث في المركز لتفرز شخصاً أهوج، قاصراً، غير كفء، متى ما تبوأ سدة السلطة المطلقة، انزلق في يسر إلى تقمص دور الطاغية، تكتنفه حاشية من أهله يتحلقون حول "مائدة حكمه" المعهودة. وكديكتاتور غض الإهاب، يبذر بذور الغدر النفسية في طوائف من شعبنا تعزز مواقف سلبية متأصلة. ولتأكيد مرادنا، نورد هاهنا ما نعده من أخطر مأثورات ترامب:

• "إذا قُيض لها أن تختار قضاتها، فلا حيلة لكم يا قوم. وإن كان أنصار التعديل الثاني—ربما تكون ثمة حيلة، لست أدري" (تعليق قاله إبان تجمع انتخابي في ويلمنغتون، نورث كارولينا، ٩ أغسطس ٢٠١٦)؛ و

• "بوسعي أن أقف في قلب الجادة الخامسة، وأطلق النار على أحدهم، ولن أفقد ناخباً واحداً" (تعليق قاله إبان ظهور انتخابي في سيوكس سيتي، آيوا، ٢٣ يناير ٢٠١٦).

قبل عهد دونالد ترامب، كان من المحال على عقول المواطنين الأمريكيين أن تتدبر عن وعي التصويت لرجل مختل التوازن كهذا الرئيس، بله تنصيبه. والحق أنه أمر وارد، كما يشير غاي وينش في مقاله المنشور في مجلة "علم النفس اليوم" بتاريخ ٢ فبراير ٢٠١٦، "دراسة: شطر الرؤساء كابدوا عللاً نفسية". فبحسب وينش، لعل كثيراً من رؤسائنا السالفين كابدوا خطوباً في صحتهم النفسية، كالاكتئاب (أبراهام لينكولن)، والاضطراب ثنائي القطب (ليندون جونسون)، وإدمان الخمر (يوليسيس إس. غرانت)، وداء ألزهايمر (رونالد ريغان)، ونوبات عابرة من لذة الحاضر المفرطة (جون إف. كينيدي وبيل كلينتون). كما أننا تجاوزنا محنة رئيس كذب بصفاقة ليواري سوءات جرائمه قبل أن يفتضح أمره في تلك الأكاذيب (ريتشارد نيكسون). ففي سالف الأيام، كان الأمريكيون يتآزرون ويعملون على تجاوز شقاقهم. وكنا نمضي قُدماً صفاً واحداً كأمة عظيمة. أما في الآونة الأخيرة، فيا للأسف، يبدو أننا غدونا أمة ثنائية القطب، يتولى دونالد ترامب دفتها، في حين يهلل له أشياعه ويستميت آخرون في مقاومته.

المآلات

في معرض بسط حجتنا بأن دونالد ترامب قاصر نفسياً عن تولي رئاسة الولايات المتحدة، نكون قد فرطنا إن لم نضع في الحسبان عاملاً آخر: ألا وهو احتمال إصابته باضطراب عصبي كالخرف أو داء ألزهايمر، وهو الداء الذي كابده والد الرئيس، فريد ترامب. ومرة أخرى، لسنا نروم إطلاق تكهنات تشخيصية من بعيد، بيد أننا بعقد مقارنة بين مقابلات ترامب المرئية في الثمانينيات والتسعينيات وأوائل الألفية، وبين مقاطعه المرئية الراهنة، نلفي أن الفروق (انحسار بين في استخدام المفردات الأساسية؛ وإفراط في استخدام صفات من قبيل "جداً"، "ضخم"، و"هائل"؛ وجمل مبتورة لا رابط بينها ولا يستقيم لها معنى، مما قد يشي بانقطاع حبل الأفكار أو فقدان الذاكرة) جلية لا تخطئها العين. ولعل هذا هو السر في إصرار ترامب على أن يكتنف بأفراد أسرته الذين يحبونه ويفهمونه، بدلاً من المستشارين السياسيين المحنكين، الذين قد يلحظون مسالكه المروعة ثم يسربونها.

وسواء أكان دونالد ترامب يكابد اضطراباً عصبياً—أو اضطراب الشخصية النرجسية، أو أي علة نفسية أخرى—فإن ذلك سيبقى، بلا ريب، ضرباً من التخمين ما لم يخضع لاختبارات، وهو أمر مستبعد غاية الاستبعاد بالنظر إلى طبيعة شخصيته. بيد أن غياب هذه الاختبارات لا

يمحو المسالك الموثقة التي دأب على إظهارها لعقود خلت، وما تنطوي عليه من غوائل حين تتجسد في رئيس الولايات المتحدة.

وجرياً على مبادئ قضية (تاراسوف ضد حكام جامعة كاليفورنيا) لعام ١٩٧٦، والمعروفة بـ "مبدأ تاراسوف"، فإن من أوجب واجبات خبراء الصحة النفسية أن ينذروا مواطني الولايات المتحدة وشعوب العالم أجمع من المآلات المدمرة المحتملة لزعيم عالمي مفرط في لذة الحاضر على هذا النحو، وبيده مقاليد سلطة هائلة. وعلى وجه العموم، فقد تقاعس خبراء الصحة النفسية عن أداء واجبهم في إنذار الجمهور والمسؤولين الحكوميين، في إبانة، من غوائل الرئيس دونالد ترامب. فالمقالات والمقابلات التي رامت تحذير الجماهير قبل الانتخابات قد ذهبت أدراج الرياح، ولعل مرد ذلك جزئياً إلى أن وسائل الإعلام لم تفرد لخبراء الصحة النفسية المهمومين بالأمر التغطية اللائقة، أو لعل بعض المواطنين يبخسون الصحة النفسية قدرها وقد أسدلوا على هذه المهنة حجاباً كثيفاً من الوصم، أو لعلنا نحن خبراء الصحة النفسية لم نقف صفاً واحداً. وأياً كان السبب، فلم يفت الأوان بعد لتدارك الأمر.

حين يختل توازن المرء نفسياً، فإن كل شيء يغدو عُرضة للتداعي والانهيار إن لم يقع التغيير. وإننا لنتساءل عن مدى تغلغل آثار أفعال رئيسنا المختل في مجتمعنا على مر الأيام، وكيف ستظل تلقي بظلالها علينا أفراداً، ومجتمعات، وأمة، وكوكباً. إننا نوقن أن دونالد ترامب هو أخطر رجل في العالم، زعيم متسلط لأمة ذات بأس، بوسعه أن يأمر بإمطار أمة أخرى بالصواريخ لمجرد كربه الشخصي (أو كرب أحد أفراد أسرته) إزاء مشاهد مروعة لأناس قُضوا نحبهم بالغاز. وإننا لنرتعد فرائصنا حين نتخيل ما قد يُتخذ من أفعال في مواجهات أوسع وأشد فتكاً مع خصومه الشخصيين والسياسيين.

إننا لنشعر ببالغ الروع إزاء تحولات ترامب المباغتة والمتقلبة بمقدار مائة وثمانين درجة، وكيف أن هذه التجليات من عدم الاستقرار تنطوي على خطر داهم يندى له الجبين، إلى حد إحداث كارثة، ولا يقتصر ذلك على مواطني الولايات المتحدة فحسب. وثمة شاهدان يبعثان على بالغ القلق: (١) إغداقه الثناء مراراً وتكراراً على مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي لتعامله مع التحقيق في رسائل هيلاري كلينتون الإلكترونية، ثم، في أوائل مايو ٢٠١٧، إقالته لكومي بغتة وبصورة مهينة بسبب التحقيق عينه الذي حصد ذلك الثناء، ولكن في هذه الحالة كان السبب الحقيقي هو تحقيق كومي في صلات حملة ترامب بروسيا؛ و(٢)

تصريحه إبان الحملة بأن حلف الناتو قد عفا عليه الزمن، ثم، لاحقاً، تصريحه المباغت بأن الناتو ضروري ومقبول. وكشأن المفرطين في لذة الحاضر، فإن ترامب "يستدرج" للحرب، ولعل ذلك لأشد الدوافع أنانية: ليصرف الأنظار عن التحقيق الروسي. فإن ابتلع زعيم عالمي مختل آخر الطعم، فسيحتاج ترامب إلى حلف الناتو الذي كان "قد عفا عليه الزمن" وغدا الآن ضرورياً ليشد من أزره.

وليس لزاماً علينا كأفراد أن نقتفي أثر زعيم أمتنا في دربٍ يفضي إلى الهاوية—منزلقاً من حافة جرف إلى هوة من أخطاء الماضي. بل يسعنا أن نقف حيث نحن في هذه اللحظة من التاريخ ونولي وجوهنا شطر المستقبل، نحو غدٍ أشرق نصنعه بأيدينا. ويسعنا أن نستهل ذلك بتلمس الخير في بعضنا بعضاً والبحث عن القواسم المشتركة التي تجمعنا.

وفي خضم الهجمات الإرهابية على دور العبادة والمقابر التي أسلفنا ذكرها، انبثق من بين الرماد أمرٌ بديع: روح من الخير الغامر في الإنسانية. ففي أعقاب الهجمات، تآزر اليهود والمسلمون: أقاموا حملات لجمع التبرعات ليعين بعضهم بعضاً على الترميم وإعادة البناء؛ وتشاركوا دور عبادتهم ليتسنى لمن أُحرقت دورهم إقامة تجمعاتهم وشعائرهم؛ وبذلوا دعماً مفعماً بالمحبة لمن كابدوا الكراهية. ومن خلال معاينة أناس بسطاء

يأتون بأفعال من البطولة اليومية والتعاطف، تسنى لنا أن نشهد أبهى تجليات الإنسانية. هؤلاء نحن! هذه هي الولايات المتحدة الأمريكية!

واقتراح أخير لقادتنا الحكوميين: إن الشركات والمؤسسات تمحص موظفيها المرتقبين. وغالباً ما يشتمل هذا التمحيص على اختبارات نفسية في صورة امتحانات أو استبيانات لتعين رب العمل على اتخاذ قرارات توظيف أشد استنارة وتبيان ما إذا كان الموظف المرتقب أميناً و/أو ملائماً للشركة. وتُستخدم هذه الاختبارات لمناصب تتراوح بين بائع في متجر ومدير تنفيذي رفيع المستوى. أفلم يأن الأوان لأن يُشترط الأمر عينه للمرشحين لأهم منصب في العالم؟

النرجسية المرضية والسياسة
مزيجٌ مهلك
د. كريغ مالكين

"لقد غدا حسابي على تويتر ذا بأس شديد حتى إنني أستطيع حقاً أن أحمل أعدائي على النطق بالحق."

دونالد جيه ترامب، تغريدة من ١٧ أكتوبر ٢٠١٢

في عام اثنين وخمسين وتسعمائة وألف، كان ريتشارد نيكسون الشاب، النجم الصاعد في الحزب الجمهوري، قد اختاره أيزنهاور بعناية ليكون نائبه في الانتخابات، وبإجماع الآراء، كان اختيار الجمهوريين سديداً. وكانت قوة نيكسون العظمى تكمن في الرسالة التي دأب على قرع أسماع الناخبين بها كدقات الطبول: إن واشنطن بحاجة إلى تطهير شامل، وإلى بيت أبيض يعمره أناس صالحون ذوو أخلاق مستقيمة. فالنخب، كالإدارة السالفة في عهد هاري ترومان وخصم أيزنهاور، أدلاي ستيفنسون—وهو خطيب مفوه ومحامٍ بارع—قد أفسدوا الأمر على

الجميع بفسادهم، وشيوعيتهم، ومحاباتهم للمقربين ("الدفع لقاء اللعب"، كما بتنا نسميه).

ولقد تلقفت أمريكا هذه الرسالة حيناً من الدهر—إذ تقدم فريق أيك-نيكسون في استطلاعات الرأي تقدماً بيناً—بيد أنه، وفي اللحظة التي كان فيها هو وأيزنهاور يتأهبان لجوب البلاد طلباً للأصوات في جولاتهما الانتخابية—نيكسون في قطاره "نيكسون إكسبريس"، وأيزنهاور في قطاره "تطلع للمستقبل يا جاري"—تورط نيكسون في مأزق كاد أن يعصف بمسيرته. إذ تفجرت أنباء عن صندوق أموالٍ مشبوهة سري من أنصاره، استغله ليحيا حياة البذخ: معطف من فرو المنك لزوجته بات؛ ومآدب فاخرة له ولصحبه؛ والطامة الكبرى—محاباة خاصة لمن أمدوه بالمال.

وسرت القصة، التي أذاعها ليو كاتشر من صحيفة نيويورك بوست، مسرى النار في الهشيم، وأذكاها عنوان شديد الاستفزاز: "صندوق ائتمان سري للأثرياء يبقي نيكسون في رغد يفوق راتبه بأشواط".

وكانت صيحة الجمهور مدوية وجلية: على نيكسون أن يتنحى عن كونه نائباً لأيزنهاور. وفي عُرف كوارث أواخر المواسم الانتخابية، كانت هذه الكارثة قاصمة؛ وفي الكواليس، تهافت الفريق بأسره لإنقاذ حملة مأزومة. ولما سُدت في وجهه السبل، اتخذ نيكسون قراراً جسوراً: سيتوجه بخطابه مباشرة إلى الشعب الأمريكي، كاشفاً عن كل شاردة وواردة في حياته

المالية. ويُروى أن زوجته بات كادت تموت خجلاً من فكرة مشاطرة تاريخهما المالي مع البلاد قاطبة، بيد أن نيكسون لم يثنه ذلك عن عزمه. وفي مساء الثالث والعشرين من سبتمبر عام اثنين وخمسين وتسعمائة وألف، جلس نيكسون أمام جمهور تلفازي قوامه ستون مليوناً، وزوجته المذعورة إلى جواره، متوارية عن الشاشة في الأغلب، وأخذ يسرد حساباته واحداً تلو الآخر: ما يملكه وما يدين به، بنداً بنداً. وطمأن نيكسون مشاهديه بأن تدقيقاً مستقلاً لم يلفِ أي تجاوز، وأنه لم ينفق فلساً واحداً من المال الذي مُنح إياه لمنفعة شخصية. بيد أنه أقر بأن ثمة هبة واحدة عادت عليه بمنفعة شخصية ولم تطاوعه نفسه على ردها:

"لقد كان كلباً صغيراً من فصيلة كوكر سبانييل في صندوق... أُرسل إلينا من تكساس البعيدة. مرقطاً بالأسود والأبيض. وطفلتنا الصغيرة—تريشيا، ذات الأعوام الستة—أسمته تشيكرز. وكما تعلمون، فإن الأطفال، كشأن كل الأطفال، يحبون الكلب، وأود أن أقول هذا الآن، إنه بصرف النظر عما يقولونه في هذا الشأن، فإننا سنحتفظ به."

ولئن كان نيكسون في شك من مبلغ نجاحه، وانقسم الرأي السياسي على أسس حزبية، إلا أن الخطاب قد آتى أكله مع الشعب الأمريكي، فأحلّه منزلة في قلوب الناس وثبت أقدامه في القائمة الجمهورية. وألحق أيزنهاور

ونيكسون بخصومهما هزيمة نكراء، وتقلد الرئيس أيزنهاور منصبه كالقائد العام الرابع والثلاثين.

وفي نظر البعض، لم تكن عودة نيكسون بالأمر المستغرب. فعلى الرغم من مظهره المتواضع الكئيب، فقد جلب نيكسون إلى السياسة مزيجاً من الطموح العاتي والعزيمة التي لا تلين، وهو ما قلما عاينه الناس من قبل. ولقد توسل بهذا الدافع عينه لينجو من هزيمة تلو أخرى، بما في ذلك، لاحقاً، هزائمه أمام جون إف. كينيدي في عام ستين وتسعمائة وألف على رئاسة الولايات المتحدة، وأمام بات ديفيس، في عام اثنين وستين، على منصب حاكم كاليفورنيا. وكان يُفترض أن تكون الهزيمة الأخيرة هي إسدال الستار على مسيرته السياسية؛ ففي مؤتمره الصحفي "الأخير" الشهير، أعلن بوجوم: "تأملوا فقط ما ستفتقدونه. لن يكون لديكم نيكسون لتركلوه بعد الآن." بيد أنه إن كان يخشى الركل، فإنه قطعاً لم يُظهر ذلك. فقد لبث في السياسة، ومضى في صعوده، ليغدو في نهاية المطاف رئيساً للولايات المتحدة في عام ثمانية وستين وتسعمائة وألف.

وبدا أخيراً أن الأمور كلها تجري في صالح نيكسون، على الرغم من عنائه في التخلص من لقبه الذي لازمه منذ الخمسينيات، "ديك المخادع" (Tricky Dick). بل إنه حظي بالثناء لإعادته القوات الأمريكية من فيتنام، وفتح آفاق العلاقات الدبلوماسية مع الصين الشيوعية، وتجاذبه

أطراف الحديث مع نيل أرمسترونغ وبز ألدرين بعد أن وطئا سطح القمر. وحتى مع شبح المذابح في فيتنام الذي كان يلوح في الأفق، فقد بدا أنه حظي بفترة رئاسية أولى ناجحة إلى حد بعيد، وأبحر نحو النصر مجدداً في عام اثنين وسبعين، ليقضي فترته الثانية.

وإذا كانت فضيحة الصندوق قد باغتت نيكسون، فإن الخطر التالي قد تسلل إليه تسلل اللص في غسق الدجى. فبعد شهور من الهمهمات حول صفقات "ديك المخادع" القذرة، وجد نفسه أخيراً وجهاً لوجه أمام الفضيحة التي أطاحت به إلى غير رجعة: ووترغيت. ومع تسرب تفاصيل التنصت غير القانوني، والابتزاز، والسطو، تجلى جانب نيكسون المظلم في وضح النهار. هاهنا، كما علم الجمهور، رجلٌ أناني مرتاب، دأب على تسجيل كل محادثة في المكتب البيضاوي خلسة، ودبر اقتحام مقر اللجنة الوطنية الديمقراطية، وكان—متى ما ألم به الكرب—يذرع ممرات البيت الأبيض جيئة وذهاباً، يناجي اللوحات المعلقة. هاهنا رجلٌ كان يسب ويلعن بسلاطة لسان استيلاء اليهود على مقاليد الأمور، واستخدم شخصيات مريبة كعميل مكتب التحقيقات الفيدرالي السابق الذي استحال مرتزقاً، جي. غوردون ليدي، وأمضى شطراً كبيراً من وقته غارقاً في سكرٍ عدواني بينما كانت كمبوديا تُدك بالقنابل.

ومن العجيب أن هذا الطاغية المرتاب السليط اللسان، كان—ولم يكن—الرجل الذي ظن الناس أنهم يعرفونه: ملك العودة، الصامد في وجه الهزيمة، المتواضع عند النصر، ولكنه، في الكواليس كما يبدو، كان يقف دوماً على شفا جرف هارٍ من كارثة صنعها بيده. تلك كانت مفارقة نيكسون.

إن قصة نيكسون، على ما فيها من سحر وروع، لتفضي إلينا بالكثير عن العلاقة بين الشخصية والسياسة. وأعجب ما في أمر نيكسون هو أن شخصيته التي تبدو متناقضة، لا تبدو بالأمر النادر بين الرؤساء والساسة. أي أن نيكسون قد أظهر مزيجاً من الطموح العاتي، والسلطوية، وجنون العظمة، والعنجهية، والاستحقاق، والمراوغة، وتعظيم الذات، وهو مزيج يبدو أنه كان مألوفاً في المكتب البيضاوي على مر التاريخ. لقد كان نيكسون نرجسياً.

النرجسية: خيرها، وشرها، وقبيحها

على النقيض مما قد تكون قرأته، فإن "النرجسي" ليس تشخيصاً ولم يكن كذلك قط. و"النرجسية" ليست تشخيصاً أيضاً. بل إن النرجسية، في حقيقة الأمر، تُفهم على الوجه الأمثل بوصفها سمة تتواجد، بدرجات متفاوتة، فينا جميعاً: إنها الدافع لاستشعار التفرد، والبروز من بين السبعة مليارات نسمة على ظهر البسيطة، والشعور بالاستثناء أو الفرادة.

وبدلاً من النظر إلى النرجسية على أنها إما كل شيء أو لا شيء، تخيلها على طيف يمتد من الصفر في أدناه، دلالة على انعدام الدافع لاستشعار التفرد، إلى الاعتدال عند الدرجة الخامسة، ليبلغ ذروته عند الدرجة العاشرة في أقصى تطرفه:

إن النرجسية المعتدلة (بين ٤ و٦ تقريباً) هي الموضع الذي نحوز فيه أصح مقدار من هذه السمة. وما دون ذلك أو فوقه على المقياس ينذر بالخطوب. فلو تخيلت الشعور بالتفرد كعقار، فإن النرجسية المعتدلة ("الصحية") تمنحنا جرعة منشطة يسيرة حين نفتقر إليها، وسبيلاً للمضي قُدماً حين ينبئنا العالم، وأحياناً الحس السليم، بأن طموحنا قد يجاوز قدرتنا.

وبحسب ثلاثين عاماً من البحث، فإن السواد الأعظم من الناس السعداء الأصحاء حول العالم يستشعرون قدراً يسيراً من التفرد، حتى وإن كان ذلك في قرارة أنفسهم. فالنرجسية الصحية ليست مجرد ثقة بالنفس، أو عناية بالذات، أو تقدير للذات. بل هي صورة ذاتية إيجابية تجافي الواقع مجافاة يسيرة. تخيلها كنظارة وردية للذات—نظارة قوية بما يكفي لتلوين العالم، ولكنها ليست من العتامة بحيث تعمينا عن الواقع.

وتأتي النرجسية الصحية محملة بفيض من المنافع. فالمراهقون ذوو النرجسية المعتدلة أقل عرضة للقلق والاكتئاب، ويحظون بعلاقات أمتن بكثير من أقرانهم ذوي النرجسية المتدنية أو المفرطة. وكذلك، فإن قادة الشركات ذوي النرجسية المعتدلة يُقيمهم موظفوهم على أنهم أشد فاعلية بكثير ممن أوتوا منها حظاً يسيراً أو مفرطاً. وفي بحوث فريقنا، نلفي أن ذوي النرجسية الصحية أسعد حالاً، وأعظم تفاؤلاً، وأثبت ثقة بأنفسهم ممن يقبعون في طرفي الطيف الأدنى أو الأقصى.

وحين يجاوز المرء المتوسط في السمات النرجسية مجاوزة بينة (تخيل ما فوق الدرجة ٦ على الطيف)، فإنه يستوجب وسم "النرجسي". وثمة أنماط شتى من النرجسيين، وإن كنا أشد ألفة بالنمط المنبسط (والذي يُعرف في البحوث بالظاهر، أو الصريح، أو العظيم): وهم أفراد طموحون، منطلقون، ذوو سحر تأثير (كاريزما)، وغالباً ما تستهويهم أضواء الشهرة.

وجل الساسة، والممثلين، والمشاهير يُظهرون هذا الضرب الصاخب المتبجح من النرجسية. ويبدو أن الرؤساء أشد ميلاً لبلوغ مراتب عليا في النرجسية المنبسطة.

والحق أن عالم النفس رونالد جيه. ديلوغا، من كلية براينت، قد استعان بالمعلومات السيرية ليحسب درجة "مقياس الشخصية النرجسية" (وهو أداة لقياس النرجسية المنبسطة) لكل قائد عام، من جورج واشنطن إلى رونالد ريغان. فألفى أن الرؤساء ذوي الأنا المتضخمة كريتشارد نيكسون ورونالد ريغان قد احتلوا مراتب أعلى من القادة الأهدأ صوتاً كجيمي كارتر وجيرالد فورد، بيد أن الرؤساء قاطبة تقريباً قد أحرزوا درجات تبلغ من الارتفاع ما يسوغ عدهم "نرجسيين".

ولقد أسفرت دراسة أحدث قادتها عالمتا النفس آشلي إل. واتس وسكوت أو. ليلينفيلد من جامعة إيموري عن نتائج مقاربة، بيد أنها كشفت أيضاً عن أمر يعين على تفسير طبيعة نيكسون المزدوجة: فكلما ارتفعت درجات نرجسية الرؤساء، تعاظم احتمال تعرضهم لإجراءات العزل، "وإساءة استغلال مناصب السلطة، والتغاضي عن السلوك غير الأخلاقي في مرؤوسيهم، والسرقة، وليّ القوانين أو خرقها، والتهرب الضريبي، وخوض علاقات غرامية خارج إطار الزواج". وخلاصة القول

عند المؤلفين: إن النرجسية سيف ذو حدين، تماماً كما عاينا في حالتي نيكسون وبيل كلينتون—وكما قد نعاين في حالة دونالد ترامب.

إن ضرب النرجسية عند دونالد ترامب هو قطعاً الضرب الظاهر الصاخب، وهو يأتي محمولاً بغوائله لا محالة. فلئن كان منبسطاً غاية الانبساط—إذ كان، في نهاية المطاف، نجم برنامجه التلفازي الواقعي—إلا أنه يُظهر أيضاً أسوأ الخصال التي نعاينها في النرجسي. فهو يتبجح قائلاً: "سأكون أعظم رئيس خالق للوظائف خلقه الله". ويفاخر: "إنه يسري في دمي. أنا ذكي"، هكذا طمأن حشداً في تجمع في ساوث كارولينا. "ذكي حقاً". وهو يطلق العنان للسانه في شتم الناس، ساخراً من خِلقتهم ("روزي أودونيل خنزيرة سمينة")، ومواهبهم (ميريل ستريب "واحدة من أكثر الممثلات المبالغ في تقديرهن في هوليوود")، و—لعل ذلك لأنها كانت الأهم عنده كنجم تلفازي—نسب مشاهداتهم. فقد أشعل فتيل عداوة على تويتر مع أرنولد شوارزنيجر، متهماً إياه بقتل برنامجه الأثير، "المتدرب المشهور" (The Celebrity Apprentice).

"يا للعجب، لقد ظهرت نسب المشاهدة، وقد 'غرق' أرنولد شوارزنيجر (أو دُمر) مقارنة بآلة نسب المشاهدة، دي جيه تي (دونالد جيه ترامب).

تباً لكونه نجماً سينمائياً—وهذا كان الموسم الأول مقارنة بالموسم الرابع عشر. قارنوه الآن بموسمي الأول."

دونالد جيه ترامب، تغريدة من ٦ يناير ٢٠١٧

بيد أن أشد تجليات هوس ترامب بالأرقام روعاً قد وقع حين أوعز إلى سكرتيره الصحفي، شون سبايسر، بعقد مؤتمر صحفي، كان مداره الأساسي حول حجم الحشد في حفل تنصيبه. ولقد رمق الكثيرون ذلك واستمعوا إليه في ذهول، في حين ألح الصحفيون في السؤال: لِمَ غدا هذا الموضوع هو المحور الأساسي لأول مؤتمر صحفي للإدارة؟

إن الانشغال بالحجم لهو أمرٌ يثير الضحك لفرط ما فيه من دلالة فرويدية، ولكن هل يكفي ذلك سبباً للتشكيك في أهلية ترامب للقيادة؟ متى يستحيل سيف النرجسية ذو الحدين—سواء أكان لترامب أم لأي رئيس آخر—خطراً داهماً؟ إن الجواب عن ذلك أعقد مما يبدو، ولكنه يدور، في شطر منه، حول ما إذا كانت نرجسيتهم قد بلغت من العتو ما يجعلها تُعد علة مرضية.

وتبدأ النرجسية المرضية حين يغدو الناس مدمنين على استشعار التفرد إلى حد أنهم، كشأن أي عقار، سيأتون بأي فعل لبلوغ "نشوتهم"، بما في ذلك الكذب، والسرقة، والغش، والغدر، بل وحتى إيذاء أقرب المقربين إليهم. تخيل أن هذا يبدأ عند الدرجة ٩ على الطيف ويشتد سوءاً كلما دنونا من الدرجة ١٠. عند هذه المراتب، تكون قد ولجت تخوم اضطراب الشخصية النرجسية (NPD).

وللوقوف على وصف دقيق لاضطراب الشخصية النرجسية، راجع الطبعة الأحدث من الدليل التشخيصي والإحصائي (DSM-V)، ولكن إليك هذا البيان اليسير. إن المصابين بهذا الاضطراب تساورهم حاجة عاتية، في كل شأن من شؤون حياتهم، إلى أن يُعاملوا على أنهم فريدون. وفي نظرهم، ليس الآخرون سوى مرايا، لا نفع فيها إلا بقدر ما تعكسه من صورة فريدة لذواتهم التي يتوقون إلى رؤيتها توقاً يائساً. فإن اقتضى ذلك الحط من قدر الآخرين بالمقارنة—كأن يشوهوا سمعتهم في العمل—فليكن. ولما كانت الحياة في نظرهم حلبة صراع لا تنقضي، فهم غالباً ما يكونون نهباً للحسد على ما يبدو أن الآخرين يحوزونه. ولن يتوانوا عن إخبارك بذلك. وفي صميم النرجسية المرضية، أو اضطراب الشخصية النرجسية، يكمن ما أسميه "ثالوث الداء":

• الاستحقاق (الادعاء): التصرف وكأن العالم والناس مدينون لهم وينبغي أن يذعنوا لمشيئتهم.

• الاستلاب (الاستغلال): اتخاذ من حولهم مطايا ليستشعروا التفرد، مهما كان الثمن الوجداني أو حتى البدني الذي يتكبده الآخرون (كتحطيم تقديرهم لذواتهم أو إرهاقهم بمشاريع عمل في هزيع الليل).

• تبلد الوجدان (انعدام التعاطف): إهمال حاجات الآخرين ومشاعرهم وتجاهلها، حتى أقرب المقربين إليهم، لأن حاجتهم الذاتية إلى استشعار التفرد هي غاية المنى.

ويرتبط الاستلاب والاستحقاق ارتباطاً وثيقاً بكل مسلك مزعج يُظهره النرجسيون المرضيون: كالعدوان متى ما تُرصد لغرورهم، والخيانة، وحب الانتقام، والحسد العاتي، والتبجح، والتشدق بأسماء المشاهير، وإنكار أي خطب أو زلل—بل وحتى التخريب في مكان العمل.

وكلما ازداد إدمان الناس على استشعار التفرد، ازدادوا خطراً. وهاهنا غالباً ما تمتزج النرجسية المرضية بالاعتلال النفسي (السيكوباتية)، وهو نمط من الأكاذيب والتلاعب لا يخالطه ندم. فقد يخوض المعتلون نفسياً علاقات غرامية، ويختلسون الأموال، ويشوهون سمعتك، ثم يلقونك بوجه طلق، دون أن يساورهم أدنى شعور بالذنب، أو الخزي، أو الحزن.

وعلى خلاف اضطراب الشخصية النرجسية، لا يُوسم الاعتلال النفسي بضعف التعاطف أو انحباسه، بل بانعدامه بالكلية (باستثناء قدرتهم على ترديد كلمات تشبه التعاطف، وهو ما يُعرف بـ "التعاطف المعرفي").
والحق أن بعض شواهد التصوير العصبي تدل على أن المعتلين نفسياً لا يكابدون الانفعالات على النحو الذي يكابده غيرهم. فمراكز الانفعال في أدمغتهم لا تومض البتة حين يقرون بأفعال مخزية، كخيانة زوج أو لكم صديق، أو حين يبصرون صوراً لأناس يتلوون من الألم أو المعاناة أو الكرب.

وحين يجتمع اضطراب الشخصية النرجسية مع الاعتلال النفسي، فإنهما يفرزان نمطاً من السلوك يُدعى "النرجسية الخبيثة". وهذا ليس تشخيصاً، بل مصطلح نحته المحلل النفسي إريك فروم وأفاض فيه خبير اضطرابات الشخصية، أوتو كيرنبيرغ، لوصف أناس يسوقهم استشعار التفرد سوقاً حثيثاً حتى إنهم، في حقيقة الأمر، يرون الآخرين بيادق في لعبة "اقتل أو تُقتل"، سواء أكان ذلك مجازاً أم حقيقة. فهتلر، الذي أزهق أرواح الملايين، وكيم جونغ أون، الذي يُشتبه في أنه أمر بقتل عمه وصهره، وفلاديمير بوتين، الذي يتندر بـ "تصفية الصحفيين"—لا ريب أنهم جميعاً يندرجون تحت فئة النرجسي الخبيث (إلى جانب حيازتهم لسمات مهلكة أخرى، كالسادية، أو الالتذاذ بإيذاء الآخرين).

والمعضلة أن ليس كل النرجسيين الخبثاء بخطرين خطراً سافراً كهتلر، أو بوتين، أو كيم جونغ أون، ولا سيما في الديمقراطيات كالولايات المتحدة، حيث لا يزال قتل من يخالفك الرأي أمراً مجرماً قانوناً—حتى وإن كتبوا مقالات لا تروق لك. وهذا يعني أننا إن رُمنا تبيان ما إذا كان رئيس نرجسي مرضياً يشكل خطراً على بلادنا أو على العالم، فلزامٌ علينا أن ننظر إلى دلائل ألطف من الميل إلى القتل. علينا أن نمحص ما إذا كانوا قادرين على الاضطلاع بمهامهم، والتي من أجلّها الحفاظ على أمن بلادنا—والعالم.

القادة المعتلون نفسياً: أفاعلون أم قاصرون؟

إن تشخيص علة نفسية—كاضطراب الشخصية النرجسية أو غيره—ليس في حد ذاته حكماً على ما إذا كان المرء قائداً كفئاً. فستيف جوبز، بإجماع الآراء، كان مصاباً باضطراب الشخصية النرجسية—إذ كان يصرخ في وجه موظفيه، ويشكك في كفاءتهم، وينعتهم بـ "الحثالة"—بيد أنه استنهض همم مهندسي آبل لابتكار أجهزة آي ماك، وآي بود، وآي فون. ولا ريب أن غير قليل من المساهمين كانوا سيعترضون على إقصاء جوبز مرة أخرى (إذ سبق أن أُقصي لسوء خلقه) من الشركة. ولعله كان مصاباً

بما يسميه خبراء الصحة النفسية اضطراب الشخصية النرجسية "العالي الأداء"—إذ كان من النرجسية بحيث يُظهر "ثالوث الداء"، ولكنه ظل قادراً على أن يكون منتجاً إنتاجاً مذهلاً، وأن يحافظ على علاقات أسرية وصداقات معقولة (إلى حد ما)، وأن يكبح جماح نوبات غضبه في الأغلب لئلا تعصف بمكان العمل عصفاً تاماً.

إن ما يعنى به خبراء الصحة النفسية في المقام الأول حين يتعلق الأمر بتقييم أخطار العلة النفسية هو "القصور الوظيفي". أي: إلى أي مدى تعوق أعراض العلة النفسية للمرء قدرته على الاحتفاظ بوظيفة، والحفاظ على علاقات ذات مغزى، و—وهو الأهم—كبح جماح مشاعره العاتية، كالغضب أو الحزن أو الخوف، لئلا يغدو خطراً على نفسه أو على غيره؟ وهذا أمر بالغ الأهمية حين يتعلق بمناصب ذات سطوة كمنصب رئيس الولايات المتحدة. فأن ينعت ستيف جوبز مديراً تنفيذياً آخر بأنه "حثالة" لهو أمر أهون بكثير من أن يصف زعيم العالم الحر ديكتاتوراً متقلب المزاج بأنه "غبي جداً".

وبعبارة أخرى، في معرض التصدي لمسألة ما إذا كانت نرجسية القائد خطرة أم لا، لا يكفي أن نقول إنه معتل نفسياً؛ فلقد أعنتُ على مر السنين عملاء كُثراً يكابدون عللاً ذهانية نشطة، وهم يحظون بعلاقات محبة رائعة ويحتفظون بوظائف مستقرة، حتى وهم يتوجسون خيفة، على سبيل

المثال، من أجهزة زُرعت في أسنانهم. إن مساواة العلة النفسية بالقصور ليس إلا وصماً للمعتلين نفسياً.

وحين يتعلق الأمر بمسألة ما إذا كان المعتل نفسياً قادراً على أداء وظائفه، فإن الخطر هو مناط الحكم—سواء على نفسه أم على غيره. وهاهنا يمكن للنرجسية المرضية والسياسة أن تستحيلا مزيجاً ساماً، بل ومهلكاً. فحين يكون السلام في الداخل والخارج على المحك—وليس مجرد مشاعر زملاء العمل، أو الأصدقاء، أو الشركاء—فإن النرجسية المرضية إن تُركت بغير كابح قد تفضي إلى الحرب العالمية الثالثة.

والخطر الأعظم، كما عاينا مع نيكسون، هو أن النرجسيين المرضيين قد ينفصمون عن الواقع بسبل خفية تغدو بالغة الخطر بمرور الأيام. فحين يعجزون عن التخلي عن حاجتهم إلى الإعجاب أو التقدير، يُضطرون إلى ليّ الواقع أو اختلاقه ليظلوا في منزلة التفرد رغم كل ما يشي بخلاف ذلك. وفي حقيقة الأمر، يغدون ذهانيين على نحو خطر. بيد أن ذلك لا يكون جلياً دوماً إلا بعد فوات الأوان.

وكشأن النرجسية وجل السمات أو الحالات، يقع الذهان على طيف. ففي أدناه، يغدو الناس "مختلي التفكير"، أي يتوسلون بمنطق معوج، وينكرون الحقائق المخجلة، ويُظهرون حكماً بالغ السوء. وفي أعلاه، قد يكابدون

هلاوس سمعية وبصرية وضلالات ارتيابية (بارانويا). وكلما تهدد مقامهم الفريد، لوى المصابون باضطراب الشخصية النرجسية عنق الحقيقة لتلائم روايتهم عن أنفسهم. فإن أنبأهم الواقع بأنهم ليسوا فريدين، بل معيبون، وهشون، و—وهو الأدهى—عاديون، فإنهم ببساطة يتجاهلون الواقع أو يشوهونه.

فهل أفضى تدهور نيكسون الذهاني، على سبيل المثال، إلى مزيد من المذابح في فيتنام؟ يزعم أحد كتاب سيرته أنه قصف البلاد، مرة واحدة على الأقل، ليبهر صحبه، وأن هنري كيسنجر، وزير الخارجية، كان يكبح جماح أهوج قرارات نيكسون، حريصاً على أن يمر أي تصعيد للصراع عبر لجنة من الخبراء العسكريين.

وهل أذكى نيكسون نار الاضطرابات الداخلية بأكثر مما كانت ستشهده الولايات المتحدة لولاه؟ لا ريب أن شعاره "الصحافة هي العدو"، والذي ترجع جذوره إلى حنقه على فضيحة صندوق الأموال المشبوهة، قد ألب الإدارة على الشعب. وما أيسر أن تتفشى عدوى جنون الارتياب حين يكابدها رئيس الولايات المتحدة؛ فالجميع يشرع في الالتفات وراءه توجساً من الخطر حين يعلن زعيم العالم الحر أنه يحيط بنا من كل جانب. ولقد عصفت الاضطرابات، والغضب، وانعدام الثقة بحقبة السبعينيات. فهل نحن نعيش تلك الحقبة كَرَّةً أخرى؟

وهل اتخذ نيكسون قرارات دولة وهو غارق في سكره، ليغرق آلام اضطهاده، سواء أكان متوهماً أم حقيقياً؟ بالنظر إلى التقارير المتواترة عن مبلغ معاقرته للخمر، يعسر علينا أن نتخيل أنه لم يفعل. ويورد كتاب سيرته المتعددون تهافت حاشيته لاحتواء أفعاله المتهورة، بما في ذلك عمليات التدقيق الضريبي، ضد المدرجين في "قائمة أعدائه" المتضخمة.

وهل استلهم نيكسون النصح يوماً من اللوحات التي كان يناجيها؟ وهل عمل بنصحها؟

إن هذه كلها لتمثل قصوراً وظيفياً خطراً في القائد. إنها المعادل في السياسة الخارجية والداخلية للوثوب من مبنى شاهق، توهماً بالقدرة على الطيران. وهي جميعاً شطر من الدوامة الذهانية التي تعصف بالنرجسيين المرضيين حين يجابهون الحقيقة المرة بأنهم ليسوا بالفرادة التي يخالونها.

الدوامة الذهانية

إن رُمنا الحفاظ على أمن بلادنا والعالم، فلزامٌ علينا أن نظل يقظين إزاء نذر الدوامة الذهانية في القادة النرجسيين المرضيين:

تفاقم جنون الارتياب (الزُّوَار)

تفاقم جنون الارتياب: يمقت النرجسيون المرضيون الإقرار بالهشاشة—كالشعور بالخوف، أو زعزعة الثقة، أو الشك في أنفسهم—لأنهم لا يثقون في أن الناس سيشدون من أزرهم حين يلم بهم الكرب، وهي معضلة تُعرف في البحوث بـ "التعلق غير الآمن". بل إنهم لا يطيقون حتى أن يعلم الناس بكربهم (إلا إن كان مرده الشعور بالتعرض للهجوم). لذا، فهم يشطرون العالم إلى أخيار وأشرار، وأصدقاء وأعداء، في قوالب بيضاء وسوداء مبسطة، ومزية ذلك أنه إن راموا استشعار الأمن مجدداً، وإن راموا الاطمئنان إلى مقامهم الفريد، فما عليهم إلا أن يفروا من أعدائهم (أو يبيدوهم) ويدنوا من أصدقائهم.

وبعبارة أخرى، فإن النرجسيين المرضيين في دوامتهم الذهانية يُسقطون، متوهمين أن الخطر الذي يستشعرونه في دخائل نفوسهم (كالقلق، والهلع، والارتباك، والشكوك) إنما يأتيهم من الخارج، ليتسنى لهم الفرار منه أو

تدميره. وللأسف، ولما كان مبعث الخطر باطنياً (زعازعهم النفسية)، فإنهم يُضطرون إلى تصعيد هجماتهم على أعدائهم ليستشعروا الأمن.

تخيل هذا على صعيد عالمي، حيث الأعداء هم الشيوعيون، أو المسلمون، أو المهاجرون، أو أي صنف كان. لقد كان نيكسون أشد حبوراً بالتذمر من التهديدات الشيوعية من إقراره بأخطائه وتقويمها. فكم مرة أفضى ذلك إلى مزيد من العنف في فيتنام؟ وهل يمكن لهذا "الانشطار"، كما يُسمى، أن يفضي إلى عنف لا طائل منه كَرَّةً أخرى؟

اختلال الحُكم

كلما ازداد النرجسيون المرضيون اختلالاً في التفكير، غشيت أبصارهم غشاوة. ومرد ذلك إلى أنك إن رمقت العالم لا كما هو، بل كما تبتغيه أو تفتقر إليه ليحفظ لك يقينك بأنك فريد، فقدت الصلة بالمعلومات الجوهرية، والحقائق الدامغة، والوقائع القاسية. وعلى الصعيد العالمي، يعني هذا، كما عاينا مع نيكسون، أنه إن كان في ذلك إشباع لغرورك، فصعّد من العمل العسكري. ولا غرو أن هشاشة العالم أو التقديرات المتأنية لأخطار الهجوم العسكري لا وزن لها عند هذه المرحلة؛

فاستعراض القوة والفوقية يبعث على السكينة حين يستشعر النرجسيون المرضيون أنهم يتداعون من الداخل.

وقد يعسر اللحاق بركب الفوضى الناجمة عن ذلك (والتي لا طائل منها في نهاية المطاف)، كما عاينا مع حاشية نيكسون وهم يلهثون وراء مكالماته السكرى وهذيانه الفج عن اليهود الذين يكيدون له. وفي زلة حكم موازية مروعة، يُروى أن ترامب تبجح أمام السفير الروسي بروعة تقديراته الاستخباراتية، مبوحاً بأسرار أفضت بها إسرائيل (بغير إذن منها).

الرعونة في اتخاذ القرار

إن هذه العلامة من علامات الدوامة الذهانية لتبعث على بالغ القلق. فاختلال الحكم يفضي بطبيعة الحال إلى ردود أفعال انفعالية وخطط طائشة. فإن كان جل ما يعنى به القائد النرجسي المرضي هو أي فعل يحفظ له مقامه الفريد (في مخيلته على الأقل)، فإن الواقع، والظروف، والحقائق تفقد قيمتها. مما يعني أن ما يتفوه به القائد من يوم إلى يوم، بل من ساعة إلى ساعة، قد يتقلب بحسب ما يروق له، لا بحسب ما فيه خير البلاد.

فما إن أذاع حاشيته والمعينون من قبله أن ترامب قد أقال مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي، الذي كان يحقق في صلات حملته وإدارته بروسيا، بدعوى عدم الكفاءة وبناءً على توصية نائب المدعي العام، رود روزنشتاين، حتى سارع الرئيس بصفاقة إلى مناقضة هذا البيان.

"لقد كنت قد عقدت العزم سلفاً على إقالته"، هكذا أعلن ترامب بزهو، وكأن جل ما يعنيه هو إثبات قدرته على اتخاذ قراراته بنفسه، لا الحفاظ على مظهر الحياد، على أقل تقدير، أو الفصل بين السلطات. ومضى ترامب لينعت كومي بأنه "مجنون، ومخبول" وقال إن إقالته قد خففت "الضغط" الناجم عن التحقيق الروسي.

وسواء أكان هذا دليلاً على اختلال التفكير أم لا، فإنه، في أدنى تقدير، ينم عن افتقار مذهل إلى غريزة البقاء. لقد تجاهل ترامب تماماً أن نيكسون، هو الآخر، قد أقال من كانوا يحققون معه—وكانت العاقبة مهلكة.

التلاعب بالعقول (التشكيك في المدارك)

غالباً ما يركن المصابون باضطراب الشخصية النرجسية إلى حيلة خبيثة تُدعى "التلاعب بالعقول" (Gaslighting)—وهو مصطلح مستقى من مسرحية عُرضت عام ١٩٣٨ عن رجل أقنع زوجته بأنها فقدت صوابها بوسائل شتى، منها خفت أضواء الغاز والزعم بأنه لم يمسسها قط. وكلما أوغل المصابون باضطراب الشخصية النرجسية في ذهانهم، اشتد عزمهم على إقناع الآخرين بأنهم هم "المجانين" الذين عُميت أبصارهم عن رؤية الواقع على حقيقته. فالتلاعب بالعقول يبعث الطمأنينة في نفوس النرجسيين المرضيين بأن قبضتهم على الواقع لا تزال محكمة، إذ لا يطيقون الإقرار بأن صوابهم آخذ في التداعي. ولنا أن نتساءل عما إذا كنا نعاين هذا الآن، حين يطل ترامب وأقرب مستشاريه عبر الشاشات ليزعموا أنه لم يتفوه بتصريحات طالما أعاد الصحفيون بثها—أو إن كانت تغريدة، عرضوا صورتها—ليبرهنوا على أنه قد تفوه حقاً بما تفوه به.

وفي الآونة الأخيرة، غدت هذه الوقائع مألوفة. وبات كثيرون في الصحافة والجمهور العريض يطلقون عليها "الحقائق البديلة"، إشارة إلى "التفسير" الشائن الذي ساقته المتحدثة باسم ترامب، كيليان كونواي، لتعليل تقريع شون سبايسر للصحافة على إساءة نقل حجم حشد تنصيب ترامب: "لقد كان هذا أضخم حشد يشهد تنصيباً على الإطلاق، نقطة، سواء بالحضور

الشخصي أو حول العالم"، هكذا صرح سبايسر بنزق أمام حشد من الصحفيين المذهولين. وتبين أن هذا محض افتراء، بيد أن كونواي ذبت عن التصريح، زاعمة أن سبايسر إنما كان يقدم "حقائق بديلة".

إن أولئك الذين يعتنقون واقع ترامب، حيث وسائل الإعلام السائدة تكذب وتظل "العدو"، يعلنون عن ولائهم بقبعات حمراء خُط عليها (لنجعل أمريكا عظيمة مرة أخرى). أما أولئك الذين يصدقون ما تورده الأخبار عن ترامب، فقد ارتدوا رمز المقاومة—قبعات وردية، إشارة إلى تعليقاته الشائنة عبر الميكروفون المفتوح عن النساء، "أنا فقط أمسك بهن من...".

إن انقسام البلاد حالياً—وانقسام واقعنا المشترك معها—يبدو أمراً لا مراء فيه عند هذه اللحظة.

تفرس القادة المهلكين: كيف ننقذ العالم

في الوقت الراهن، يُترك لك الخيار لتقرر ما إذا كانت الشواهد المذكورة تدل على قصور وظيفي في ترامب أو في أي سياسي آخر. فليس هذا مما يُؤذن لخبراء الصحة النفسية في الولايات المتحدة بفعله—ليس بعد.

ومع ذلك، فإن بين ظهرانينا قوماً قد دُربوا سلفاً على تقديم تقييمات للوظائف والمخاطر بناءً على الملاحظة المحضة—كالأطباء النفسيين وعلماء النفس الجنائيين، وكذا "راسمي السمات" الذين أعدتهم وكالة الاستخبارات المركزية، ومكتب التحقيقات الفيدرالي، ووكالات إنفاذ القانون الشتى. فهم يفنون أعمارهم في تعلم التنبؤ بمسالك البشر.

وبوسعنا، إن شئنا، أن نؤلف لجنة من الخبراء المستقلين سياسياً داخل الحكومة لتقديم هذه التقييمات. وهذا يقتضي تعليق "قاعدة غولدواتر"—أو على الأقل إيثار تقييم المخاطر (على البلاد، وعلى العالم) على قدسية الأخلاقيات الراهنة.

فإذا كان النرجسيون المرضيون، في سعيهم المحموم للَيّ عنق الواقع إشباعاً لإدمانهم، يسوقون أنفسهم إلى شفا الكارثة، فلِمَ نأذن لهم، كأمم، بأن يجروننا معهم إلى الهاوية؟

إن هذا هو السؤال الوجودي الملح الذي يجابه الديمقراطيات في أرجاء العالم اليوم.

وضعتُ كتاب "فن الصفقة" مع دونالد ترامب جذور تدميره لذاته ضاربة في ماضيه

توني شوارتز

لِمَ يسلك الرئيس ترامب هذه المسالك الخطرة التي تبدو وكأنها تدمير للذات؟

قبل ثلاثة عقود، أمضيت قرابة الحول ألازم ترامب لأضع كتابه الأول، "فن الصفقة"، وخبرته خُبراً وثيقاً. أمضيت مئات الساعات أصغي إليه، وأرمقه وهو يعمل، وأحاوره عن حياته. وفي نظري، ليس في كل ما تفوه به أو أتاه في غضون الأشهر الأربعة المنصرمة كرئيس ما يثير العجب. فالطريقة التي تصرف بها في الأسبوعين الماضيين—من إقالة مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس بي. كومي، وخذلان مساعديه وهم يرومون تسويغ قراره، وإفشاء معلومات حساسة لمسؤولين روس، والتهجم على كل ذلك عبر تويتر—هي أيضاً أمر متوقع تماماً.

منذ البدء، أدركت أن استشعار ترامب لقيمته الذاتية عُرضة للخطر أبداً. فمتى ما استشعر الغبن، جاءت ردود أفعاله انفعالية دفاعية، فينسج رواية تسوغ أفعاله، لا تعبأ بالحقائق، وتلقي باللائمة دوماً على الآخرين.

إن ترامب الذي عرفته أول مرة في عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف، قد أمضى جل حياته في حالة استماتة للبقاء. وبحسب وصفه هو، كان والده، فريد، متطلباً لا يكل، وعسير المراس، ومندفعاً. وهاكم كيف صغت ذلك في "فن الصفقة": "والدي رجل رائع، ولكنه أيضاً رجل أعمال من الطراز الأول، قوي وصلب كالجحيم". وفي نظر ترامب، فإن شقيقه الأكبر، فريد الابن، الذي أضحى مدمناً للخمر وقضى نحبه في الثانية والأربعين، قد سُحق تحت وطأة والده. أو كما لطفت العبارة في الكتاب: "كانت تقع بينهما مواجهات لا مناص منها. وفي جل الأحوال، كان فريدي هو الخاسر".

لقد صاغ والده رؤية ترامب للعالم صياغة عميقة وقائية لذاته. "لقد استهواني العمل التجاري في سن مبكرة جداً، ولم أهب والدي قط، كما كان يفعل جل الناس"، هكذا صغتها في الكتاب. "وقفت في وجهه، فأجلّ ذلك فيّ. وكانت علاقتنا أقرب إلى علاقة العمل".

ومن خلال محاوراتنا، خلصت إلى أن ترامب، بغية البقاء، استشعر لزاماً عليه أن يشن حرباً على العالم. لقد كان خياراً ثنائياً لا يقبل القسمة (معادلة صفرية) بالنسبة له: إما أن تهيمن أو تذعن. إما أن تخلق الخوف وتستغله، أو تذعن له—كما ظن أن شقيقه الأكبر قد فعل. ولقد تأصلت هذه النظرة الضيقة الدفاعية في سن مبكرة جداً، ولم تتطور قط. "حين أنظر إلى نفسي في الصف الأول الابتدائي وأنظر إلى نفسي الآن"، هكذا صرح لكاتب سيرة مؤخراً، "أجدني الشخص عينه في الأساس". لقد توقف نموه فعلياً في طفولته المبكرة.

وبدلاً من ذلك، شب ترامب وهو يقاتل من أجل حياته ولا يبقي على أحد. وفي محاورات لا تحصى، جلى لي أنه يعامل كل لقاء كأنه نزال لا بد له من الفوز فيه، لأن الخيار الآخر الوحيد في نظره هو الهزيمة، وهي تعني الفناء. ولقد كانت كثير من الصفقات في "فن الصفقة" إخفاقات ذريعة—ومنها الكازينوهات التي تملكها وإطلاق دوري لينافس دوري كرة القدم الوطني—بيد أن ترامب حملني على وصف كل منها بأنه نجاح باهر.

وبزهو بين، أوضح لي ترامب أنه كان طفلاً "حازماً، وعدوانياً" منذ نعومة أظفاره، وأنه لكم ذات مرة معلم موسيقى في عينه وكاد أن يُطرد من المدرسة الابتدائية لسوء خلقه.

وكشأن الكثير من أمور ترامب، من يدري أصدقٌ هذه القصة أم كذب؟ بيد أن الجلي أنه أمضى حياته يسعى للهيمنة على الآخرين، أياً كان ما يقتضيه ذلك وأياً كان ما يخلفه من دمار في طريقه. وفي "فن الصفقة"، يتحدث بلذة مقاتل شوارع عن التنافس في عالم العقارات في نيويورك: إنهم "من أدهى، وأصلب، وأشرس الناس في العالم. وأنا أهوى مقارعة هؤلاء، وأهوى قهرهم". ولم أستشعر من ترامب قط أي شعور بالذنب أو الندم على أي فعل أتاه، وقطعاً لم يبح بأي هواجس علانية. ففي نظره، هو يعمل في غابة تعج بالضواري التي تتربص به الدوائر أبداً، وهو يفعل ما يمليه عليه البقاء.

وكان ترامب جلياً معي بالقدر عينه في أنه لا يجل—بل ولا يدرك بالضرورة—الخصال التي تميل إلى الظهور كلما ازداد الناس طمأنينة، كالتعاطف، والسخاء، والتأمل، والقدرة على إرجاء الإشباع، أو، وقبل ذلك كله، الضمير، ذلك الحس الباطني بالصواب والخطأ. فترامب ببساطة لم يكن يتعاطى المشاعر أو الاهتمام بالآخرين. فالحياة التي عاشها كانت كلها صفقات، في كل حين. ولما لم يوسع عالمه الوجداني، أو

الفكري، أو الأخلاقي قط، فقد حفظ روايته عن ظهر قلب، وهو متشبث بها.

وشطر أصيل من تلك الرواية هو أن الحقائق هي ما يراه ترامب كذلك في أي يوم من الأيام. وحين يُجابه، فإنه يضاعف من رهانه بغريزته—حتى وإن كان ما تفوه به للتو كذباً صراحاً. ولقد عاينت ذلك مرات لا تحصى، سواء أكان الأمر تافهاً كالمبالغة في عدد طوابق برج ترامب، أم خطيراً كإخباري بأن كازينوهاته تدر أرباحاً في حين أنها كانت تشرف على الإفلاس. وعلى النحو عينه، لن يرى ترامب أي تناقض البتة في تغيير روايته عن سبب إقالته لكومي، مما يخذل تصريحات مساعديه، أو في أي كذبة أخرى يختلقها. فغايته ليست الدقة قط؛ بل الهيمنة.

إن ترامب الذي عرفته لم يكن يحمل معتقدات أيديولوجية عميقة، ولا أي شعور جياش تجاه أي شيء سوى مصلحته الذاتية الآنية. فهو يستمد إحساسه بقيمته من الفتوحات والإنجازات. "أتصدق ذلك يا توني؟" هكذا كان يقول غالباً في مستهل محاوراته معي في هزيع الليل، ليمضي في وصف مثال جديد على عبقريته. بيد أن الطمأنينة التي كان يستمدها حتى من أعظم إنجازاته كانت دوماً عابرة ولا يُركن إليها—ويبدو أن ذلك يشمل انتخابه رئيساً. فكل إدمان له نمط متوقع: يظل المدمن يلهث وراء النشوة بمضاعفة الرهان في محاولة يائسة متزايدة لاستعادة

الحالة المبتغاة. وفي ظاهر الأمر، تتاح لترامب الآن فرص لاستشعار الأهمية والإنجاز تفوق ما يتاح لأي إنسان آخر على وجه البسيطة تقريباً. بيد أن هذا كقولك إن مدمن الهيروين قد قهر مشكلته ما دام العقار مبذولاً له بلا قيد ولا انقطاع. كما أن ترامب يمتلك الآن مسرحاً أرحب وأشد علانية ليخفق فيه ويستشعر انعدام قيمته.

منذ أول مرة حاورته فيها في مكتبه ببرج ترامب في عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف، كانت الصورة التي ارتسمت في ذهني لترامب هي صورة الثقب الأسود. فكل ما يلجه يغيب سريعاً بلا أثر. ولا شيء يدوم. ومن غير المعلوم أبداً متى سيطيح شخص أو شيء بترامب من مقعده المحفوف بالمخاطر—متى سيتهدد توازنه ويستشعر دافعاً عاتياً لاستعادته. وتحت قشرة تبجحه، طالما استشعرت طفلاً صغيراً مجروحاً، بالغ الهشاشة، لا يبتغي سوى أن يُحب.

إن أشد ما يتوق إليه ترامب هو ذلك التبجيل الذي ألفاه سريع الزوال. وهذا يفسر إلى حد بعيد حاجته إلى السيطرة ولِمَ لم يطق كومي، الذي يُروى أنه أبى الإذعان لمطلب ترامب بالولاء، والذي يهدد تحقيقه المستمر في التدخل الروسي في الحملة الانتخابية العام الماضي بالإطاحة برئاسته. كما أن حاجة ترامب إلى الثناء والتملق الأعمى تعين على تفسير عدائه للديمقراطية وللصحافة الحرة—وكلتاهما تزدهر بالمعارضة العلنية.

وكما عاينا مرات لا تحصى إبان الحملة ومنذ الانتخابات، فإن ترامب قد ينكص إلى حالة الاستماتة للبقاء في طرفة عين. ولا أدل على ذلك من آلاف التغريدات التي سطرها مهاجماً من يعدهم أعداءه على امتداد العام المنصرم. وبلغة الكيمياء العصبية، حين يستشعر ترامب التهديد أو الإحباط، فإنه ينتقل إلى حالة "الكر أو الفر". فتُستثار لوزته الدماغية، وينشط محوره الوطائي-النخامي-الكظري، وتتعطل قشرته الجبهية—وهي شطر الدماغ الذي يمنحنا القدرة على العقلانية والتأمل. فهو ينفعل ولا يتأمل، وليذهب ما يعقب ذلك إلى الجحيم. وهذا ما يجعل بلوغه شفرات الإطلاق النووي أمراً بالغ الخطر والروع.

وفي غضون الأسبوع المنصرم، وفي وجه النقد من كل حدب وصوب، تضخم ارتياب ترامب تضخماً يكاد يُلمس. ولا حيلة لأي توسل من مستشاريه في كبح جماحه حين يُستثار على هذا النحو العميق. فكلما استشعر أنه تحت رحمة قوى لا يملك لها دفعاً—وهو يقيناً يستشعر ذلك الآن—ازداد حنقاً، ويأساً، ورعونة.

وحتى بعد انقضاء ثلاثين عاماً، لا أزال أذكر بوضوح ذلك الشعور المشئوم حين كان ترامب يستشيط غضباً من إهانة متوهمة. كان كل من حوله يعلم أن أسلم السبل هي النأي عنه في تلك الأوقات، أو، إن تعذر ذلك، أن تحجم عن مخالفته الرأي بأي وجه من الوجوه.

وفي مئات المكالمات الهاتفية التي أصغيت إليها بموافقته، وعشرات الاجتماعات التي حضرتها معه، لا أذكر قط أن أحداً خالفه الرأي في أي شأن. ويبدو أن مناخ الخوف والارتياب عينه قد ضرب بجذوره في بيته الأبيض.

أما آخر مرة تحدثت فيها إلى ترامب—وكانت الأولى منذ قرابة ثلاثة عقود—فكانت في الرابع عشر من يوليو عام ستة عشر وألفين، قُبيل نشر مجلة "نيويوركر" مقالاً لجين ماير عن تجربتي في وضع كتاب "فن الصفقة". وكان ترامب قاب قوسين أو أدنى من الفوز بترشيح الحزب الجمهوري للرئاسة. كنت أقود سيارتي حين رن هاتفي المحمول. كان ترامب. كان قد أنهى للتو مكالمة مع مدقق حقائق من مجلة "نيويوركر"، ولم يلطف العبارة. استهل حديثه قائلاً: "أردت فقط أن أخبرك أنني أرى أنك شديد الغدر". ثم أخذ يقرعني ويهددني لبضع دقائق. فدفعته عني، برفق ولكن بحزم. ثم، وفجأة، وبنفس البغتة التي استهل بها المكالمة، أنهاها.

قال: "أتمنى لك حياة سعيدة"، وأغلق الخط.

عوز الثقة عند ترامب هو أُسُّ البلاء

د. غايل شيهي

إن النرجسية وجنون الارتياب لخطوب، بيد أن الطامة الكبرى هي أن دونالد ترامب لا يثق بأحد. وهذا ما سيكون مهلكته—أو ربما مهلكتنا.

في عالم يدور خارجاً عن السيطرة خروجاً جذرياً، هل يسعنا أن نأتمن الرئيس ترامب على الركون إلى "غرائزه" الذائعة وهو ينفر حلفاء الولايات المتحدة ويقامر على حافة الهاوية مع أعدائنا؟ وإذ أكتب من منظور أيامه المائة الأولى، ومن حصيلة عام ونصف من الرصد للرئيس المنتخب، لا أملك إلا أن أوجس خيفة: إلى أي حد يجب أن يدنو يوم الحساب في تهم التواطؤ مع روسيا قبل أن يفتقر إلى حرب تفتعل لصرف الأنظار صرفاً تاماً؟

إن الركيزة الأساسية للنمو البشري هي تشكل القدرة على الثقة، والتي يتشربها الأطفال بين الولادة والثمانية عشر شهراً. ولقد تبجح دونالد ترامب بانعدام ثقته التام: "الناس يفرطون في الثقة. أنا رجل لا أثق بأحد" (١٩٩٠). "استأجر خيرة الناس، ولا تثق بهم" (٢٠٠٧). "العالم مكان شرس ووحشي. حتى أصدقاؤك يتربصون بك: يطمعون في وظيفتك، في مالك، في امرأتك" (٢٠٠٧).

ولقد دون كتاب سيرته أن رؤيته للعالم مشبعة باستشعار الخطر وحاجته إلى إظهار الصلابة المطلقة. وكما نعلم، فقد دربه والده ليكون "قاتلاً"، إذ هو الخيار الأوحد لتجنب أن يكون "خاسراً". ولم ينس ترامب قط الدرس الأول الذي تلقنه من والده وفي المدرسة العسكرية التي أُرسل إليها لتشتد صلابته أكثر. وبكلمات ترامب نفسه: "الإنسان أشرس الحيوانات طراً، والحياة سلسلة من المعارك تنتهي إما بالنصر أو بالهزيمة".

وفي سيرة "ليس كافياً أبداً"، يصف ترامب لمايكل دانتونيو كيف كان والده "يجره" في أحياء بروكلين العتية حين كان يجمع إيجارات الشقق التي يملكها. وكان فريد ترامب يأمر الصبي دوماً بالوقوف إلى جانب الباب. فسأل دونالد عن السبب. فأجابه والده: "لأنهم أحياناً يطلقون النار عبر الباب مباشرة".

واليوم، يحيا هذا الرجل وحيداً في الأغلب في البيت الأبيض، بلا زوجة ولا أصدقاء يبثهم ذات صدره، وهو ما لم يكن ليفعله على أية حال، لأن ذلك يقتضي الإقرار بالهشاشة.

ولقد صرح ليون بانيتا، مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأسبق ووزير الدفاع في عهد كلينتون، على قناة فوكس بيزنس في فبراير ٢٠١٧: "إن العملة الرائجة لأي رئيس هي الثقة—ثقة الشعب الأمريكي في مصداقية

ذلك الرئيس". وفي غضون قرابة العامين اللذين أطل علينا فيهما دونالد ترامب إطلالة تكاد تكون يومية، بذر بذور الشك في خصومه الجمهوريين كافة، ونفر شطراً كبيراً من الكتلة الجمهورية المحافظة التي يفتقر إليها في مجلس النواب لإنجاح تشريعاته، وتجاهل الديمقراطيين في الكونغرس، وأمطر قادة الديمقراطيين بوابل من الشتائم المقذعة، ناعتاً إياهم بالكذابين، والمهرجين، والأغبياء، والعاجزين، ووصم باراك أوباما بأنه "مريض" وهيلاري كلينتون بأنها "الشيطان". وحين يمثل الشعب الأمريكي في الخارج، فإن مسلكه العدواني وازدراءه لقادة أقرب حلفائنا يمزق أواصر المودة وعهود حفظ السلام التي شُيدت على امتداد عقود. ومع ذلك، لا يتوانى عن تهنئة المستبدين، كأردوغان تركيا، والجنرال السيسي في مصر، وأسخى من ذلك كله، بوتين روسيا.

وكرئيس، يعمد ترامب إلى تمزيق الثقة في المؤسسات التي يترأسها الآن تمزيقاً منهجياً. فبعد أن جرد مجتمع الاستخبارات بأسره، بوكالاته السبع عشرة، من المصداقية، واصفاً إياهم بأنهم يتصرفون كالنازيين، أطاح أيضاً بالسلطة القضائية بسبب الأصول الهيسبانية لأحد القضاة ومعارضة آخر لحظر السفر [الذي كان في الأصل حظراً للمسلمين]. حتى قاضيه في المحكمة العليا، نيل غورساتش، صرح بأنه من "المحبط" و"المثبط للهمم" أن يسمع ترامب يغض من قدر القضاء. ولم يكتفِ بتلطيخ سمعة

الصحافة يوماً بيوم، بل استعار عبارة توسل بها لينين وستالين ليصم الصحافة الأمريكية بأنها "عدو الشعب".

وبحسب كلماته هو، فإن ترامب يعمل على افتراض أن الجميع يتربصون به الدوائر. والتعريف غير الطبي لجنون الارتياب (البارانويا) هو الميل نحو الشك المفرط أو غير العقلاني وانعدام الثقة في الآخرين. ولرجل يجهر بانعدام ثقته في الجميع، ليس من المستغرب أن يدني ترامب إليه اثنين من أساطين منظري المؤامرة: ستيفن بانون والجنرال مايكل فلين. وحتى بعد أن أُجبر على إقالة مرشحه لكبير مستشاري الأمن القومي بعد أن كذب فلين كذباً صراحاً، استماتت البيت الأبيض في عهد ترامب في المماطلة لصد محققي الكونغرس عن وضع أيديهم على وثائق قد تثبت تواطؤ فلين المأجور مع روسيا لصالح ترامب. وكلما دنت تلك القضية من الإحالة الجنائية إلى وزارة العدل، دنت غريزة البقاء عند ترامب من دفعه نحو حرب يفتعلها لصرف الأنظار.

إن القائد الذي لا يثق بمرؤوسيه لا يمكنه أن يبعث الثقة في النفوس. ولئن تبجح ترامب بالولاء الشخصي الشرس، فإنه هو نفسه لا يفي بالولاء إلا ريثما ينقضه. ومن بين مساعديه الوجلين، يبدو أن جاريد كوشنر

وحده هو الآمن، إذ نُصب نائباً لترامب ووزيراً للخارجية بحكم الأمر الواقع. والموضع الذي يفلح فيه ترامب في بعث الثقة هو منحه مرؤوسيه رخصة الكذب. والحق أن فيروس التحلل هذا قد سرى من البيت الأبيض إلى الجمهوريين في الكونغرس، وشاهد ذلك الحيلة التي فضحت النائب ديفين نونيس وأثبتت قصوره عن قيادة تحقيق لجنة الاستخبارات بمجلس النواب في التواطؤ المحتمل لعملاء ترامب مع روسيا. ومع تصاعد حمى الفوضى في البيت الأبيض بأزمة كل يوم وصولاً إلى شهر مايو، شرع القائد العام المتواري في إرسال أوثق مستشاريه للأمن القومي للذب عنه (الجنرال جيمس "الكلب المجنون" ماتيس، والجنرال إتش. آر. ماكماستر، ووزير الخارجية الخافت الصوت، ريكس تيلرسون) ثم أطاح بهم من تحت أقدامهم بأنصاف حقائقه التي يطلقها جزافاً.

ونسمع مراراً وتكراراً أن ترامب كمدير يهوى الفوضى. سألتُ نائباً لمستشار البيت الأبيض في عهد أوباما، وهو ضابط سابق مقلد بالأوسمة في العراق ومستشار سابق للبيت الأبيض للرئيس أوباما، عن وقع هذا النمط من الإدارة على الثقة. فأجاب: "إن ترامب، صراحة أو ضمناً، يدير الموقف بحيث يستحيل على مستشاريه أن يعرفوا موطئ أقدامهم. إنه نقيض ما تبتغيه في مؤسسة عالية الأداء". ولا ريب أن مساعدي ترامب الوجلين يعلمون علم اليقين ما أيسر أن يخفقوا في اختبار ولائه، أو أن يكونوا

كبش الفداء إن دعت الحاجة إلى ذلك. ولئن ذبوا عنه علانية، فإن الجلي للصحفيين أن موظفي البيت الأبيض يسربون المعلومات بلا انقطاع. ولا تزيد هذه التسريبات ارتياب ترامب إلا تفاقماً، لتدور رحى حلقة مفرغة.

وإن قصوره عن الثقة أو بعثها لأشد خطراً على الصعيد العالمي. فهو يرى التحالفات كالناتو موضع ريبة (حتى يغير رأيه)؛ ويرى الاتفاقيات التجارية كنافتا سلباً لأمريكا (حتى يغير رأيه ثلاث أو أربع مرات في الأسبوع عينه). "ومرد ذلك إلى أن رؤية ترامب للعالم هي أننا نعيش في بُحر أفاعٍ حيث كل امرئ يسعى لمصلحته"، هكذا يلاحظ مستشار البيت الأبيض السابق. وهو ومستشاره منظر المؤامرة بانون يأخذان كل ما تمقته الطبقة العاملة البيضاء المهمشة من العولمة ويحيلانه إلى أعداء مشخصين: المسلمون، والمكسيكيون، واللاجئون الذين يوقنون أنهم يسلبونهم وظائفهم. "أولئك القوم ليسوا منا"، هذه هي رسالة اليمين البديل؛ "إنهم يلوثون ثقافتنا".

وفي غضون أيامه المائة الأولى، بدا ترامب منفصماً انفصاماً متزايداً عن الواقع الذي يحيا فيه السواد الأعظم منا. وميله المرضي إلى الكذب ليس أسوأ ما في الأمر—بل تشبثه المهووس بأكاذيبه هو الطامة، كتلك الكذبة السافرة في عاصفة تغريداته في الرابع من مارس التي اتهم فيها الرئيس

أوباما بالتنصت على هاتفه. وهذا يثير تساؤلاً: هل يسبح هذا الرئيس في واقع بديل من صنعه؟

حين حضرت اللقاء المفتوح للدكتورة باندي لي في جامعة ييل لأكتب عنه لصحيفة "ذا ديلي بيست"، أوردتُ رؤى طرحها هناك اثنان من مؤلفي هذا الكتاب. فقد أفاض الدكتور روبرت جاي ليفتون، أستاذ الطب النفسي المرموق سابقاً في جامعة ييل واليوم في جامعة كولومبيا، في مقابلة لاحقة قائلاً: "إن ترامب يخلق تلاعبه المتطرف بالواقع. ويصر على أن يذب المتحدثون باسمه عن واقعه الزائف بوصفه أمراً سوياً. ثم يرتقب من سائر المجتمع أن يتقبله—رغم انعدام أي دليل". وهذا يفضي إلى ما يسميه ليفتون "السواء الخبيث"—وبعبارة أخرى، القبول التدريجي من لدن جمهور غارق في الأباطيل السامة لتلك الأباطيل حتى تمر كأنها أمر سوي.

والدكتور جيمس إف. غيليغان هو طبيب نفسي ومؤلف دأب على دراسة الدوافع الكامنة وراء السلوك العنيف على امتداد خمسة وعشرين عاماً من عمله في السجون الأمريكية. قال غيليغان: "إذا نحن الأطباء النفسيين الذين أوتينا خبرة في تقييم الخطورة، إذا منحنا رئيسنا إذناً سلبياً للمضي في ضلالاته، فإننا نتنصل من مسؤوليتنا". واليوم، وهو أستاذ سريري أول للطب النفسي في كلية الطب بجامعة نيويورك، قال غيليغان

لحضور اللقاء المفتوح للدكتورة لي: "لست أقول إن ترامب هو هتلر أو موسوليني، ولكنه ليس أسوى حالاً من هتلر".

ولسنا نفتقر إلى الأطباء النفسيين لنبصر أن هذا الرئيس لا يتسق في تفكيره ولا يرتبط بالواقع ارتباطاً يُركن إليه. فلقد أتيح لنا من التعرض لمسالك دونالد ترامب الظاهرة، وكتاباته وخطاباته، ما يفوق بكثير ما قد يتاح لأي طبيب نفسي بعد الإصغاء إليه لسنين. وعليه، فإن العبء يقع علينا نحن، الشعب الأمريكي، لنكشف زيفه. والحق أن بعضاً من أشد الأيادي حنكة في البيت الأبيض وما حوله يفعلون ذلك.

ويرى المؤرخ الرئاسي دوغلاس برينكلي أن دونالد ترامب يمثل ثقافة فرعية تباين أي قائد عام آخر. يقول برينكلي: "إنه يمثل قطاع البناء في نيويورك—حيث لا تدع يمينك تعلم ما تفعله شمالك. في عالم ترامب، لا بد له من الفوز مهما كان الثمن. فالأمر لا يتعلق بالشخصية أو الخدمة العامة أو رعاية عصبة إخوتك".

والرئيس الذي يُقارن به ترامب غالباً هو ريتشارد نيكسون. فلقد قارن جون دين، مستشار البيت الأبيض الشهير الذي شهد ضد زميله الجمهوري المحافظ، ترامب بذلك الرئيس المعروف بارتيابه. "كان

لنيكسون شخصيتان—في العلن ومع كبار مساعديه، كان موضع ثقة. ولكن في الخفاء، كان جانبه المظلم البالغ الارتياب والمحب للانتقام يبرز". وحين سُئل عن أوضح مثال على ذلك، أجاب دين بحدة: "لقد كان منعدم التعاطف تماماً!" تماماً كترامب. "لقد ترك نيكسون اثنين وعشرين ألف أمريكي إضافي يلقون حتفهم في فيتنام[بعد أن خرب محادثات السلام في باريس عام ١٩٦٨]، ناهيك عمن لا يعلم عددهم من الكمبوديين واللاوسيين والفيتناميين، كل ذلك ليضمن انتخابه". ولقد انقضت أربعون سنة قبل أن تُكشف أسوأ جرائم نيكسون: الخيانة العظمى. كان ذلك حين سُمع المرشح الرئاسي آنذاك نيكسون على شريط تسجيل (من تسجيلات أمر بها الرئيس جونسون) وهو يجهض محادثات السلام الفيتنامية ليعرقل حملة إعادة انتخاب المرشح الديمقراطي. فقد بعث نيكسون برسالة إلى المفاوضين الفيتناميين الجنوبيين يحثهم فيها على الانسحاب من محادثات السلام والانتظار حتى يُنتخب، وحينئذٍ سيمنحهم صفقة أفضل بكثير.

أيبدو هذا مألوفاً؟ بعد خمسين عاماً، ألمح وسيط دونالد ترامب مع المسؤولين الروس، الجنرال فلين، لسفير بوتين بأن روسيا قد تحظى بصفقة أفضل بكثير إن هي لم ترد على عقوبات أوباما وتريثت حتى

يُنتخب ترامب. كما أن ترامب طالما غرد عن تلهفه لرفع تلك العقوبات— أي، حتى بدا أن غرامياته الخيالية مع بوتين قد تثير تحقيقاً فيدرالياً.

كما أن نهم ترامب للانتقام يضاهي نهم نيكسون بـ "قائمة أعدائه" الطويلة. فليس ثمة رئيسان في العصر الحديث كابدا حالة أشد خطورة من "الناعور السياسي" (الهيموفيليا السياسية)، على حد تعبير أحدث كتاب سيرة نيكسون، جون فاريل، والذي يعني به: "بمجرد أن يُجرح هؤلاء الرجال، فإنهم لا يكفون عن النزف أبداً".

ومما يثير فزع حتى المراقبين المحافظين، أن ترامب يبدو غير مكترث بالحق البتة. فقد أتاحت مجلة تايم لترامب فرصة لتجلية رفضه تصحيح سلسلة أكاذيبه الطويلة. بيد أن ما أسفرت عنه مقابلة الثالث والعشرين من مارس كان كشفاً مذهلاً عن طريقة تفكيره: إنه يقرر ما يبتغي أن يكون حقاً. فإن ثبت بطلان قوله، لم يرف له جفن، وتنبأ بثقة بأن الحقائق ستلحق برأيه: "أنا شخص غريزي جداً، ولكن غريزتي يتبين أنها على حق". وحتى حين قرعه كبير المحققين في البلاد، مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي، بوصفه لفقاً للأباطيل، تجاهل ترامب التوبيخ العلني وتباهى بقدرته على إقناع الملايين بروايته الارتيابية عن أوباما بوصفه "مريضاً" ويتجسس عليه خلسة.

"إن النرجسيين أمثال ترامب يبتغون حب أنفسهم أكثر من أي شيء آخر، ولكنهم يتوقون بيأس إلى أن يحبهم الآخرون أيضاً"، هكذا كتب أستاذ ورئيس قسم علم النفس في جامعة نورث وسترن، دان بي. ماكآدامز، في مجلة ذا أتلانتيك. "إن الغاية العظمى في حياة النرجسي هي إعلاء عظمة ذاته، ليراها الجميع".

بيد أنه، ما عسى أن يفعل صاحب شخصية نرجسية متطرفة كترامب حين يخفق في نيل التمجيد؟ "لقد أظهر ترامب، من واقع كتاباته هو، حساسية مفرطة هائلة تجاه الخزي أو الإذلال"، يقول الدكتور غيليغان. ومع ذلك، كيف يتملص من الإذلال حين يُفضح بأنه يضحي بأمن الأمة على مذبح حاجته الطفولية لإبهار المسؤولين الروس بإفشائه معلومات استخباراتية أجنبية حساسة؟

تحت السلوك المتعظم لكل نرجسي تكمن هوة من تقدير الذات الهش. فماذا لو كان الشخص الذي يثق به ترامب أقل من غيره، في قرارة نفسه، هو نفسه؟ إن خزي افتضاح أمره على نطاق واسع كـ "خاسر"، عاجز عن تمرير الأفعال التي وعد بها إبان الحملة بقوة البطش، قد يدفعه إلى البرهان على أنه، في نهاية المطاف، "قاتل". ففي غضون الأشهر الأربعة الأولى فحسب من رئاسته، تأهب لإشعال حرب في ثلاثة مواضع:

سوريا، وأفغانستان، وكوريا الشمالية. وإن العبء ليقع على كاهل الكونغرس، مسنوداً بالشعب، لكبح جماحه.

الدكتورة غايل شيهي، بما أوتيت من باع في التأليف والصحافة والمحاضرات الذائعة، قد بدلت نظرة الملايين من الرجال والنساء في أرجاء المعمورة إلى أطوار أعمارهم. وفي مسيرتها التي امتدت خمسين حولاً، وضعت سبعة عشر سفراً، من بينها كتابها الرائد "معابر" (Passages)، الذي عُد من بين أسفار عصرنا العشرة الأشد أثراً. وبوصفها صحفية أدبية، كانت من الرعيل الأول الذي أرفد مجلة "نيويورك" بمقالاته، وما انفكت منذ عام أربعة وثمانين وتسعمائة وألف تسطر بقلمها لمجلة "فانيتي فير". ولما كانت قد حازت من الجوائز حظاً وافراً، ونالت ثلاث شهادات دكتوراه فخرية، وتوجت بجائزة "إنجاز العمر" في عام اثني عشر وألفين من لدن مؤسسة "كتب لحياة أفضل"، فقد دأبت على إبداء الرأي في رجالات السياسة، ومن ذلك ما سطرته في سيرتها الذائعة الصيت لهيلاري كلينتون، والموسومة بـ "خيار هيلاري".

الاعتلال الاجتماعي (السيكوباتية)

د. لانس دودس

"أمجنونٌ دهاءً أم مجنونٌ خَبَلاً؟" طالما حام هذا التساؤل حول دونالد ترامب منذ حملته الرئاسية. ومدار المسألة: هل المرء الذي دأب على التجرد من الأخلاق—الذي يختل الناس، ويكذب، ويغش، ويراوغ لبلوغ مآربه، ولا يعبأ بمن يلحق بهم الأذى ما دام يشبع رغباته—هل تبلد وجدانه إزاء مشاعر الآخرين طمعاً في منفعة ذاتية ليس إلا ضرباً من الدهاء: مجنون دهاءً؟ أم أن هذه الأفعال نُذُرٌ لخطب أدهى وأمر؟ وهل تراها تجلياتٍ لخلل عقلي عظيم؟

والجواب عن هذا التساؤل هو "نعم" قاطعة. ولفقه علة ذلك، لزم الوقوف على الحالة النفسية الموسومة بـ "الاعتلال الاجتماعي" (السيكوباتية)، وإدراك العلة في كون هذا الاعتلال اضطراباً شديد الوطأة.

إن الرأفة بالآخرين وتجنب إلحاق الأذى بهم ليست خصلة أصيلة في بني البشر فحسب، بل في كثير من الثدييات. فالأسوياء من الناس، وكذا الأسوياء من الذئاب والدلافين والفيلة، يدركون متى ألمّ بقرين من بني جنسهم ألم أو أحدق به خطر، فيهبون للذب عن بعضهم بعضاً، ما لم يكن

بينهم نزاع على حمى أو تزاوج. ولطالما كان لهذه الرأفة وهذا التآزر قيمة عظمى في بقاء أي نوع، وما انطوت عليه من منافع تطورية جلية قد جعلت من هذه الخصال ركيزة أساسية في شطر عظيم من المملكة الحيوانية. أما في بني البشر، فإن القدرة على استشعار خلجات الآخرين، والرأفة بهم، وتجنب إيذائهم حتى وإن أفضى ذلك إلى الإضرار بأنفسنا (تأمل الحيوانات التي تقف صفاً واحداً لدرء الخطر) تُدعى "التعاطف" (أو المواجدة). وهي خصلة متأصلة في الناس قاطبة، مهما كابدوا من صراعات وخطوب وجدانية في دخائل نفوسهم. إلا أن يكونوا معتلين اجتماعياً.

وإن انعدام التعاطف السوي لهو قطب الرحى في الاعتلال الاجتماعي، الذي يُوسم بانعدام الشعور بالذنب، والتعمد في التلاعب، والسيطرة على الآخرين، بل وإلحاق الأذى السادي بهم طمعاً في سطوة شخصية أو إشباع للذات. فالقوم الذين أوتوا سمات الاعتلال الاجتماعي يعانون عواراً في صميم الفطرة البشرية. وبدلاً من أن يكونوا دهاة كالثعالب، فهم يفتقرون إلى شطر أصيل من كينونتهم الإنسانية. ولهذا كان الاعتلال الاجتماعي من أشد الاضطرابات العقلية عتواً.

بيد أننا نحيا في كنف ثقافة تُجل النجاح الظاهر المتمثل في الثروة والسلطان، غاضة الطرف عن السبل التي أفضت إليه. ومن ثم، فإن ذوي الخصال المعتلة اجتماعياً، الذين يبلغون شأواً رفيعاً وسطوة عاتية بفضل تلاعبهم ومراوغتهم، يُنظر إليهم حيناً بعد حين لا بوصفهم أصحاء نفسياً فحسب، بل بوصفهم متفوقين. وهذا مما يذكي نار الحيرة: "كيف لامرئ بلغ هذا المبلغ من النجاح أن يكون مجنوناً؟" بل لقد قيل إن السيد ترامب يستحيل أن يكابد خطوباً عقلية جسيمة لأنه ارتقى سدة الرئاسة.

والحق أن ثمة مسارين في الحياة، على وجه العموم، لمن ابتلوا باعتلال اجتماعي شديد. فأولئك الذين يفتقرون إلى الحنكة في التلاعب بالآخرين وإيذائهم، ولا يتوخون الحذر في انتقاء ضحاياهم، ويعجزون عن تصنع السحر لاختلاب ألباب الناس، غالباً ما تؤول حيواتهم إلى الإخفاق. فيُعرفون بوصفهم مجرمين، أو يخسرون قضاياهم المدنية أمام من غشوهم، أو يعجزون عن شق طريقهم بالوعيد للعودة إلى مناصب السلطة. أما أولئك الذين أوتوا براعة في التلاعب، وفي التظاهر بالسحر والرأفة، وفي مواراة سوءات أفعالهم المجردة من الأخلاق أو الخارجة عن القانون، ويستطيعون شق طريقهم بالبطش إلى القمة، فلا ينتهي بهم المطاف منبوذين أو قابعين في غياهب السجون. وثمة مصطلح يُطلق على هؤلاء:

"المعتلون اجتماعياً الناجحون". وهم أشد الناس قدرة على خداع الآخرين ليحسبوهم "مجانين دهاةً". بل إن نوبات غضبهم المعهودة قد تبدو أقرب إلى السواء. فبدلاً من إظهار نوبة غضب سافرة، قد يعمدون ببساطة إلى طرد الناس من وظائفهم، أو مقاضاتهم. وكلما تعاظمت سطوتهم، تعاظمت قدرتهم على مواراة اضطرابهم العقلي، متدثرين بجدار من الأتباع الذين يتولون عنهم قذائف الأعمال، أو بجيوش من المحامين الذين يتوعدون من يُرى في تلك اللحظة عدواً. وما ينبغي فقهه هاهنا هو أن نجاحهم إنما هو قشرة ظاهرة. فهم لا يفترقون قيد أنملة عمن هم أقل حنكة في إخفاء افتقارهم إلى التعاطف، حتى وإن استلزم أمرهم خبيراً ليتفرس فيهم. فهم لا يزالون مرضى وجدانياً مرضاً شديداً.

الأوسام التشخيصية

تارةً ما يُستخدم لفظ "الاعتلال الاجتماعي" مرادفاً لـ "الاعتلال النفسي" (السيكوباتية)، وإن كان البعض قد باين بين اللفظين مباينة يسيرة. كما أن الاعتلال الاجتماعي يمثل شطراً أصيلاً من مصطلح "النرجسية الخبيثة"، وهو يكاد يرادف المصطلح التشخيصي النفسي الرسمي (في الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية، DSM) الموسوم بـ

"اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع". وكلها تشير إلى اضطراب في التكوين الوجداني للمرء بأسره (ومن هنا جاء مصطلح اضطراب "الشخصية" في الدليل).

بيد أن الوسم لا يمكنه قط أن يحيط بكل شاردة وواردة في المرء. وهذا خليقٌ بأن يثير حيرة تشخيصية إن ارتقب العوام أن يطابق أي امرئ تصورهم للمشكلة مطابقة تامة. فالقتلة بدم بارد والحكام القساة الساديون قد يغدقون العطف على حيواناتهم الأليفة، على سبيل المثال. وتبعاً لذلك، فإن سمات الاعتلال الاجتماعي هي ما ينبغي تفرسه لتقييم أي امرئ أو تقدير أهليته لتبوء منصب ذي سطوة. وهذا، في حقيقة الأمر، هو النهج الذي يسلكه الدليل التشخيصي. فلكل وسم جملة من المسالك الظاهرة التي تحدده، وهذه المجموعات تتبدل مراراً. ونحن الآن في النسخة الخامسة من الدليل، وستتوالى نسخ أخر مع تبدل المعارف، والفهوم، بل وحتى صرعات التشخيص. أما السمات، فثابتة لا تتبدل. وعليه، ففي معرض تقييمنا لما إذا كان المرء "معتلاً اجتماعياً"، فإن ما نفتقر إلى معرفته حقاً هو ما إذا كان يحوز تلك السمات الظاهرة القاطعة التي تدل على الحالة.

وبغض الطرف عن الوسم التشخيصي الرسمي، فمن النافع أن نتدبر سمات اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع كما حددها الدليل التشخيصي الراهن:

نمط متفشٍ من الاستخفاف بحقوق الآخرين وانتهاكها، يقع منذ سن الخامسة عشرة، ويُستدل عليه بثلاث (أو أكثر) من الآتي:

الإخفاق في الامتثال للأعراف الاجتماعية فيما يخص السلوكيات المشروعة قانوناً؛

المخادعة، ويُستدل عليها بالكذب المتكرر... أو احتيال الآخرين طمعاً في منفعة شخصية أو لذة؛

الاندفاعية أو الإخفاق في التخطيط للمستقبل؛

سرعة الاستثارة والعدوانية، ويُستدل عليها بالشجار البدني أو الاعتداءات المتكررة؛

الاستخفاف المتهور بسلامة الذات أو الآخرين؛

انعدام المسؤولية المتصل، ويُستدل عليه بالإخفاق المتكرر في الحفاظ على سلوك عملي مستقر أو الوفاء بالالتزامات المالية؛

انعدام الندم، ويُستدل عليه باللامبالاة أو اختلاق المعاذير إزاء إيذاء الآخرين، أو إساءة معاملتهم، أو سرقتهم؛ وشواهد على اضطراب

المسلك[سلوك مندفع، أو عدواني، أو متبلد، أو مخادع، يتسم بالديمومة ويعسر ردعه بالوعيد أو العقاب] يبدأ قبل سن الخامسة عشرة.

وتتوسل أنساق تشخيصية أخر بألفاظ متباينة لوصف السمات الجوهرية للاعتلال الاجتماعي: سادي، منعدم التعاطف، قاسٍ، محقر للغير، متجرد من الأخلاق، بدائي، متبلد الوجدان، مفترس، باطش (متنمر)، ومسلب للإنسانية.

وإن مصطلح "بدائي" كوصف لسمات الاعتلال الاجتماعي لحقيقٌ بعناية خاصة. فالكلمة لا تُستقى من العصور التاريخية الغابرة، بل من العصور الشخصية الغابرة: سني الحياة الأولى. وهو يعين على تفسير العلة في تعدد مكامن الخلل في هؤلاء القوم.

ففي أطوار النماء الأولى، يقع كل شيء دفعة واحدة. إذ ترتقي الملكات الوجدانية الكبرى جنباً إلى جنب مع الملكات المعرفية الكبرى. ولزامٌ على الأطفال أن يبتكروا سبلاً لترويض كربهم الوجداني: كالقلق، والارتباك، والخيبة، والفقد، والخوف، كل ذلك وهم ينمون في قدرتهم على التفكير، ويميزون بين ما هو حقيقة وما هو من نسج خيالهم. وكلنا يبتكر أنساقاً لبلوغ ذلك، لنتحمل انفعالاتنا ونكبح جماحها، ونفقه من حولنا ونتعاطف معهم، ونفرق بين الواقع وبين الرغبات أو المخاوف.

بيد أن الأمر ليس كذلك عند القوم الذين يكابدون تلك الخطوب الوجدانية البدائية المبكرة التي نعاينها في الاعتلال الاجتماعي. فهم لا يطيقون الخيبات؛ بل يستشيطون غضباً ويزعمون أن الواقع المكدر ليس بحقيقة. يختلقون واقعاً بديلاً ويستميتون في الزعم بأنه الحق. وهذا هو عين تعريف "الضلالة" (الوهم). وحين يُسرد هذا على مسامع الآخرين، فهو في جوهره كذب. وكما أسلفنا، فإن المعتلين اجتماعياً الناجحين قد لا يبدون "مجانين" غاية الجنون، بيد أن هذه القدرة على الانفصام عن الواقع تتجلى حين يرزحون تحت وطأة النقد أو الخيبة. ولاحقاً، حين تخف وطأة الضغط عنهم، يسوغون فقدانهم للواقع بمعاذير واهية أو بمحض مزيد من الأكاذيب.

ويمكن تفرس الطبيعة البدائية لذوي السمات المعتلة اجتماعياً من خلال ما كشفت عنه بحوث الدماغ. ففي مقتبل العمر، ومواكبةً لارتقائه النفسي، ينمو الدماغ نماءً بدنياً. ومما يلفت النظر أن القوم الذين أوتوا سمات معتلة اجتماعياً قد وُجد أنهم يعانون شذوذاً في قشرة الفص الجبهي ومناطق اللوزة الدماغية في أدمغتهم، وهي مناطق وثيقة الصلة بالوظائف المعرفية والوجدانية الجوهرية.

الآليات النفسية في الاعتلال الاجتماعي

يتوسل ذوو السمات المعتلة اجتماعياً بآليات وجدانية شاذة بعينها. وفي طليعتها "التوحد الإسقاطي". فـ "الإسقاط" في حد ذاته يشير إلى اعتقاد المرء بأن الآخرين يضمرون مشاعر أو أفكاراً هي في حقيقة الأمر قارة في ذهن المرء الذي يمارس الإسقاط. وغالباً ما تكون هذه المشاعر عدوانية وخطرة، فيُعمد إلى ترويضها بإسقاطها على الآخرين، الذين يُنظر إليهم حينئذ بوصفهم عدوانيين وخطرين. وحين تطرد هذه العملية، تُسمى ببساطة "جنون الارتياب" (البارانويا).

أما "التوحد الإسقاطي" فهو أشد صور جنون الارتياب خطراً. فشطر "التوحد" في المصطلح يشير إلى رؤية الآخرين لا بوصفهم يحملون خصائص مهددة فحسب، بل بوصفهم أشراراً محضا—أناساً يتحتم الهجوم عليهم أو إبادتهم.

وإن هذه الآلية النفسية لتفضي إلى الانفصام عن الواقع، وتفجر نوبات الغضب، والاعتداء على الآخرين. ومتى ما اقترنت بانعدام التعاطف وما يوازيه من انعدام الشعور بالذنب إزاء إيذاء الآخرين، غدا الخطر الناجم عن هؤلاء القوم عظيماً.

وليس التوحد الإسقاطي هو الآلية النفسية المعيبة الوحيدة في المعتلين اجتماعياً. فلعجزهم عن تقييم الناس تقيياً واقعياً (أو الاكتراث بهم)، يُنظر إلى الآخرين تارة كأخيار وتارة كأشرار، بحسب الإسقاط الماثل في اللحظة. فقد يعامل المعتل اجتماعياً الناس وكأنهم أصفياء خُلّص، يغدق عليهم الثناء الساحر على روعتهم، ثم ينقلب عليهم بغتة كأعداء ألدّاء. والولاء خصلة نفيسة عند المعتلين اجتماعياً لأنه يخدم مآربهم الشخصية، بيد أنه ليس ثمة علاقة حقيقية. وإن شطر العالم إلى أخيار وأشرار على نحو متأرجح ومتقلب يُدعى "الانشطار".

ولئن كان الاعتلال الاجتماعي يعني دوماً انعدام التعاطف، إلا أن ثمة وجهاً واحداً يحوز فيه المعتلون اجتماعياً بشدة ضرباً معيناً ومروعاً من التعاطف. ألا وهو تعاطف الضواري. فالنمر الذي يتربص بفريسته لا بد أن يحوز قدرة على استشعار خوف الفريسة، أو على الأقل إدراك الدلائل اليسيرة لذلك الخوف. فالنمر "يتعاطف" مع فريسته، ولكنه لا يرحمها ولا يرأف بها. وعلى هذا النحو يكون المعتلون اجتماعياً الناجحون. فهم متناغمون تناغماً وثيقاً مع الحالة الوجدانية لضحيتهم. هل تنطلي على الضحية بضاعة المعتل اجتماعياً؟ هل يفتقر إلى طمأنة زائفة، أو إطراء على ذكائه أو مظهره، أو وعد كاذب، أو بادرة ودية ليبقى على ظنه بأن المعتل اجتماعياً رجل شريف؟ إن "التعاطف" الافتراسي للمعتل اجتماعياً

الناجح ليعكس فراسة إدراكية قاطعة، تجعل منه عبقرياً في التلاعب. وحين يفلح في ذلك، فإنه يولد ثقة كارثية فيه. ومع ذلك، فهو كالنمر، لا يعبأ بسلامة طريدته.

وإن الخطوب الوجدانية المرضية في الاعتلال الاجتماعي ليزيد بعضها بعضاً سوءاً. فالعجز عن تكوين رؤية واقعية متسقة للعالم، أو الحفاظ على علاقات وجدانية صادقة، يفضي إلى مزيد من جنون الارتياب. وضعف السيطرة على النزوات، الذي ينشأ عن ردود الفعل الغاضبة إزاء إهانات متوهمة ويفرز سلوكاً متهوراً ومدمراً، يفضي إلى حاجة أعظم لإنكار النقد بمزيد من الأكاذيب التي يلقنها المرء لنفسه وللناس أجمعين، وإلى ابتعاد متزايد عن الواقع. وكلما اشتدت حاجة المعتل اجتماعياً إلى اتخاذ الآخرين كباش فداء، اشتد مقته الحقيقي لهم، مما يزيده عدوانية وسادية. فتغدو الحياة موقوفة على تدمير لا ينقضي في خدمة سعي لا ينقضي وراء السلطة والإعجاب، لا يخفف من غلوائه تعاطف أصيل ولا شعور بالذنب.

دونالد ترامب

لما كان السيد ترامب شخصية عامة ذائعة الصيت لسنين طوال، وكان قد تيسر لنا أن نصغي إلى كثيرين ممن عرفوه حق المعرفة أمداً بعيداً، فإننا نتبوأ منزلة ممتازة تتيح لنا الوقوف على مسالكه—أقواله وأفعاله—والتي هي عين الأساس لتقييم مدى خطورته، سواء أقيمناه وفق معايير الدليل التشخيصي الرسمية لاضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، كما سيرد أدناه، أم طبقنا معارفنا عن النرجسية الخبيثة، وكلتاهما تشتملان على علامات الاعتلال الاجتماعي وأعراضه. فلنتدبر هذه الأمور تباعاً.

انعدام التعاطف مع الآخرين؛ انعدام الندم؛ الكذب والمخادعة

إن سخرية السيد ترامب من عاهة مراسل معاق، وعدم اكتراثه بسلامة المحتجين في تجمع انتخابي ("تخلصوا منهم!")، واعتداءه الجنسي على النساء، وتلويحه بإلحاق الأذى البدني بخصمه في الانتخابات (ملمحاً إلى تخلص أصحاب الأسلحة منها)، وتهجمه اللفظي المتكرر على أسرة فقدت نجلها وهو يقاتل فداءً للوطن، وتحقيره الشخصي لمن ينتقدونه (بنبزهم بألقاب مهينة، كما فعل في الانتخابات التمهيدية الجمهورية والانتخابات العامة)، وتاريخه في بخس حقوق من استأجرهم بعدم دفع ما يدين لهم

به، وتأسيسه لجامعة ترامب التي أُجبرت الآن على الحل، واستهدافه وترويعه للأقليات، كل ذلك ليقدم شواهد دامغة على سمات اعتلال اجتماعي عميقة، وهي أشد خطراً وأعظم شأناً من محاولة إطلاق أي وسم تشخيصي بعينه.

الانفصام عن الواقع

إن إصرار السيد ترامب على صدق أمور ثبت بطلانها ("الحقائق البديلة") لأمرٌ ذائع الصيت. ولقد تكرر إصراره هذا على امتداد أمد بعيد، حتى حين يكون هذا الإنكار مجافياً لمصلحته، ويكون من الأسلم له أن يقر بأنه زلّ في القول. فقد زعم كذباً أن الرئيس أوباما ليس أمريكياً وأنه تنصت على مبنى السيد ترامب، وأن خسارته في إجمالي أصوات الانتخابات العامة كان مردها إلى الأجانب غير الشرعيين، وأنه حظي بأضخم حشد تنصيب في التاريخ، وهلم جرا. ومجتمعةً، تدل هذه الأمور على انفصام متصل عن الواقع.

ردود الفعل الغاضبة والاندفاعية

لقد تواترت الأنباء في الصحافة عن نوبات غضب السيد ترامب في مناسبات شتى، مما أفضى إلى قرارات وأفعال مباغتة. فقد أقال مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي ثم توعده بعد أن سمعه يدلي بشهادة لا تروق له أمام الكونغرس، وأطلق أكثر من خمسين صاروخاً في غضون اثنتين وسبعين ساعة من رؤيته مشهداً مزعجاً في الأخبار—ناقضاً سياسته المعلنة في الشرق الأوسط، وانتهك الأعراف الدبلوماسية بتهور، مختلقاً توترات دولية (كما في التقارير عن تهديده بغزو المكسيك، وإغلاقه الخط في وجه رئيس وزراء أستراليا، واستعدائه لألمانيا، وفرنسا، واليونان، وغيرها)، وأصدر أوامر تنفيذية غير قانونية، فيما يبدو دون تمحيصها مع محامين ذوي دراية، وما إلى ذلك.

خاتمة

إن أقوال دونالد ترامب وأفعاله لتجلي حيازته لسمات اعتلال اجتماعي شديدة. ولا يمكن المبالغة في بيان خطورة هذا الأمر. فلئن كان ثمة رؤساء أمريكيون سلفوا يمكن نعتهم بالنرجسية، فما منهم من أظهر خصالاً معتلة اجتماعياً بالقدر الذي نعاينه في السيد ترامب. وبالمثل، ما منهم من كان خطره قاطعاً وسافراً على هذا النحو.

إن الديمقراطية تقتضي احترام الآراء المتباينة وحمايتها، وهي مفاهيم تتنافر مع الاعتلال الاجتماعي. فالحاجة إلى استشعار الفوقية، متى ما اقترنت بانعدام التعاطف أو الندم على إيذاء الآخرين، هي في حقيقة الأمر الخصال المميزة للطغاة، الذين ينشدون السيطرة على كل من يخالفهم وإبادتهم، كما ينشدون الولاء لأشخاصهم لا للوطن الذي يقودونه.

وإن جنون الارتياب المصاحب للاعتلال الاجتماعي الشديد ليخلق خطراً داهماً بنشوب الحرب، إذ لا محالة سيخالف قادة الأمم الأخرى الزعيم المعتل اجتماعياً أو يتحدونه، وهو بدوره سيتلقى هذا الخلاف بوصفه هجوماً شخصياً، مما يفضي إلى ردود فعل غاضبة وأفعال مندفعة لتدمير هذا "العدو". ومن الشواهد التاريخية المألوفة اختلاق القادة المعتلين اجتماعياً لحادثة دولية ليتخذوها ذريعة لاغتصاب مزيد من السلطة (كتعليق الحقوق الدستورية، وفرض الأحكام العرفية، والتمييز ضد الأقليات).

ولما كان أمثال هؤلاء القادة يكذبون على غيرهم في الحكومة وعلى مواطنيهم، فإن من يرومون كبح جماح سلطة المعتل اجتماعياً يلفون عسراً في دحض مزاعمه وأفعاله بالحقائق. كما دأب الطغاة المرتقبون على الحط من قدر الصحافة الحرة، لتقويض قدرة الصحفيين على التنوير ومقاومة الانزلاق نحو الحرب والابتعاد عن الديمقراطية.

إن خصال السيد ترامب المعتلة اجتماعياً لأمرٌ لا مراء فيه. وهي تنذر بخطر داهم يتهدد ديمقراطية أمريكا وسلامتها. وبمرور الأيام، لن تزداد هذه الخصال إلا سوءاً، إما لأن السيد ترامب سيفلح في اغتصاب مزيد من السلطة ومزيد من جنون العظمة مع انفصام أشد عن الواقع، أو لأنه سيستجلب مزيداً من النقد الذي سيفرز مزيداً من جنون الارتياب، ومزيداً من الأكاذيب، ومزيداً من الدمار المحموم.

د. لانس دودس، محلل تدريبي ومشرف متمرس في جمعية ومعهد بوسطن للتحليل النفسي، وأستاذ سريري مساعد متقاعد للطب النفسي في كلية الطب بجامعة هارفارد. وضع مقالات أكاديمية وفصول كتب جمة تبسط فهماً جديداً لطبيعة الإدمان وعلاجه، وثلاثة أسفار: "قلب الإدمان"، و"قهر الإدمان"، و"الحقيقة الرصينة". كُرم من لدن قسم الإدمان في كلية الطب بجامعة هارفارد لـ "إسهامه المتميز" في دراسة السلوك الإدماني وعلاجه، وانتُخب زميلاً متميزاً في الأكاديمية الأمريكية للطب النفسي للإدمان.

دونالد ترامب هو:

أ) شرير

ب) مجنون

ج) كل ما سبق

د. جون د. غارتنر

إن دونالد ترامب مصاب بخلل نفسي سافر حتى ليتجلى للعامي أن "ثمة خطباً ما يعتريه". ومع ذلك، فإن إطلاق اسم على هذا الاضطراب كان أمراً عسيراً لعلتين. الأولى، بسبب أمر "غولدواتر" بحظر النشر، والذي أُفيض فيه القول في القسم الثاني من هذا الكتاب، والذي ألجأ خبراء الصحة النفسية إلى فرض الرقابة على أنفسهم، مهما بلغ روعهم؛ والثانية، أن حالة ترامب معقدة حقاً. وكشأن قصة العميان والفيل، رام كتاب كثر تحليل ترامب وتشخيصه، فأصابوا أجزاء من الفيل. بيد أن ما غاب عنهم هو الفيل بأسره. فثمة خطوب جمة تعتريه—ومجتمعةً، تشكل مزيجاً مروعاً كجرعة الساحرات.

ومن أشد السجالات تواتراً، وهو لغز حقيقي: إلى أي مدى يُعد ترامب مجرد شخص شرير حقاً، وإلى أي مدى هو مجنون حقاً؟ كتب المحلل النفسي ستيفن رايزنر في مجلة سلايت: "هذا ليس جنوناً. فالاندفاعية،

والوعيد، والعدوان، والسخرية، وإنكار الواقع، وتجييش الرعاع الذي توسل به لبلوغ سدة الرئاسة، ليست أعراضاً مرضية. لقد حان الأوان لنسمي الأشياء بمسمياتها: إنه الشر". ووفقاً لهذه الرؤية، فإن دونالد ترامب "مجنون دهاءً". أي أن قناعه الشاذ إنما هو تمثيلية، وخطة شيطانية للتلاعب بأسوأ غرائز الجماهير طمعاً في اللهو، والسلطة، والمنفعة.

وحين غرد ترامب عن حجم حشد تنصيبه المتوهم وعن تنصت أوباما على هواتفه، هل كان ثمة شطر منه يوقن بهذا "الإنكار للواقع"؟ إن كان الأمر كذلك، فإن مايكل تانسي ("لِمَ يكتسي التمييز بين 'مجنون دهاءً' و'مجنون خَبَلاً' خطراً عظيماً؟")، الذي يكتب هاهنا عن إصابة ترامب بالاضطراب الضلالي، قد يكون محقاً في أن ترامب ليس مجنوناً دهاءً بل "مجنون خَبَلاً".

كان رئيسي القديم بول ماكهيو، الذي طالما ترأس قسم الطب النفسي في كلية الطب بجامعة جونز هوبكنز، دأب على القول إن "الكلب قد يحمل القراد والبراغيث معاً". وسأحاجج بأن ترامب يمكن أن يكون شريراً ومجنوناً في آن، وما لم نتبصر كيف تتضافر هاتان الخصلتان، فلن نفقه حقيقته قط. ولن ندرك مبلغ الخطر الذي يحدق بنا.

الشر: النرجسية الخبيثة

"جوهر الشر الخالص"، هكذا وصف إريك فروم (١٩٦٤) النرجسية الخبيثة، وهو مصطلح صاغه في الستينيات. وفروم، وهو لاجئ من ألمانيا النازية، قد ابتكر هذا التشخيص ليفسر حالة هتلر. ولئن كان فروم ذائع الصيت بوصفه أحد مؤسسي علم النفس الإنساني (الذي ينهض على فرضية أن فطرة الإنسان خيرة، للمفارقة)، فإن هذا الناجي من المحرقة قد تملكه هوس طيلة حياته بسيكولوجية الشر. فالنرجسية الخبيثة، في نظر فروم، كانت "أشد الأمراض عتواً. إنها جذر أشرس صور التدمير والتجرد من الإنسانية".

والشخصية المعاصرة الأشد ارتباطاً بدراسة النرجسية الخبيثة هي أستاذي السالف أوتو كيرنبيرغ (١٩٧٠)، الذي حدد المتلازمة في أربعة أركان: (١) اضطراب الشخصية النرجسية، (٢) السلوك المعادي للمجتمع، (٣) السمات الارتيابية (البارانويا)، و(٤) السادية. صرح كيرنبيرغ لصحيفة نيويورك تايمز بأن القادة ذوي النرجسية الخبيثة أمثال هتلر وستالين "قادرون على إحكام قبضتهم لأن نرجسيتهم المفرطة تتجلى في جنون العظمة، وثقة بالنفس، ويقين بأنهم يعلمون ما يفتقر إليه العالم". وفي الوقت عينه، "يعبرون عن عدوانيتهم بسلوك قاسٍ وسادي ضد أعدائهم: كل من لا يذعن لهم أو لا يحبهم". وكما كتب بولوك (١٩٧٨)، "إن

النرجسي الخبيث مصاب بجنون عظمة مرضي، يفتقر إلى الضمير وضوابط السلوك، مع تجليات مميزة من القسوة السادية المبهجة".

لقد كُتب الكثير في الصحافة عن إصابة ترامب باضطراب الشخصية النرجسية. بيد أنه، وكما أشار النقاد، فإن مجرد كون المرء نرجسياً لا يسلبه الأهلية. غير أن النرجسية السوية والنرجسية الخبيثة لا يشتركان إلا كما يشترك الورم الحميد والورم الخبيث. فالأخير أندر بكثير، وأشد مرضاً وخطراً، وغالباً ما يكون مميتاً. إنه الفرق بين الحياة والموت.

النرجسية

لقد وصف كريغ مالكين اضطراب الشخصية النرجسية في هذا الكتاب ("النرجسية المرضية والسياسة: مزيج مهلك"). فترامب يرى نفسه متفوقاً تفوقاً فريداً ("أنا وحدي القادر على إصلاح الأمر")، ويبدو موقناً بأنه يعلم أكثر من الجميع عن كل شيء، رغم افتقاره إلى الخبرة، أو الدرس، أو الفضول الفكري، أو مدى الانتباه السوي. ومنذ أن تقلد منصبه، سرى مقطع مرئي طريف في وسائل التواصل الاجتماعي يتباهى فيه ترامب، في غضون ثلاث دقائق، بأنه أعظم خبير في العالم في عشرين مضماراً متبايناً. "لا أحد يعلم عن [كذا] أكثر مني"، هكذا يردد مراراً وتكراراً.

اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع

في مقاله في هذا الكتاب، يصف لانس دودس اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، أو "الاعتلال الاجتماعي". فالمعادون للمجتمع يكذبون، ويستغلون، وينتهكون حقوق الآخرين، ولا يساورهم ندم ولا تعاطف مع من يؤذونهم. ولئن كنا لن نطلق حكماً تشخيصياً نهائياً هاهنا، فإن موقع "بوليتيفاكت" لتدقيق الحقائق قد قدر أن ٧٦ بالمائة من تصريحات ترامب كانت كاذبة أو كاذبة في مجملها، وقدرت صحيفة بوليتيكو أن ترامب يطلق كذبة كل ثلاث دقائق وخمس عشرة ثانية.

ولدينا شواهد وافية على نمط ترامب المتفشي في استغلال حقوق الآخرين وانتهاكها. فبحسب المدعي العام لولاية نيويورك إريك شنايدرمان، كانت جامعة ترامب "احتيالاً صراحاً... احتيالاً من المبتدأ إلى المنتهى". كما تشهد عشرات الدعاوى القضائية على دأب ترامب وعادته في عدم دفع أجور مقاوليه. وأخيراً، ثمة نمط ترامب في الاعتداء الجنسي المتسلسل، والذي تبجح به في تسجيل صوتي حتى قبل أن تتقدم اثنتا عشرة امرأة بشكواهن، لينعتهن بعد ذلك بالكاذبات.

إن ترامب يمقت الاعتذار ويبدو أنه لا يستشعر ندماً من أي صنف. وكأن كينونته كترامب تعفيه من قول "أنا آسف" أبداً. وحين سأله المستشار السياسي فرانك لونتز عما إذا كان قد استغفر الله يوماً، أجاب ترامب: "لست متيقناً من أنني فعلت... لا أظن ذلك". ورغم عدم توبته، فقد تبجح أيضاً بأن لديه "علاقة عظيمة مع الله".

وماذا عن التعاطف؟ حتى معلم ترامب السالف، روي كوهن سيئ السمعة، محامي رجال العصابات وجوزيف مكارثي، قال إنه حين يتعلق الأمر بمشاعره تجاه بني جنسه من البشر، فإن ترامب "يبول ماءً مثلجاً".

جنون الارتياب (البارانويا)

إن جنون الارتياب ليس تشخيصاً، بل هو سمة نعاينها في بعض الحالات. فحين طُلب من دونالد ترامب أن يوثق زعمه الباطل بأن "ألوفاً مؤلفة" من مسلمي نيوجيرسي احتفلوا علانية بهجمات الحادي عشر من سبتمبر، استشهد برابط لموقع "إنفو وورز"، وهو موقع مقدم البرامج الإذاعية أليكس جونز. وجونز، الملقب بـ "ملك المؤامرات"، يوقن بأن الحكومة الأمريكية كانت وراء هجمات سبتمبر، وأن الوكالة الفيدرالية لإدارة الطوارئ تقيم معسكرات اعتقال، وأن إطلاق النار في مدرسة

ساندي هوك كان خدعة. ومع ذلك، فبحسب ترامب، يُعد جونز من الشخصيات الإعلامية القلائل الذين يثق بهم. "سمعتك مذهلة"، هكذا قال ترامب لجونز حين حل ضيفاً على برنامجه في الثاني من ديسمبر عام ٢٠١٥. وتوعد ترامب بأنه إن انتُخب رئيساً، "فسوف تكتشفون من الذي أسقط حقاً مركز التجارة العالمي".

وفي الأسبوع عينه، نشرت كل من نيويورك تايمز وواشنطن بوست قصصاً في صدر صفحاتها الأولى عن ترامب بوصفه منظراً للمؤامرة. وقبل الانتخابات، جمع موقع "رايت وينغ ووتش" قائمة بثمانٍ وخمسين مؤامرة أعلن ترامب أو ألمح إلى صدقها. وبالطبع، طالت تلك القائمة منذئذ. وكثير منها غريب حقاً. فمثلاً، ليس أوباما مسلماً وُلد في كينيا فحسب، بل بحسب ترامب، فقد دبر مقتل موظف حكومي في هاواي ليطمس حقيقة شهادة ميلاده ("يا للعجب، مدير الصحة بالولاية الذي وثق نسخ شهادة ميلاد أوباما مات في تحطم طائرة اليوم. ونجا الآخرون جميعاً"، هكذا قال ترامب)؛ وأن أنتونين سكاليا قد قُتل ("يقولون إنهم وجدوا وسادة على وجهه، وهو مكان غير مألوف لوجود وسادة")؛ ولاحقاً، ألقت مواقع الأخبار الزائفة التي رعتها روسيا بتبعة هذا "القتل" على عاتق هيلاري؛ وأن والد تيد كروز قد أعان على اغتيال كينيدي، وهي أم

نظريات المؤامرة ("ماذا كان يفعل مع لي هارفي أوزوالد قُبيل الموت؟ قُبيل إطلاق النار؟ إنه أمر مروع").

ومع ذلك، صُعق العالم حين اتهم ترامب باراك أوباما بالتنصت غير القانوني على برج ترامب. فلِمَ العجب؟

وحين تمزج هذه المكونات الثلاثة: النرجسية، والسمات المعادية للمجتمع، وجنون الارتياب، يخرج لك قائد يستشعر أنه كلي القدرة، وكلي المعرفة، ومستحق للسلطة المطلقة؛ ويستشيط غضباً لاضطهاده من قبل أعداء متوهمين، بمن فيهم أقليات مستضعفة لا تمثل أي تهديد البتة. ومع قائد كهذا، فإن كل من ليس من شيعته أو يتقاعس عن تقبيل خاتمه هو عدو يتحتم تدميره.

السادية

ولأنه سادي، فإن النرجسي الخبيث يلتذ التذاذ الباطش باضطهاد "أعدائه" وكباش فدائه، وترويعهم، بل وإبادتهم. فحين اقتيد أحد المحتجين خارج تجمع لترامب، أطلق ترامب مقولته الشهيرة: "أود أن ألكمه في وجهه"، بنبرة تشي بأن ذلك سيبعث في نفسه سروراً حقيقياً بالغاً. وغالباً ما يؤذي النرجسيون الآخرين سعياً وراء مصالحهم الأنانية:

إن الفارق الجلي بين اضطراب الشخصية النرجسية السوي والنرجسية الخبيثة هو سمة السادية، أو الالتذاذ المجاني بآلام الآخرين. فالنرجسي سيتعمد الإضرار بالآخرين سعياً وراء رغباته الأنانية، ولكنه قد يندم وسيُظهر في بعض الأحوال ندماً على ذلك، في حين أن النرجسي الخبيث سيؤذي الآخرين ويلتذ بذلك، مبدياً نزراً يسيراً من التعاطف أو الندم على ما ألحقه من دمار.

وغالباً ما نعاين ترامب "يضرب من هم دونه"، محقراً ومذلاً لمن هم أضعف منه. والحق أن شطراً عظيماً من تغريداته الأربع والثلاثين ألفاً التي أرسلها منذ انضمامه إلى تويتر يمكن وصفها بأنها تنمر سيبراني. وأحياناً يرسل التغريدة الخبيثة عينها ست مرات عبر دورة الأخبار اليومية ليبلغ الغاية في إذلال ضحيته.

لقد عاين إريك فروم الشر عن كثب، وأعمل فيه فكره طيلة حياته، وسخر عبقريته ليختزله في جوهره النفسي. فالنرجسي الخبيث مسخ بشري. قد لا يبلغ مبلغ هتلر في السوء، ولكنه بحسب فروم، مقدود من الصخرة عينها. "ففراعنة مصر، وقياصرة الرومان، وعائلة بورجيا، وهتلر، وستالين، وتروخيو—كلهم يظهرون سمات متشابهة بعينها"، كما يكتب فروم.

فالنرجسية الخبيثة اضطراب نفسي يجعلك شريراً. وما يبعث على الروع هو أن هذا ليس أسوأ ما في الأمر.

الجنون

قُبيل انتخابات عام ستة عشر وألفين، سطرت مقالاً لصحيفة هافينغتون بوست محذراً من ترامب. وفي تلك الآونة، في يونيو، كان ثمة أمل وطيد في أن ترامب "سيستدير" ويغدو أشد التزاماً بالسمت الرئاسي—وهو أمل ينهض على فرضية أنه، وإن كان انتهازياً خبيثاً ومحتالاً، لا يزال فاعلاً عقلانياً، ومن ثم سيغير نهجه متى ما كان ذلك في صالح مصلحته الذاتية. ولقد كتبت: "إن الظن بأن ترامب سيهدأ ويتحلى بالسمت الرئاسي حين يبلغ سدة السلطة لهو محض أمانٍ واهمة. فالنجاح يذكي جسارة النرجسيين الخبثاء ليغدوا أشد جنون عظمة، وتهوراً، وعدوانية. وصدق ما توقعت، فبعد فوزه بالترشيح، لم تكن ثمة 'استدارة' نحو سلوك وأفكار أشد تعقلاً، بل النقيض تماماً. لقد غدا أشد صخباً، وشراسة، وعنصرية سافرة". وبعد أن امتطى صهوة قاعدته الغاضبة إلى البيت الأبيض، كان من أوجب مصالحه أن يبدل سلوكه إلى سمت أشد تعقلاً بعد الانتخابات. وكما عبر عن ذلك روب راينر في برنامج "ريل تايم" مع بيل مار: "الناس لا يفقهون لِمَ لا يكف ترامب ببساطة عن التصرف كمريض نفسي؟ لِمَ لا يكف ببساطة عن كونه مريضاً نفسياً؟" ولِمَ؟ لأن مرضه ليس حيلة. لا يمكن إيقافه ببساطة حين يكون ذلك ملائماً.

وبحسب فروم، فإن "النرجسية الخبيثة جنون يميل إلى الاستفحال في حياة المبتلى به". وفي كتاب "قلب الإنسان"، يحاجج فروم بأن النرجسية الخبيثة "تقع على التخوم بين العقل والجنون". ففي صور النرجسية الأقل وطأة، "يكون الارتباط بالواقع كابحاً للنرجسية وحافظاً لها ضمن حدودها"، بيد أن النرجسي الخبيث لا يقر بمثل هذه الحدود. فخياله المتعظم يطغى على الواقع.

وإن ما يميز القائد النرجسي الخبيث عن المريض الذهاني المألوف هو سطوته في قهر الآخرين وإغوائهم ليشاطروه ضلالاته المتعظمة والاضطهادية. "وهذا الجنون القيصري لم يكن ليكون سوى جنون صراح"، كما يكتب فروم، "لولا عامل واحد: أن القيصر بسطوته قد لوى عنق الواقع ليوافق خيالاته النرجسية. لقد أجبر الجميع على الإقرار بأنه إله، وأنه أقوى الرجال وأحكمهم—ومن ثم يبدو جنون عظمته شعوراً معقولاً".

ووفقاً لوصف فروم للاضطراب، فإن ترامب يحيا على تخوم الذهان. فهل يجاوز تلك التخوم يوماً؟ هل كل ذلك محض استعراض، لتأجيج قاعدته، ودرء اللائمة، وصرف الأنظار عن نقائصه، أم أن ترامب يوقن حقاً بتلك الترهات التي يتفوه بها؟ إن أخذت كلمات دونالد ترامب على ظاهرها، فلن تملك إلا أن تخلص إلى أنه ذهاني.

وتُعرّف الضلالة (الوهم) اصطلاحاً بأنها "اعتقاد باطل يقيناً، يُتشبث به بصرامة، ولا يخترقه أي من الحقائق المناقضة". أهو "مجنون دهاءً"، كما يتساءل مايكل تانسي (٢٠١٧)، أم ببساطة "مجنون خَبَلاً"؟ مع ترامب، غالباً ما يعسر حقاً الجزم بذلك، ولكن كما يجلي تانسي بوضوح مروع، فإن هذا ليس تمييزاً أكاديمياً تافهاً. بل إن مصير العالم بأسره، حرفياً، قد يكون معلقاً بهذا الجواب:

متجاوزاً دمار المناخ، والرعاية الصحية، والتعليم، والدبلوماسية، والخدمات الاجتماعية، وحرية التعبير، والحرية، والعدالة للجميع، ليس ثمة ما هو أشد استعصاءً على الفهم من الاحتمال الماثل الآن لنشوب حرب نووية شاملة... وبسبب هذا التهديد الوجودي، فإنه لمن أوجب الواجبات أن ندرك الفروق بين رئيس هو مجرد "مجنون دهاءً" (داهية، ومحسب، ولا ينطق بالحق إلا حين يوافق مآربه) وبين ما أسميته "مجنون خَبَلاً" (ضلالات عظمة وارتياب دفينة ومحكمة الإخفاء، منفصمة عن الواقع).

وتأتي البصيرة في هذا التساؤل من مصدر غير متوقع، وهو جو سكاربورو، مقدم البرنامج الذائع "مورنينغ جو" على شبكة إم إس إن بي سي. فبعد أن زعم ترامب أن باراك أوباما قد زرع أجهزة تنصت في برج

ترامب، غرد سكاربورو قائلاً: "تغريداته في نهاية هذا الأسبوع تشي بأن الرئيس ليس مجنوناً دهاءً. بل مجنون فحسب".

ويمكن النظر إلى بعض مزاعم ترامب الباطلة على أنها تمنحه ميزة استراتيجية خبيثة. فمثلاً، زعمه أن أوباما لم يولد في الولايات المتحدة قد استهوى الشطر العنصري من الناخبين الذين كانوا يميلون سلفاً إلى رؤية رئيس أسود بوصفه أجنبياً وغير شرعي. أما تصريحاته الكاذبة الأخر فتبدو أشد جنوناً وسفوراً، لكونها تحديداً لا تمنحه أي ميزة استراتيجية بينة. خذ مثلاً زعمه الباطل بأنه حظي بأضخم حشد تنصيب في التاريخ. ففي اليوم الأول من رئاسته، فقد مصداقيته أمام العالم بأسره بتلك الكذبة السافرة—وكما قال غروشو ماركس: "من ستصدق، أنا أم عينيك الكاذبتين؟"—حين لم تعد ثمة حاجة لاستنهاض قاعدته، التي كانت تحتفل سلفاً بتنصيبه في نشوة غامرة. كان يفتقر إلى توسيع قاعدته وتوطيد سلطته كرئيس، ولكنه أتى بالنقيض.

وفي برنامج "مورنينغ جو" في الثالث من أبريل، خلص جو سكاربورو ودوني دويتش، وكلاهما عرف ترامب شخصياً لأكثر من عقد من الزمان، إلى نتيجتين: الأولى، أن ترامب لا بد أن يكابد علة نفسية، لأن سلوكه منذ ارتقائه سدة الرئاسة كان تدميراً للذات تدميراً غير عقلاني؛ والثانية، أن حالة ترامب قد تدهورت تدهوراً دراماياً منذ تنصيبه.

سكاربورو: يا قوم، كفوا عن التغريد لي قائلين "كيف لم تعلموا بذلك؟". لقد عرفنا هذا الرجل لعشر، أو إحدى عشرة، أو اثنتي عشرة سنة. ساورتنا هواجس، ولكن يسعنا القول إنني ولا أنت [دوني دويتش] ظننا أن الأمر سيبلغ هذا المبلغ من السوء. كنا قلقين. قلقين حقاً، ولكننا لم نظن قط أن هذا الرجل سيكون طفلاً نزقاً إلى هذا الحد. لم نظن أنه سيستيقظ كل يوم ليضرب يده بمطرقة.

دويتش: وأظن أيضاً أن الأوان قد حان. أعلم أن مجتمع الطب النفسي لديه قاعدة غولدواتر حول عدم التشخيص من بعيد. أنا فقط أظن أنه ليس رجلاً معافى. نقطة.

سكاربورو: إبان الحملة، كان يأتي بأفعال تسيء إلينا [وتستنهض قاعدته]، ولكن هذا لا يشبه ضرب يدك بمطرقة. ما يفعله الآن ليس في صالحه. ثم تشرع في التساؤل عن مدى سلامة عقله [مشيراً إلى رأسه] حين يأتي بأفعال يعلم أي امرئ عاقل وحصيف أنها ستؤذيه سياسياً؟

ولهذه العلل عينها، يشير مايكل تانسي إلى أن ترامب قد يستوفي معايير الدليل التشخيصي الخامس للاضطراب الضلالي، والتي تقتضي شواهد على ضلالة تدوم لأكثر من شهر في غياب اضطراب ذهاني أشد خطراً

كالفصام أو الاضطراب ثنائي القطب من النوع الأول، والتي من شأنها في حد ذاتها أن تفسر وجود التفكير الضلالي.

لا يُظهر ترامب علامات الفصام، ولكن حري بنا أن نستقصي موقعه على طيف الاضطراب ثنائي القطب. فهو قطعاً يحوز المزاج الهوس-خفيف (Hypomanic) الذي كتبت عنه في كتابيَّ: "حافة الهوس الخفيف: الرابط بين (قليل من) الجنون و(كثير من) النجاح في أمريكا" (٢٠٠٥) و"البحث عن بيل كلينتون: سيرة نفسية" (٢٠٠٨). فالمزاج الهوس-خفيف ذو أساس جيني، يسري في عائلات المصابين باضطراب ثنائي القطب، ولكنه يمثل تعبيراً ألطف وأشد فاعلية للسمات عينها كالهوس. وتاريخياً، لم يحظ المزاج الهوس-خفيف إلا بنزر يسير من العناية مقارنة بالاضطراب ثنائي القطب، بيد أن مؤسسي الطب النفسي الحديث، يوجين بلولر، وإميل كريبيلن، وإرنست كريتشمر، كانوا أول من وصف هذه الشخصيات في أوائل القرن العشرين. وفي مقال في مجلة "ذا نيو ريببلك" (٢٠٠٥)، أوجزت سمات المزاج الهوس-خفيف على النحو الآتي:

إن المصابين بالهوس الخفيف زوابع من النشاط، مفعمون بالطاقة ولا يفتقرون إلا إلى نزر يسير من النوم، أقل من ست ساعات. هم قلقون، ونفاد الصبر، وسريعو السأم، يفتقرون إلى استثارة متصلة ويميلون إلى الاستئثار بأطراف الحديث. هم مدفوعون، وطموحون، وقوى طبيعية

عاتية في سعيهم لبلوغ غاياتهم. ولئن بدت هذه الغايات متعظمة في أعين الآخرين، فهم موقنون بالنجاح يقيناً مطلقاً—ولا يسع أحداً أن يثنيهم عن ذلك. قد يكونون مفعمين بالحيوية، وساحرين، وذوي بديهة حاضرة، واجتماعيين، ولكنهم أيضاً متغطرسون. هم مندفعون بسبل تنم عن سوء تقدير، يتفوهون بما يسنح في خواطرهم، ويقدمون على تنفيذ أفكارهم ورغباتهم في عجلة، غافلين في الظاهر عن العواقب المدمرة المحتملة. هم مجازفون يبدون غافلين عن مدى خطورة سلوكهم حقاً. لديهم شهوات عارمة وغالباً ما ينفلتون جنسياً. والحق أن شهواتهم كلها متأججة.

إن هذا الوصف ليطابق ترامب مطابقة مذهلة، وهو الذي يقر قائلاً: "عادة ما أنام أربع ساعات فقط في الليلة" (١٩٨٧)، وهو في حد ذاته مؤشر موثوق جداً على الهوس الخفيف. بل إنه يتباهى بذلك: "كيف لكم أن تنافسوا أمثالي إن كنت لا أنام سوى أربع ساعات؟" ويزعم أنه يعمل سبعة أيام في الأسبوع، وفي يوم عمل معتاد يمتد لثماني عشرة ساعة، يجري "أكثر من مائة مكالمة هاتفية" ويعقد "ما لا يقل عن اثني عشر اجتماعاً". كما غرد قائلاً: "بلا طاقة، أنت لا تملك شيئاً!"—ومن هنا جاءت سخريته من جيب بوش بوصفه "شخصاً خائر الطاقة"، وهي تهمة أثبتت فاعليتها البالغة. وكشأن جل المصابين بالهوس الخفيف، فإن ترامب سريع

التشتت. ويسعنا أن نضيف اضطراب نقص الانتباه إلى التشخيص الفارق لترامب، لولا أن اضطراب نقص الانتباه يكاد يكون متلازماً مع الهوس الخفيف. "جل الناجحين لديهم مدى انتباه قصير جداً. للأمر صلة وثيقة بالخيال"، هكذا كتب ترامب مع ميريديث ماكايفر في "فكر كملياردير" عام ٢٠٠٤. وهو محق. فالسرعة عينها في التفكير التي تعين على توليد الإبداع، تجعل من العسير على المرء أن يستقر على مسار خطي واحد من الأفكار دون الوثوب إلى ما يليه. وكشأن جل المصابين بالهوس الخفيف، يثق ترامب بأفكاره وحكمه فوق أفكار أي امرئ آخر والجميع، ويقتفي أثر "رؤيته، مهما ظن الآخرون أنها مجنونة أو حمقاء".

ومن مأثوراتي حين أعمل مع مرضى الهوس الخفيف أن "لا شيء يفشل كالنجاح". فإن أفلحوا في بلوغ إحدى غاياتهم البالغة الطموح، غالباً ما يطرأ تصاعد ملحوظ في هوسهم الخفيف، وأحياناً ما يعجل ذلك بنوبة هوس خفيف كاملة، والتي، على خلاف المزاج الهوس-خفيف، تُعد اضطراباً قابلاً للتشخيص. فيغدون أشد عدوانية، وسرعة استثارة، وتهوراً، واندفاعاً. والآن، وقد بدا أن جنون عظمتهم قد تأكد، يتجرعون سمومهم ويستشعرون أنهم لا يُقهرون وأشد عبقرية. فيسعون وراء غايات أشد جسارة، وخطورة، وطموحاً، دون الإصغاء إلى المعارضة، أو بذل العناية الواجبة، أو تدبر الحقائق المناقضة. فحدسهم دوماً على حق. ذات مرة،

سُئل ترامب عمن يستشيره. فأجاب بوجه لا يرف له جفن: "نفسي". فترامب هو أوثق مستشاري ترامب. وفي السياق عينه، ومع تصاعد جنون العظمة، يتصاعد جنون الارتياب إزاء الحمقى والخصوم الذين قد يسفهون رؤى المصاب بالهوس الخفيف، أو يعرقلون مسيرته، أو يدمرونه بدافع الحسد أو الجهل.

والحق أن هذا هو ديدن ترامب. ففي عام ١٩٨٨، إثر نشر كتابه الذائع "فن الصفقة"، حلقت شهرة ترامب في الآفاق. فكانت استجابته تصاعداً في هوسه الخفيف، بحسب ما كتبه مايكل كروز من بوليتيكو (٢٠١٦) في مقاله "١٩٨٨: العام الذي فقد فيه ترامب عقله":

كانت استجابته لنجوميته المتصاعدة سلسلة من المشاريع المهووسة وغير المدروسة. خان زوجته، أم أبنائه الثلاثة الأوائل. وفي التجارة، كان نهماً في الاستحواذ إلى حد التهور. اشترى وباع حزماً من أسهم شركات كان يتحدث عن الاستحواذ عليها. زركش يخته المبهرج، ذلك اليخت الذي ستصادره البنوك بعد أقل من ثلاث سنوات. استدان مئات الملايين من الدولارات ليدفع أثماناً باهظة لفندق وشركة طيران—وسيصادرها دائنوه أيضاً. وتصارع لأشهر مع قطب برامج الألعاب ميرف غريفين لامتلاك كازينوه الثالث في أتلانتيك سيتي، وهو الأغلى والأضخم على الإطلاق،

ترامب تاج محل، والذي أفضى سريعاً إلى أول إشهار إفلاس من بين أربعة إفلاسات لشركاته.

في تلك الحقبة، انخرط ترامب، صانع الصفقات الأسطوري، في نوبة شراء محمومة، وأبرم استثمارات مندفعة وغير مدروسة، غالباً ما كان يدفع فيها الثمن المطلوب دون أي تفاوض. وكما كتب كروز في مقاله في بوليتيكو:

في ذلك الربيع، اشترى فندق بلازا لأنه اشتهى علانية ذلك المعلم في مانهاتن، إلى حد أنه دفع فيه ما لم يدفعه أحد قط في فندق—٤٠٧,٥ مليون دولار—[في] فندق لم يكن يدر ربحاً يكفي لخدمة الدين الذي التزم به ترامب.

وفي الخريف، وافق على شراء خطوط إيسترن الجوية[كذا]، والتي رام تغيير اسمها إلى ترامب شاتل، بمبلغ عده المحللون بل وحتى شركاؤه مفرطاً—أكثر مما ظنت شركة الطيران نفسها أن الخط يستحقه...

"لم يكن تحليلاً مالياً مطولاً"، [قال] نوبلز[رئيس ترامب شاتل]، واصفاً إياه بأنه "حسابات على ظهر مظروف" و"سريع جداً... قال دونالد: 'أريد حقاً أن أشتريه'".

إن ترامب لخليق بأن يكون الأنموذج الحي لمقولة إنه حين يتعلق الأمر بالمصابين بالهوس الخفيف، فلا شيء يفشل كالنجاح.

ومضى كروز قائلاً:

إذا كانت حملة ترامب الراهنة هي تتويج لمسعى امتد طيلة حياته لتحويل اسمه إلى علامة تجارية، وعلامته التجارية إلى مال، وكل ذلك إلى سلطة، فإن عام ١٩٨٨ كان أول نظرة ممتدة لما يفعله الرجل، الذي يُعد المرشح الأوفر حظاً بصورة مذهلة لنيل ترشيح الحزب الجمهوري، حين يقبض عليها. لقد كان العام الذي كادت فيه شهوات ترامب التي لا تشبع وغروره الذي لا يحد—هذا العرض المبكر والمذهل للنجاح—أن تودي به.

ولنطوِ الزمان ثمانية وعشرين عاماً، إلى عام ٢٠١٦، حين بلغ ترامب مرة أخرى نجاحاً فاق أعتى خيالات أي امرئ. لقد أدمن التجمعات الانتخابية، حيث ألهب حماس الحشود بسحره الهوس-خفيف، وهم بدورهم صبوا الزيت على نار جنون عظمته الهوس-خفيف. وبلغ هذا ذروته في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري، حيث أطلق ترامب تصريحاً متعظماً يختزل الأمر برمته: "أنا وحدي القادر على إصلاح الأمر".

ولئن لم يكن ديفيد بروكس (٢٠١٦) خبيراً في الصحة النفسية، إلا أنه علق بفطنة على ما بدا له تصاعداً في هوس ترامب الخفيف:

لا يمكن كبح جماحه لأنه منفلت من عقاله نفسياً. ومع انقضاء كل أسبوع، يُظهر الأعراض الكلاسيكية للهوس متوسط الدرجة في صور أشد إزعاجاً: تضخم تقدير الذات، والأرق، والاندفاعية، والعدوانية، وقهر يدفعه لإسداء النصح في شؤون لا يفقه فيها شيئاً.

إن أنماط حديثه تبدو وكأنها مقتبسة حرفياً من كتاب في الطب النفسي. فالمصابون بالهوس يُظهرون ما يُسمى "تطاير الأفكار". وهو اضطراب صوري في التفكير تتداعى فيه الأفكار عبر سلسلة مضطربة من التداعيات. فكلمة تقدح شرارة أخرى، والأخرى تقدح غيرها، وينطلقون في سباق. وكما قال لي طبيب نفسي متمرس، قارن أنماط حديث دونالد ترامب بمونولوج لروبن ويليامز، ولكن بالشتائم بدلاً من النكات.

إن أول انهيار هوس-خفيف لترامب لم يسفر إلا عن بضعة إفلاسات، بيد أنه وهو رئيس، قد تكون العواقب على نطاق بالغ الاتساع حتى ليعسر مجرد تخيله.

ولنجمع بين هذين الشطرين المتحركين، الشر والجنون. إن ترامب رجل شرير غاية الشر، يُظهر نرجسية خبيثة. وإن هوسه الخفيف المتفاقم ليجعله أشد انعداماً للعقلانية، وجنوناً للعظمة، وارتياباً، وعدوانية، وسرعة استثارة، واندفاعاً. ترامب شرير، ومجنون، ويزداد سوءاً. إنه يجسد أشد مجموعة مدمرة وخطرة من الأعراض النفسية الممكنة في قائد. وإن أسوأ السيناريوهات المحتملة قد غدا الآن واقعنا.

غالباً ما يُطلب منا كمعالجين أن نعين مرضانا على إبصار أن ظروف حيواتهم ليست كارثية بالقدر الذي يستشعرونه. بيد أنه، وفي حالة ترامب، فإن مهمتنا هي النقيض: أن ننذر الجمهور بأن انتخاب دونالد ترامب هو حالة طوارئ حقيقية، وأن العواقب ستكون كارثية على الأرجح.

إنها كارثة كان من الممكن درؤها لو أننا في مجتمع الصحة النفسية صدعنا بالحق للجمهور، بدلاً من أن نأذن لأمر غولدواتر بأن يلجم أفواهنا. ويبدو أن "رأيت شيئاً، فلا تقل شيئاً" هو شعار الجمعية الأمريكية للطب النفسي حين يتعلق الأمر بالأمن القومي. ولن يرحم التاريخ مهنة أعانت بصمتها على صعود هتلر أمريكي.

د. جون د. غارتنر، عالم نفس سريري. درّس في قسم الطب النفسي بكلية الطب بجامعة جونز هوبكنز لثمانية وعشرين عاماً. وهو مؤلف كتابي "البحث عن بيل كلينتون: سيرة نفسية" و"حافة الهوس الخفيف: الرابط بين (قليل من) الجنون و(كثير من) النجاح في أمريكا". يمارس مهنته في بالتيمور ونيويورك.

لِمَ يكتسي التمييز بين "مجنون دهاءً" و"مجنون خَبَلاً" خطراً عظيماً؟

الاضطراب الضلالي، والإعجاب بالطغاة القساة، والشفرات النووية، وترامب

د. مايكل جيه. تانسي

منذ أن تقلد سدة الرئاسة، دأب دونالد ترامب على إطلاق تصريحات مذهلة تتزايد وتيرتها، وتدحضها أدلة دامغة لا تقبل الدحض (مقاطع مرئية، وصور، وتغريدات)، حتى لم يعد أمامنا مناص من التفكير فيما إذا كان اضطرابه النفسي أشد عتواً بكثير مما طُرح على نطاق واسع بوصفه مجرد اضطراب شخصية نرجسية، أو مجرد اضطراب شخصية معادية للمجتمع، أو مجرد كذب مرضي.

الاضطراب الضلالي (التوهمي)

أستهل ببيان لتشخيص الاضطراب الضلالي البالغ الندرة، والذي قد يعيننا على فقه العلة التي تحدو بترامب إلى إطلاق مثل هذه التصريحات التي تأخذ بالألباب. ولست أروم هاهنا التشخيص، بل تبصير العوام ليتسنى لكل امرئ أن يخلص إلى تقييمه المستنير. (فالمعايير المستقاة من

الدليل التشخيصي والإحصائي، الطبعة الخامسة، هي خصائص سلوكية يسيرة ويسهل رصدها حتى لتلميذ في الصف الخامس). ثم سأعمد إلى تمحيص الدقائق الخمس الأخيرة من خطاب متعرج ومسترسل استغرق خمس عشرة دقيقة، ألقاه ترامب أمام وكالة الاستخبارات المركزية صبيحة تنصيبه، لنرى ما إذا كان التشخيص يوفر عدسة يسعنا من خلالها فك طلاسم ثلاثة تصريحات فجة، ومنفصلة، ومذهلة، حوتها خمس دقائق فحسب.

يُرمز للاضطراب الضلالي بـ ٢٩٧,١ (F22) لغايات التغطية التأمينية للعلاج. بيد أن المصابين بهذا الاضطراب يسخرون من فكرة وجود خطب ما في المقام الأول، مما يجعل التغطية التأمينية للعلاج أمراً لا طائل منه. وهذا الاضطراب "المتخفي" بالغ الخداع، إذ قد يبدو هؤلاء الأفراد أسوياء تماماً، ومنطقيين، وعالي الأداء، بل وساحرين، ما لم تُمس ضلالتهم بسوء. ويُعرّف الاضطراب الضلالي بأنه "أحد الاضطرابات الذهانية الأقل شيوعاً، حيث يكابد المرضى ضلالات تباين الأعراض الكلاسيكية للفصام". ويُعرّف الذهان بأنه "حالة يقع فيها انفصام عميق عن الواقع الخارجي". ويميل مريض الفصام إلى إظهار سلوك شاذ، وهلاوس، وتفكير مضطرب سافر. ولئن كان الانفصام في الفصام يميل إلى أن يكون بالغ

الجلاء وشاملاً، فإن الاضطراب الضلالي الأقل خطورة ليس شاذاً ولا جلياً للمراقب الخارجي:

• الضلالات هي معتقدات قائمة رغم وجود أدلة واقعية قاطعة تنقضها.

• يُتشبث بالضلالات بيقين مطلق، رغم بطلانها واستحالتها.

• قد تتخذ الضلالات تيمات شتى، كالعظمة والاضطهاد.

• ليست الضلالات من الصنف الغريب الشاذ ("وكالة الاستخبارات تدس لي السم")، بل تبدو كأنها استعارات مألوفة لولا أن كل كلمة فيها تُقصد بمعناها الحرفي: كقوله "أنا وحدي المختار، الذي لا يُقهر، الاستثنائي فوق كل وصف، صفوة الصفوة في كل شأن".

• يميل المصابون بالضلالة إلى أن يكونوا بالغي الحساسية ومفتقرين إلى روح الدعابة، ولا سيما فيما يخص ضلالاتهم.

• الضلالات هي قطب الرحى في وجود المرء، والتشكيك فيها يثير رد فعل عنيفاً ووجدانياً.

• الاضطراب الضلالي مزمن، بل قد يلازم المرء طيلة حياته، ويميل إلى التفاقم في الرشد والكهولة وما بعدها.

• الأقوال والأفعال تتسم بالاتساق والمنطق إن سُلم بالمقدمة الأساسية للضلالة بوصفها واقعاً: "لما كنت متفوقاً على الجميع، فمن البدهي ألا أعتذر أبداً لأنني لا أخطئ أبداً".

• لا يتأثر المنطق الاستدلالي العام والسلوك إلا إذا ارتبطا ارتباطاً وثيقاً بالضلالة.

• يحوز المرء حساً متعاظماً بالمرجعية الذاتية ("الأمر كله يدور حولي دوماً")، وتكتسب الأحداث التافهة أهمية مضخمة حين تناقض المعتقد الضلالي ("أنت محتال، لست رجل أعمال عظيم") أو، على العكس، حين تدعمه ("هذه الحشود المتيمة تدرك أنني استثنائي بلا حدود")، مما يجعل تجاوز الأحداث التافهة، إيجابية كانت أم سلبية، أمراً عسيراً ("هل ذكرت لكم فوزي الانتخابي الساحق الأعظم على الإطلاق؟").

وقد يعيننا الاضطراب الضلالي على فك طلاسم الدقائق الخمس الأخيرة من خطاب ترامب أمام وكالة الاستخبارات المركزية (مقاطع سي إن إن ٢٠١٧)، والتي حوت ثلاثة تصريحات مذهلة تحدونا إلى القول: "يستحيل أن يقصد ذلك حقاً". ففي الدقيقة العاشرة، أعلن ترامب أنه يقف "ألفاً بالمائة وراء" وكالة الاستخبارات، واتهم الإعلام الزائف، "بعضاً من أشد الناس كذباً على وجه البسيطة... بأنهم صوروا الأمر وكأن بيني وبين

مجتمع الاستخبارات عداءً"، في حين أن الحق هو "النقيض تماماً". وكان بوسع أي امرئ في الحضور يحمل هاتفاً محمولاً وساوره الشك في ذاكرته أن يبحث فوراً في غوغل عن تغريدات ترامب التي لا تحصى عن عدم كفاءة "ما يُسمى بمجتمع الاستخبارات" وكذبهم، وهو الموقف الذي نكص إليه لاحقاً. فهل كان ترامب يوقن حقاً بأن الحق يحدده كلامه لا الحقائق الدامغة المناقضة؟ ولِمَ يكذب ببساطة وهو يعلم أن كل فرد في الحضور يعلم علم اليقين أنه ليس في زعمه ذرة من حق؟ إن كذبته المذهلة لتفتقر إلى دهاء الكذاب المرضي المألوف. ولو أنه رُبط بجهاز موثوق لكشف الكذب وكان مصاباً بالضلالة حقاً، لاجتاز الاختبار بتفوق مبهر لأنه يوقن حرفياً بكل كلمة يتفوه بها، رغم الحقائق الدامغة المناقضة. فهو يسلم جدلاً بأن العالم من حوله سيذعن لرؤيته المشوهة للأحداث، وأن من لا يوقنون بذلك هم أعداء مجردون من العقلانية يظاهرهم الإعلام الزائف.

وبعد دقيقة في الخطاب، وصف خيبته حين شرع في إلقاء خطاب تنصيبه، إذ كانت السماء تمطر، ثم زعم، مشيراً بإصبعه إلى السماء: "نظر الله من علٍ وقال: 'لن ندع المطر يهطل على خطابك'". ثم أصر على أن المطر انقطع فوراً وأشرقت الشمس "إشراقاً حقاً" قبل أن "ينهمر المطر انهماراً فور رحيلي". ومرة أخرى، كان بوسع أي امرئ في وكالة

الاستخبارات ذلك اليوم يحمل هاتفاً محمولاً أن يشاهد فوراً المقطع المرئي الذي يثبت بجلاء أن الرذاذ في يوم التنصيب بدأ مع شروع ترامب في الكلام، وأن الشمس لم تشرق قط. ولم ينهمر المطر انهماراً بعد ذلك قط. ومرة أخرى، هل كان يوقن بكل كلمة يتفوه بها؟ إن كان الجواب نعم، فهذا شاهد دامغ على اضطراب ضلالي دفين يتسرب من خلال قشرة السواء.

أما التصريح الثالث، بالطبع، فكان إصراره على أن ساحات التنصيب كانت غاصة بالحشود "وصولاً إلى نصب واشنطن". ورغم إلحاحه على إدارة المتنزهات الوطنية لاختلاق زوايا تصوير قد توحي بحشد أضخم، فإن اللقطات الجوية أظهرت بجلاء أن جمهور ترامب كان يقل بمئات الآلاف عن جمهور أوباما في عام ٢٠٠٩. ومرة أخرى، زعم ترامب أن هذا مثال آخر على الأخبار الزائفة، لأن الصور لم توافق يقينه بواقعه الشخصي. ومرة أخرى، لا يمكن تفسير إصراره الذي يعسر تفسيره بغير ذلك إلا بفهم الانفصام الضلالي المتعظم عن الواقع.

إن هذه الوقائع الثلاث لتصريحات باطلة واقعياً أُطلقت في غضون خمس دقائق لتجسد عشرات المزاعم الباطلة تماماً الأخر: فقد زعم أنه يعلم أكثر

من الجنرالات قاطبة. وقال إنه يحوز أفضل مزاج لأي امرئ تقلد الرئاسة قط. ولا يزال يزمجر (سارلين ٢٠١٦) بأن المراهقين السود والسمر الذين أُدينوا ظلماً باغتصاب وضرب عداءة بوحشية في قضية "سنترال بارك فايف" عام ١٩٨٩ هم مذنبون، رغم أن المغتصب الحقيقي اعترف بعد تسع سنوات من الجريمة وكان ملماً بتفاصيل دقيقة عن مسرحها، ورغم تطابق حمض المغتصب النووي مع عينة من مسرح الجريمة. ويصر ترامب على أنه رأى على التلفاز آلاف المسلمين في نيوجيرسي يحتفلون بانهيار برجي مركز التجارة العالمي في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١. ويصر على أنه كان أفضل موهبة واعدة في البيسبول في المدارس الثانوية في مدينة نيويورك (مادو ٢٠١٦). وتباهى بأنه، "في حركة لم يشهد العالم لها مثيلاً"، فاز بالرئاسة بأعظم فوز انتخابي ساحق منذ ريغان، في حين أنه، في حقيقة الأمر، تخلف عن خمسة من مجاميع الأصوات الانتخابية السبعة السالفة. وهلم جرا، وهلم جرا. وحقيقة أنه خسر التصويت الشعبي بثلاثة ملايين صوت، ولأنها لا توافق ضلالات عظمته، يسوغها بإعلانه أن هذه الأصوات أدلى بها ناخبون مزورون، رغم أن دراسة تلو دراسة من كلا الحزبين أثبتت وجود بضعة آلاف من الأصوات غير القانونية على الأكثر في أرجاء البلاد.

ولئن كان مصطلح "الأنانية المعرفية" (Solipsism) مستقى من الفلسفة لا من علم النفس، فإنه يبدو وثيق الصلة بهذا النقاش: "الأنانية المعرفية هي اعتقاد المرء بأنه الشيء الحقيقي الأوحد في الكون. وما سواه من أشخاص وأشياء ليسوا سوى زينة أو عقبات في طريق سعادته".

إن ترامب يكذب بانتظام وبصورة انعكاسية، ولا ينطق بالحق إلا حين يوافق مآربه مصادفة. بيد أن الكذب المرضي لا يكاد يفسر تلك التصريحات المذهلة والمعظمة للذات التي أشرت إليها. فهل يوقن حقاً بما يتفوه به بناءً على ضلالات عظمة دفينة؟ ولو أنه رُبط بجهاز كشف الكذب إبان خطابه في وكالة الاستخبارات، هل كان ليجتازه دون أن يرف له جفن، كما أوقن أنا؟

لقد أصبحت المعايير التشخيصية اليسيرة بين يديك الآن. والقول فصلك.

لِمَ يُجل ترامب الطغاة القساة؟

لقد ألح توماس جيفرسون على أن "المواطنة المستنيرة" هي الدرع الحصين للديمقراطية. ومن ثم، فإنه لمن دواعي الروع الشديد أن نسبة مذهلة من الأمريكيين يعجزون عن تسمية رئيسنا إبان الحرب الأهلية أو البلد الذي انتزعنا منه استقلالنا. وما يبعث على قلق أشد هو أن ترامب نفسه لم يكن يفقه أن ثمة ثلاثة فروع للحكومة الفيدرالية وأن القضاة لا يسعهم ببساطة "توقيع مشاريع القوانين لتصبح قوانين نافذة". وفي مقابلة متأخرة إبان الحملة (ستيفانوبولوس ٢٠١٦)، لم يكن يعلم أن روسيا لم تكتفِ بغزو شبه جزيرة القرم بل كانت تحتلها لعامين. وفي أول جولة عالمية له، علق بأنه سعيد بوجوده في إسرائيل بعد قدومه من الشرق الأوسط.

وتماشياً مع تحذير جيفرسون، إن كان ترامب يضمر حقاً اضطراباً ضلالياً دفيناً، فمن المنظور السريري، يغلب على ضلالاته أن تكون متعظمة وارتيابية (بارانوية) في طبيعتها. وهذا من شأنه أن يعيننا على أن نجيب، مرة وللأبد، عن التساؤل: لِمَ دأب ترامب، إبان الحملة الرئاسية لعام ٢٠١٦ وما تلاها، على الإعراب مراراً وعلانية عن إعجابه بكيم جونغ أون في كوريا الشمالية، وبشار الأسد في سوريا، وصدام حسين في العراق،

وفلاديمير بوتين على وجه الخصوص. فثمة شواهد جمة تدل على أن الاستبداد المطلق هو حلم ترامب الأثير. فالديكتاتور الأوحد هو التجسيد الحي للقدرة على المطالبة بالتبجيل من جهة، وإبادة كل الأعداء المتوهمين بإيماءة رأس من جهة أخرى. فمع تماثيل وصور بطول ثلاثين قدماً في كل صقع تشهد بمقامه الإلهي، لن يكون ثمة أي خطب البتة مع إعلام زائف ناقد، أو محتجين زاحفين، أو محاكم استئناف مزعجة، أو أدنى معارضة سياسية. تلك هي السطوة المهيبة للطغاة الذين يجلهم ترامب إجلالاً يعسر تفسيره.

وهاكم تصريحات (كينيلي ٢٠١٦) أطلقها ترامب عن كل منهم إبان حملته، تتلوها شواهد يسيرة لا تكاد تخدش قشرة وحشيتهم البشعة:

• كيم جونغ أون: "لا بد أن تقروا بفضله... حين مات والده، دخل، وسيطر على هؤلاء الجنرالات الأشداء وغدا هو الزعيم. إنه أمر لا يصدق. أباد عمه، وأباد هذا، وذاك. إنه أمر لا يصدق". لقد انتُزع عم كيم من اجتماع حكومي حاشد ليكون عبرة، وأُعدم رمياً برصاص فرقة مسلحة بالمدافع الرشاشة، مع سبعة من مساعديه. وسُممت عمته، أخت أبيه. وقُتل كل من بقي من أبنائهم وأحفادهم. وأعدم جنرالاً بفرقة إعدام

بصواريخ مضادة للطائرات من مسافة قريبة، وآخر، مقيداً إلى عمود، بقذيفة هاون، في حين أُجبرت جموع غفيرة على المشاهدة، بمن فيهم عائلاتهم. وبلاده بأسرها تتضور جوعاً حتى الموت حرفياً في حين يمول هو طموحاته النووية.

• بشار الأسد: "أظن أنه من حيث القيادة، ينال درجة الامتياز في حين أن رئيسنا لا يبلي بلاءً حسناً". في صراعه للبقاء في السلطة، قمع الأسد بني وطنه قمعاً وحشياً، مما أسفر عن مقتل مئات الآلاف من المدنيين رجالاً ونساءً وأطفالاً، وكثير منهم بالغاز. وإن أُطيح به، فسيُحاكم بتهم جرائم ضد الإنسانية.

• صدام حسين: "حسناً، لقد كان رجلاً سيئاً جداً. ولكن أتدرون ما الذي أجاد فعله؟ لقد قتل الإرهابيين. لقد فعل ذلك ببراعة! لم يقرأ عليهم حقوقهم. لم يتكلموا. كنت إرهابياً، انتهى الأمر!". يُعد حسين بإجماع الآراء ربما أشد الطغاة وحشية في العقود القليلة الماضية. ومن بين فظائعه التي لا تحصى، في ما وُصف بأنه "أسوأ هجوم بالأسلحة الكيميائية في تاريخ البشرية"، أباد بالغاز أكثر من ١٠٠,٠٠٠ من مواطنيه الأكراد، ثم تعقب عشرات الآلاف من الناجين، فدفنهم أحياء، ليبلغ إجمالي القتلى ١٨٠,٠٠٠ في هذه المذبحة وحدها.

• فلاديمير بوتين: "إذا قال عني أشياء عظيمة، فسأقول عنه أشياء عظيمة. إنه حقاً قائد عظيم... يسيطر على بلاده سيطرة قوية جداً... وانظروا، إنه يحظى بنسبة تأييد تبلغ اثنين وثمانين بالمائة!". تعليقات مذهلة. يصرح ترامب بجلاء أن رؤيته المشرقة لبوتين لم تكن تقتضي سوى أن يتملقه بوتين. ففي غضون خمسة عشر عاماً من طغيان بوتين، يُطلق الرصاص على مؤخرة رؤوس الصحفيين المعارضين. ويُتعقب المنشقون الذين يفرون من البلاد ويُقتلون بانتظام، والسم هو الوسيلة الأثيرة، على طريقة الكي جي بي. وآخرون في منافيهم يعيشون في رعب دائم على حيواتهم، بمن فيهم بطل العالم السابق في الشطرنج والرئيس الحالي لمؤسسة حقوق الإنسان، غاري كاسباروف، والعداءة الأولمبية الروسية التي فضحت برنامج المنشطات الروسي المتفشي، يوليا ستيبانوفا. فإما أن ترامب ساذج سذاجة تعسر على الفهم إزاء شعبية بوتين في وطنه—إذ إن نسبة ٨٢ بالمائة كانت مختلقة—أو أنه غاب عن الوعي نشوةً حين نعته بوتين بـ "اللامع" (وليس "العبقري"، كما تبجح ترامب منذئذ).

وعلاوة على ذلك، إبان الحملة، تحدث ترامب عن "القتال من أجل تغيير سلمي للنظام" إن انتُخب. (أمريكا لا يحكمها نظام). وتبجح بأنه "سينسف من الماء" الزوارق الإيرانية السبعة الصغيرة التي ضايق بحارتها

"مدمراتنا الجميلة" وأشاروا إليها بإيماءات بذيئة. وتباهى بأن "روسيا وأنا سنتوافق توافقاً عظيماً". وألمح إلى أن ربما "أنصار التعديل الثاني" قد يفلحون في إيقاف هيلاري؛ وأن على أنصاره تسيير دوريات في مراكز الاقتراع لضمان معاملته بإنصاف، وأنه يود لو "يضرب ويضرب ويضرب [منتقديه من اللجنة الوطنية الديمقراطية] حتى تدور رؤوسهم ولن يتعافوا أبداً".

وأصر على أنه "سيقصف داعش قصفاً مبرحاً" ويأمر جنودنا بقتل من يُظن أنهم عائلاتهم. ودأب على تحريض أنصاره على التنكيل بالمقاطعين في خطاباته، وتفاصح بأن لاعبي دوري كرة القدم الوطني الذين يأبون الوقوف للنشيد الوطني حري بهم أن يبتغوا بلداً آخر. واقتبس مقولة موسوليني: "أن تعيش يوماً واحداً كأسد خير من أن تعيش مائة عام كنعجة"، وأعرب عن حيرة حقيقية حول لِمَ نصنع أسلحة نووية إن لم نكن لنستخدمها.

وفي التقييم السريري لمثل هذه الخصائص المروعة، لِمَ يعجب ترامب بطغاة بشعين في حين لا يثني قط على رؤسائنا السالفين بل يتباهى بأنه هو نفسه قد يكون الأعظم في التاريخ، "باستثناء آبي لينكولن ربما"؟ منذ الطفولة وطيلة الحياة، كلنا ينشد قدوات ليحتذي بها، ولا سيما حين نروم خوض غمار تحديات وتحولات حياتية جديدة وغير مألوفة. فنصطفي

أناساً ملهمين، غالباً من زمان أو مكان آخر، يهدوننا بمثالهم إلى سبل الصواب. ونبحث عما سُمي "الأنا المثلى" التي تجسد أسمى نوايانا.

وسواء أكان إعجابه بالطغاة نابعاً من اضطراب ضلالي دفين، متعظم وارتيابي في طبيعته، أم لا، فإن ترامب ينجذب إلى قادة يطابقون سلفاً تكوين شخصيته الأساسي. وحين كان يترقب الرئاسة، بحث عن قدوات لكيفية الحكم، وكيف سيبدو ذلك، وأي القادة أبلوا بلاءً ملهماً. فبالنسبة لأوباما، كان كينيدي، وريغان، والدكتور كينغ، ومانديلا. وولى بيل كلينتون وجهه شطر جون كينيدي؛ وهيلاري شطر إليانور روزفلت. وصاغ جورج دبليو بوش قيادته على غرار يسوع ووينستون تشرشل. أما بالنسبة لترامب، فكان حسين، وجونغ أون، والأسد، وبوتين. فأولئك الرجال يعلمون كيف يديرون سفينة محكمة القيادة!

وبمجرد انتخابه، جادل كثيرون بأن ترامب قطعاً سيلطف من أقواله وأفعاله فيما يُسمى "الاستدارة الناعمة". بيد أنه حين يكون المرء مضطرب الشخصية أو أسوأ—ولا سيما من يلقي باللائمة دوماً على الآخرين، ولا يعتذر قط أو يُظهر تحمل المسؤولية، ولا يظن ولو للحظة أن ثمة خطباً ما يعتريه—فإن الاحتمال الأوحد للتغيير هو أن يزداد سوءاً، لا تحسناً.

والحق أن كل سمات ترامب الذميمة قد تفاقمت تفاقماً مروعاً بارتقائه سدة الرئاسة. لقد سعى ليكون الطاغية الذي يبتغيه بصورة أكبر، لا أقل.

ومنذ أن غدا رئيساً، ما هو موقف ترامب من الطغاة القساة؟ لقد هنأ الرئيس رودريغو دوتيرتي في الفلبين لتعامله مع معضلات المخدرات في بلاده بـ "الطريقة الصائبة"، بالمذبحة الأهلية لقرابة عشرة آلاف شخص لمجرد الاشتباه في تعاطيهم المخدرات أو الاتجار بها. وفي أبريل، دعاه ترامب إلى البيت الأبيض، وإن كان دوتيرتي لم يأتِ بعد.

وأعرب عن دعمه واستحسانه للرئيس رجب أردوغان في تركيا، وهو مدعو آخر إلى البيت الأبيض، والذي انخرط في تطهير قمعي وممنهج لكل معارضة على امتداد العام المنصرم، مغتصباً سلطات ديكتاتورية لنفسه وحده على ما كان سلفاً حكومة منتخبة ديمقراطياً. وإبان زيارته لواشنطن، أطلق أردوغان العنان لبلطجية حرسه الشخصي لقمع المحتجين السلميين بوحشية أمام السفارة التركية.

ورغم صداماتهما وتلويحهما بالأسلحة النووية، نعت ترامب كيم جونغ أون بأنه "شخص ذكي"، وهو لا يزال يعجب بالأساليب القاسية حد الجنون التي توسل بها كيم لإحكام قبضته على كوريا الشمالية منذ وفاة والده. ومن العجيب أن كيم، هو الآخر، قد دُعي إلى البيت الأبيض. وكذا الرئيس عبد الفتاح السيسي، الذي حكم مصر بقبضة من حديد وبوحشية منذ توليه منصبه في ٢٠١٣.

وعلى النقيض من ذلك، وبُعيد تنصيبه، أهان ترامب رئيس الوزراء الأسترالي مالكولم تيرنبول في مكالمة هاتفية، ويُروى أنه أغلق الخط بعنف، ورفض بصبيانية مصافحة المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل، في حين كانت كاميرات التلفاز الحية تبث للعالم أجمع، إبان زيارتها في أبريل للبيت الأبيض. ولطالما كانت أستراليا وألمانيا من أقرب حلفائنا. كما دفع ترامب بصورة مذهلة، والعالم بأسره يرمق، رئيس وزراء الجبل الأسود، دوسكو ماركوفيتش، في عجلته لبلوغ الصف الأول لالتقاط صورة جماعية إبان مؤتمر مجموعة العشرين.

ومتجاوزاً ميله المذهل للطغاة البشعين بأشواط، دأب ترامب، منذ توليه منصبه، على التهجم على الصحافة الحرة الناقدة؛ وشيطنة ملايين المحتجين الزاحفين بوصفهم مأجورين محترفين؛ والحط من قدر محاكم الاستئناف الفيدرالية لصدها حظر سفره للمسلمين بوصفه غير دستوري؛

والإقالة المباغتة لستة وأربعين مدعياً عاماً أمريكياً؛ وبصورة مروعة، إقالة مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي لما أقر به ترامب بصفاقة بأنه تحقيق كومي المستمر في التواطؤ المحتمل بين روسيا وحملة ترامب لعام ٢٠١٦.

وفي اليوم التالي لرحيل كومي المباغت، ورغم المشهد البصري المربك للعقول، رحب ترامب بالسفير الروسي سيرغي كيسلياك ووزير الخارجية الروسي سيرغي لافروف في البيت الأبيض، وأذن لأطقم التصوير الروسية بدخول الاجتماع، في حين حجب الصحافة والمصورين الأمريكيين.

وبعد أيام، سرت تقارير بأن ترامب قد أفشى، بغير إذن، معلومات بالغة السرية منحتها إسرائيل للولايات المتحدة، مما قد يفضي إلى مقتل جواسيس إسرائيليين مزروعين. ويُروى أن ترامب فعل ذلك برعونة وتباهٍ، وكأنه يروم إبهار الروس. ولقد أرجفت هذه الحادثة حلفاءنا، الذين باتوا يستشعرون أنهم لا يأمنون الولايات المتحدة على استخباراتهم، ومن ثم كشفت وعرضت للخطر مصادر الاستخبارات التي وفرت المعلومات.

وعلاوة على ذلك، يُروى أنه تباهى أمام الروس بإقالة مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي كومي، الذي نعته بـ "المخبول"، وأعرب عن ارتياحه لانقضاء تحقيق التواطؤ بين روسيا وحملة ترامب. (وهو لم ينقضِ).

لقد فتر شهر العسل مع بوتين سلفاً، ولكن ما الذي بوسع ترامب أن يفعله حين تنقضي هذه الغراميات؟ بالنظر إلى اختلاله العقلي، فإن ظمأه للتبجيل لا يضاهيه إلا هوسه بالانتقام، حتى لأتفه الإهانات. فماذا يقع حين يكتشف أن بوتين كان يتلاعب به كدمية أو حين يذله بوتين ربما على مسرح العالم؟ وكما صرح ترامب عشرات المرات إبان الانتخابات التمهيدية: "ما داموا لطفاء معي، فسأكون لطيفاً معهم. ولكن إن غدوا أشراراً وضربوني، فسأضربهم بقوة تفوق ضربهم بأشواط وأشواط".

الضوابط والتوازنات؟ مهلاً، لم يعد أحد يكتب شيكات (ضوابط) بعد الآن. ولن يتسنى لك رؤية أرصدته (توازناته) حتى ينقضي تدقيق مصلحة الضرائب!

الدستور؟ صدقوني، تلك قواعد، والقواعد جُعلت لتُكسر. وفضلاً عن ذلك، القواعد للخاسرين، وترامب فائز. إنه فائز!

وكشأن الطغاة الذين يعبدهم، يروم ترامب أن يحكم، لا أن يقود؛ أن يسيطر، لا أن يساوم. لم تكن الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠١٦ تدور حول الرؤى التقليدية للجمهوريين في مواجهة الديمقراطيين. بل كانت، حرفياً، تدور حول نهاية العالم، لا السياسة.

ألا يمكن أن يقع هذا؟ بل يمكن وهو واقع. ولم يكن تحذير جيفرسون أشد إلحاحاً مما هو عليه اليوم.

لِمَ يكتسي التمييز بين "مجنون دهاءً" و"مجنون خَبَلاً" خطراً عظيماً؟

إن ميل ترامب إلى الوحشية وحده لخليقٌ بأن يبعث على القلق. بيد أنه، وبالنظر إلى شواهد الاضطراب الضلالي، لزامٌ علينا أن نتساءل لِمَ يكتسي التمييز بين "مجنون دهاءً" و"مجنون خَبَلاً" أي أهمية. ولئن كانت ثمة مجالات شتى يغدو فيها فهم نسخة ترامب المخصوصة من اضطراب الشخصية أمراً حيوياً، فليس ثمة ما هو أشد إلحاحاً أو روعاً من سيطرته على الشفرات النووية. فمتجاوزاً دمار المناخ، والرعاية الصحية، والتعليم، والدبلوماسية، والخدمات الاجتماعية، وحرية التعبير، والحرية والعدالة للجميع، ليس ثمة ما هو أشد استعصاءً على الفهم من الاحتمال الماثل الآن لنشوب حرب نووية شاملة. فباستثناء القلة الباقية من الناجين الذين شهدوا القصف الذري لليابان وما تلاه، ليس في تجاربنا ما يسعفنا لتخيل الفناء اللحظي. فحرفياً، نحن هاهنا في ثانية ومتبخرون في التي تليها، مع كل امرئ وكل شيء.

وبسبب هذا التهديد الوجودي الحقيقي جداً، فإنه لمن أوجب الواجبات أن ندرك الفروق الهائلة بين رئيس هو مجرد "مجنون دهاءً" (داهية، ومحسب، وموقن بأن الحق لا يُنطق به إلا حين يوافق مآربه مصادفة) وبين ما أسميته "مجنون خَبَلاً" (يحوز ضلالات عظمة وارتياب دفينة ومحكمة الإخفاء، منفصمة عن الواقع الفعلي). ولبيان الفروق، فلننظر في واقعتين حقيقيتين من التاريخ الأمريكي الحديث ولنتدبر كيف كان ترامب ليتصرف لو جابه ظروفاً مماثلة.

مكالمة الثالثة فجراً: الرئيس كارتر

في عام ١٩٧٩، وقُبيل انقضاء رئاسة جيمي كارتر، جاءت المكالمة الكابوسية (ساغان ٢٠١٢) في الثالثة فجراً، لتوقظ مستشار الأمن القومي لكارتر، زبيغنيو بريجينسكي، بنبأ انقضاض ٢٥٠ صاروخاً نووياً سوفيتياً على أمريكا. ولعلمه بأنه لا يزال أمامه خمس أو ست دقائق للتصرف وأن الأخطاء قد تفضي إلى إنذارات كاذبة، أوعز بريجينسكي إلى أحد مساعديه بالبحث عن مزيد من التحقق. فعاود المساعد الاتصال فوراً، ليبلغ هذه المرة أن ٢,٥٠٠ صاروخ في طريقها إليهم. وفيما كان بريجينسكي يتأهب للاتصال بالرئيس كارتر للإشارة بهجوم مضاد شامل، آثر ألا يوقظ

زوجته النائمة، محتسباً أنها ستفارق الحياة في غضون دقائق. وفيما كان يمد يده لمهاتفة الرئيس، جاءت مكالمة ثالثة تعلن أن تقرير الصواريخ القادمة كان إنذاراً كاذباً نجم عن خلل حاسوبي.

وإنه لمن دواعي الروع الشديد أن ندرك أن الإنذارات الكاذبة والحوادث ليست بالأمر النادر البتة.

أزمة الصواريخ الكوبية: الرئيس كينيدي

وعلى النقيض من الإنذار الكاذب الكابوسي لعام ١٩٧٩، والذي دام خمس دقائق ولم يعلم به سوى قلة، فإن أزمة الصواريخ الكوبية في أكتوبر ١٩٦٢ دامت ثلاثة عشر يوماً حبست فيها الأنفاس، وتجلت أمام العالم بأسره في سلسلة من الأفعال وردود الأفعال الحقيقية والمروعة جداً بين أمريكا والاتحاد السوفيتي. وفي منعطفات شتى، كان العالم قاب قوسين أو أدنى من محرقة نووية شاملة. وكان جوهر الأزمة ينطوي على عزم روسيا نشر صواريخ نووية في كوبا رداً على نشر الولايات المتحدة مواقع نووية على مقربة من حدود روسيا في تركيا وإيطاليا. وأجمعت هيئة الأركان المشتركة على الضغط على الرئيس جون إف. كينيدي لشن هجوم استباقي على مواقع الصواريخ الكوبية القائمة سلفاً، بحجة أن روسيا

ستتراجع ولن تشن هجوماً مضاداً، ولا سيما بالنظر إلى قدرتها النووية الأقل بكثير. ولحسن الحظ، حاز كينيدي من رباطة الجأش ما مكنه من التريث واتباع نصح مستشاريه المدنيين، ولا سيما روبرت كينيدي ووزير الدفاع روبرت ماكنمارا.

وفي مقابلة أُجريت معه بعد سنين طوال، وصف ماكنمارا مغادرته البيت الأبيض في أواخر الأزمة. وفيما كان يتأمل غروباً بديعاً للشمس، جال بخاطره أنه قد يكون الغروب الأخير الذي سيراه أي منا. وكانت عائلات المسؤولين الحكوميين في العاصمة، وكذا العائلات من المدن والبلدات في كل صقع، تفر إلى المناطق النائية أملاً في النجاة من هجوم نووي.

وبلغت المواجهة ذروتها حين وافقت روسيا على إزالة مواقع الصواريخ القائمة من كوبا وعدم بناء مواقع جديدة لقاء تعهد الولايات المتحدة العلني بعدم غزو كوبا قط. وحفظاً لماء الوجه، وافق كينيدي أيضاً سراً على إزالة الصواريخ من تركيا وإيطاليا. وتنفس العالم الصعداء.

إن وسم ترامب بـ "مجنون دهاءً" لا يفتقر إلى كثير بيان. فالعبارة تصف امرئ قد يبدو "مجنوناً" (أي متقلباً، وغير عقلاني، ومندفعاً) في الظاهر، بيد أن سلوكه الخارجي الذي يبدو مجنوناً إنما هو استراتيجية محكمة

التدبير لتضليل الآخرين، وصرف أنظارهم، وخداعهم ليستجيبوا على النحو المبتغى سراً تماماً. وهذا حقاً أحد أوجه سلوك ترامب. فالمرء الذي يكون "مجنوناً دهاءً"، في تلك اللحظة بعينها، هو في حقيقة الأمر النقيض التام للمجنون.

وحين يصر على أن الإعلام الزائف هو من اختلق العداء بينه وبين مجتمع الاستخبارات، فإن شخصاً كهذا سيخفق في جهاز كشف كذب موثوق لأنه سيعلم أنه يكذب.

أما أشد الشواهد إزعاجاً حتى الآن على اضطراب ترامب الضلالي "مجنون خَبَلاً" فقد جاءت مع تغريداته في الصباح الباكر (والتي حُذفت لاحقاً) في مارس بأن هواتف برج ترامب قد نُصت عليها من قبل "أوباما سيئ (أو مريض!)"؛ وحوت التغريدات مقارنات مجنونة بووترغيت والمكارثية. وأثارت أفعال ترامب فوراً انتقادات من كلا الحزبين، وكان ثمة غياب تام لأي دليل من أي امرئ، في أي مكان، على أنه كان هدفاً للمراقبة. وإن الشك في أن المرء خاضع للتنصت لهو تعبير كلاسيكي مطلق عن ضلالات الارتياب (البارانويا).

وحين يصر على أن الإعلام الزائف هو من اختلق العداء بينه وبين مجتمع الاستخبارات، فإن ترامب كان سيجتاز جهاز كشف الكذب بلا ريب لأنه كان يوقن بأن الضلالة حقيقة واقعة. فـ "مجنون دهاءً" تصف امرئ تخفي لا عقلانيته الظاهرة تفكيراً عقلانياً دفيناً. أما "مجنون خَبَلاً" فتصف امرئ تخفي عقلانيته الظاهرة تفكيراً لا عقلانياً دفيناً.

وبالعودة إلى أمثلتنا التاريخية عن الطوارئ النووية، هل ثمة من يوقن حقاً بأن ترامب كان ليُظهر رباطة جأش بريجينسكي تحت الضغط لو أنه هو من تلقى مكالمة الثالثة فجراً تلك؟ إن كان ترامب يضمر حقاً ضلالات عظمة وارتياب (والتي تتكاثر الشواهد عليها)، لكان قد أطلق الصواريخ بأسرع مما يطلق تغريداته الارتيابية في صبيحة يوم سبت.

وبالنظر إلى الأيام الثلاثة عشر من التوتر المبرح إبان التهديد النووي الحقيقي جداً لأزمة الصواريخ الكوبية، هل ثمة من يوقن حقاً بأن ترامب كان بوسعه أن يُظهر رباطة جأش كينيدي، وحكمته، وحسن تقديره، ولا سيما في وجه الضغط المجمع من مستشاريه العسكريين؟ حتى لو كان ترامب مجرد "مجنون دهاءً"، لكان الأمر مستبعداً غاية الاستبعاد—بيد أنه، وبصورة متزايدة، يبدو أن الأمر ليس كذلك.

د. مايكل جيه. تانسي، عالم نفس سريري مقيم في شيكاغو، ومؤلف، ومعلم. تخرج في جامعة هارفارد (بكالوريوس، ١٩٧٢، في نظرية الشخصية) وكلية الطب بجامعة نورث وسترن فاينبيرغ (دكتوراه، ١٩٧٨، في علم النفس السريري). وعلاوة على ممارسته المتفرغة، كان أستاذاً مساعداً يدرس ويشرف على الطلاب، والمتدربين، والأطباء المقيمين، وزملاء ما بعد الدكتوراه. زاول عيادته الخاصة لأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، عاملاً مع البالغين، والمراهقين، والأزواج. وإلى جانب كتاب شارك في تأليفه عن التعاطف والعملية العلاجية، وضع مقالات جمة في المجلات المهنية فضلاً عن خمس وعشرين مدونة لصحيفة هافينغتون بوست.

القصور المعرفي، والخرف، ورئيس الولايات المتحدة

د. ديفيد إم. رايس

من الجلي أنه يعسر تصور منصب أشد إرهاقاً وتطلباً من منصب رئيس الولايات المتحدة. وبغض الطرف عن كل التساؤلات الجادة، والحرجة، واللاذعة التي تطرق أسماعنا بشأن "عطلات" الرئيس، وجولاته في ملاعب الغولف، وما إلى ذلك، فإن المنصب يقتضي القدرة على اليقظة الوجدانية والمعرفية، والسلامة العقلية، والتأهب التام "في الخدمة" في أي لحظة، على مدار الساعة وطيلة أيام الأسبوع. فمن المحتمل أن تكون حيوات الملايين من البشر وسلامتهم معلقة بأي عدد من القرارات الرئاسية التي يُطلب اتخاذها بمرور الوقت، مع النصح والإرشاد الملائمين، أو في غضون دقائق، دون أي إشعار مسبق بتفاصيلها أو خياراتها.

وغني عن البيان أن منصب رئيس الولايات المتحدة يقتضي بطبيعته درجة تكاد تكون فوق بشرية من الصفاء المعرفي في كل حين، بصرف النظر عن الحالة الشخصية أو الظروف التي تكتنف الرجل أو المرأة المتقلد للمنصب. وليس من المستغرب أن فكرة "الرئاسة المزدوجة"، أو على الأقل تقاسم المهام، قد طُرحت في أوقات شتى (بما في ذلك، لفترة

وجيزة، إبان الدورة الانتخابية المنصرمة)، وإن كان إنفاذ هذه الفكرة لم يبدُ قط ممكناً من الناحية العملية أو السياسية.

وعلى وجه العموم، تُجل الجماهير الحيوية، والطاقة، والخبرة بوصفها خصالاً جوهرية في رئيس الولايات المتحدة، وقد يجادل البعض بأن كل دورة انتخابية تحدد أي السمات تُعد ذات أهمية قصوى في أوقات متباينة. وتاريخياً، غالباً ما أفضى التوق إلى قائد محنك والبحث عن شخصية رئاسية وحضور سياسي "أبوي"، بل و"جَدّي"، إلى مرشحين ذكور في سني كهولتهم، وكان دونالد ترامب أكبر شخص يؤدي اليمين الدستورية كرئيس للولايات المتحدة.

ومع تقدم العمر تأتي الخبرة، ويُرجى أن تأتي الحكمة—ولكن أيضاً، من الناحية الطبية، تأتي المخاوف بشأن التدهور المعرفي. ومن المسلم به الآن أنه في حين تبلغ بعض الوظائف العصبية ذروة كفاءتها في سني الرشد المبكرة (كسرعة رد الفعل البدني)، فإن الوظائف المعرفية، على وجه العموم، تظل سليمة سلامة مذهلة حتى مرحلة متأخرة جداً من دورة الحياة (مع تدهور يسير في السبعينيات وتدهور أشد قابلية للقياس بعد سن الثمانين، بيد أن هذا التدهور ليس حتمياً البتة) للبالغ المسن المعافى. ومن ثم، فإن المسألة الجوهرية التي ينبغي التصدي لها ليست التدهور المعرفي المرتبط بالعمر، بل التدهور المعرفي المرتبط بالمرض والتدهور

المرتبط بعوامل فسيولوجية أخرى لا تعتمد على العمر (كتعاطي الأدوية الموصوفة، أو تاريخ من تعاطي المواد المحظورة في الماضي أو الحاضر، أو تاريخ من إصابات الرأس، وما إلى ذلك). وعلى وجه العموم، فإن كبار السن أشد عرضة لتعاطي أدوية موصوفة متعددة مقارنة بالشباب، وكثير من الأدوية قد تترك أثراً سلبياً خفياً على الإدراك، بيد أن هذا ليس خطباً مرتبطاً بالعمر في حد ذاته.

وعليه، فإن المخاوف بشأن القدرات المعرفية لرئيس الولايات المتحدة يمكن تقسيمها إلى خمسة مجالات عامة: (١) المهارات والقدرات الفكرية/المعرفية الفطرية والأساسية؛ (٢) القصور الناجم عن تدهور عصبي مستمر (داء ألزهايمر أو أنماط أخرى من الخرف)؛ (٣) القصور الناجم عن مرض حاد (ولا سيما في كبار السن؛ فحتى التهاب المسالك البولية قد يلقي بظلاله السلبية على الإدراك)؛ (٤) التأثيرات السامة للأدوية الموصوفة أو تعاطي المواد المحظورة؛ و(٥) الآثار التراكمية لرضوض الرأس و/أو تعاطي المواد السامة المشروعة أو المحظورة (وهي مسألة حظيت باهتمام سريري وجماهيري أعظم بكثير فيما يخص إصابات الارتجاج المرتبطة بالرياضة).

المهارات الفكرية والمعرفية الأساسية

إن النسق السياسي الراهن لا يسن معايير فكرية أو معرفية (أو معايير للسلامة البدنية/الطبية) لمن يتبوأ منصب الرئاسة. وهذا، بلا ريب، موطن ضعف. وبنفس الجلاء، فإن مسألة أين ينبغي "رسم الخط الفاصل" فيما يخص الصحة، ولا سيما البراعة الفكرية والمعرفية، وكيف ومن ذا الذي سيقيس تلك المعايير، تجعل من المستبعد عملياً، في تقديري، أن تُطبق مثل هذه المعايير يوماً ما. وفي جوهر الأمر، نحن نعول على المرشحين للإفصاح طوعاً عن تاريخهم الطبي (وهو ما لم يفعله ترامب بأي دلالة سريرية معتبرة)، ونعول على جمهور الناخبين لتقدير ما إذا كانت قدرات المرشح الفكرية "ترقى إلى المستوى المطلوب"، وهو نسق معيب بطبيعته، إذ لا يتاح للجمهور سوى عروض معدة سلفاً وملاحظات للمرشح في المناظرات وإبان إلقاء الخطب—وهي قاعدة بيانات لا تكاد تفي بالغرض لتقدير القدرة الفكرية تقديراً دقيقاً.

وبناءً على المعلومات اليسيرة المتاحة، يسع ذوي التأهيل المهني إبداء آراء علنية بشأن فكر المرشح، بيد أن قاعدة البيانات التي يسع حتى الخبراء الاستعانة بها تظل قاصرة وغير مكتملة، وإن التمييز بين الآراء الموضوعية و"الرصينة" سريرياً وبين الدعاية ذات الدوافع السياسية لهو معضلة لا

سبيل إلى تجاوزها. وفي الوقت الراهن، أرى أن هذه معضلة لا حل لها في المستقبل القريب.

القصور الناجم عن تدهور عصبي مستمر

في لغة العوام، غالباً ما يُطلق مصطلح "ألزهايمر" إطلاقاً غير دقيق للإشارة إلى مرض الخرف، وهو أمر غير دقيق سريرياً، إذ إن تدهور الوظائف المعرفية قد ينجم عن عمليات مرضية عصبية تنكسية شتى. بيد أنه، وفيما يخص المسألة الماثلة أمامنا، فإن السؤال الجوهري هو ما إذا كانت ثمة عملية تنكسية قائمة، وليس بالضرورة تشخيصاً بعينه. وباستثناء بعض الأمراض الحادة غير الشائعة نسبياً، فإن التدهور المعرفي الناجم عن اضطرابات عصبية تنكسية هو عملية بطيئة نسبياً قد تبدأ خلسة. وكما أسلفنا، ولكن مما لا يُدرك على نطاق واسع، فإنه في غياب عوامل أخرى، قلما يكون "الشيخوخة السوية" سبباً لقصور معرفي جسيم قبل بلوغ "الشيخوخة" الحقيقية (أي ما فوق الثمانين عاماً). وليس من النادر أن تُتخذ المعاذير للنذر الأولى لعملية تنكسية أو يُهون من شأنها بوصفها مرتبطة بالعمر ولا تُرى ذات أهمية بالغة في حينها (وقد لا تكون كذلك) أو لا يُدرك أنها تنذر بمآل إشكالي.

وهذا مضمار قد يلحظ فيه الأطباء السريريون المتمرسون، حتى من خلال الإطلالات والتفاعلات العلنية، أن المرء يُظهر نذراً تشي بمرحلة مبكرة من عملية خرف. وبغير تاريخ طبي وافٍ وبغير اختبارات رسمية، لا يسع المرء إطلاق تشخيص بناءً على مثل هذه الملاحظة، بيد أن المراقب المتمرس يسعه قطعاً تبين ما يبعث على القلق واقتراح الحكمة في إجراء تقييم رسمي.

بيد أنه، ومن الجلي، أن التعويل على آراء غير مطلوبة من ممارسين قد تكون درجة خبرتهم، وموضوعيتهم، ودوافعهم الخفية موضع ريبة (سواء بحق أو بدوافع دفاعية/تلاعبية) لهو أمر إشكالي لعلل شتى. وهذا، في حقيقة الأمر، هو ما وقع إزاء ترشيح دونالد ترامب وانتخابه. فقد أعرب خبراء كثر عن قلقهم، وأشار بعضهم إلى "واجب الإنذار" المتأصل. وأُبديت آراء متباينة جمة، تراوحت بين إنكار أي شواهد تستوجب القلق؛ إلى اقتراحات بضرورة إجراء تقييم رسمي؛ إلى تكهنات، وتقديم، بل وإشاعات عن تشخيصات بعينها.

ومن منظور موضوعي، لست أرى شخصياً كيف يسع أي طبيب سريري مطلع ألا يلحظ بوناً شاسعاً بين الأداء المعرفي لترامب في المقاطع المرئية قبل خمسة عشر عاماً وبين حضوره الراهن. ومن منظور موضوعي، لست

أرى شخصياً كيف يسع أي طبيب سريري مطلع ألا يخلص إلى أن ثمة ما يبعث على القلق و/أو يقتضي تقييماً رسمياً.

ومع ذلك، وفي الوقت عينه، فإن المقاطع المرئية من الماضي قد أُنتجت في ظل ظروف مباينة تماماً (فيما يخص التخطيط، وكتابة النص، والضغط النفسي، وفي بعض الأحوال، التحرير)، ولقد كان موقفي هو أن إشاعة أي شيء يتجاوز التحذير العام، إلى جانب التثقيف بشأن "التشخيصات الفارق" (أي العلل المحتملة للتغير الظاهر)، ليس مدعوماً سريرياً بغير بيانات إضافية، فضلاً عن كونه مشكوكاً فيه أخلاقياً. ومن ثم، ففي تقديري، كان من الملائم، بل ومن الحكمة، أن يصدع الأطباء السريريون بمخاوفهم من تدهور عصبي محتمل، بيد أن النقاش العام قد غدا ملتبساً إلى حد أن المخاوف الجادة والمشروعة التي أُبديت لم تترك أي أثر عملي.

ولئن كانت رئاسة دونالد ترامب لا تزال غضة، وفي نظر الكثيرين، وأنا منهم، إشكالية غاية الإشكال، مع أخطار جسيمة وداهمة، فإننا في جوهر الأمر ربما نكون قد "نجونا من رصاصة" مرة واحدة على الأقل. فإبان المناظرة الأولى عام ١٩٨٤ بين رونالد ريغان ووالتر مونديل، كابد ريغان بوضوح لحظة من التشتت. وقد تقع زلة يسيرة لأي امرئ تحت وطأة

الضغط ولا يُلزم افتراض أنها تشي بوجود علة مرضية (كأن ينسى ريك بيري "الوزارة الثالثة" التي رام حلها إبان المناظرة التمهيدية عام ٢٠١٢). وفي نظرة استرجاعية، بدا "تيه" ريغان أشد خطورة. وكانت ثمة مخاوف عامة سلفاً بشأن حالته الطبية، وأُفيد لاحقاً أن الأصدقاء والعائلة كانوا يعلمون علم اليقين أن مرضاً تنكسياً كان آخذاً في التفاقم. ومع ذلك، لم يكن ثمة إعراب جسيم عن القلق العام من لدن الأطباء السريريين، ولم تُطرح المسألة بجدية في الخطاب السياسي بدافع (في تقديري، في غير محله) من "اللياقة". ولعل الأطباء لو صدعوا بالحق، لكان ثمة مطالبة معقولة بسجلات طبية ملائمة أو تقييم. وقد كان من الممكن أن يرتد الأمر عكسياً، وتُحسم الانتخابات في حينها، ولكنني شخصياً أتساءل دوماً عما كان سيقع لو أن مونديل، في المناظرة الثانية، وبأسلوب صادق ودبلوماسي، وجه السؤال مباشرة إلى ريغان: "سيدي. في آخر لقاء جمعنا، بدا أنك كابدت لحظة من الارتباك الشديد. ما عسى أن تكون العواقب لو وقع ذلك إبان حالة طوارئ وطنية؟" من المتصور أن ريغان كان بوسعه أن يراوغ السؤال ببراعة، وكان مونديل سيُصلب، وتنتهي حملته فعلياً. بيد أنه من المتصور أيضاً أنه لو كان ريغان يدرك بعضاً من صعوباته، لكان السؤال قد أفضى إلى اضطرابه وارتباكه بشدة—وربما كشف عن هشاشته وحول كفة الانتخابات في الاتجاه الآخر. لن نعلم

قط، ولحسن الحظ فإن أي قصور عصبي كابده ريغان وهو في منصبه لم يفضِ (على حد علم أي امرئ) إلى أي فعل، أو سلوك، أو قرار غير ملائم قط. ومع ذلك، فإن هذا ليس خطراً ينبغي للبلاد أن تتطلع إلى خوض غماره مرة أخرى.

ولئن كان المرض العصبي التنكسي قد يقع حتى في أعمار غضة نسبياً، إلا أن هذا غير شائع البتة، ولعل أحكم السبل هو أن يكون ثمة إلزام قانوني للمرشحين فوق سن معينة بالخضوع لاختبارات نفسية عصبية لاستبعاد مسار مرض تقدمي. وسيظل من الإشكالي تحديد ماهية الاختبارات التي ينبغي إجراؤها على وجه الدقة، ومن ذا الذي ينبغي أن يجريها، وأين ينبغي وضع "الحد الفاصل" للأهلية/تحديد "الصلاحية للخدمة". ومن المتصور أن جهداً مشتركاً بين الحزبين ينهض على المعرفة السريرية قد يسن على الأقل معايير لاستبعاد مرشح تتوفر بشأنه أدلة طبية موضوعية على اضطراب تقدمي.

ودون بلوغ مثل هذا الإجراء، ففي تقديري، لا ينبغي للخبراء المؤهلين أن يترددوا في الإعراب بحذر وحكمة عن أي مخاوف قد تساورهم، موفرين أكبر قدر ممكن من المعلومات التثقيفية—مع إدراك أن الموقف، من

الناحية العملية، سيظل ملتبساً ومثيراً للجدل لشريحة واسعة من السكان وأن التلاعب الخبيث من قبل أطباء سريريين متجردين من الضمير لا يمكن تلافيه.

القصور الناجم عن مرض حاد والتأثيرات السامة للأدوية الموصوفة أو المواد المحظورة

إن جملة من الحالات الطبية قد تلقي بظلالها السلبية على الإدراك المعرفي لأي امرئ، غض النظر عن عمره—وإن كانت الهشاشة إزاء القصور المعرفي تزداد، على وجه العموم، بتقدم العمر. وبالمثل، فإن كثيراً من الأدوية التي توصف وصفاً مشروعاً وملائماً لغايات طبية قد تسفر عن آثار جانبية تتراوح بين صعوبات يسيرة في استدعاء الكلمات (وهو أمر غير نادر مع مضادات الكولين) إلى زلات معرفية أشد خطراً أو ارتباك بل وهذيان سافر. وغني عن البيان أن تلك الأخطار تتعاظم مع استخدام أدوية نفسية بعينها، وبالطبع، المخدرات المحظورة أو الكحول. وغالباً ما تكون الآثار الجانبية الحادة قابلة للزوال، في حين أن بعض المواد (الكحول قطعاً؛ والمخدرات المحظورة الأخرى؛ وعلى نحو مثير للجدل،

بعض الأدوية الشائعة جداً التي تُعد عموماً حميدة) قد تسفر عن خطوب معرفية لا يرجى برؤها.

بيد أنه، ومن الناحية العملية، لا يبدو أن تبين هذه الخطوب في مرشح ما يبلغ مبلغ المعضلة في التصدي لمسألة العملية التنكسية. فبمجرد الإفصاح عن سجلات طبية موضوعية ورصينة سريرياً، بما في ذلك فحص السموم وتدبر الآثار الجانبية المحتملة للأدوية (مع إجراء اختبارات نفسية عصبية رسمية إن اقتضى التاريخ والنتائج السريرية ذلك)، يمكن تبين خطوب القصور المعرفي الحاد وغالباً ما يمكن تداركها. أو، على الأقل، كما في حالة احتمال تعاطي المخدرات المحظورة، أو الآثار الجانبية اليسيرة وغير الجسيمة (كبعض الصعوبات البسيطة في استدعاء الكلمات الناجمة عن استخدام خافضات ضغط الدم) يمكن إعلانها للجمهور. فإن تعذر تدارك أي من هذه النتائج، فإن الموقف سيندرج جوهرياً تحت القسم (٢) كما سلف بيانه.

الآثار التراكمية لرضوض الرأس و/أو تعاطي المواد السامة المشروعة أو المحظورة

من المسلم به الآن والمقبول عموماً أن تاريخاً من رضوض الرأس حتى وإن كانت "خفيفة"، ولا سيما إن تكررت الوقائع، فضلاً عن التعاطي السالف لمواد ذات تأثير نفسي مشروعة أو محظورة، قد يفرز قصوراً معرفياً حاداً يدوم أمداً أطول مما كان يُظن سلفاً وقد يقدح شرارة تدهور معرفي مستمر (والذي لم تُفهم آليته الدقيقة فهماً وافياً بعد). وتتواتر الشواهد المتزايدة من أولئك الذين انخرطوا في رياضات احتكاكية (بل وحتى رياضات غير احتكاكية نسبياً تنطوي على استخدام الرأس، ككرة القدم؛ وكذا ضحايا العنف الأسري أو الإساءة التي انطوت على ضربات للرأس)، بأنهم قد يكابدون صعوبات معرفية متزايدة مع تقدمهم في العمر، حتى بعد سنين من وقوع الإصابات/التعرض، وحتى إن لم تبدُ الأعراض الحادة شديدة الوطأة. ولئن كانت التفاصيل الطبية بشأن اعتلال الدماغ الرضحي المزمن (CTE) لا تزال مثار جدل وقيد البحث، فلا يسع أحداً أن ينكر أن كثيراً ممن يحملون تاريخاً من رضوض الرأس أو تعاطي المواد يكابدون تدهوراً معرفياً لا يمت بصلة لمتلازمة ألزهايمر أو غيرها من الاضطرابات العصبية التنكسية "المألوفة". بيد أن تبين وجود هذا التدهور ومبلغ شدته

(وتحديد مآله) أشد تعقيداً بعض الشيء من تبين وجود أو غياب عملية مرضية راسخة.

ومن ثم، فإن هذه ليست مسألة تفترق عملياً عما وُصف في (٢) أعلاه، بيد أنها مضمار من التاريخ الطبي للمرء غالباً ما يُغض الطرف عنه (حتى يومنا هذا) وهو حقيقٌ بالتدبر والتقييم الملائمين ضمن أي تمحيص للتاريخ الطبي للمرشح.

خلاصة

ما من امرئ حصيف يبتغي أن يتبوأ سدة الرئاسة شخص معتل الوظائف المعرفية/الفكرية. بيد أنه، وإلى يومنا هذا، ليس ثمة إجراء أو تدبير (سوى الإفصاح الطوعي عن السجلات الطبية) يمنح الجمهور أي معرفة يُركن إليها عما إذا كان المرشح لمنصب الرئاسة يكابد قصوراً معرفياً أو يقف على شفا خطر داهم من التنكس المعرفي.

لقد أفاض آخرون في الحديث عن الأوجه الإشكالية غاية الإشكال لترشيح دونالد ترامب فيما يخص العلة النفسية الحادة والخلل/المرض المزمن في الشخصية. ولا سيما في شخص تبرز فيه تساؤلات حول خطوب نفسية حادة أو مزمنة (وهي خطوب تلقي بظلالها بطبيعتها على الإدراك، والحكم، واتخاذ القرار، وما إلى ذلك)، فإن أي قصور معرفي إضافي أو متراكب ذي أساس عصبي يغدو أشد خطراً. ومع ذلك، وبغض الطرف عن الظروف المخصوصة لترشيح/انتخاب ترامب، فإن عمليتي اختيار المرشحين والانتخابات لا تضعان في الحسبان بأي وجه من الوجوه المعارف الطبية والعصبية التي جُنيت منذ عهد الآباء المؤسسين—وهي معارف ما انفكت تتسع، وستظل تتسع، بتطور وفهم متزايدين أبداً.

ومع ذلك، فإن تطبيق المعرفة السريرية/الطبية على عملية سياسية لهو أمر معقد ومثبط للهمم من الناحية العملية فيما يخص مسائل الموضوعية، ووضع المعايير (كالتأهيل/الاستبعاد)، وتلافي التلاعب الجاهل و/أو الخبيث. إن عملية وضع القدرات والحالة المعرفية للمرشح في الحسبان محفوفة بالمخاطر. ومن يصدعون بالحق لا بد أن يفعلوا ذلك بحذر، ولا يخلون من خطر، وأمام جمهور ينبغي أن يكون متشككاً تشككاً معقولاً.

إن هذا، بحق، "منزلق خطر". بيد أنه من أحكم الحكمة أن نروم الحفاظ على توازن ملائم على هذا المنزلق، بدلاً من أن نغض الطرف عنه تماماً ونظل في إنكار مطبق إزاء الأخطار المحدقة بالبلاد والعالم.

د. ديفيد إم. رايس، درس في جامعة نورث وسترن (الهندسة الكيميائية/الطبية الحيوية؛ كلية الطب) وزاول عيادة نفسية خاصة في كاليفورنيا منذ عام ١٩٨٢. قيّم/عالج الدكتور رايس أكثر من اثني عشر ألف شخص؛ وشغل منصب المدير الطبي المؤقت لمستشفى بروفيدنس (ماساتشوستس)، وارتبط مؤخراً بمنتجع براتلبورو (فيرمونت). وهو فاحص طبي مؤهل في كاليفورنيا وعضو في منظمات مهنية، منها جمعية

استكشاف التكامل العلاجي النفسي، وجمعية محامي الرياضة، والجمعية الدولية للتاريخ النفسي. أطل الدكتور رايس في كافة المنابر الإعلامية متصدياً للقضايا السريرية والجوانب النفسية للظواهر الاجتماعية والسياسية.

دونالد جيه ترامب، المظنون قصور أهليته القصور العقلي، والمجمع الانتخابي، والتعديل الخامس والعشرون

جيمس إيه. هيرب، محامٍ

غدا دونالد جيه ترامب "شخصاً مظنوناً قصور أهليته" في الرابع من أكتوبر عام ستة عشر وألفين، حين رفعتُ عريضة لتبين قصور أهليته العقلية أمام محكمة الدائرة في مقاطعة بالم بيتش. وأزعم أن لي صفة قانونية تبيح لي استصدار مثل هذا الإجراء، بصفتي بالغاً ومقيماً في ولاية فلوريدا، وبناءً على حقيقة أن ما يظهر من افتقار ترامب إلى الأهلية العقلية للاضطلاع بمهامه خليقٌ بأن يلقي بظلاله عليّ، وربما على العالم بأسره، فضلاً عنه هو نفسه.

قُبيل الانتخابات

لقد نلت درجتي البكالوريوس والماجستير في العلوم السياسية، وما انفككت يوماً شغوفاً بالسياسة أيما شغف. فقد تابعت جلسات الاستماع المتلفزة لفضيحة ووترغيت التي أفضت إلى استقالة الرئيس نيكسون في عام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف. ودرّست مساقاً في الدستور والسياسة إثر نيل درجتي في القانون. واقتفيت أثر إجراءات عزل

الرئيس كلينتون. وعايشت يوماً بيوم قضية "بوش ضد غور"، بيد أن شيئاً من ذلك لم يعدّني لحملة ترامب الرئاسية، التي استهلت بهبوطه على سلم كهربائي. ولعل في تلك الرمزية نبوءة: فبدلاً من الارتقاء إلى الذرى، كان ينحدر إلى الدركات، آخذاً إيانا جميعاً معه. فإلى أي درك يسع السلم الكهربائي أن ينحدر؟ وما جال بخاطري قط أن نهج ترامب في حملته خليقٌ بأن يزدهر في مجتمعنا.

وكشأن الكثيرين، خلت أن ترامب لن يظفر بترشيح الحزب الجمهوري للرئاسة. ثم، وفي يوليو من عام ستة عشر وألفين، ظفر به. فشرعت أكابد لوعة التوجس من احتمالية رئاسة ترامب. وكان حقاً، بلا ريب، أن عقبتين لا تزالان تحولان بين ترشيح ترامب وبين ما خلت أنه قد يكون "نهاية الزمان" (سفر الرؤيا). إحداهما الانتخابات العامة، المزمع عقدها في الثامن من نوفمبر عام ستة عشر وألفين. والأخرى (إن قُيض لترامب الفوز) هي اقتراع المجمع الانتخابي، المزمع عقده في التاسع عشر من ديسمبر من العام عينه. فهل ثمة ما يسعني، أنا محامي التركات البسيط، والمواطن العادي، أن أفعله؟

طفقت أستقرئ السجل العام لما تفوه به ترامب وأتاه من أفعال. فجمعت قائمة تضم مائتي واقعة أيقنت أنها تجلي عواره العقلي عن الاضطلاع بمهام الرئاسة. وكان يسع القائمة أن تطول بأشواط، بيد أنني وقفت عند المائتين.

ولقد كثر اللغط والتعليق في الشابكة (الإنترنت) حول حالة ترامب العقلية. كما راجت عرائض إلكترونية تروم استصدار حكم (من لدن أي جهة كانت) بافتقار ترامب إلى الأهلية العقلية لتولي الرئاسة. بيد أن أحداً لم يشر باللجوء إلى القضاء. فراجعت "قاعدة غولدواتر" (والتي سيفاض فيها القول في القسم الثاني من هذا السفر) وما يبدو من حظرها على فئات من خبراء الصحة النفسية تشخيص الصحة العقلية لمسؤول عام من بعيد. والمفارقة هاهنا أنني، ولست بخبير في الصحة النفسية ولعلي أقل تأهيلاً من الناحية الرسمية لإطلاق مثل هذا التشخيص، لا أندرج بحال تحت حظر قاعدة غولدواتر. بل على النقيض من ذلك، فإن شطراً من صميم عملي كمحامي وصاية يقتضي مني الخلوص إلى حكم مبدئي حول القصور العقلي للمرء قبل أن أرفع عريضة لتبين ذلك القصور.

وذات مرة، حين أدرت المذياع لأشاهد تجمعاً لترامب على التلفاز، ألفيته ينشد كلمات من أغنية موسومة بـ "الثعبان"، تحكي قصة امرأة رقيقة القلب تنقذ ثعباناً يكاد يهلك من القر، فما يكون منه إلا أن يلدغها لدغة مميتة ما إن تدب فيه الحياة. ويقول الثعبان: "لقد علمتِ علم اليقين أنني ثعبان قبل أن تؤويني". فخلت أن ترامب إنما يتحدث عن نفسه، وأن الشعب الأمريكي هو تلك المرأة رقيقة القلب. فتبين لي أنه كان يتحدث عن المهاجرين بوصفهم ثعابين سامة.

وإن هذه القصة لتضاهي غيرها من خرافات الحيوان، ولعل أجلى أمثلتها قصة العقرب والضفدع، التي تُروى بوجوه شتى. ففي إحدى رواياتها، يسأل عقرب ضفدعاً أن يحمله على ظهره ليعبرا غديراً. فيتلكأ الضفدع، توجساً من لدغة العقرب. فيحاججه العقرب بأنه يقيناً لن يلدغه، لأنه إن فعل، غرقا معاً. فشرعا في عبور الغدير، وفي منتصف الطريق، لدغ العقرب الضفدع. وقُبيل أن يغوصا تحت سطح الماء، سأل الضفدع العقرب لِمَ لدغه. فأجاب العقرب: "لا طاقة لي بمغالبة طبعي".

فساورني الروع من أن يؤول بنا المطاف إلى ملك عقرب في البيت الأبيض، امرئ لا طاقة له بكبح جماح شطر مهلك من طبعه.

ولما كنت قد زاولت قانون الوصاية لقرابة أربعين حولاً، فقد أيقنت أن من الحكمة الشروع في إجراءات "إثبات القصور" في مقاطعة بالم بيتش (حيث يتخذ ترامب من مارالاغو مقراً له)، ليُصار في نهاية المطاف إلى تعيين لجنة فحص ثلاثية تُناط بها مقابلة ترامب ورفع تقارير عما إذا كان يفتقر إلى الأهلية العقلية لتولي الرئاسة. ولئن كنت قد توليت قضايا قصور جمة، إلا أنني هاهنا سأتعاطى مع امرئ ليس بالشاذ المألوف البتة. ولو أن المحكمة مضت في إجراءاتها وخلصت في نهاية المطاف إلى أن ترامب قاصر الأهلية، لما كان بوسعها أن تثنيه عن الترشح—إذ إن ترامب قد استوفى شرط العمر وغيره من شروط الأهلية للرئاسة كما نص عليها الدستور—بيد أن حكماً كهذا كان ليكون معياراً حقيقياً بالاعتبار لدى الناخبين وهم يمّمون شطر صناديق الاقتراع ليقرروا لمن سيدلون بأصواتهم.

وكانت عريضتي معدة للرفع في أواسط أغسطس من عام ستة عشر وألفين، بيد أنني آثرت، بدلاً من رفعها، أن أتباحث بشأنها مع أقوام شتى. ولم يكن هؤلاء القوم منخرطين في أي حملة رئاسية ولا من مسؤولي الأحزاب السياسية. فحادثت محامين، وغير محامين، وقضاة متقاعدين. وحادثت جمهوريين، وديمقراطيين، ومستقلين. ففي ناظري، لم تكن المسألة مسألة سياسة حزبية؛ بل كانت مسألة بقاء ديمقراطيتنا. كما أعملت فكري

طويلاً وملياً في المضي قُدماً. فهل أروم استعداء امرئ قد يغدو رئيساً؟ هل أبتغي استعداء امرئ بالغ الحقد، ولوع بالتقاضي؟ هل أُقاضى بتهمة التشهير؟ هل تنقضي حياتي، كما عهدتها؟ فخلصت إلى أن المسألة تبلغ من الخطورة مبلغاً يمس كل امرئ في بلادنا، وربما كل امرئ في العالم، حتى إني استشعرت دافعاً قهرياً لرفع عريضة تبين القصور، بوصف ذلك واجباً وطنياً.

فرفعت العريضة قبل ما ينيف قليلاً عن شهر من انتخابات الثامن من نوفمبر عام ستة عشر وألفين. وادعيت فيها أن ترامب قاصر، أو قد يكون قاصراً، عن السعي لطلب الوظيفة أو الاحتفاظ بها، استناداً إلى المعطيات الواقعية الآتية: (١) أن أفعاله/أقواله تبدو مؤيدة لتشخيص اضطراب الشخصية الهستيرية، (DSM-V 301.50)، مستوفياً المعايير التشخيصية من ١ إلى ٨؛ و(٢) أن أفعاله/أقواله تبدو مؤيدة لتشخيص اضطراب الشخصية النرجسية، (DSM-V 301.81)، مستوفياً المعايير التشخيصية من ١ إلى ٩. وأرفقت قائمتي التي تضم مائتي تصريح مؤيد تفوه بها ترامب إبان حملته.

فتنحت القاضية الأولى التي أُنيطت بها القضية. فأمر القاضي الثاني المعين بأن أبين العلة التي تمنع من رد عريضتي، وأن أتصدى لمسألة ما إذا كان يسع محكمة ولائية أن تمنع ترامب من السعي للرئاسة، بالنظر إلى أن ترامب قد استوفى شروط الأهلية الحصرية للرئاسة كما نصت عليها المادة الثانية، القسم الأول، البند الخامس من الدستور (بلوغ الخامسة والثلاثين على الأقل، والإقامة في الولايات المتحدة لأربعة عشر عاماً، وأن يكون مواطناً بالولادة).

وقُبيل يوم الانتخابات بيوم واحد، ردت المحكمة دعوى القصور التي رفعتها.

غداة يوم الانتخابات: المجمع الانتخابي

غداة يوم الانتخابات (وقُبيل الموعد المضروب لاجتماع المجمع الانتخابي واقتراعه)، التمست من المحكمة أن تعيد النظر في حكمها، محاججاً بأن مسألة ما إذا كان ترامب قاصراً عقلياً لم تنتفِ الحاجة إليها، بالنظر إلى أن الرئيس يُنتخب من لدن أعضاء المجمع الانتخابي، لا باقتراع مباشر من الناخبين. فلعل المجمع الانتخابي يكون طوق نجاتنا.

وحاججت بأن القصد الأصيل لواضعي الدستور، كما جلاه ألكسندر هاميلتون في الورقة الثامنة والستين من أوراق الفيديرالي، بتاريخ الثاني عشر من مارس عام ثمانية وثمانين وسبعمائة وألف، كان أن يُعمل الناخبون الحكمة والروية (بما يفوق ما يحوزه عامة الناس) في اصطفاء الرئيس. فالرئيس يُصطفى بـ "حس الشعب" الفاعل عبر ناخبين اصطفاهم الشعب لتلك الغاية بعينها. وإن انتخاب الرئيس "ينبغي أن يُناط برجال هم أقدر الناس على تمحيص الخصال الموائمة للمقام، والعاملين في ظل ظروف تواتي التروي والجمع الحصيف بين كل العلل والدوافع، التي حُق لها أن توجه خيارهم". وكتب هاميلتون أيضاً: "إن ثلة يسيرة من الناس، يصطفيهم بنو وطنهم من بين عامة الشعب، لخليقون بأن يحوزوا من المعرفة والفراسة ما تقتضيه مثل هذه المهمة المعقدة". وإن آلية الانتخاب عبر الناخبين "لتورث يقيناً أخلاقياً بأن منصب الرئاسة قلما يؤول إلى امرئ لم يُؤتَ حظاً وافراً من المؤهلات المقتضاة".

وأشرت إلى أن قاضي المحكمة العليا روبرت إتش. جاكسون (والذي كان أيضاً مهندس محاكمات جرائم الحرب الدولية للقادة النازيين فضلاً عن كونه المدعي العام الأمريكي الرئيس في نورمبرغ) قد صرح بأن الخطة المبتغاة أصلاً كانت "أن يكون الناخبون وكلاء أحراراً، يُعملون حكماً

مستقلاً متجرداً من التحزب بشأن الرجال الأكفأ لتولي أرفع منصب في الأمة". ومضى القاضي جاكسون قائلاً: "بيد أن هذا التدبير قد خاب مسعاه. فالناخبون، وإن كانوا غالباً من ذوي الوجاهة والاستقلال والاعتبار الشخصي، قد استحالوا رسمياً إلى أتباع حزبيين طائعين وإمعات فكرية يحق لنا أن نستعير في ذكراهم هجاءً مقفى:

كانوا أبداً يصوتون لنداء حزبهم

وما أعملوا فكرهم لأنفسهم قط.

"وكمؤسسة، كابد المجمع الانتخابي ضموراً لا يكاد يفترق عن تيبس الموت" (قضية راي ضد بلير، ٣٤٣ U.S. 214, 232 [١٩٥٢]، رأي مخالف للقاضي روبرت إتش. جاكسون).

وأردفت أن واضعي الدستور راموا أن يكون الناخبون ذوي "فراسة، وفضيلة، ومعرفة متفوقة"، يصطفون الرئيس "وفق مشيئتهم" ودونما التفات إلى الرغبات الآنية للشعب (قضية راي ضد بلير، رأي مخالف للقاضي جاكسون). وأن "الناخبين يظلون أحراراً بحكم الدستور في الإدلاء بأصواتهم لمن شاؤوا، وقد فعلوا ذلك حيناً بعد حين" (مجلس الشيوخ الأمريكي ٢٠١٣).

ولئن كان قضاء محكمة ولائية بافتقار ترامب إلى "الأهلية العقلية" لتولي الرئاسة لن يجرده من أهليته تلقائياً، إلا أن حكماً كهذا كان ليكون معلومة بالغة الخطر يجب أن يقف عليها أعضاء المجمع الانتخابي. فإن حيازة أقصى قدر ممكن من المعلومات ذات الصلة لهي وصية من الآباء المؤسسين لأعضاء المجمع الانتخابي، لا غنى عنها ليضطلع الأعضاء بمهامهم على الوجه الأكمل.

بيد أن المحكمة لم تبدل حكمها. فاصطفى المجمع الانتخابي ترامب في التاسع عشر من ديسمبر عام ستة عشر وألفين، ونُصب في العشرين من يناير عام سبعة عشر وألفين.

غداة التنصيب: التعديل الخامس والعشرون

ولم أعاين أي "استدارة رئاسية" من لدن ترامب في أيامه العشرة الأولى في سدة الحكم، لذا، وفي الثلاثين من يناير عام سبعة عشر وألفين، رفعت عريضة ثانية لتبين القصور.

ففي تلك الأيام العشرة الأولى، اعتنق ترامب معتقدين ضلاليين على الأقل. أحدهما يخص حجم الحشد في حفل تنصيبه؛ والآخر أن الوزيرة كلينتون لم تفز بالتصويت الشعبي في الانتخابات الرئاسية إلا لأن ما

يتراوح بين ثلاثة ملايين وخمسة ملايين صوت غير شرعي قد أُدلي بها. وفي تلك الأيام العشرة الأولى أيضاً، أصدر ترامب أوامر تنفيذية شتى جلت قصوره العقلي عن فقه الآتي: ما هو مشروع وما هو غير مشروع (حظر الهجرة)؛ وما يسعه فعله وما لا يسعه دون نيل موافقة الكونغرس على التمويل (بناء جدار حدودي مع المكسيك)؛ وما يصب في صالح أمن بلادنا وما لا يصب فيه (إدناء ستيف بانون، وإقصاء مسؤولين بعينهم في مستوى مجلس الوزراء). لقد استعدى ترامب المكسيك؛ واستعدى أمماً في أرجاء المعمورة بحظر الهجرة الذي فرضه؛ وأظهر عجزاً عن تمحيص القضايا والأفعال مع أجهزة الحكومة الأمريكية المختصة قبل الإقدام عليها؛ وأبدى عجزاً تاماً عن استشراف (أو حتى تدبر) وقع أقواله وأفعاله.

ولقد ادعيت في عريضتي أنه لكي يستمر في منصبه رئيساً، فإنه يفتقر إلى الأهلية العقلية التي تمكنه من:

- الفصل بين الحقائق والأباطيل؛
- إعمال الفكر في المسألة أو الخطب قبل النطق أو الفعل؛
- القدرة والرغبة في الإحاطة بالقضايا علماً؛
- تنزيل القرارات المتسقة على الوقائع؛

• التواصل ببيان متسق؛

• الاطراد (بغير تأرجح أو "تقلب") في تصريحاته التي يطلقها؛

• إدراك المآلات المرجحة للتفوه بأقوال بعينها أو الإقدام على أفعال بعينها؛

• التمييز بين القرارات المقبولة والقرارات المروعة؛

• الرغبة في فقه دستور الولايات المتحدة، وحمايته، والذب عنه، بما في ذلك أحكامه المتعلقة بعمل السلطة التنفيذية وحقوق المواطنين بموجب وثيقة الحقوق؛

• كبح جماح نفسه عن اقتراف الجرائم والجنح الكبرى كما ورد هذا اللفظ في دستور الولايات المتحدة، المادة الثانية، القسم الرابع، بشأن العزل؛

• إبرام العهود والوفاء بها؛

• الإحاطة بالسياسة الخارجية وإدارتها نيابة عن الولايات المتحدة؛

• التعاطي مع الآخرين بحكمة وفاعلية؛

• الخلوص من الضلالات (الأوهام)؛

• فقه المبادئ الديمقراطية الأصيلة، ومنها: خطورة الانتخابات الحرة والنزيهة (وخطورة اجتناب الزعم بأنها "مزورة" قبل وقوعها)؛ والطبيعة

المنافية للديمقراطية في اعتزام الزج بخصمه الانتخابي في غياهب السجن؛ وغائلة الترويج لنظريات مؤامرة متعددة تحاك ضده؛ و

• الاستقرار (أي الخلو من الزعازع العقلية) في أفكاره وأقواله.

وادعيت أن تصريحات ترامب تؤيد الحكم بأنه يكابد اضطراب الشخصية النرجسية، مما يجعله قاصراً عقلياً عن الاستمرار في الرئاسة، وأنه:

• يحوز حساً متعظماً بأهمية ذاته؛

• مستغرق في خيالات النجاح المطلق، أو السلطة، أو العبقرية؛

• يوقن بأنه فريد ونسيج وحده؛

• يفتقر إلى إعجاب مفرط؛

• يستشعر الاستحقاق (أي تساوره توقعات غير عقلانية بمعاملة تفضيلية خاصة أو إذعان تلقائي لتوقعاته)؛

• مستلب للآخرين في علاقاته (أي يتخذ من الآخرين مطايا لبلوغ مآربه)؛

• متبلد الوجدان، إذ يأبى أو يعجز عن إدراك مشاعر الآخرين وحاجاتهم أو التماهي معها؛ و

• يُظهر مسالك أو مواقف متغطرسة متعالية.

وادعيت أن تصريحات ترامب تؤيد الحكم بأنه يكابد اضطراب الشخصية الهستيرية، مما يجعله قاصراً عقلياً عن الاستمرار في الرئاسة، وأنه:

• خاض تفاعلات مع الآخرين غالباً ما تُوسم بسلوك إغوائي أو استفزازي جنسي غير لائق؛

• يُظهر تعبيرات انفعالية ضحلة وسريعة التقلب؛

• يتوسل بأسلوب في الحديث مفرط في الانطباعية ومفتقر إلى الدقة؛

• يُظهر درامية ذاتية، ومسرحة، وتعبيراً مبالغاً فيه عن الانفعالات؛ و

• سريع التأثر (أي يسهل انقياده للآخرين أو للظروف).

وادعيت أن ترامب يبدو مكابداً لمعتقدات ضلالية، مما يجعله قاصراً عن الاستمرار في الرئاسة، مستشهداً بطائفة من تصريحاته المروعة التي تنيف على المائتين والتي تفوه بها إبان الحملة الانتخابية.

وادعيت أن دستور الولايات المتحدة ينطوي حقاً على أحكام تتصدى لعجز الرئيس (متى ما تقلد منصبه) عن الاضطلاع بسلطات منصبه ومهامه، وهي متمثلة في القسمين الثالث والرابع من التعديل الخامس والعشرين.

فالقسم الثالث يشرع لتخلٍ طوعي (وربما مؤقت) عن سلطات الرئيس ومهامه لصالح نائب الرئيس، الذي يغدو رئيساً بالنيابة. إذ يبعث الرئيس بإعلان مكتوب إلى الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب يفيد بعجزه عن الاضطلاع بسلطات منصبه ومهامه. ويستمر هذا التخلي حتى يبعث الرئيس إليهما بإعلان مكتوب بخلاف ذلك.

ولقد أُعمل القسم الثالث ثلاث مرات في تاريخنا—إحداها في عام خمسة وثمانين وتسعمائة وألف، من لدن رونالد ريغان (لجراحة سرطان القولون)، لقرابة ثماني ساعات؛ ومرة في عام ألفين واثنين، من لدن جورج دبليو بوش (لتنظير القولون)، لأقل من ساعتين؛ ومرة في عام ألفين وسبعة، من لدن جورج دبليو بوش (لتنظير القولون)، لأقل من ساعتين. وتبعاً لذلك، كان لدينا رئيسان بالنيابة: جورج إتش. دبليو. بوش

وريتشارد بي. تشيني. وكانت هذه التخليات مؤقتة (وكذلك قُصد بها أن تكون).

أما القسم الرابع فيشرع لتخلٍ قسري عن المنصب. فإذا بعث نائب الرئيس وأغلبية مسؤولي مجلس الوزراء إلى الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب بإعلانهم المكتوب بأن الرئيس عاجز عن الاضطلاع بسلطات منصبه ومهامه، غدا نائب الرئيس فوراً رئيساً بالنيابة. بيد أن الأمر لا ينقضي عند هذا الحد. فإذا بعث الرئيس إلى الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب بإعلانه المكتوب بانتفاء أي عجز، استعاد منصبه—ما لم يبعث نائب الرئيس وأغلبية مسؤولي مجلس الوزراء إلى الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ ورئيس مجلس النواب بإعلانهم المكتوب بأن الرئيس عاجز عن الاضطلاع بمنصبه. وحينئذ يفصل الكونغرس في الخطب. فإن قضى الكونغرس بأغلبية ثلثي أصوات كلا المجلسين بأن الرئيس عاجز عن أداء مهامه، استمر نائب الرئيس في تولي مهام الرئيس بالنيابة؛ وإلا، استعاد الرئيس سلطات منصبه ومهامه.

وادعيت أن محكمة ولاية فلوريدا تملك السلطة للقضاء بأن ترامب قاصر عقلياً عن تولي الرئاسة. ولئن كان حكماً كهذا لا ينفذ من تلقاء نفسه—أي أنه لا يعزله من منصبه تلقائياً—إلا أنه قد يرسي الأساس الذي يمكن أن يمضي بناءً عليه تخلي العزل بموجب التعديل الخامس والعشرين.

وفي الحادي والعشرين من فبراير عام سبعة عشر وألفين، ردت المحكمة عريضتي الثانية، فرفعت إشعاراً باستئناف ذلك الحكم أمام محكمة استئناف الدائرة الرابعة في فلوريدا. ولا يزال الاستئناف قيد النظر.

ورفعت مذكرتي الاستئنافية في الأول من مايو عام سبعة عشر وألفين. وتلتمس مذكرتي الموسومة بـ "عيد العمال/نداء الاستغاثة" (May Day/Mayday) من محكمة الاستئناف أن تأمر محكمة الموضوع بالمضي قُدماً في إجراءات إثبات القصور ضد ترامب، وصولاً إلى الحكم النهائي فيما إذا كان قاصراً عقلياً عن تولي الرئاسة. فإن وافقتني محكمة الاستئناف الرأي وأجابتني إلى التماسي، فإن هذا الإجراء سيمضي في طريقه.

إلى أين المسير (Quo Vadis)

لعل ترامب، متى ما صدر حكم بافتقاره إلى الأهلية العقلية لتولي الرئاسة، يقتفي أثر الإجراء الطوعي المنصوص عليه في القسم الثالث من التعديل الخامس والعشرين، ويعلن عجزه عن الاضطلاع بسلطات منصبه ومهامه. وبالنظر إلى الطبيعة الشاذة لعالمنا الراهن الذي يحاكي "أليس في بلاد العجائب"، فإن هذا قد لا يكون مستبعداً. فإن لم يؤثر التخلي الطوعي بموجب القسم الثالث، فإن القسم الرابع من التعديل الخامس والعشرين يشرع لإجراء قسري يضطلع به نائب الرئيس، ومجلس الوزراء، والكونغرس. ولم يُعمل هذا القسم قط. ولعل الأوان قد حان لذلك الآن.

الناس سواسية أمام القانون. وفيما يخص قانون الوصاية في فلوريدا، فإن لترامب الحق في أن يُحمى من نفسه—كشأن أي امرئ آخر. بيد أن ترامب، في الوقت الراهن، شخص مظنون قصور أهليته، وسيظل كذلك حتى يصدر حكم بخلاف ذلك.

وللحديث بقية...

جيمس إيه. هيرب، حائز على الماجستير، ومحامٍ، زاول المحاماة في فلوريدا لأربعين حولاً. وهو وسيط معتمد لدى محكمة الدائرة من المحكمة العليا في فلوريدا، ومُحكّم معتمد، وعضو مهني في الكلية الوطنية لقضاة التركات. وضع أربعة فصول في كتب الممارسة القانونية في فلوريدا، وترأس أو حاضر في ما ينيف على خمسين ندوة قانونية.

القسم الثاني
معضلة ترامب
أيحق للأطباء النفسيين أن يحجموا عن إبداء الرأي في سيكولوجية ترامب؟
د. ليونارد إل. غلاس

قد يخيل إليك أن الجواب جلي، بيد أنه ليس كذلك.

"لا" الجلية

ثمة أصل تاريخي للاعتراض على زج خبراء الصحة النفسية بآرائهم في أتون السجال السياسي: ألا وهو قاعدة غولدواتر. فلقد كابد الأطباء النفسيون محنة مريرة من الهوان القانوني جراء إبداء تشخيصاتهم من على كراسيهم الوثيرة لباري غولدواتر في عام أربعة وستين وتسعمائة وألف، مما قوم اعوجاج قادة مؤسسات الصحة النفسية، فبادروا إلى صون سمعة مهنهم بتضمين ميثاقهم الأخلاقي حظراً على تشخيص الشخصيات العامة.

ومدار الحجة هاهنا أن المرء لا يسعه ادعاء السلطة المهنية للحكم على الأداء العقلي لفرد ما إلا إذا اقتفى أثر مبادئ المهنة في التقييم الرصين: أي، مقابلة شخصية مستفيضة تعضدها سيرة شخصية مستقاة من المريض ومصادر أسرية موثوقة، وفحص شامل للحالة العقلية، وفحص بدني، ودراسات مخبرية ذات صلة، وهلم جرا. وما لم يكن الأمر كذلك، فإن أي رأي يبديه خبير في الصحة النفسية، وإن تلقاه العوام بالقبول، سيفتقر، في نظر البعض، إلى الأساس المعتمد ليُؤخذ مأخذ الجد على الوجه اللائق.

وفي الآونة الأخيرة، وسعت لجنة الأخلاقيات في الجمعية الأمريكية للطب النفسي من تأويلها لقاعدة غولدواتر ليحظر على الأطباء النفسيين إبداء أي تعليق على شخصية عامة يتضمن إشارة إلى صفتهم المهنية.

أما الحجج الأخر المؤيدة لـ "لا" والمعارضة لمثل هذه التشخيصات، فما هي في جوهرها إلا تنويعات على تيمة صون النقابة من الخزي: فخبراء الصحة النفسية قد يتفوهون بآراء متحيزة، أو جاهلة، أو محض متضاربة، وهذا خليقٌ بأن يغض من قدر المهن النفسية، التي هي أبداً عُرضة للنقد وغالباً ما لا تُؤخذ مأخذ الجد، كما يتجلى في رسوم مجلة "نيويوركر" الكاريكاتورية وغيرها من صور السخرية الأقل وداً.

بيد أن "نعم" أقل جلاءً

إن قاعدة غولدواتر، ولا سيما في تأويلها الموسع، لتقع في زلل تصنيفي: إذ تخلط بين "الرأي المهني" (أي التقييم السريري الذي ينهض عليه علاج المريض) وبين "رأي المهني" الذي يعلق في دور غير سريري (أي كخبير في الصحة النفسية يبدي رؤيته في الساحة العامة). فليس ثمة مريض في الحالة الثانية، ومن ثم فإن معايير تقديم تقييم مستمد سريرياً بتفويض من المريض ومع المراعاة الواجبة لسريته لا تنطبق هاهنا: ومرة أخرى، ليس ثمة مريض هاهنا. فمثلاً، قد تبتغي الوقوف على "رأي المهني" حين تعقد العزم على استثمار أو اختيار قائمة طعام، أو حين تطالع مقال رأي في صحيفة نيويورك تايمز.

وعلى هذا النحو، فإنني أشكك في التنزيل الحرفي لما يُسمى بـ "واجب تاراسوف في الإنذار"، والذي سُمي تيمناً بالقضية القانونية الفاصلة التي انبثق منها. فواجب تاراسوف يغدو ذا صلة حين يقف المهني، في خضم علاقة طبيب بمريض، على تهديد عيني لطرف ثالث. في تلك الظروف، ينسخ واجب الإنذار حق المريض في السرية. أما حيث تنتفي علاقة الطبيب بالمريض، فإن واجب الإنذار يغدو أقرب إلى المجاز—أي أننا

نحن المهنيين يسعنا "الربط بين الخيوط" وإنذار العوام مما يبدو لنا نمطاً من اللامعقولية، والاندفاعية، وضيق الصدر بالآراء المخالفة، مما يشي بهشاشة خطرة في رجل يتبوأ أرفع المناصب سطوة. إن واجبنا في الإنذار لهو تجلٍ لهواجسنا كمواطنين أوتوا خبرة مخصوصة؛ لا كأطباء سريريين أُنيط بهم درء عنف متوقع من امرئ تحت رعايتنا.

إن العوام لخليقون بأن ينتفعوا من تعليق خبير نفسياً على ظواهر هي، في ظاهرها، ملتبسة. والحق أن أحد المبادئ الأخلاقية الصريحة التي تهدي الأطباء هو جعل "المعلومات ذات الصلة مبذولة... لعامة الناس". فمثلاً، ما عسانا أن نظن في امرئ دأب على التبجح بنجاحاته ولا يقر بزلاته قط، بل يعمد بدلاً من ذلك إلى إلقاء اللائمة على الآخرين وشيطنتهم (كالجنرالات الذين دبروا المهمة، ومحلل فوكس نيوز الذي أذاع ترامب رأيه كأنه حقيقة واقعة، والصحافة التي فضحت الخطب، والمسربين/كاشفي الفساد الذين أنذروا الصحافة). ولئن بدا جلياً للبعض أن امرئ كهذا إنما يدفعه انعدام الأمن إلى تضخيم ذاته، فإن بعض شرائح العوام ممن لم يؤتوا حظاً وافراً من الحنكة النفسية قد يأخذون تبجحه على ظاهره. ومن ثم، فإن دور المهنيين المتمرسين هو على وجه الدقة بسط رؤى الخبراء لعامة الناس.

ولئن كان حقاً أننا نحن المهنيين، في حالة دونالد ترامب، لا نحوز المعطيات التي نركن إليها تقليدياً في المقام السريري، إلا أنه من الحق أيضاً أنه، وبفضل براعة ترامب في الاستئثار باهتمام العوام، والسنين الطوال التي تصدر فيها نشرات الأخبار، ولا سيما الفيض الغامر من الشواهد المرئية لردود أفعاله السلوكية، فإن ثمة قدراً هائلاً من استجابات دونالد ترامب الوجدانية وأفكاره المنطوقة التي يسعنا أن ننهل منها. ولئن كان الفهم السالف لقاعدة غولدواتر يروم سد الذرائع أمام التكهن بخلجات العقل الباطنة وغير المرئية لشخصية عامة، فإن التأويل المستحدث يغل أيدي الأطباء النفسيين عن الإعانة في تفسير مسالك مبذولة للعيان ويسهل رصدها.

أما فيما يخص الحظر المفروض على إفصاح المرء عن هويته كطبيب نفسي حين يعلق على شخصية عامة، فتدبر حال طبيبة العظام التي تُستضاف على التلفاز المحلي وتُسأل عن تقييم مآلات الإصابة التي ألمت بظهير فريق محلي في مباراة أُقيمت اليوم في الساحل المقابل. أفيُحظر عليها إبداء رأيها المهني لأنها لم تفحص نجم كرة القدم؟ بالطبع، إن رأيها مشروط بكونها لم تفحصه أو تطلع على صور الأشعة، بيد أن هذا أمر جلي ومضمر حتى إنه غالباً ما لا يُصرح به. (ولكان من الحكمة أن تفعل، لئلا يساور الشك أحداً في يقينية رأيها). إن تكميم أفواه الأطباء النفسيين من لدن نقابتهم

المهنية لينم عن افتقار عميق من تلك النقابة إلى احترام نضج أعضائها وحكمهم والثقة فيهما.

وبسعيها لإقصاء الطب النفسي كمهنة عن السجال العام، فإن الجمعية الأمريكية للطب النفسي، لا محالة، تبخس من قدر المهنة ذاتها التي تتوهم أنها تذود عنها وأهميتها.

والآن، مما لا ريب فيه أن خبراء الصحة النفسية ليسوا بمنأى عن التحيز، وأن بعضهم قد يتفوه بغير ترو ولا حذر. ولئن كان المهنيون قد دُربوا على استحضار الأثر المشوش المحتمل لمواقفهم ومشاعرهم، إلا أنهم بشر يخطئون ويصيبون. وأرى أن الإجراء الأقوم للجمعية الأمريكية للطب النفسي كان حث الأعضاء على إدراك الحاجة إلى الحصافة حين يصدعون بآرائهم، بدلاً من إكراههم على الاختيار بين الإذعان لقاعدة تكميم الأفواه أو المخاطرة بالوقوع تحت طائلة انتهاك ميثاقها الأخلاقي. إن سياسة كهذه لخليقة بأن تقر بإملاءات ضمير الطبيب النفسي الفرد في التفاعل مع العوام، وألا تقتضي إخضاع وازعه الأخلاقي لصون مهنة الطب النفسي من أن تبدو أقل رصانة علمية لأن بعض أعضائها قد يتفوهون بآراء لم تُنضج على نار هادئة.

وإنني لأجلّ الفارق بين إطلاق تشخيص على شخصية عامة لم يفحصها المرء من جهة، وبين بسط رؤية مستنيرة مهنياً من جهة أخرى. فالتشخيص بطبيعته أشد دقة ويقتضي مستوى أعظم من اليقين يضرب بجذوره في الإجراءات والضوابط المهنية التي ينهض عليها الاستنتاج الأشد حسماً. وإن إطلاق تشخيص طبي حاسم بغير تقييم شخصي مستفيض ورضا من يخضع للتقييم لخليقٌ بأن ينحدر في يسر إلى دركات التكهن والتنابز بالألقاب، مما يغض من قدر الطبيب السريري الذي يطلق تشخيصاً لا ينهض على أساس متين.

ومع ذلك، يسع المرء أن يقر بقصور التعويل على الشواهد المبذولة للعيان وما يكتنف ذلك الأساس من افتقار إلى اليقين، ويظل مع ذلك قادراً على بسط رؤى مهنية نفيسة حول العوائق النفسية الظاهرة لشخصية عامة.

وفي نهاية المطاف، إنها مسألة رأي

إنني أوقن أن الجواب بـ "نعم" أو "لا" عن مسألة مشروعية إدلاء المهني بتصريح حول الأهلية العقلية لشخصية عامة بغير فحص شخصي، يمكن أن ينهض على أساس أخلاقي متين. ففي الإحجام عن التعليق، يُعلي المرء من شأن المنهجية التقليدية للمهنة وضوابطها، ولكنه يؤثر أيضاً الصورة

العامة للمهنة على حق الطبيب النفسي في الامتثال لإملاءات ضميره الفردي. أما في إبداء رأي مشروط بالمعطيات المبذولة للعيان (ولكنه يفتقر إلى المصادر التي يُركن إليها في الممارسة السريرية)، فإن المرء يؤثر الواجب المهني في التفاعل مع العوام وتثقيفهم، وتبيان الأخطار الأشد جلاءً ووضوحاً لعين الطبيب السريري.

وإن شيطنة أولئك الذين يعتنقون أياً من الرأيين عن وازع من ضمير هي، في تقديري، الموقف الأوحد الذي لا يُغتفر.

لِمَ آثرت الصدع بالحق

إنها لأزمنة تبعث على الروع. فالقابع حالياً في البيت الأبيض يُرى على نطاق واسع بوصفه متقلباً ومحباً للانتقام. بيد أن هذه العناصر ذاتها في شخصيته لعلها هي ما حببه إلى قاعدته. فهو ينطق بغير تلعثم ولا تروٍ، وينبذ "الصوابية السياسية". وهذا يورث البعض يقيناً بأنه أصيل، ينطق بما جال في خواطرهم وتهيبوا الجهر به. ويبدو أنه سريع الغضب ومتهور في انتقامه. وهذا أيضاً قد يستهوي أقواماً يستشعرون العجز والقهر تحت وطأة نسق اقتصادي وتحولات مجتمعية لم تحفظ لهم مقامهم أو تتيح لهم

بلوغ أحلامهم وطاقاتهم. وإنني لأتماهى مع تلك المشاعر—والمفارقة أنني أشد تماهياً معها الآن، لأنني أكابد ضرباً من العجز الذي أسلفته للتو. وإنه لمما يبعث على السكينة أن أوقن بأن لي نصيراً ذا بأس يحوز السلطة والدافع لإصلاح ما يساورني من قلق. واأسفاه، لقد انقلب السحر على الساحر. (وإن كانت تساورني شكوك عميقة حول مدى صدق دافع السيد ترامب في السعي وراء مصالح العاجزين حقاً).

ومع ذلك، يسعني أن أستشعر روح الجماعة مع أولئك الذين يشاطرونني توجسي بإطلاق نذير الخطر، راجياً أن يجد الآخرون سلوى في رؤية أن هواجسهم مشاطرة. ولعل آخرين يستشعرون القوة بفهم أعمق، مستنير نفسياً، لطبيعة الخطر، وقد يغدون أقدر على الرد بفاعلية بفضل ما أسطره أنا وغيري.

الطبيعة المهلكة المتأصلة في دونالد ترامب كقائد عام

إن ما أتبينه أنا وآخرون كثر في مسلك السيد ترامب وحديثه هو نمط من الاندفاعية يفضي إلى هجمات انتقامية على من يتحدونه. فهو لا يبدو أنه يتريث ليمحص صحة الحقائق والرؤى التي لا يألفها أو لا تروق له.

ويقدم نفسه بوصفه "أعلم من الجنرالات" ويحوز خططاً "عظيمة" لا ريب في نجاحها: "ستسأمون من كثرة الانتصارات"، هكذا قال. ولعل هذا المزيج من الثقة المفرطة وردود الأفعال الطائشة كان خصلة محمودة في عالم الصفقات العقارية، حيث الرهانات مالية، وشخصية، ويُرجى تداركها. بيد أن "إطلاق النار من الورك" (التصرف برعونة) دون استشعار الحاجة إلى بلوغ فهم أصيل للقضايا المعقدة له عواقب أدهى وأمر حين يكون أمن الأمة والبيئة العالمية على المحك.

ومن منظور الصحة النفسية، فإن امرئ دأب على الإشادة بقدراته ويسوقه دافع قهري للحط من قدر الآخرين والسخرية منهم (ولست أتحدث هاهنا عن الحملات السياسية، حيث تلميع الذات في مواجهة الخصوم هو شطر من اللعبة) غالباً ما ينبثق من انعدام أمن عميق، وهو النقيض التام للثقة المطلقة التي يُراد إظهارها.

قد يبدو هذا متناقضاً، أن يصر امرؤ أفلح في مضمار من مضامير الحياة على أنه بارع في مضامير لا تمت له بصلة، مضامير لم يثبت فيها أي كفاءة في حقيقة الأمر، بيد أن هذا يسكن من روع شكوكه الباطنة، وفي الوقت عينه، قد يستهوي استهواءً عظيماً أولئك الذين يتوقون إلى حليف كلي القدرة.

إن هذه الاندفاعية، والحاجة إلى تعضيد صورة مضخمة للذات لا تنهض على أساس، مضافاً إليها عجز عميق عن الإقرار بما يجهله المرء، كلها تنذر بتدخل نفسي عميق يعوق الممارسة العقلانية والمدروسة للسلطة. ولزامٌ علينا أن نفقه هذا، ولا سيما أنه الوعي ذاته الذي يستشعر السيد ترامب نفسه وأشياعه أنه لا ينبغي لهم الإقرار به لأنفسهم ولنا، نحن الشعب الذي أُؤتمن على حمايته. إن إدراكنا بأن هذا نمط شخصية معهود يعوق يقيناً الحكم الرصين والاستجابة السليمة والمدروسة للأزمات، يتيح لنا اتخاذ ما يلزم من إجراءات في كنف القانون لاحتواء الضرر الذي يسعنا استشرافه بجلاء، والذي يتحتم علينا، مجتمعين، أن نروم درأه، والحد منه.

أيعاني دونالد ترامب علة نفسية؟

في تقديري، ليس هذا هو التساؤل الذي ينبغي التصدي له البتة، لعلتين: الأولى، أن العلة النفسية في حد ذاتها لا تتنافر مع الأداء الموثوق به على مستوى رفيع، كأبراهام لينكولن (الاكتئاب)، ووينستون تشرشل (الاضطراب ثنائي القطب). والثانية، أنه بغير فحص نفسي رصين، فإن أي تكهن بتشخيص حاسم يمكن أن يُرى (وقد يكون أحياناً) مجرد تكهن. ومما يزيد الطين بلة، أنه يأتي بنتائج عكسية لعدم صلته بالموضوع (انظر

نقطتي الأولى) ولأن الاستنتاجات المفتقرة إلى اليقين تيسر النبذ السهل للعوائق الحقيقية، والظاهرة، والعميقة في قدرة السيد ترامب على التعاطي بروية وموثوقية مع المسؤوليات المعقدة والخطيرة الملقاة على عاتق رئيس وقائد عام موثوق به.

وبعبارة أخرى، من الناحية العملية وفي مجرى الحياة اليومية، نحن لا نعلم ولا يسعنا أن نجزم ما إذا كان السيد ترامب يعلم أن ما يتفوه به باطل بالبرهان. بيد أن ما نعلمه يقيناً هو أنه لا يُركن إليه في الإقرار بخطئه؛ ولا يبدو قادراً على الاتعاظ بالتجربة بحيث يتجنب تكرار الباطل عينه أو باطل غيره في غده، متلبساً كما يبدو باليقين المطلق عينه الذي وسم زلته السالفة.

خاتمة

إن رئاسة دونالد ترامب لتجابه مهنة الطب النفسي، والأهم من ذلك بكثير، بلادنا، بتحدي التعاطي مع زعيم منتخب يمثل نمطه النفسي (الموسوم بالاندفاعية، والإصرار على عصمته من الزلل، والانتقام الحاقد، واليقين في غير محله في ظروف تفتقر إلى اليقين) عائقاً عميقاً يحول دون اتخاذ قرارات رصينة، وينذر بممارسة متقلبة وطائشة لسلطة هائلة.

د. ليونارد إل. غلاس، أستاذ مشارك في الطب النفسي (غير متفرغ) في كلية الطب بجامعة هارفارد وطبيب نفسي معالج أول في مستشفى ماكلين. كان الدكتور غلاس رئيساً لجمعية ومعهد بوسطن للتحليل النفسي، ورئيساً للجنة الأخلاقيات فيها، وزميلاً متميزاً مدى الحياة في الجمعية الأمريكية للطب النفسي حتى استقالته احتجاجاً على قاعدة غولدواتر في أبريل عام سبعة عشر وألفين. ألح الدكتور غلاس على الحاجة إلى إصلاح قاعدة غولدواتر مباشرة مع الجمعية الأمريكية للطب النفسي، وفي مقال في مجلة محكمة، وعقب الطبعة الأولى من هذا السفر، في مقابلات على شبكات بي بي إس، وسي إن إن، وإن بي آر، ومقالات رأي في صحيفة بوسطن غلوب، وغيرها من وسائل الإعلام الوطنية والدولية.

في إبصار ما ترى والجهر بما تعلم

مسؤولية الطبيب النفسي

د. هنري جيه. فريدمان

أيسع الأطباء النفسيين المحنكين، ممن أوتوا حظاً وافراً من الدربة في الطب النفسي والتحليل النفسي وصقلتهم عقود من الممارسة السريرية، أن يعطلوا ملكاتهم في الرصد حقاً؟ وإن وسعهم ذلك، فلِمَ يؤثرون فعله؟ والأهم من ذلك، لِمَ يُحرم العوام من خبرتنا؟ إن هذه لتساؤلات وهواجس وجيهة ولا مندوحة من طرحها قبل سبر غور مسألة كيفية التعاطي مع تجربة التعرض للرئيس دونالد ترامب في وسائل الإعلام. وما كانت مثل هذه السلسلة من التساؤلات والهواجس لتكون ذات بال لولا الموقف الذي اتخذته الجمعية الأمريكية للطب النفسي، والذي يلح على أنه من المنافي للأخلاق أن يعلق الأطباء النفسيون على شخصية عامة كالرئيس ترامب أو يشخصوها ما لم يعاينوها في عياداتهم. وثمة مفارقة في هذا الموقف، إذ لو أنك، كطبيب نفسي، فحصته شخصياً، لحُظر عليك، بموجب المعايير الأخلاقية للسرية، أن تفشي شيئاً عن تشخيصه بغير إذن منه، حتى وإن خلصت إلى أنه غير لائق للمنصب بوجه من الوجوه.

لقد أقرت الجمعية الأمريكية للطب النفسي قاعدة غولدواتر إثر استطلاع أجرته مجلة "فاكت" للأطباء النفسيين، سائلة إياهم تشخيص باري غولدواتر، الذي كان يخوض غمار السباق الرئاسي ضد ليندون جونسون في عام أربعة وستين وتسعمائة وألف. ورأى سواد من المجيبين أن تأييد غولدواتر لاستخدام الأسلحة النووية في الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي يسوغ وسمه بتشخيص جنون الارتياب (البارانويا) (بل وحتى الفصام الارتيابي) بصورة أو بأخرى. ولقد عُدت هذه الحقيقة وحدها كافية في نظر الكثيرين لاستخدام هذا التشخيص في الرد على تساؤل المجلة. فأفلح غولدواتر في مقاضاة المجلة بتهمة التشهير؛ وكان الهلع والقلق الذي تجلى في إقرار الجمعية لقاعدة غولدواتر مفهوماً في حينه، بيد أنه كان يُرجى قطعاً أن يُعدل استجابة للعالم المغاير تماماً الذي تبلور منذ أوائل السبعينيات. فالتغيرات في عالم الإعلام، كظهور الأخبار الكابلية بدورتها الإخبارية التي لا تنقطع على مدار الساعة وبثها للصور المرئية للأحداث والقادة، كان حرياً بها، في تقديري، أن تفضي إلى نبذ قاعدة غولدواتر. وبدلاً من ذلك، آثرت لجنة الأخلاقيات في الجمعية، بغير استطلاع آراء أعضائها، أن تضاعف رهانها على قاعدة غولدواتر بتوسيع نطاقها ليتجاوز تخوم التشخيص ليشمل أي وكل تعليق على الأداء العقلي لهذا الرئيس أو أي شخصية عامة بارزة.

وعلاوة على التغيرات في وفرة التغطية التلفازية، فقد طرأ تطور في استخدام الهاتف وسكايب في العلاج عن بعد للمرضى في كل من العلاج النفسي والتحليل النفسي. فكثير من الأطباء النفسيين المعاصرين لم يعودوا يستشعرون ضرورة مثول المريض بين أيديهم في غرفة الاستشارة. ولئن تباين الأطباء السريريون في مدى ارتياحهم وخبرتهم في العلاجات عبر الهاتف وسكايب، إلا أن ثمة توجهاً جلياً نحو هذه الوسائط بوصفها ضرورة لا غنى عنها إن رام المرء إدارة عيادة بدوام كامل وبسط مظلة العلاج لتشمل المناطق المحرومة. وإن هذا التحول في الموقف تجاه العلاج "عن بعد" المُجرى عبر سبل تواصل لم تُعهد من قبل، لثيق الصلة بالعلة التي تجعل التعليق على الأداء العقلي للرئيس ترامب لا يبدو مريحاً فحسب، بل وضرورياً.

ولفرط التعرض المتصل لدونالد ترامب في الأخبار التلفازية وإفصاحه السافر عن أفكاره في تغريدات متسارعة وفيض من التعليقات المرتجلة غير المعدة سلفاً، لا يسع الراصد المتمرس إلا أن يلحظ نمط تفكيره وردة فعله إزاء الحقائق المحبطة التي تتحدى روايته للأحداث. وفي هذا الصدد، تقتضي الملاحظات حول الرئيس ترامب جلاءً مهنياً لمفاهيم التفكير والشخصية الارتيابية (البارانوية). ويسع الراصد غير السريري أن يتدبر

مدى انطباق هذه المفاهيم على الرئيس، مما ييسر خلق جمهور أشد استنارة وقدرة على التفكير النقدي، وأقدر على العمل بما يخدم مصالحه.

إن التفكير الارتيابي، متى ما استدام، ليدل على بنية شخصية ارتيابية. وهذا يعني أن المرء الذي جُبل على هذه الشخصية سيفرز باطراد أفكاراً واستجابات تتوجس خطراً مبالغاً فيه ونوايا خبيثة في الآخرين وفي المواقف التي يجابهها. ولقد أظهر كبار القادة الشموليين في القرن العشرين تفكيراً ارتيابياً. وما كان سلوكهم المدمر إلا تجسيداً لأفكارهم المضطربة. ولا محالة، عاينا كيف استولى أمثال هؤلاء على بلدان بأسرها، عاملين أبداً على تعظيم سطوتهم بقمع حرية الصحافة والإعلام، والزج بالمعارضة السياسية في غياهب السجون أو تصفيتها، وعسكرة سلطتهم السياسية. ومن هنا ينبع الشبه بين هتلر وستالين فيما يخص القتل العبثي لملايين البشر لدوافع من قسوة ارتيابية محضة ما إن استقروا في ذهن القائد بوصفهم "أعداء الشعب".

وحين يُلفت النظر إلى الشبه بين هتلر وترامب، فغالباً ما يثير ذلك عاصفة هوجاء من الاعتراض. وإن أولئك الذين يعترضون بهذه الشدة إنما يلفتون النظر، في حقيقة الأمر، إلى أفعال هتلر في استيلائه الفوري على الصحافة واعتقال معارضيه أو تصفيتهم. ولئن كان حقاً أن الكوابح الفاعلة في بلادنا قد حالت دون تحرك ترامب بالسرعة التي تحرك بها هتلر، إلا أن هذا يُعزى إلى توازن السلطات وقوة تقاليدنا الديمقراطية العتيدة، لا إلى أي شعور بأن أنماط تفكير ترامب الوجدانية تفترق افتراقاً عظيماً عن تلك التي حركت هتلر.

إن العقل الشمولي لقابل للاستنساخ بصورة مذهلة لأنه ينهض على أفكار ارتيابية تُعرض في قالب درامي يُراد به استنهاض الخوف والكراهية، ولا سيما في المواطنين الأقل حظاً من التعليم. فترامب، كشأن هتلر، استهل مسيرته بإلحاحه على تصوير الولايات المتحدة في حالة من الانحدار، وهو انحدار، في حالة ترامب، تسبب فيه رئيسنا الأمريكي الأفريقي الأول، الذي، بحسب ترامب، ترك بلادنا في حالة من الفوضى، "مذبحة أمريكية". هذا، على الرغم من السجل المذهل حقاً للرئيس أوباما في إنقاذ الاقتصاد إثر انهيار عام ثمانية وألفين، والحيلولة دون استحالة أسوأ ركود إلى كساد عظيم آخر، وبسط مظلة الرعاية الصحية لتشمل الفقراء

والطبقة الوسطى، والإشاعة العامة للمواقف المستنيرة تجاه الأقليات والنساء.

إن الإلحاح على أن خطراً داهماً ماثل في الواقع لمجرد أنه قابع في عقل المرء لهو السمة المميزة للديكتاتور. فبالنسبة لهتلر، كان اليهود يمثلون تهديداً وجودياً؛ وبالنسبة لترامب، هم المهاجرون غير الشرعيين والمكسيكيون على وجه الخصوص. كما أن الاستخفاف بالحقائق، وإنكار أن "إثبات الحقائق" ضرورة قبل الجزم بوجود خطر أو الإلحاح على النوايا الخبيثة لجماعة غفيرة (أي اليهود بالنسبة لهتلر، والمسلمون بالنسبة لترامب) هو أمر معهود في الشخصيات الارتيابية التي تفتقر إلى عدو توجه ضده كراهية الجماعة.

لقد ركز كثير من نقاد ترامب، ولا سيما الصحفيين، بل وحتى العاملين في حقل الصحة النفسية، على ما يُسمى بنرجسيته، وحاجته إلى الاستحسان المتصل، والطبيعة الطفولية لشخصيته. وهم بذلك يبخسون أهمية معتقداته الارتيابية، وبفعلهم هذا، يرفعون خلله النفسي إلى مرتبة أسمى بكثير مما هو عليه في حقيقة الأمر. وهذا يصدق أيضاً على أولئك الذين يوقنون بأنه إنما يتخذ من هجومه على المهاجرين غير الشرعيين والمسلمين مطية لإرضاء قاعدته. فهم بذلك يلمحون إلى أنه هو نفسه يعلم علم اليقين بطلان ذلك، وأنه يعلم أنه إنما يتوسل بهذه الأفكار لأنها

تستهوي العمال البيض الذين يشكلون السواد الأعظم من ناخبيه. بيد أن هذا يغفل ويهون من شأن الاحتمال الأشد روعاً: أنه ارتيابي حقاً وأن ثمة تقاطعاً بين كراهياته الشخصية وكراهيات أشياعه. فمعاً، يمثلون رغبة في نقض أثر كل ما تبدل منذ عهد فرانكلين ديلانو روزفلت، والصفقة الجديدة، والتحرر العام للمجتمع والحياة في الولايات المتحدة.

لا يكاد يُقال إن التقدم في كنف ديمقراطيتنا الليبرالية كان حثيثاً. بل كان وئيداً، يأتي في طفرات من النشاط يعقبها استيعاب للتغيير، بيد أن هذا الاستيعاب طالما جوبه بمعارضة من لدن أولئك الذين استهجنوا ذلك التغيير بعينه. فلقد أرست حركة الحقوق المدنية هوية جديدة للأمريكيين الأفارقة، هوية أبوا فيها أن يرتضوا وسمهم بأفراد دونيين يُرتقب أن يُعاملوا كمواطنين من الدرجة الثانية أو أدنى. وإن قدرتهم على التوسل بالمقاومة السلمية والمسيرات لنيل الإقرار بحقهم في المساواة قد تعززت بتسجيل الناخبين السود في وجه المقاومة المحلية وتكريس أصواتهم كمحدد قوي في الانتخابات الولائية والوطنية على حد سواء. ولقد أفضت القوة المجتمعة للأمريكيين الأفارقة، والنساء، والناخبين الليبراليين إلى انتخاب أول رئيس أمريكي أفريقي، وهي نتيجة حدت بكثير من الليبراليين، ومنهم الرئيس أوباما، إلى الاعتقاد بأن الولايات

المتحدة قد بلغت أخيراً مقاماً يتجاوز العنصرية كمجتمع. واأسفاه، لقد تبين أن هذا أبعد ما يكون عن الحق. فبدلاً من أن يكون دليلاً على انحسار العنصرية، بدا أن مجرد وجود رجل أسود في البيت الأبيض قد أذكى نار كراهية ومقاومة للرئيس أوباما كانت، إن كان ثمة شيء، تذكيراً قاتماً بإرث العبودية والشقاق في الولايات المتحدة بين الشمال والجنوب، والذي لم يكد يندمل أو حتى تندمل ندوبه.

وفي حملته المظفرة لاقتناص ترشيح الحزب الجمهوري، اتخذ المرشح ترامب من عنصرية الطبقة العاملة البيضاء مطية لاستقطاب دعمهم الحماسي بمهاجمة كل واحد من المرشحين الجمهوريين الآخرين بعبارات لم تُعهد من قبل في مثل هذا المضمار. بيد أنه، في الأغلب، عول على جاذبيته الشعبوية لسخط أشياعه وازدرائهم للمؤسسة. وما كاد يغيب عن الأنظار حتى في خضم تأمين الترشيح هو قدرته على اختلاق الأمور وفي الوقت عينه تصديقها بنفسه. لقد أفلح ترامب في صياغة تنويعة على مقولة ديكارت "أنا أفكر، إذن أنا موجود": "أنا أفكر في الأمر، إذن هو كائن". وإن هذه العلاقة المتهورة بالواقع من لدن ترامب قد ظلت تمثل شطراً مطرداً من شخصيته؛ فما من حقيقة يوقن بصدقها، غالباً بعد مطالعتها في أحد مواقع اليمين البديل، تخضع للتمحيص أو المساءلة. وإن هذا

الضرب من جنون العظمة لهو شطر من الارتياب الذي يهيمن بجلاء على تفكير ترامب.

أأنا أطلق تشخيصاً على الرئيس ترامب؟ حسناً، نعم ولا—بل وربما—بيد أنه أياً كان ما أفعله، فثمة أمر واحد أأبى أن أفعله: أن أنكر ما أسمعه وأبصره صادراً عن ترامب نفسه في الأخبار التلفازية وفي الصحافة المطبوعة الموثوقة. إن سعي شبكات سي إن إن، وإم إس إن بي سي، وصحيفتي نيويورك تايمز وواشنطن بوست لإبقاء العوام على بينة من أمر ترامب وإدارته كان بلا ريب عنصراً حاسماً في الحيلولة دون إلحاقه مزيداً من الأذى، ودون سلوكه الدرب الراديكالي الحق لهتلر. ومن ثم، فإن هجومه على الصحافة، واصماً نقل الحقائق الصادق بأنه "أخبار زائفة"، هو نسخة مخففة من الاستيلاء الأشد تطرفاً على وسائل الإعلام المعهود في الحكومات الشمولية. لم يقدر ترامب أو لم يشأ أن يستولي على وسائل الإعلام الإخبارية ويوصد أبوابها، ولكنه حاول ذلك بإلحاحه على أن أولئك الذين يشككون في تورط حملته في التدخل الروسي في انتخاباتنا يأبون الإقرار بأنه لا أساس للتحقيق في هذا الاحتمال. ولقد ألمح بعض الصحفيين، كتوماس فريدمان، وراشيل مادو، ولورانس أودونيل، إلى أن ترامب "مجنون". وفي الآونة الأخيرة، وفيما يخص إقالته لمدير مكتب

التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي، أبدى كثيرون ملاحظة مفادها أن الرئيس ترامب "منفلت من عقاله". إن هذه الأوصاف يطلقها أناس أذكياء من غير الأطباء النفسيين، تضيق بهم السبل في استخدام مثل هذه الألفاظ لوصف انطباعهم عن الرجل وتفكيره. بل إن دوني دويتش في برنامج "مورنينغ جو" قد جهر بمعارضته لقاعدة غولدواتر وتساءل متى سيعلق الأطباء النفسيون على ما يبصرونه وهم يرمقون الرئيس ترامب. وألح دويتش على الحاجة إلى طرح قاعدة غولدواتر ظهرياً نصرة لأولئك الذين يشكون بحق في أن حالة ترامب العقلية لا تتسق مع المنصب الذي يتبوأه حالياً.

إن زعيماً ارتيابياً، مفرط الحساسية، متعظماً، وجاهلاً كدونالد ترامب، قد أحاط نفسه بمجلس وزراء وثلة من المستشارين إما يعجزون عن انتشاله من شكوكه وإلحاحاته الارتيابية أو، وهو الأدهى، يتماهون مع مواقفه، ليمثل تهديداً متعدد الأبعاد لبلادنا والعالم. وإن أشد الهواجس التي تطرق سمعي من مرضاي تواتراً هو أن اندفاعية ترامب ستفضي إلى حرب نووية مع كوريا الشمالية. وإن شدة هذا الهاجس لتميل إلى حجب الوعي بما قد استهل سلفاً في الولايات المتحدة، ألا وهو تآكل المجتمع العادل والكريم الذي ما انفك يتطور منذ الصفقة الجديدة لفرانكلين ديلانو

روزفلت. لقد بلغ ذلك المجتمع ذروة كرامته في عهد رئاسة باراك أوباما، الزعيم الذي جسد معنى أن يكون المرء زعيماً مستقراً لأمة عظيمة وذات بأس. إن حاجة ترامب إلى تدمير كل ما أنجزه أوباما تنبع من كراهية الشخصية الارتيابية للخير في الآخرين ممن لا يسعه بلوغ إنجازاتهم، أو فقهها، أو احتمالها. وإن هذا المبلغ من التدميرية في أي امرئ ليجعله مرشحاً بائساً لأي ضرب من ضروب العلاج. فخير أي معالج، وكفاءته، وقدرته على توفير الاستجابة المبتغاة، ستكون عُرضة للتدمير. وإن علاج أمثال هؤلاء لطالما كان شاقاً ونادراً ما يؤتي أكله، ومع ذلك فهم غالباً ما يمثلون بين يدي المعالج حين تلم بهم الخطوب مدعين الرغبة في نيل العون. وما إن يفلحوا في حل المعضلة التي ساقتهم إلى العلاج، حتى يسفروا سريعاً عن زهد في العلاج أو المعالج.

وهذا يحدونا إلى مسألة تحليل الرئيس ترامب من بعيد؛ أهو ممكن، أهو أخلاقي، ومن ذا الذي يفصل في هذا الخطب؟ وعلى وجه الخصوص، هل يحول موقف الجمعية الأمريكية للطب النفسي، بنسختها المستحدثة من قاعدة غولدواتر، دون إقدام طبيب نفسي-محلل نفسي على مثل هذا التحليل؟ إن المحلل النفسي الكلاسيكي ليسخر من فكرة إمكانية إجراء أي تحليل نفسي من بعيد، سواء عبر الهاتف أو سكايب. ففي نظر محلل

كهذا، لزامٌ أن يمثل كل من المحلل والمُحلَّل في غرفة الاستشارة، ليتسنى رصد المريض الممارس للتداعي الحر رصداً متصلاً. فاللاوعي يُستكشف ويُفسر للمريض في لحظة التفاعل. وبميزان التحليل النفسي الكلاسيكي، لا سبيل إلى تحليل المرشح أو الرئيس ترامب. بيد أنه، ومن منظور محلل نفسي تفاعلي أو علائقي، يسع المرء أن يعمل فكره تحليلياً فيه من بعيد فحسب. ولما كان من المستبعد غاية الاستبعاد أن يعقد ترامب صلة وثيقة بمعالج، فلزامٌ علينا أن نراه موضوعاً لائقاً للتأمل الوصفي لا لعلاج من أي ضرب؛ لزامٌ علينا أن نصدق ما نبصره في كل ما يجليه لنا بغير تردد ولا كبح. والأهم من ذلك، لزامٌ علينا أن نلح على أن هذه التجليات لا يمكن تطبيعها؛ ولن تتبدل. إن ترامب يتحدانا بتساؤل: "أتصدقونني، أم تصدقون أعينكم الكاذبة؟" فكل ما يسنح في خاطر ترامب في اللحظة يُترجم إلى تغريدات أو حديث بغير اكتراث بربط فكرته بأي فكرة سُبقت أو بأي سياق ينبغي أن يكون جلي الصلة بما يزعمه الآن.

ولعله يجاوز حتى أوسع مفاهيم التحليل النفسي التطبيقي، بيد أن ما يتيح لنا حقاً النفاذ إليه هو أسلوبه المعهود في الرد على من يخالفونه. فغالباً ما يعامله نقاده وكأنه صبياني—أي أنه يتصرف كطفل لا كبالغ ناضج—ملمحين إلى أنه، كطفل، لا يزال بوسعه أن "يكبر". والمعضلة في نهج كهذا أنه تجلٍ لتفكير رغائبي، وأنه باطل إذ يبخس بخساً فاحشاً أهمية

شخصية ترامب الارتيابية البالغة مع إيمانها برؤية كارثية لولايات متحدة واهنة ومنحدرة لا منقذ لها سواه من الديمقراطيين الليبراليين الذين يعارضون سلطته. إن أي سعي لـ "فهم" ترامب من منظور طفولته أو ما يعيد تمثيله من الماضي هو، في الأرجح، مسعى يائس ولا طائل منه. فتشكل الشخصية من النمط الارتيابي يغدو مستقلاً بذاته حتى إنه، ما إن يتصلب، يغدو من العبث تقريباً محاولة التماس علة لوجوده في فرد بعينه.

وفي نهاية المطاف، فإن الرد على إدارة ترامب لا بد أن ينبثق من الناخبين. فلعل السياسات كافة التي يروم ترويجها لا تكون في حد ذاتها مهلكة لبلادنا هلاكاً مطلقاً. ولا ريب أن الفقراء والمهمشين سيكابدون الأمرين، بيد أن الخطر الداهم سينبع من شخصية الرئيس الارتيابية، التي ستظل ماثلة وفاعلة ما دام قابعاً في منصبه. ولعل ملاحظات هذا الطبيب النفسي-المحلل النفسي، وغيره من العاملين في حقل الصحة النفسية، تعين على جلاء العلة التي تجعل خطر الرئيس ترامب يجاوز مسألة سياساته، ليكمن بدلاً من ذلك في صميم شخصيته الارتيابية. وحين أرمق، كطبيب نفسي، المعلقين والصحفيين وهم يكابدون لفهم أو تفسير أحدث مواقف الرئيس ترامب اللامعقولة—كما حين يكذب بشأن متى ولِمَ عقد العزم على إقالة جيمس كومي أو التفاصيل المزعومة لحواراته

مع كومي قبل وقوع الإقالة—أود لو وسعني أن أعينهم على فقه شخصيته الارتيابية ولِمَ لا ينبغي أن يثير سلوك ترامب هذا أي عجب. فحري بهم أن يتأهبوا لمعاينة مواقف جمة أخرى يستشعر فيها ترامب الغدر فينقلب على من خدموه سالفاً. فالارتيابيون أبداً يتفرسون الغدر فيمن حولهم، ويردون بغضب انتقامي—هتلر وستالين، بتصفية أعدائهم المستحدثين؛

وترامب، بإقالتهم. وإن المعرفة والمصطلحات النفسية لتقي الصحفيين والعوام من البقاء في حيرة ومحاولة التماس تفسيرات لسلوك يسهل فقهه لو استُحضرت شخصية ترامب الارتيابية أبداً. إن هذا هو السبيل الأوحد لضمان بقاء ديمقراطيتنا وأمننا القومي وحيويتهما.

د. هنري جيه. فريدمان، أستاذ مشارك في الطب النفسي، بكلية الطب بجامعة هارفارد (غير متفرغ)، وعضو في هيئات تحرير مجلة التحليل النفسي الفصلية، والمجلة الأمريكية للتحليل النفسي، ومجلة الجمعية الأمريكية للتحليل النفسي، وتتركز اهتماماته الرئيسة في الفعل العلاجي للتحليل النفسي والعلاج النفسي التحليلي. كما يترأس فريدمان جلسة "لقاء مع المؤلف" في الاجتماعات نصف السنوية للجمعية الأمريكية للتحليل النفسي.

الخطب في الخطورة، لا في العلة النفسية

د. جيمس غيليغان

لقد أُنبئ الأطباء النفسيون في أمريكا اليوم من لدن منظمتين رسميتين متباينتين بأن في أعناقهم التزامين مهنيين على طرفي نقيض، وأنهم إن أخلوا بأيهما، فقد جانبوا الأخلاق. الأول يقضي بأن عليهم التزاماً بالصمت المطبق إزاء تقييمهم لأي امرئ ما لم يأذن لهم بالجهر بذلك. والثاني يقضي بأن عليهم التزاماً بالصدع بالحق وإنذار الآخرين إن أيقنوا أن ذلك المرء قد يشكل خطراً عليهم، حتى وإن لم يأذن لهم بذلك. المعيار الأول هو قاعدة غولدواتر لعام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، التي تحظر على الأطباء النفسيين إبداء رأي مهني علني في الصحة العقلية لأي امرئ لم يفحصوه شخصياً. والثاني هو حكم تاراسوف، الذي قضى في عام ستة وسبعين وتسعمائة وألف بأن على الأطباء النفسيين التزاماً إيجابياً بالجهر بالحق علانية حين يوقنون، أو كان حرياً بهم أن يوقنوا، بأن فرداً ما يشكل خطراً على شخص أو أشخاص آخرين، بغية إنذار الضحية (أو الضحايا) المحتملين بالخطر المحدق بهم واستنهاض جملة من الإجراءات التي تعين على حمايتهم.

ومن منظور أخلاقي وقانوني على حد سواء، فإن الثاني من هذين الحكمين ينسخ الأول.

وبقدر ما يمارس الأطباء النفسيون عملهم كأطباء سريريين، فإن واجبهم الأسمى معقود بمرضاهم أفراداً. بيد أن الطب النفسي، كشأن أي تخصص طبي آخر، يجاوز الممارسة السريرية المحضة (أي تشخيص وعلاج مريض تلو آخر بعد أن يكونوا قد ابتلوا بالعلة سلفاً). فهو أيضاً فرع من فروع الصحة العامة والطب الوقائي، وفي هذا الشطر من عمله، ندين للمجتمع بواجب الأسمى، ففي هذا المقام يسع الوقاية الأولية والثانوية أن تقي الأفراد من الوقوع في براثن العلة أو العنف ابتداءً، ومن إلحاق الأذى أو الموت بالآخرين إن كانت علتهم أو سلوكهم معدياً. والحق أن هذا المقام من التدخل يسعه حتى أن يقي المجتمع بأسره من الوقوع فريسة لأوبئة العلة، والأذى، والموت. أما الطب النفسي السريري، من منظور الصحة العامة، فليس سوى وقاية من الدرجة الثالثة، ويمثل أهون إسهام يسعنا تقديمه للصحة العامة، مقارنة بالوقاية الأولية والثانوية. ومن هذا المنظور، فإن في أعناقنا التزاماً إيجابياً بإنذار العوام حين يكون لدينا ما يحدونا إلى الاعتقاد، بناءً على بحوثنا مع أشد الناس خطراً ممن يفرزهم مجتمعنا، بأن شخصية عامة، بما تأتيه من أفعال، تمثل خطراً على الصحة العامة—سواء أكان معتلاً نفسياً أم لا.

وكان من الإرهاصات الفكرية لقاعدة غولدواتر تعليق أبداه أحد أشد المفكرين الألمان أثراً وعبقرية قُبيل صعود هتلر. ففي مقاله "العلم كحرفة"، حاجج ماكس فيبر (١٩١٧) بأنه لا ينبغي للمفكرين والعلماء أن يتفوهوا بآراء سياسية أو ينطقوا بما قد يُعد "تحزباً". يسعهم الحديث عن السياسة بوجه عام، بيد أنه لا ينبغي لهم أن ينطقوا بما قد يُتلقى على أنه تأييد أو معارضة لأي حزب أو سياسي بعينه.

ولطالما أرقني ذلك الرأي، إذ يبدو لي أنه قد شجع قادة الفكر والمهن في ألمانيا على التزام الصمت المطبق، حتى في وجه خطر داهم لم يُعهد من قبل. ولا يبدو لي أن الجمعية الألمانية للطب النفسي في الثلاثينيات تستحق أي تبجيل أو ثناء لصمتها إبان صعود هتلر إلى سدة السلطة. بل على النقيض من ذلك، تبدو من منظورنا اليوم وكأنها كانت ممكناً سلبياً لأبشع الفظائع التي اقترفها—كما كان شأن جل رجال الدين، والأساتذة، والمحامين، والقضاة، والأطباء، والصحفيين، وغيرهم من المهنيين والمفكرين الألمان الذين كان يسعهم الجهر بالحق، ولم يفعلوا، حين أبصروا معتلاً نفسياً (سيكوباتياً) سافراً يغتصب السلطة ليسوق بلادهم إلى أشنع كارثة في تاريخها. ولا يفتقر رئيسنا الراهن إلى أن يكون تجسيداً حرفياً لهتلر—ولست ألمح إلى أنه كذلك—لكي تنطبق علينا المبادئ عينها اليوم.

إن الخطب الذي نثيره ليس ما إذا كان ترامب معتلاً نفسياً. بل ما إذا كان خطراً. فالخطورة ليست تشخيصاً نفسياً. ولا يفتقر المرء إلى أن يكون "معتلاً نفسياً"، كما يُعرّف ذلك القانون والطب النفسي، ليكون خطراً. والحق أن جل المعتلين نفسياً لا يقترفون عنفاً جسيماً، وجل العنف يقترفه أناس ليسوا بمعتلين نفسياً. فالصلة بين العنف والعلة النفسية واهية غاية الوهن في أحسن الأحوال. فما يقارب ١ بالمائة فحسب من مقترفي جرائم القتل في هذه البلاد يُقضى بأنهم "غير مذنبين لعلة الجنون". أما الباقون فتقضي محاكمنا بأنهم أصحاء عقلياً ولكنهم أشرار، كما تُستخدم هذه المفاهيم فيما يخص "المسؤولية الجنائية" للناس عن أي عنف اقترفوه.

قد يستوفي الرئيس ترامب أو لا يستوفي معايير أي من تشخيصات الاضطرابات النفسية المحددة في الدليل التشخيصي والإحصائي للجمعية الأمريكية للطب النفسي، أو لكثير منها، بيد أن هذا لا يمت بصلة للخطب الذي نثيره هاهنا.

كما أن أوثق المعطيات لتقييم الخطورة غالباً ما لا تقتضي، وغالباً ما لا تُستقى من، مقابلة الأفراد الذين نُعمل فيهم الرأي. فمثل هؤلاء الأفراد غالباً (وإن لم يكن دوماً) ما ينكرون، أو يهونون من شأن، أو يرومون

إخفاء الحقائق ذاتها التي تسمهم بالخطورة. وقد تنبثق أوثق المعطيات من أهل المرء وصحبه، وبنفس القدر من الأهمية، من تقارير الشرطة؛ والسجلات الجنائية؛ والسجلات الطبية، والسجنية، والقضائية؛ وغيرها من المعلومات المبذولة للعيان من أطراف ثالثة. بيد أننا، في حالة ترامب، نحوز أيضاً سجلات عامة جمة، وتسجيلات صوتية، ومقاطع مرئية، وخطاباته العامة، ومقابلاته، و"تغريداته" التي تطفح بتهديداته المتواترة بالعنف، وتحريضه عليه، وتباهيه بعنف يقر هو نفسه باقترافه مراراً وتكراراً وباطراد.

وتارة تبلغ خطورة المرء مبلغاً من الجلاء لا يفتقر معه المرء إلى دربة مهنية في الطب النفسي أو علم الإجرام لتبينها. ولا يفتقر المرء إلى خمسين حولاً من الخبرة المهنية في تقييم خطورة المجرمين العتاة ليدرك خطورة رئيس:

• يتساءل عن الجدوى من حيازة أسلحة نووية حرارية إن لم يسعنا استخدامها. فمثلاً، في مقابلة مع كريس ماثيوز في لقاء مفتوح على شبكة إم إس إن بي سي، قال: "لو ضربنا أحدهم من داخل داعش، ألن ترد بضربة نووية؟" وحين أشار ماثيوز إلى أن "العالم بأسره يسمع رجلاً يترشح لرئاسة الولايات المتحدة يتحدث عن احتمالية استخدام الأسلحة النووية. لا أحد يبتغي سماع ذلك عن رئيس أمريكي"، أجاب ترامب: "إذن لِمَ نصنعها؟" وأفاد مقدم آخر في الشبكة عينها، جو سكاربورو،

بأن ترامب سأل مستشاراً للسياسة الخارجية ثلاث مرات: "إن كنا نملكها، فلِمَ لا يسعنا استخدامها؟".

• يحث حكومتنا على استخدام التعذيب أو ما هو أدهى ضد أسرى الحرب. فإبان حملته الرئاسية، ردد ترامب مراراً أن "التعذيب يؤتي أكله"، ووعد بإعادة "الإيهام بالغرق" واستحداث أساليب جديدة "تذهب أبعد من ذلك بكثير". وحين ذُكر بأن ثمة قوانين تحظر هذه الممارسات الآن، أجاب بالإلحاح على أنه سيوسع القوانين لئلا تُضطر الولايات المتحدة إلى اللعب "وفق القواعد"، إذ إن داعش لا تفعل ذلك.

• ألح على إنزال عقوبة الإعدام بخمسة فتية أبرياء من الأمريكيين الأفارقة بتهمة اعتداء جنسي حتى بعد سنين من ثبوت براءتهم بما لا يدع مجالاً للشك واقتراف غيرهم للجرم. ففي عام تسعة وثمانين وتسعمائة وألف، أنفق ترامب ٨٥,٠٠٠ دولار لنشر إعلانات في الصحف اليومية الأربع في مدينة نيويورك يطالب فيها بإعادة عقوبة الإعدام إلى ولاية نيويورك ليُعدم خمسة فتية من الأمريكيين الأفارقة أُدينوا ظلماً باغتصاب امرأة في سنترال بارك، وظل يطالب بالعقوبة عينها في عام ستة عشر وألفين، بعد أربعة عشر عاماً من إثبات أدلة الحمض النووي واعتراف مفصل أن مغتصباً متسلسلاً هو من اقترف الجرم حقاً.

• يتباهى بقدرته على الإفلات من عقاب الاعتداء الجنسي على النساء بفضل شهرته وسطوته. سُجل لترامب قوله، عن طريقته في التعاطي مع النساء: "أنا فقط أشرع في تقبيلهن. إنه كالمغناطيس... لا أتريث حتى. وحين تكون نجماً يدعنكَ تفعلها. يمكنك أن تفعل أي شيء. أمسك بهن من الفرج. يمكنك أن تفعل أي شيء".

• يحث أشياعه في التجمعات السياسية على لكم المحتجين في وجوههم وضربهم ضرباً مبرحاً حتى يُحملوا على المحفات. في افتتاحية لها، أوردت صحيفة نيويورك تايمز التصريحات الآتية لترامب في تجمعاته: "أود أن ألكمه في وجهه، أقول لكم"؛ "في الأيام الخوالي لم يكن هذا ليقع، لأنهم كانوا يعاملونهم بقسوة بالغة"؛ "أهوى الأيام الخوالي. أتدرون ما كانوا يفعلونه بأمثال هؤلاء حين يكونون في مكان كهذا؟ كانوا يُحملون على محفة، يا قوم"؛ "إن أبصرتم أحدهم يتأهب لرمي طماطم، فاضربوه ضرباً مبرحاً، ألا تفعلون؟ بجد. فقط اضربوهم ضرباً مبرحاً. سأتكفل بالرسوم القانونية، أعدكم". بل إنه تذمر من أن أنصاره لم يكونوا عنيفين بما يكفي (رغم أن كثيرين منهم اعتدوا على محتجين بشدة أفضت إلى اعتقالهم ومحاكمتهم بتهمة الاعتداء والضرب): "شطر من المعضلة، وشطر من العلة في أن الأمر يستغرق وقتاً طويلاً [لإخراج المحتجين]، هو أن أحداً لم يعد يبتغي إيذاء الآخر، أليس كذلك؟".

• يلمح إلى أن أشياعه يسعهم دوماً اغتيال خصمه السياسي، هيلاري كلينتون، إن انتُخبت رئيسة أو، في أدنى تقدير، الزج بها في السجن. فقد قاد الحشود في هتافات "احبسوها! احبسوها!". وبكلماته: "إذا قُيض لها أن تختار قضاتها، فلا حيلة لكم يا قوم. وإن كان أنصار التعديل الثاني— ربما تكون ثمة حيلة، لست أدري".

• يوقن بأنه يسعه دوماً الإفلات من عقاب أي عنف يقترفه. قال: "بوسعي أن أقف في قلب الجادة الخامسة وأطلق النار على أحدهم، ولن أفقد ناخبين".

وهلم جرا، وهلم جرا—في سيل لا ينقطع من التهديدات بالعنف، والتباهي بالعنف، والتحريض على العنف.

ولئن لم يفلح ترامب بعد في نقض سيادة القانون إلى الحد الذي يجعله ديكتاتوراً، إلا أن الجلي أنه ينطق بلسان الديكتاتورية. فالديكتاتوريون وحدهم هم من يغتالون أو يسجنون خصومهم ومعارضيهم السياسيين.

لم يقر ترامب بأنه اعتدى شخصياً على النساء؛ بل تباهى بأنه فعل. أي أنه أقر باقتراف ذلك مراراً وتكراراً، والإفلات من العقاب، لا كتجلٍ لمشاعر ذنب وندم شخصية على انتهاكه للنساء على هذا النحو، بل كتباهٍ بالسطوة التي منحتها إياه شهرته لإكراه النساء على الإذعان لانتهاكاته لكرامتهن واستقلاليتهن.

أما فيما يخص تحريضه لأشياعه على العنف ضد أعدائه، فقد توسل تارة بالحيلة عينها التي توسل بها هنري الثاني لتحريض حاشيته على اغتيال توماس بيكيت، بالتلميح لا بالأمر الصريح: "أي خونة بؤساء... رعيتهم ورفعت قدرهم في بلاطي، يدعون سيدهم يُعامل بهذا الازدراء المشين من لدن كاهن وضيع الأصل!" وبالطبع، فقه أتباعه المغزى، وفعلوا ما جلى هنري أنه يبتغيه.

بيد أن ترامب، في هذا الصدد، قد جاوز أسلافه التاريخيين تارة، وحث أشياعه صراحة، لا تلميحاً، على "لكم المحتجين في وجوههم"، و"ضربهم ضرباً مبرحاً حتى يُحملوا على المحفات". والحق أن عدداً من أنصاره قد اعتدوا على معارضي ترامب، وهم الآن يُحاكمون بتهمة الاعتداء والضرب. وكان دفاع بعضهم أنهم إنما كانوا يفعلون ما طلب منهم ترامب فعله، وإن كانت المحاكم قد ترفض هذا الدفاع على أساس أن ترامب كان حقاً غير مباشر (رغم أنه كان في غاية الجلاء) كشأن هنري الثاني.

إن لم يؤكد الأطباء النفسيون، ممن أمضوا عقوداً من الخبرة في البحث في أمر المجرمين العتاة، صحة الاستنتاج الذي خلص إليه كثير من غير الأطباء النفسيين، بأن ترامب بالغ الخطورة—بل إنه أشد الرؤساء خطورة في حيواتنا بأشواط—فإننا لا نتصرف بضبط النفس والانضباط المهني اللائقين. بل إننا نكون إما عاجزين أو غير مسؤولين، أو كليهما.

بيد أنه، ولئن كان الأطباء النفسيون قاطبة، بحكم تعريفهم، قد درسوا العلة النفسية، إلا أن سوادهم الأعظم لم يتخصص في دراسة أسباب العنف، وعواقبه، والتنبؤ به، والوقاية منه، وهو ما يُعد خطباً في الصحة العامة والطب الوقائي. كما لم يدرس سوادهم الأعظم المبادئ التي ينهض عليها تقييم الخطورة الراهنة والمستقبلية، بغض الطرف عما إذا كان فرد بعينه معتلاً نفسياً، وبغض الطرف عن التشخيص أو التشخيصات، إن وُجدت، التي قد يستحقها وفقاً للمعايير المبينة في الدليل التشخيصي والإحصائي الخامس.

ولهذا كان من الأهمية بمكان، ومن أوجب الواجبات، على القلة منا ممن فعلوا ذلك—سواء بتقصي سيكولوجية الأطباء النازيين والإرهابيين اليابانيين، كما فعل روبرت ليفتون؛ أو بدراسة العنف الجنسي

(الاغتصاب، وسفاح القربى، إلخ)، كما فعلت جوديث هيرمان؛ أو بفحص القتلة والمغتصبين (بمن فيهم مقترفو "جرائم الحرب") في السجون والمعتقلات في أرجاء المعمورة، كما فعلتُ إبان عملي مع إدارة الوقاية من العنف والإصابات التابعة لمنظمة الصحة العالمية في وبائيات العنف والوقاية منه—أن ننذر الضحايا المحتملين، نصرة للصحة العامة، حين نتبين ونحدد العلامات والأعراض التي تشي بأن امرئ ما يشكل خطراً على الصحة العامة.

ومن مقتضيات ذلك أننا نفتقر إلى تحديد الأسباب المحتملة للإصابة والعلة قبل أن تلحق أذى بأي جماعة من الضحايا المحتملين بالشدة أو الاتساع الذي كانت لتبلغه لو تُركت بغير كابح. وبعبارة أخرى، نفتقر إلى تبين أبكر نذر الخطر قبل أن تستفحل لتغدو وباءً شاملاً من الإصابات المهلكة أو المهددة للحياة. والقياس هاهنا على المثل السائر حول كيف تجعل ضفدعاً يغفل عن أنه يُسلق حتى الموت: ضعه في قدر من الماء البارد ثم سخن الماء رويداً رويداً. وإن خطراً يضاهي هذا ليكمن في رئاسة ترامب.

لقد حُبيت الولايات المتحدة بما ينيف قليلاً عن قرنين من الديمقراطية. وهي حقبة قصيرة نسبياً مقارنة بآلاف السنين من الملكية. بيد أنها كافية لتورث السواد الأعظم منا الرضا عن النفس، ولعلها الثقة المفرطة، فيما يخص استقرار ديمقراطيتنا. والحق أننا إن كنا عُرضة للزلل في هذا الصدد، فنحن أشد ميلاً للاستخفاف بهشاشة الديمقراطية من أن نغدو مفرطين في التوجس منها بغير داعٍ.

وهاهنا أيضاً، فإن علماء السلوك الذين درسوا العنف (بمن فيهم الأطباء النفسيون، ولا يقتصرون عليهم) هم من يدينون للعوام بمشاطرة ما تعلموه قبل أن نكابد وباء العنف الذي سينفلت من عقاله بانهيار أو تقويض سيادة القانون، ونسق الضوابط والتوازنات، وحرية الصحافة، واستقلال القضاء وسلطته، واحترام الحقائق، وحرمة الكذب المتعمد، وحظر تضارب المصالح بين مصالح الزعيم السياسي الخاصة والمصلحة العامة، والحظر الأشد صرامة على الاعتداء البدني على الخصوم أو المعارضين السياسيين والتهديد بسجنهم أو حتى اغتيالهم—وبعبارة أخرى، الديكتاتورية—والتي كانت جميعها من سمات تصريحات دونالد ترامب العامة طيلة حملته الانتخابية ورئاسته.

إن التريث حتى يبلغ الماء درجة الغليان، أو تنهار ديمقراطيتنا، قبل أن نشرع في الجهر بأن الماء آخذ في السخونة سلفاً، ليعني أن أي قول أو فعل نأتيه في المستقبل سيأتي بعد فوات الأوان ليكون ذا نفع. فلنحذر من الوقوع في الزلة عينها التي وقعت فيها الجمعية الألمانية للطب النفسي في الثلاثينيات.

ثمة محرم (تابو) بائس ولا داعي له في العلوم الاجتماعية والسلوكية بوجه عام يحول دون اعتبار السياسة والساسة موضوعات لائقة ومشروعة للنقاش، والتقصي، والاستنتاج. بل على النقيض من ذلك، إذا أبدى طبيب نفسي أو عالم نفس، أو أي عالم سلوكي آخر، رأياً يمت بصلة للسجالات السياسية التي تدور رحاها في بلادنا، فغالباً ما يُتهم بأنه "متحزب" لا "مهني"، أو بأنه يخوض في نقاش "سياسي محض" لا "علمي". ولأحاججن بأن النقيض هو الحق. ففي زمن يلح فيه عدد متزايد من علماء الطب على ممارسة "الطب القائم على الأدلة"، أليس من الأوجب أن نتعلم ممارسة "السياسة القائمة على الأدلة"؟ بيد أننا، بالطبع، لا يسعنا ذلك ما لم نكن على استعداد لتنزيل مناهج العلوم الاجتماعية والسلوكية قاطبة ومعارفها المتراكمة على هذا الموضوع، وإشاعة الاستنتاجات التي نخلص إليها ليتسنى لبني وطننا قاطبة، أي ناخبينا قاطبة، الانتفاع من المعرفة التي جنيناها عبر بحوثنا السريرية، والتجريبية، والوبائية في أسباب

العنف والوقاية منه—والتي تحتل فيها المعطيات المستقاة من السياسة والاقتصاد مكانة بارزة بلا ريب.

إن نحن لزمنا الصمت إزاء السبل الجمة التي دأب بها دونالد ترامب على التهديد بالعنف، أو التحريض عليه، أو التباهي بعنفه هو، فإننا نكون داعمين وممكنين سلبيين للزلة الخطرة والساذجة المتمثلة في معاملته وكأنه رئيس "سوي" أو زعيم سياسي "سوي". إنه ليس كذلك، ومن واجبنا أن نصدع بذلك، وأن نجهر به علانية. إنه خطر خطورة شاذة لم يُعهد لها مثيل.

وليس هذا لإنباء العوام بما يجهلونه سلفاً، إذ يبدو أن السواد الأعظم من العوام يعلمون ذلك سلفاً. فجل الناخبين اقترعوا ضد ترامب. وكما عبر عن ذلك أحدث حائزي جائزة نوبل في الأدب، بوب ديلان: "لا تفتقر إلى راصد جوي لتعلم من أين تهب الريح!".

والحق أن خطورة ترامب تبلغ من الجلاء مبلغاً يسوغ القول إنه قد استبق الدور الذي كان لغيره أن يضطلع به في إنذار العوام بمدى خطورته. ففي تصريحاته العامة الجمة في هذا الصدد، أنذرنا هو نفسه بمدى خطورته ببيان وبلاغة تفوق ما وسعنا فعله، أو ما نفتقر إلى فعله. فدورنا هاهنا

ليس إنذار العوام بأنفسنا بقدر ما هو مجرد الإصغاء إلى النذر التي أطلقها ترامب نفسه سلفاً، وتذكير العوام بها.

وفي هذا الصدد، لزم جلاء أخير. إن ترامب اليوم هو أقوى رئيس دولة في العالم، ومن أشد الرؤساء اندفاعاً، وغطرسة، وجهلاً، وتخبطاً، وفوضوية، وعبثية، وتناقضاً، وتعظيماً للذات، وسعياً وراء المصلحة الشخصية.
وإصبعه على زناد ألف أو يزيد من أعتى الأسلحة النووية الحرارية في العالم. مما يعني أن بوسعه أن يزهق من الأرواح في ثوانٍ معدودات ما يفوق ما أزهقه أي ديكتاتور في سالف الأيام طيلة سني حكمه. والحق أنه، بحكم منصبه، يحوز ترامب من السطوة ما يحيل الحروب العالمية والمذابح الجماعية في القرن العشرين، والتي لم يُعهد لها مثيل في تدميريتها، إلى مجرد هوامش يسيرة في تاريخ العنف البشري. وإن القول المجرد بأنه "خطر" لا يقبل الجدل إلا من حيث كونه تهويناً بالغاً من شأن الأمر. فإن هو خطا خطوة واحدة في هذا الدرب، فلن يسعنا القول إنه لم ينذرنا—بصوت عالٍ، وجلي، ومتواتر. وحينئذ، لن يكون الذنب ذنبه وحده. بل سيكون ذنبنا نحن أيضاً.

د. جيمس غيليغان، أستاذ سريري للطب النفسي وأستاذ مساعد للقانون في جامعة نيويورك. وهو خبير مرموق في دراسات العنف ومؤلف السفر المؤثر "العنف: وباؤنا المهلك وأسبابه"، فضلاً عن "الوقاية من العنف" و"لِمَ يغدو بعض الساسة أشد خطراً من غيرهم". شغل منصب مدير خدمات الصحة النفسية لسجون ماساتشوستس ومستشفى السجن النفسي، ورئيس الرابطة الدولية للعلاج النفسي الشرعي، ومستشاراً للرئيس كلينتون، وتوني بلير، وكوفي عنان، والمحكمة العالمية، ومنظمة الصحة العالمية، والمنتدى الاقتصادي العالمي.

حالة سريرية لخطورة دونالد جيه ترامب

ديان جويك

إن العلة النفسية في رئيس أمريكي ليست بالضرورة أمراً مهلكاً للرعية التي يسوسها. فلقد خلصت دراسة مستفيضة شملت رؤساء الولايات المتحدة السبعة والثلاثين قاطبة حتى عام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف إلى أن ما يقارب شطرهم كابدوا علة نفسية قابلة للتشخيص، ومنها الاكتئاب، والقلق، والاضطراب ثنائي القطب. بيد أنه، ومما يلفت النظر، لم تُدرج اضطرابات الشخصية في هذه الدراسة، رغم أنها قد تكون بالغة الإعاقة بالقدر عينه. ولو أُضيفت، لرفعت بلا ريب عدد الرؤساء المبتلين بعلل نفسية إلى ما يجاوز الخمسين بالمائة بأشواط. بيد أن العلة النفسية وحدها في الرئيس ليست ما يبعث على الروع الشديد. بل إن الشطر الثاني والحاسم من المعادلة هو: هل الرئيس خطر لعلة مرضه النفسي؟

إن القانون الأمريكي، إيثاراً منه للحريات المدنية، يفسح مجالاً رحباً للتباين السلوكي. وحين يبيح القانون، بل ويوجب، على خبراء الصحة النفسية والأطباء احتجاز أناس رغماً عنهم لعلل نفسية، فلزامٌ عليهم أن يبرهنوا على أن أولئك القوم يشكلون خطراً على أنفسهم أو على غيرهم، أو

أنهم عاجزون عجزاً جسيماً. وبدءاً، لزامٌ علينا أن نتبصر في معنى أن يكون المرء خطراً على غيره لعلة مرضه النفسي. فمن الأهمية بمكان أن نفصل بين الأعراض النفسية وبين أمور كضعف الحكم أو الآراء ووجهات النظر التي تباين وجهة نظر المرء، والتي يبيحها القانون بجلاء. ففي الولايات المتحدة، لابد أن يكون ثمة اضطراب في الإدراك، أو تنظيم الانفعالات، أو السلوك، كما وُصف في الطبعة الخامسة من الدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية، هو ما يحرك أنماط السلوك الخطر. وعلاوة على ذلك، لابد من تدبر جسامة الأذى المتوهم. أهو جرح للمشاعر؟ أم ثمة دمار حقيقي يُقترف؟ هل ثمة أنماط من السلوك وتصريحات بالنية تشي عقلاً بأن الأذى وشيك؟ هل يحمل المرء أسلحة أو أي أدوات أذى أخرى؟

إن القوم الذين يتبوأون مناصب سياسية رفيعة لا محالة يلحقون ضرباً من الأذى، شاؤوا ذلك أم أبوا. فالقادة غالباً ما يُضطرون إلى اصطفاء ما يرونه أمثل الخيارات من بين قائمة من الخيارات البائسة في مضامير بالغة التعقيد كالسياسة العسكرية، أو تخصيص الموارد الشحيحة، أو الخيط الرفيع بين شبكات الأمان ورفع القيود. وحين يتخذ امرؤ في منصب رفيع قرارات، فقد يتأذى بعض الناس بوجه من الوجوه لفرط جسامة

سطوة ذلك المرء. وإن القائد الفذ ليسعى، ما وسعه الجهد، للحد من ذلك الأذى ومواساة المكلومين، بيد أن الدمار يظل أمراً لا مناص منه. ويظل هذا أثراً بائساً من آثار سياسة الحشود الغفيرة من الناس. وهذا هو عين العلة التي تجعل الاستقرار العقلي والوجداني لزعيم الولايات المتحدة أمراً بالغ الأهمية، لا العكس. فبصفته رئيساً، يقبض دونالد جيه ترامب على زمام سلطتنا التنفيذية ووكالاتها؛ وهو القائد العام لجيشنا؛ ويحوز سلطة أحادية لإطلاق الأسلحة النووية (والتي يوثقها وزير الدفاع ولكنه لا يملك حق النقض عليها). وبالنسبة لزعيم العالم الحر، فإن الكلمات غير اللائقة وحدها قد تخلق أثر كرة الثلج الذي يؤول في نهاية المطاف إلى أذى مدمر للآخرين.

تنطوي دراسة ماك آرثر لتقييم خطر العنف على جملة من المؤشرات حول ما إذا كان المرء سيقترف عنفاً في المستقبل. ومن أمثلتها: تاريخ سالف من العنف، أو أب مجرم أو مدمن، أو إدمان كيميائي شخصي، أو التمتع بطبيعة ارتيابية بوجه عام، أو إحراز درجة عالية في مقياس نوفاكو للغضب. وفيما يخص فئات الاضطرابات النفسية، ولعل ذلك يخالف الحدس، فإن العلل الكبرى (كالفصام) تسجل معدلات أذى للآخرين أدنى من اضطرابات الشخصية. "لقد كان الاعتلال النفسي

(السيكوباتية)، [اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع] كما قيس بنسخة فرز من قائمة هير المرجعية للاعتلال النفسي، أشد ارتباطاً بالعنف من أي عامل خطر آخر درسناه". وتقيس قائمة هير المكونة من عشرين عنصراً العرض الشخصي والوجداني، والانحراف الاجتماعي، ونمط الحياة الاندفاعي، والسلوك المعادي للمجتمع.

إن الرئيس، وهو يتبوأ منصباً عظيم السطوة ويتخذ قرارات حاسمة، حري به نظرياً أن يستوفي معايير أسمى من الاستقرار العقلي. ولما كان يملك النفاذ إلى ترسانة نووية قادرة على تدمير العالم مرات ومرات، فحري به أن يكون أدنى خطراً في اقتراف العنف من المواطن العادي. ورغم هذه المعايير الأسمى، فإن استجابتنا هي النقيض، إذ ثمة حماية لتصور العوام يجب تدبرها: فالرئيس يُفترض أن يكون حامي حمانا، وهو عليل ومهلك. وكلما ازداد علة وأبى الإقرار بأي اضطراب (في سيناريو الحالة القصوى)، اشتدت الحاجة إلى تدبر احتجازه نفسياً—وكيف سيبدو ذلك للعوام؟ أو، إن نحن أحجمنا عن الفعل، فهل سنمضي في الإنكار حتى نبلغ نقطة اللاعودة؟ وعلاوة على ذلك، فإن أولئك الذين يجرؤون على تنزيل هذه المبادئ النفسية، كأولئك الذين يجرؤون على إنفاذ العدالة على مواطننا الأول، قد يلفون أنفسهم عُرضة لخطر فقدان وظائفهم، أو أمنهم، أو حتى

سلامتهم الشخصية—من لدن الرئيس أو تلك الشريحة من مجتمعنا التي تستشعر القوة الآن بصعود النظام الراهن، والتي ستُساق إلى حافة الجنون الوجداني إن أفلحت هذه الأفعال. إن شبكة معقدة من العوامل تقتضي التدبر، ولهذا فإن تثقيف العوام والتعاون مع مهنيين آخرين (كالساسة، والمحامين، وعلماء النفس الاجتماعي) لهو أمر بالغ الأهمية.

ثمة فيض راجح من المعلومات في السجل العام حول سلوك دونالد جيه ترامب الشاذ. وإن قائمة الوقائع الآتية ليست حصرية ولا عميقة التحليل. فكل موضوع منها يصلح أن يكون تيمة لسفر كامل في حد ذاته. وإنما الغاية هاهنا هي استخلاص ما يكفي من المؤشرات المسجلة لبلوغ استنتاج مسبب حول ما إذا كانت أنماط سلوك الرئيس ترامب تشي بـ "خطر على الآخرين" ذي دلالة سريرية.

إبان تجمع في ويلمنغتون، نورث كارولينا، صرح ترامب: "هيلاري تبتغي إلغاء، إلغاء التعديل الثاني جوهرياً... وبالمناسبة، إذا قُيض لها أن تختار قضاتها، فلا حيلة لكم يا قوم. وإن كان [لـ] أنصار التعديل الثاني، ربما تكون ثمة حيلة، لست أدري". وقد حدى هذا التصريح بصحفي يغطي

الواقعة إلى القول: "لئن كان التعليق متسماً بالاستخفاف المعهود، إلا أنه يلفي ترامب مرة أخرى يحرض على العنف في تجمعاته. والأدهى أنه يمثل وثبة مروعة من تهديد المحتجين إلى التلميح إما بتمرد مسلح أو اغتيال رئيس". ولم يكن الصحفيون وحدهم من تلقوا تصريح ترامب على هذا النحو: "لقد صرح الرئيس الأسبق لوكالة الاستخبارات المركزية، الجنرال المتقاعد مايكل هايدن، لجاك تابر من شبكة سي إن إن: 'لو أن امرئ آخر تفوه بذلك خارج القاعة، لكان الآن في مؤخرة عربة شرطة يخضع لاستجواب الخدمة السرية'". وهذا يصدق أيضاً على مهنيي الطب والصحة النفسية: لو أن مريضاً تفوه بذلك، لُوقعت شهادة طوارئ، واقتيد المرء إلى أقرب غرفة طوارئ لمزيد من الاستجواب والتقييم.

لقد صرح ترامب بأنه لم يقصد التصريح على النحو الذي بدا عليه. وإن من المعاذير المألوفة التي يسوقها المدافعون عنه لتسويغ تعليقاته العدوانية والفجة في المحافل العامة أن ما تفوه به كان محض مزحة. وهذا لا يغض قيد أنملة من خطورة تعليقه. والحق أن استخفافه بالتعليق إلى حد عده مزحة هو في حد ذاته أمر يبعث على القلق. وعلاوة على ذلك، فإن استهانته بمسائل الحياة والموت ذاتها قد يشي بباثولوجيا وخطورة جسيمة—والتي لا يمكن نفيها تماماً بغير فحص دقيق. إن هذا التصريح،

في هذا السياق، ليجسد "الاستعداد لانتهاك الآخرين" وانعدام التعاطف الذي يسم اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع. وفي التاريخ الحديث، لم يمازح أي مرشح آخر لرئاسة الولايات المتحدة قط بشأن إقدام أشياعه على قتل خصمه.

وفي رده على نشر صحيفة واشنطن بوست للمقطع المرئي الذي غدا الآن سيئ السمعة "أمسك بهن من الفرج"، صرح المرشح ترامب بأن التسجيل الصوتي قد سُجل قبل ما ينيف على عشر سنين ولا يمثل حقيقته. لقد سُجل المقطع بواسطة بيلي بوش من برنامج "أكسيس هوليوود" في السادس عشر من سبتمبر عام خمسة وألفين. ويضم التعليقات الآتية من ترامب المتزوج حديثاً حين أبصر الممثلة أريان زوكر خارج الحافلة حيث كان يُسجل له: "من الأفضل أن أستخدم بعض حلوى تيك تاك، تحسباً لشرعي في تقبيلها". (صوت إخراج حلوى تيك تاك). "أتعلم أنني أنجذب تلقائياً للجميلات—أنا فقط أشرع في تقبيلهن. إنه كالمغناطيس. فقط أقبل. لا أتريث حتى". وفي غضون المقطع المرئي، سُجل له قوله أموراً أشد روعاً واعتداءً بشأن النساء.

وبعد بث هذا المقطع، صرح عدد يعتد به من أعضاء مجلس الشيوخ، والنواب، والمحافظين، والمعينين السياسيين الجمهوريين، وغيرهم علانية بأنهم لن يؤيدوا ترامب للمنصب. فصرحت ليزا موركوفسكي، عضو مجلس الشيوخ الجمهورية عن ألاسكا: "إن المقطع المرئي الذي ظهر بالأمس قد زاد من جلاء حقيقة شخصيته. فهو لم يكتفِ بتشيِيء النساء، بل تباهى بالافتراس بهن. لا يسعني ولن أؤيد دونالد ترامب للرئاسة—لقد أسقط حقه في أن يكون مرشح حزبنا. لزامٌ عليه أن يتنحى". وأعلن بريان ساندوفال، الحاكم الجمهوري لنيفادا: "لقد فضح هذا المقطع المرئي ليس مجرد كلمات، بل نمطاً راسخاً الآن، ألفيه مقززاً ومرفوضاً لمرشح لرئاسة الولايات المتحدة". ولئن كان لأعضاء مجلس الشيوخ والنواب علاقة أشد تعقيداً بترامب كرئيس، فإن المحافظين والمعينين السياسيين أبعد عنه سياسياً ويستحقون تمحيصاً أدق. ومما يلفت النظر، ولما كان لديهم ما يخسرونه سياسياً بدرجة أقل، فإن كلتا المجموعتين حازتا نسبة أعلى من الأعضاء الذين صرحوا بأنهم لن يؤيدوا ترامب. فمن بين المحافظين الجمهوريين الخمسة عشر الذين جهروا بموقفهم، صرح ٥٣ بالمائة بأنهم لن يؤيدوا مرشح الرئاسة. واثنان من السبعة الذين قالوا إنهم سيؤيدونه يحوزان الآن وظائف في إدارته، كنائب للرئيس وسفيرة لدى الأمم المتحدة. ومن بين المعينين السياسيين الجمهوريين الثلاثة والعشرين

الذين أدلوا بتصريحات مسجلة، صرحت نسبة مذهلة بلغت ٨٧ بالمائة منهم بأنهم لن يؤيدوا ترامب أو يصوتوا له. وثلاثة فقط قالوا إنهم سيفعلون. ويفيد معالجو الصحة النفسية في أرجاء البلاد باضطرارهم إلى توسيع ممارساتهم لتشمل ما يُسمى بـ "صدمة الانتخابات". "إن ما أعاينه مع عملائي، ولا سيما النساء اللواتي كابدن اعتداءً جنسياً في صغرهن، هو أنهن يُجرحن من جديد، ويُصدمن من جديد"، هكذا قالت المستشارة المهنية المرخصة في أتلانتا سوزان بلانك. "لا يسعهن الفرار منه. إنه يحيط بهن من كل جانب، مكتوباً بخط عريض على المسرح الوطني".

ومن بين المسالك الجمة المروعة حقاً لهذا الرجل الذي يتبوأ الآن منصب زعيم العالم الحر، علاقته بابنته إيفانكا. وفيما يلي بعض من أشد ما تفوه به ترامب روعاً عنها وهو يعلم أنه يُسجل له:

- "أتدرون من هي إحدى أعظم جميلات العالم، بإجماع الآراء؟ وأنا أسهمت في إبداعها. إيفانكا. ابنتي إيفانكا. يبلغ طولها ستة أقدام، وتحوز أروع جسد".
- إبان مقابلة مع هوارد ستيرن حين كانت إيفانكا في الثانية والعشرين من عمرها: "لقد قلت إنه لو لم تكن إيفانكا ابنتي، لربما كنت أواعدها".

• وفي ظهور آخر في برنامج هوارد ستيرن الإذاعي، رداً على قول ستيرن: "بالمناسبة، ابنتك..." أجاب ترامب: "إنها فاتنة". فأردف ستيرن: "أيسعني قول هذا؟ قطعة من المؤخرة"، فأجابه ترامب: "أجل".

• لصحفي عن إيفانكا: "أجل، إنها حقاً شيء مذهل، ويا لها من فاتنة، تلك الفتاة. لو لم أكن متزوجاً سعيداً و، كما تعلم، أباها...".

• في برنامج ويندي ويليامز على شبكة فوكس، في عام ثلاثة عشر وألفين: "إيفانكا، ما هو أحب شيء تشتركين فيه مع والدك؟" سألت ويليامز. فأجابت إيفانكا: "إما العقارات أو الغولف". فسألت ويليامز ترامب: "دونالد؟". فأجاب ترامب مشيراً إلى إيفانكا: "حسناً، كنت سأقول الجنس، ولكن لا يسعني ربط ذلك بـ...".

لقد وقعت إحدى أولى أفعال المقاومة المدنية الحاشدة ضد رئاسة ترامب غداة تنصيبه، حين خرج شطر عظيم من البلاد إلى الشوارع محتجين. وكانت مسيرة النساء لعام سبعة عشر وألفين أضخم تجمع احتجاجي في تاريخ الولايات المتحدة. ويقدر الباحثان جيريمي بريسمان وإريكا تشينويث أن ما ينيف على أربعة ملايين امرئ شاركوا في أرجاء البلاد. ويحسبان

أن قرابة ثلاثمائة ألف امرئ ساروا في بلدان أخرى، وكان ذلك جزئياً رداً على موقف وسلوك اعتداء تجاه النساء لم يُعهد له مثيل في رئيس أمريكي.

إن خطراً داهماً يتهدد الفئات المستضعفة واحتمالية انتهاكات حقوق الإنسان ينبثقان من طراز الأفراد الذين يحدوه اعتلاله النفسي (سيكوباتيته) إلى التماس التأييد والدعم منهم. ولعجزه عن احتمال النقد وما يتوهمه تهديداً لغروره، ومع حاجته الموثقة والمهووسة إلى الإعجاب، فقد اصطفى كمستشارين له إما أفراداً من أسرته أو أقواماً، بلغة العيادة، "يمكنون" لعلته. وهذا من أظهر السبل التي غدا بها خطراً على الآخرين كرئيس. وغالباً ما يكتب ويتحدث أفراد من المجتمعات المستضعفة عن هواجس جسيمة بشأن من يصطفيهم لإرشاده. فمتخذة من ميزانيته الفيدرالية المقترحة عدسة، تكتب جيسيكا غونزاليس-روخاس: "إنها ترسم أولويات إنفاق الرئيس ترامب وتخفيضات البرامج التي تجلي احتقاره التام لمجتمعات الملونين، وتدفع هذه البلاد وبوصلتها الأخلاقية أقرب إلى الرؤية القومية التي يعتنقها أمثال مستشاري البيت الأبيض ستيف بانون وستيفن ميلر، والمدعي العام جيف سيشنز".

لقد تجلت أعراض صحته النفسية، بما في ذلك إلقاء اللائمة الاندفاعي، وادعاءات التفوق بغير استحقاق، ومستويات ضلالية من جنون العظمة، في كلماته منذ أول خطاب له في الحملة: "إنهم يجلبون المخدرات. يجلبون الجريمة. إنهم مغتصبون، وبعضهم، كما أفترض، أناس صالحون". "سأبني جداراً عظيماً، ولا أحد يبني الجدران خيراً مني، صدقوني، وسأبنيها بتكلفة زهيدة جداً. سأبني جداراً عظيماً جداً على حدودنا الجنوبية وسأحمل المكسيك على دفع ثمن ذلك الجدار، تذكروا كلماتي". وفيما يخص قاضي المقاطعة الأمريكية غونزالو كورييل، المولود في إنديانا، زعم ترامب أن ثمة تضارباً في المصالح في نظر القاضي في قضية احتيال ضد جامعة ترامب، مصرحاً لشبكة سي إن إن: "إنه مكسيكي. نحن نبني جداراً بيننا وبين المكسيك".

إن رد ترامب المنفلت من عقاله على قرارات المحاكم، والمدفوع كما يبدو بالارتياب (البارانويا)، والضلالة، واستشعار الاستحقاق، ليبعث على بالغ القلق. ففي أثناء توليه رئاسة الولايات المتحدة، شكك في أكثر من مناسبة في شرعية المحكمة، كما في هذا المثال: "لقد حظينا بانطلاقة سلسة جداً"، هكذا ألح، زاعماً أن "المعضلة الوحيدة في حظر [المسلمين] كانت 'المحكمة السيئة' التي أوقفته". وفي فبراير عام سبعة عشر وألفين، غرد قائلاً: "إن

رأي هذا الذي يُدعى قاضياً، والذي يسلب جوهرياً إنفاذ القانون من بلادنا، لسخيف وسيُرد!". وهو ما رد عليه النائب جيري نادلر، في الثامن من فبراير عام سبعة عشر وألفين: "إن سلوك realDonaldTrump@—بمهاجمة القضاة + تقويض القضاء المستقل—غير لائق وخطر". وبحسب وزارة الأمن الداخلي، فقد مُنع ما لا يقل عن ٧٢١ فرداً وعائلاتهم من الدخول الذي ارتقبوه عند حدود الولايات المتحدة بموجب حظر سرعان ما قضت أكثر من محكمة بعدم مشروعيته. وأُلغيت ما لا يقل عن ١٠٠,٠٠٠ تأشيرة، بحسب محامٍ في وزارة العدل.

"إننا نتلقى اتصالات من أناس مذعورين حقاً"، هكذا قالت راشيل تيفين، الرئيسة التنفيذية لـ "لامبدا ليغال"، وهي منظمة مناصرة قانونية غير ربحية لحقوق مجتمع الميم. وأردفت: "إننا نعاين خوفاً من مناخ من التعصب استهل بحملة ترامب". وفي المقال عينه، صرح كريس هاياشي، المدير التنفيذي لمركز قانون المتحولين جنسياً: "لقد كان جلياً في عام ستة عشر وألفين أننا شهدنا تصاعداً في التشريعات المناهضة للمتحولين، بما يفوق ما شهدناه قط من قبل... وتوقعنا أن هذا لن ينحسر بل سيتفاقم في عام سبعة عشر وألفين". "إن هذه لمواقف تبث الرعب، لا في نفس الفرد المستهدف فحسب، بل في المجتمع بأسره"، هكذا قالت هايدي بيريتش،

مديرة مشروع الاستخبارات في مركز قانون الحاجة الجنوبي، في مقال بصحيفة بوسطن غلوب عن تزايد جرائم الكراهية في المدارس في ماساتشوستس. ويفيد المركز بأن رقماً قياسياً بلغ ١٦,٧٢٠ شكوى قد رُفعت في أرجاء البلاد إلى مكتب الحقوق المدنية التابع لوزارة التعليم الأمريكية في عام ستة عشر وألفين، وهو ما يمثل زيادة بنسبة ٦١ بالمائة عن العام السالف.

ولقد أقر المجلس الوطني للجمعية الأمريكية لأساتذة الجامعات القرار الآتي: "منذ انتخاب دونالد جيه ترامب قبل قرابة أسبوعين، كابدت الولايات المتحدة تصاعداً لم يُعهد له مثيل في جرائم الكراهية، البدنية واللفظية على حد سواء، وكثير منها في حُرُم الكليات والجامعات... ولقد وُجهت هذه الجرائم ضد الأمريكيين الأفارقة، والمهاجرين، وأعضاء مجتمع الميم، والأقليات الدينية، والنساء، وذوي الإعاقة. وفي بعض الأحوال، تذرع الجناة بالرئيس المنتخب تسويغاً لأفعالهم الشنيعة". وفي طيات القرار، يؤكد المجلس على مفهوم حرية التعبير، مصرحاً: "ما من وجهة نظر أو رسالة يمكن أن تُعد بالغة الكراهية أو الإزعاج بحيث يُحظر التعبير عنها. بيد أن التهديدات والمضايقات تفترق عن التعبير عن أفكار قد يلفيها البعض أو حتى السواد الأعظم منفرة. فهي ترهب وتُخرس".

أجرى عالمان في علم النفس الاجتماعي بجامعة كانساس دراسة عن التحيز شملت استطلاعاً منصفاً لأربعمائة من أنصار ترامب وكلينتون. ولاحظ العالمان أن "حملة ترامب على امتداد الثمانية عشر شهراً السالفة قد تميزت بسيل من الخطاب العنصري والمتمحور حول العرق، مع إهانات متواترة، وتعميمات فجة، وغيرها من الخطابات المهينة التي قُذف بها المكسيكيون، والمسلمون، والنساء". لذا سألا مائة من أنصار ترامب ومائة من أنصار كلينتون تقييم مشاعرهم الشخصية تجاه طائفة من الفئات الاجتماعية التي حطت حملة ترامب من قدرها في وقت أو آخر في خضم السباق: المسلمون، والمهاجرون، والمكسيكيون، والبدناء، وذوو الإعاقة. كما استُطلعت آراء المشاركين قاطبة حول فئات لم يذمها ترامب علانية: مدمنو الخمر، ونجوم أفلام البالغين، والأثرياء، وأعضاء الرابطة الوطنية للبنادق، والكنديون. وحين استُطلعت آراء المشاركين مرة أخرى غداة الانتخابات، ألفى كراندال ووايت أن "التحيزات الشخصية والعامة ظلت على حالها لدى كلتا المجموعتين من الأنصار فيما يخص الفئات التي لم يستهدفها ترامب علانية. أما بالنسبة للفئات التي حط ترامب من قدرها، فقد أفاد أنصار كل من ترامب وكلينتون بمستويات أدنى قليلاً من العداء الشخصي، ومستويات أعلى بكثير من القبول المتصور للخطاب التمييزي... وجماع القول: لقد تبدل العرف المتصور". وتدل البحوث

على أن التعبيرات الفردية عن التحيز والعنف المحتمل تعتمد اعتماداً كبيراً على الأعراف الاجتماعية المتصورة؛ ولا ريب أن ترامب قد أحدث أثراً في تبديل تلك الأعراف.

ومما يُغفل عنه تارة مدى ما تلحقه خطوب الصحة النفسية لهذا الرئيس من أذى بأطفالنا. فلقد بلغ أثره من التفشي مبلغاً استوجب إطلاق وسم عليه: "أثر ترامب". ولقد استُخدم على وجه الخصوص لوصف الصدمة التي يكابدها الأطفال الأمريكيون جراء ترشح ترامب ورئاسته الآن. "ثمة متسلط (متنمر) بين ظهرانينا، كما يقول بعض المعالجين ومستشاري المدارس، يصدم أشدنا استضعافاً. ذلك المتسلط هو الحملة الرئاسية لعام ستة عشر وألفين، بما في ذلك ما يُسمى بـ 'أثر ترامب'". ولقد صرحت مورين كوستيلو، مديرة مشروع "تعليم التسامح" في مركز قانون الحاجة الجنوبي: "إنني لفي وجل من أن الأطفال يأتون إلى المدرسة كل يوم وهم في رعب، وقلق، وخيبة أمل، وخوف. يستشعرون أنهم غير مرغوب فيهم".

ولما لم تكن مسألة علة ترامب النفسية موضع اهتمام وطني بالغ حتى ترشحه للمنصب وتوليه الرئاسة، فإن التقييم من لدن أفراد أوتوا فهماً عميقاً لما يقتضيه ذلك المنصب لهو أمر نافع لتحليل خطورته. ومن المفيد أن ننحي متغير الأيديولوجيا السياسية عن حكمنا ونقصر مراجعتنا على منظور الجمهوريين فحسب. ففي أغسطس من عام ستة عشر وألفين، نُشرت رسالة ذيلت بتوقيع خمسين من هؤلاء الأفراد في صحيفة نيويورك تايمز. ولئن كان شطر من هواجسهم يتمحور حول الافتقار إلى الخبرة، إلا أن شطراً من الرسالة أشار إشارة أشد صراحة إلى استقرار ترامب العقلي والوجداني: "لقد خدم الأفراد الموقعون أدناه قاطبة في مناصب رفيعة في الأمن القومي و/أو السياسة الخارجية في إدارات جمهورية، من ريتشارد نيكسون إلى جورج دبليو بوش. ولقد عملنا مباشرة في قضايا الأمن القومي مع هؤلاء الرؤساء الجمهوريين و/أو كبار مستشاريهم إبان أوقات الحرب وغيرها من أوقات الأزمات، عبر النجاحات والإخفاقات. ونحن نعلم الخصال الشخصية المقتضاة في رئيس الولايات المتحدة. ولن يصوت أي منا لدونالد ترامب. فمن منظور السياسة الخارجية، دونالد ترامب غير مؤهل ليكون رئيساً وقائداً عاماً. والحق أننا موقنون بأنه سيكون رئيساً خطراً وسيعرض أمن بلادنا القومي وعافيتها للخطر". ويمضون قائلين إن الرئيس "... لزامٌ عليه أن يكون راغباً في الإصغاء إلى مستشاريه ورؤساء

إداراته؛ ولزامٌ عليه أن يشجع على تدارس الآراء المتضاربة؛ ولزامٌ عليه أن يقر بالأخطاء ويتعظ بها... ولزامٌ عليه أن يكون منضبطاً، ويكبح جماح انفعالاته، ولا يقدم على فعل إلا بعد تروٍ وتدبر حصيف... ولزامٌ عليه أن يحافظ على علاقات ودية مع قادة بلدان من مشارب شتى ولزامٌ عليه أن يحوز احترامهم وثقتهم"، ولزامٌ عليه أن يكون قادراً وراغباً "في الفصل بين الحق والباطل" ليروم تبوأ منصب الرئيس والقائد العام، القابض على زمام الترسانة النووية الأمريكية. ويخلصون إلى القول: "إننا موقنون بأنه في المكتب البيضاوي، سيكون أطيش رئيس في التاريخ الأمريكي".

إن مقولة هيلاري كلينتون "إن رجلاً يسعك استدراجه بتغريدة ليس بالرجل الذي يسعنا ائتمانه على الأسلحة النووية" لم تكن مجرد مبالغة انتخابية. فرئيس الولايات المتحدة رهن إشارته ما يقارب ٢,٠٠٠ رأس نووي منشور ويحوز السلطة للأمر بإطلاق هذه الأسلحة حتى وإن لم تكن بلادنا قد تعرضت لهجوم بعد. فالأسلحة التي تُطلق على الولايات المتحدة من غواصة تستغرق قرابة اثنتي عشرة دقيقة لتضرب واشنطن العاصمة. والصواريخ التي تُطلق من جل القارات تبلغ هذه البلاد في غضون ثلاثين دقيقة تقريباً. وإن السيناريو الكابوسي المتمثل في أن يُتاح لهذا الرجل

غير المستقر، والاندفاعي، والملقي باللائمة، والمهووس بالانتقام دقائق معدودات لاتخاذ ضرب القرار المقتضى في مثل هذا السيناريو لهو من أشد ما يبعث على الروع في عصرنا.

وفي مقابلة على شبكة فوكس نيوز، صرح نائب الرئيس آنذاك ديك تشيني: "بوسعه [الرئيس] أن يشن ضرباً من الهجوم المدمر لم يشهد العالم له مثيلاً. ليس لزاماً عليه أن يستشير أحداً. ليس لزاماً عليه أن يهاتف الكونغرس. ليس لزاماً عليه أن يستشير المحاكم. إنه يحوز تلك السلطة بحكم طبيعة العالم الذي نحيا فيه". ولقد وصف رون روزنباوم حالة الرائد هارولد هيرينغ، إبان الحقبة التي كان نيكسون يُظهر فيها سلوكاً متخبطاً، إذ كان يؤرقه تساؤل لم يُؤذن له بطرحه. "عقد الرائد هيرينغ العزم على طرح تساؤله على أية حال، بغض الطرف عن العواقب: كيف له أن يعلم أن أمراً بإطلاق صواريخه كان 'مشروعاً'؟ وأنه صدر عن رئيس عاقل، رئيس لم يكن 'مختل التوازن' أو 'هائجاً'؟' كما صاغها محامي الرائد هيرينغ في نهاية المطاف بعبارة ملونة". كان هيرينغ ضابطاً عسكرياً محترفاً وطرح التساؤل وهو يحضر درساً تدريبياً على الصواريخ. فُسرح من القوات الجوية لطرحه إياه. وإلى يومنا هذا، يظل تساؤل هارولد هيرينغ بغير جواب.

إن كنا نحن الذين تآزرنا لوضع هذا السفر مصيبين في تقييماتنا، فللمرء أن يتساءل لِمَ لم يُتصد لخطورة دونالد جيه ترامب في وقت أبكر من حياته؟ إن السجل العام المستفيض عنه ليجلي أنه كان محصناً بثروة موروثة وأن والده كابد اضطرابات في الصحة النفسية تضاهي اضطراباته. وكما نعاين جميعاً الآن، بتبوأ ابنته وصهره المفتقرين إلى الحنكة السياسية مناصب استشارية مفصلية في البيت الأبيض، فقد نأى ترامب بنفسه عن الضوابط والتوازنات المحتملة في حين مكن لاضطرابه: افتقار إلى البصيرة والتماس للتأكيد يجعلان اضطرابات نفسية بعينها بالغة الخطورة في منصب ذي سطوة.

لقد طرأ تبدل جوهري في مستوى خطورته بتقلده دور زعيم العالم الحر. ولئن كان يسع المرء أن يحاجج بأنه، بتبوأه هذا المنصب، قد زلزل البنية السياسية العالمية إلى الحد الذي جعل الرئاسة الأمريكية تفقد تلك المكانة بوتيرة متسارعة. فإن سماته النرجسية (التي تتجلى في الكذب السافر، واتخاذ القرارات الاندفاعي والقهري المجافي للمصالح العقلانية، والقدرات العلائقية غير الناضجة) تخلق فراغاً في القيادة قد يسعى فاعلون سياسيون آخرون إلى ملئه. بيد أنه من المحال عليه، عبر عدسة خلله النفسي، أن يقيم حضوره الفعلي وأثره.

وبصفته الممثل الأسمى لأمتنا، يعمد دونالد جيه ترامب إلى تطبيع مسالك كانت تُعد شائنة من قبل، ملقياً بظلاله السلبية على كل امرئ، من قادة الأمم الأخر إلى أطفالنا. ومنذ مستهل رئاسته، ولئن كان جلياً افتقاره إلى تفويض من الشعب الذي يسوسه الآن، فقد دأب على إعلان نفسه "الأعظم"، أو "المذهل"، أو "الأعلم من أي امرئ"، وغيرها من التصريحات التي تتسق مع اضطراب الشخصية النرجسية، فيما يخص "توقع أن يُرى متفوقاً بغير إنجازات تكافئ ذلك". وهو يُظهر إنكاراً متطرفاً لأي رأي لا يعضد صورته الذاتية ونزعاته المعتلة نفسياً (السيكوباتية)، مما لا يتيح له سوى قدرة بالغة المحدودية على التعلم والتكيف بفاعلية مع مقتضيات منصب الرئيس.

بل إنه، باطراد، يُظهر استجابة انتقامية لأي رأي من هذا القبيل. وإن تبوأه لهذا المنصب ليغذي جنون عظمته في آن، وينهش في حس الذات الهش القابع تحته. وإن أنماط سلوكه وهو يتبوأ دور رئيس الولايات المتحدة لتنطوي على أثر مهلك محتمل على كل فرد يحيا لا في هذه الأمة فحسب، بل في أرجاء المعمورة قاطبة. فالأرض ذاتها في خطر، سواء من القضايا الملحة التي لا يُتصدى لها في حين يقبع رجل غير مستقر في المكتب البيضاوي، أو من الطوارئ المستحدثة التي يخلقها. إن السيد

ترامب خطر، وقد برهن على أنه خطر على الآخرين—ليس على شخص واحد أو قلة، بل ربما على الآخرين قاطبة.

ديان جويك، مستشارة صحة نفسية مرخصة، ومهنية متخصصة في الصحة النفسية، أدارت عيادة علاجية خاصة لعقود عدة. وعلاوة على ذلك، تجري تقييمات واحتجازات للصحة النفسية للأفراد الذين يمثلون خطراً على أنفسهم أو على الآخرين. وفي مسيرة سالفة في العدالة الاجتماعية، كانت أخصائية شؤون المرأة في الأمم المتحدة، في مدينة نيويورك. أسست "مطعم النساء والأطفال المجاني"، وهو مشروع تمكين ما انفك يعمل لثلاثين عاماً. كما أسست "مشروع الإيدز الشعبي" وكانت مساعدة للمدير الإقليمي لـ "إطعام أمريكا". أدارت وكالات تُعنى بالمساعدات الغذائية، والعنف الأسري، والفصل العنصري، والإسري، ومناهضة الفصل العنصري، وإسكان ذوي الدخل المحدود، وحقوق مجتمع الشواذ جنسيا.

العافية، والخطر، وواجب الذب عن حياض المجتمع

د. هوارد إتش. كوفيتز

«لا تَسْعَ فِي النَّاسِ وَاشِيًا (ولكن)
وَلا تَقِفْ مَكْتُوفَ الأَيْدِي وَدَمُ جَارِكَ يُسْفَكُ؛
أَنَا الرَّبُّ».
(سفر اللاويين ١٩: ١٦)

إن هذا السفر الجامع للمقالات لَيَرُومُ سبر غور التجاذب القائم بين خَيْرَيْن، في موازنةٍ تضرب بجذورها في القِدَمِ قِدَمَ الكتاب المقدس. ففي سفر اللاويين (كما سلف في التصدير) حجةٌ تدعو إلى ضربٍ من كتمان السر يكاد يكون مطلقاً: «لا تسعَ في الناس واشياً». والحق أن المرتل قد أمعن في التخصيص قائلاً:

«مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي يَهْوَى الْحَيَاةَ...
صُنْ لِسَانَكَ عَنِ الشَّرِّ، وَشَفَتَيْكَ عَنِ النُّطْقِ بِالْغِشِّ» (المزامير ٣٤: ١٢).

وبالرجوع البصر إلى نص سفر اللاويين، نُبصر استثناءً يتبدى من فوره، إذ تلوح أوقات يغدو فيها الجهر بالقول ضرورةً لدرء الأذى عن الآخرين. وفي الترتيل التقليدي، تقع علامة الوقف النصفي (إسناختا) قُبيل قوله: «أنا الرب». والذي يظهر أن مراد الكاتب القديم هو: أجل، ثمة تجاذب بين كتمان السر وواجب الإنذار، وإن إدراك هذا التجاذب لَيَحْوِي جوهر الألوهية... أو الصلاح، على حد تعبيرنا اليوم. وبعد انقضاء ألفين أو ثلاثة آلاف من السنين، ما زالت طائفة الصحة النفسية تتلمس أولى خطواتها لإدراك هذه الجدلية. وهذا، لعمري، هو عين الحوار الذي نشب بين الممارسين إبان الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ستة عشر وألفين وما تلاها. ويُعرف هذا التجاذب بالصراع بين «قاعدة غولدواتر»، التي تسبغ خصوصية محدودة على الشخصيات العامة، وبين واجب إنذار أولئك الذين قد يحدق بهم خطر جسيم من لدن تلك الشخصيات العامة ذاتها.

وثمة ثلاث معضلات، على أقل تقدير، تقف حجر عثرة دون تقديم حل يسير: هل يقع على عاتق خبراء الصحة النفسية واجب الجهر بحقيقتهم حول أهلية مرشح رئاسي للاضطلاع بمهامه، أم حريٌّ بهم أن ينكفئوا عن ذلك مقيدين بأخلاقيات المهنة؟ وما هي المعايير التي نزن بها الشق الأول؟

وما هي الرزايا المترتبة على غيابه؟ أهي مسألة قرار شخصي، أم قرار تتخذه الجماعة التي يحيا المرء في كنفها؟

أما المعضلة الثانية فمدارها على الآتي: حين نسبر عافية فرد ما، هل ننصرف إلى خلوه من الخصال المعيقة التي تفسد عليه حياته، أم نُعمل الفكر فيما إذا كان يشكل خطراً على نفسه أو على غيره؟ وأخيراً، سنولي وجوهنا شطر الكيفية التي نقيم بها الخطر، سواء أكان مشاعاً بين العوام أم لا.

ضربان من العلل النفسية

قبل ما ينيف على ثمانين حولاً، وفي خضم سجال ضد الدين والنظريات القائمة على السياسة، تساءل فرويد: «هل يفضي التحليل النفسي إلى رؤية للعالم (Weltanschauung) بعينها؟» (فرويد، سبروت، وستراتشي، ١٩٣٣، ص ١٥٨). ولما أجاب عن هذا التساؤل بالنفي، آثر فرويد العلم التجريبي على ما عده وهماً وعاطفة. فلو تُرِكَ الأمر لفرويد، لكانت علاجاته النفسية المستحدثة لا تركن إلى أي مسلمات البتة حول الحياة الطيبة، بل تعول حصراً على المنهجية العلمية والفحص الصافي لما هو قابل للرصد. ولئن بدا هذا عين العقل، فدعني أُشِر إلى أن العلوم—كما

هو شأن أصفاها طراً، أي الرياضيات—لا تنهض على صحة الخطوات المنطقية للباحثين فحسب، بل تعتمد كذلك على المسلمات أو البديهيات التي نستهل بها.

فدعني، إذن، أُفصح عن موقفي: لئن كان من المُسَلَّم به في العلوم الطبيعية أن البحوث وأنساق التصنيف تستقل عموماً عن القيم، فإن هذا الترتيب النظري الأنيق يُعد ترفاً في العلوم النفسية والاجتماعية. فالنظريات النفسية للصحة تتشابك تشابكاً لا فكاك منه مع الرؤى المتعلقة بالكيان السياسي المعافى، ومع ضرورة الذب عن المجتمع، ومع تصور الحياة الطيبة. وحين نُنزِّل المعرفة من جماعة على أخرى، فإننا نتحدث عن زلل التحيز الثقافي. فالعلم ذاته لا يسعه أن يتجرد تجرداً تاماً من المسلمات والقيم.

وأياً كانت النماذج الإرشادية (البارادايمات) التي يصطفيها المرء لوصف الصحة النفسية والعلة النفسية، فستظل ثمة تساؤلات تفرض نفسها حول كيفية معالجة الفرد للمشاعر، والأفكار، والأفعال. ولنتدبر، على سبيل المثال، القلق. لقد طورت البشرية القلق بوصفه إشارة تكيفية تنبه الجسد للتأهب للخطر—سواء أكان خطراً من إنسان آخر أم من ضارٍ مفترس. بيد أن القلق إن تجلى في اضطرابات الأكل، أو القصور الهضمي، أو التشنجات اللاإرادية في الوجه، فإننا نعده خللاً في التكيف. ويسعنا أن

نسوق بناءات مقاربة لاستجابات أخرى، كالاكتئاب، والغضب، والشعور بالذنب، والخزي.

وعلى الضفة الأخرى، تبرز القيمة الجدلية لسبر البنى العقلية التي ترعى السلوك المتحضر والقدرة على الانخراط غير المدمر في كيانات سياسية قوامها الاهتمام المتبادل. وهذه أيضاً تكيفية وتعزز العافية في الفرد والجماعات على حد سواء. وتلتقي هاتان الرؤيتان في تعريف ثلاثي الأبعاد للصحة الوجدانية. فالشخص المعافى يحوز:

- القدرة على إدراك رغباته ونزواته، ورغبات الآخرين ونزواتهم، بجلاء؛
- والملكة لتبين ما إذا كانت الأفعال التي تترجم هذه النزوات خليقةً بأن تلحق أذى يمكن درؤه بنفسه أو بغيره، ومتى تُعد هذه الأفعال أو الأقوال آمنة؛
- والفاعلية اللازمة للإقدام على تلك النزوات دونما غضب مقتحم، أو قلق، أو اكتئاب، أو شعور بالذنب، أو حظر، أو خزي.

أما أولئك الذين يعجزون عن قياس الوقع الذي قد يحدثونه في شخص آخر أو في الآخرين، أو يزهدون في ذلك، فقد يبدون خلواً من الأعراض، وقادرين على أداء وظائفهم، بل وناجحين أيما نجاح في حيواتهم

المهنية تارة، بيد أنهم في العادة ليسوا كذلك في علاقاتهم. وبوجه عام، كان يُنظر إلى من يكابدون معاناة باطنية على أنهم يحيون باضطرابات عَرَضية، في حين وُصفت الفئة الثانية بأنها تعاني باثولوجيا في الطباع، أو اضطرابات في الشخصية.

وهاهنا أيضاً، يغدو نقاشنا مشوباً بكثير من الفوضى. فكما أسلفنا، إن ما يُشكل علاقات شخصية متبادلة معافاة يتباين من ثقافة إلى أخرى؛ ولعل إدراك هذه الفوضى قد أسهم في إحجام بعض خبراء الصحة النفسية عن تحديد ما يُقصد بالفرد المعافى أو المجتمع السليم. وهاهنا أيضاً، لا مندوحة لنا عن وضع مسلمات بعينها حول الحياة الطيبة.

لقد ولى فرويد شطر عنايته نحو التطور المحير للضمير. فاستنتج أن الطفل يستهل حياته بشعور أن الجميع مسخرون لخدمته. ويدرك الصغير في نهاية المطاف وجود الآخرين، بيد أنه لا يدرك بادئ ذي بدء أنهم كائنات معقدة لها أفكارها وعلاقاتها المستقلة. واكتشف فرويد أن حياة الطفل تتبدل تبدلاً جذرياً حين يدرك أن الآخرين ذوات فاعلة (Subjects)، تماماً كما هو: ذوات قائمة بذاتها (كوفيتز ٢٠١٦). وحتى يحين ذلك الحين، لا يفقه الطفل الآخرين تقريباً إلا من حيث قدرتهم على إشباع حاجاته:

فإما أن يكونوا أخياراً أو أشراراً، إما أن يلبوا مطالبه أو يتقاعسوا عنها. وحين يتقبل الطفل تعقيد العلاقات الأسرية ويغدو قادراً على إدراك أن لأمه وأبيه علاقة مستقلة، يكون قد شرع في احتضانهم كذوات فاعلة (أي كفاعلين) لهم أفكارهم، ومشاعرهم، وعلاقاتهم الخاصة. وحينئذ، على حد تعبير فرويد، يكون قد طور ضميراً (الأنا العليا، أو «الأنا المرشدة»). وأما أولئك الذين يخفقون في تقبل الآخرين كذوات قائمة بذاتها، فهم من يشكلون الفئة الفرعية من البشر المصابة باضطرابات الشخصية.

فدعني أكون أشد تحديداً فيما يخص الخصال النموذجية التي تُعاين في الأفراد المصابين باضطرابات الشخصية.

إن أمثال هؤلاء يعجزون عموماً عن الفهم والاستجابة بتعاطف وجداني لما يشعر به الآخر. قد يسعهم، من منظور عقلي، أن يعلموا كيف يتفاعل الآخرون أو حتى ما قد يفكرون فيه، بيد أن هذا لا يلقي بظلاله البتة على كيفية معاملتهم للآخرين، الذين يظلون في نواظرهم مجرد أشياء (Objects)، كقطع الشطرنج التي تُحرك بغية الفوز باللعبة.

إن هذا التفكير القائم على ثنائية الأبيض والأسود يشطر العالم فعلياً إلى صديق أو عدو، إلى أولئك الذين يناصرونه وسائر من يقفون ضده.

والحق أن امرءاً كهذا قد يشب عاجزاً عن التعصب—إذ لكي يكون المرء متعصباً أو عنصرياً أو متحيزاً جنسياً، لابد أن يستشعر الولاء لجماعة ما. ومع ذلك، قد لا يساورهم أدنى حرج في امتطاء صهوة التعصب لبلوغ مآربهم الخاصة.

ولافتقارهم إلى الحاجة لتقييم مآلات أفعالهم على الآخرين، فإن هؤلاء القوم يستجيبون بسرعة أكبر، وبشك أقل في صواب أفعالهم.

لم يطور أمثال هؤلاء الأفراد بعد احتراماً لتفكير الآخرين، أو علاقاتهم، أو جهودهم، ما يؤول بهم إلى بخس إنجازات الآخرين قدرها. وعلى هذا النحو، يميلون إلى إنكار ضرورة الحفاظ على المنظمات القائمة، والهياكل الحكومية، والأعراف المتبعة، والقوانين. قد يبدون متحضرين، بيد أنهم لم يُطبعوا بطابع اجتماعي آمن.

وبناءً على ما سلف (النقاط ١-٤)، فإن تفكيرهم مُركَّز ولكنه يفتقر إلى الدقة والفروق الدقيقة. فهم لا يظهرون أي قدرة جلية على استيعاب أكثر من وجهة نظر واحدة لا تخلو من المعقولية: وهو ضرب من الهوس الأحادي (المونومانيا). وعلاوة على ذلك، يسع هذه الرؤى أن تنقلب إلى

نقيضها، إذ إن ما يجعل أي موقف جديد مقبولاً لديهم يرزح تحت وطأة متلازمة «لتكن مشيئتي»، أياً كانت تلك المشيئة.

وأخيراً (إلحاقاً بالنقاط ١-٥)، يظهرون قدرة محدودة على التمييز بين ما هو كائن وما هو متمنى أو متخيل، ويبدون استعداداً حاضراً لتشويه الحقيقة.

خُرافتان

ثمة ضربان عامان متمايزان من العلل الوجدانية: تلك التي تستحث أعراضاً في الفرد، وتلك التي تمثل خطراً يتهدد العلاقات والمجتمعات التي يحيا في كنفها. وهذا يفضي بنا مباشرة إلى شاغلنا الثاني: هل تُقاس الصحة النفسية لزعيم ذي سطوة بعلاقة المرء بنفسه، أم بقدرته على أن يكون آمناً وبناءً في كيان سياسي قوامه الاهتمام المتبادل؟

سأطلب من القارئ أن يتخيل خرافتين وبعض التجارب الفكرية.

الخرافة الأولى: الشرطي

كنت أقود سيارة الدورية في طريق «أولد يورك» حين أبصرت هذا السائق، وهو شيخ طاعن ذو هيئة تثير العجب. كان يقود سيارته الـ«بنتلي» الحديثة الطراز، فافترضت أنه آمن إلى حد بعيد، وإن كان يترنح في قيادته على نحو عشوائي بعض الشيء. أتعلم، ترنح شاذ قليلاً. كانت نافذته مشرعة وهو يكيل الشتائم الغاضبة لبعض المارة الذين تبدو عليهم سيماء المهاجرين. فأوقفته. كان يحوز ترسانة صغيرة من الأسلحة الآلية في المقعد الأمامي، وما بدا وكأنه قاذف قذائف صاروخية (RPG) في المقعد الخلفي. فسألته: «ما خطب هذه الأسلحة كلها يا سيدي؟» فأجاب: «أيها الضابط، أنا أحمل رخصة، ومقاطعة مونتغومري تبيح الحمل المفتوح للسلاح. ولي كامل الحق في الذهاب أنى شئت. وعلى أية حال، إنه عالم محفوف بالمخاطر في الخارج. أتعلم، ثمة حشود من المهاجرين، وأظنني أبصرت مسلمين يرقصون في حديقة وول».

عدت إلى سيارة الدورية واتصلت بالمركز. «أيها الرقيب. هل ثمة بلاغ عن أجانب يرقصون في الحديقة؟» سألني الرقيب عما كنت أدخنه؛ ففهمت مراده. لذا، عدت إلى سيارة الرجل. «سيدي، لا يسعني تأكيد وقوع أي شغب في حديقة وول». فرد قائلاً: «أيها الضابط، لقد رأيت

ذلك بأم عيني، وحري بي أن أعلم لأنني أملك مالاً وفيراً». ثم مضى الرجل يهذي بكلمات نابية عن القوم المختلفين، زاعماً أن كل من يخالفه الرأي كذاب، وأن أحدهم ربما يكون قد قتل كينيدي، وأن أخرى يجب أن تُساق إلى سجن النساء لأنها أكبر محتالة في العالم. ثم أخبرني أن السماء لا تمطر، وأنها لا تمطر قط حين يركب سيارته الـ«بنتلي». وفي تلك الأثناء، كان الماء ينهمر انهماراً من قبعتي. ثم طفق يسب مفوضي البلدية ويتهمهم بالغباء. وعلى أية حال، أنا أملك خيارات، أليس كذلك؟ فكرت في نفسي، يسعني أن أقول أياً مما يلي:

«سيدي. توخَّ الحذر الآن، وأتمنى لك يوماً مباركاً».

«سيدي. أود فقط أن أقول إن سيارتك تزأر كالنمر. توخَّ الحذر الآن!».

«سيدي. أظنك مجنوناً تماماً، لكني لست على يقين، لذا، طاب يومك».

«سيدي. خذني في جولة بسيارتك، أرجوك، وامنحني وظيفة حسنة، وسننسى كل هذه الحماقات».

أو

«سيدي، هل تتفضل بالترجل من السيارة لنأخذ جولة ونرى إن كان يسعنا تبديد تلك الصور القابعة في رأسك لمسلمين يرقصون في الحديقة؟ وبالمناسبة: هل كانوا حفاة؟»

الخر افة الثانية: الزبون العابروالرجل في عيادة المعالج النفسي

يَلِجُ شخصٌ ما عيادتي للتحليل النفسي، أو، في هذا الصدد، يجلس بجواري في مقهى «ستاربكس» حاملاً مسدساً صغير العيار. أطلب من القارئ أن يتخيل أنني، بالإصغاء إليه، أتبين الخصال الست التي أسردتها للتو. وعلى أية حال، تخيل أبعد من ذلك أن وقت لقائنا قد انقضى أو أن قهوتنا قد نَفِدَت. لم أُجْرِ أي اختبارات موضوعية. والرجل لا يبدي أي علامات على القلق؛ بل اقتصر على إظهار الازدراء للآخرين، ويقيناً لا يشعر بخزي أو ذنب. ويبدو مدركاً للزمان والمكان. ومع ذلك، يساورني انطباع تشخيصي قوي، وإن كان مبدئياً، بأن هذا الرجل يكابد اضطرابات جسيمة في الشخصية. فما عساي أن أفعل، وما هو واجبي الأخلاقي كمواطن، و/أو كمواطن يحوز تدريباً متخصصاً؟

ولنعد إلى الرئيس ترامب. لقد عُدت بفكري، مراراً وتكراراً، إلى سفر اللاويين منذ الانتخابات. ولقد جال بخاطري أكثر من مرة أن مسالك المرشح، والرئيس المنتخب، والآن الرئيس ترامب، لعلها كانت—كما هو الحال مع الشخصية التلفازية التي قدمها ستيفن كولبير لسنين طوال—محض تمثيلية.

وبصفتي عالم نفس ومحللاً نفسياً يمتلك من الخبرة ما ينيف على أربعين حولاً، لا يسعني الجزم، على سبيل المثال، ما إذا كانت تعليقات ترامب المتحيزة جنسياً وادعاءاته بالانفلات الجنسي، أو ردوده المتبلدة الوجدان تجاه عائلة خان (الذين فقدوا نجلهم الجندي وراء البحار) أو تجاه رجل معاق في تجمعه الانتخابي، أو دعواته للعنف في تلك التجمعات، لم تكن سوى فن استعراضي. ولطالما فكرت، لعل السيد ترامب، في قرارة نفسه، يمتلك روحاً متعاطفة، ولا يشطر العالم إلى فسطاطين: من معه ومن ضده، وأنه مفكر حذر يدرك الفروق الدقيقة. ولعل السيد ترامب يدرك الفارق بين الواقع البديل والواقع الحقيقي، ولعله يتوسل بالواقع البديل كحيلة استراتيجية فحسب. لقد أعملت فكري في هذا، وخلصت، مع ذلك، إلى أن أفعاله لا تزال تظهر ثغرات جسيمة. ففي نهاية المطاف، وبإيجاز، لقد وقع الأذى بعائلة خان، وصدق عشرات الملايين من أتباع

ترامب الأكاذيب، وأفرز الخطاب العنيف في لقاءاته أذى حقيقياً، ولقد استعدى السيد ترامب برعونة (حتى الآن) خمسة من أقرب شركائنا التجاريين.

الحساب اليسير لإدارة الخطر

منذ الهجوم على البرجين التوأمين والبنتاغون في الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد، دأب القادة في الولايات المتحدة وغيرها من الدول القومية على بث ضرورة اليقظة في نفوس مواطنيهم. ولقد ألح جورج دبليو بوش مراراً على حاجتنا إلى المضي قُدماً في حيواتنا، والسير بحرية، والاضطلاع بمهام العيش، والعمل، والتسوق التي سبقت الهجمات الإرهابية الجمة التي بات العالم يألفها كأحداث شبه أسبوعية. وعلاوة على ذلك، دعا الرئيس بوش وغيره إلى أن نظل جميعاً متيقظين. وقيل لنا إننا إذا أبصرنا طرداً مشبوهاً في حافلة أو طائرة أو في ماراثون بوسطن، أو إذا لمحنا حقيبة متروكة في مطار، فحري بنا أن نغادر المكان من فورنا، وننذر الآخرين، ونتصل بالشرطة. ومنذ ذلك الحين، سنت المدارس قواعد «عدم التسامح المطلق» التي تقتضي أنه إذا سُمع طالب

يتحدث عن العنف تجاه نفسه أو تجاه غيره، فيجب إقصاؤه من المدرسة فوراً وألا يُعاد إليها حتى يقر خبير بأنه آمن للعودة.

يتوسل علماء الرياضيات ببناء حدسي يجمع بين احتمالية وقوع نتيجة سلبية مضروبة في أثر تلك النتيجة السلبية. فمثلاً، إذا كانت احتمالية خسارة رهان معين تبلغ ١ بالمائة وستؤول إلى خسارة ١٠ دولارات، فإن السواد الأعظم من الناس سيستشعرون الارتياح لخوض غمار هذه المخاطرة. وما هو الخطر بلغة الرياضيات؟ ١ بالمائة مضروباً في ١٠ دولارات، أي ١٠ سنتات. بيد أنه، إذا كانت الاحتمالية هي ذاتها ولكن الخسارة ستؤول إلى فقدان منزل بقيمة ٢٠٠,٠٠٠ دولار، فقد حان أوان شراء التأمين! فهاهنا، يبلغ الخطر ١ بالمائة مضروباً في ٢٠٠,٠٠٠ دولار، أي ٢,٠٠٠ دولار، وهو ما يفوق تكلفة بوليصة التأمين لتعويض مثل هذه الخسائر، مما يجعل شراء التأمين، إن جاز التعبير، إنفاقاً معقولاً. وبعد أن بسطت هذا، أرى أن حسابنا للخطر ينطوي على ما هو أعظم بكثير من مجرد كونه إنفاقاً معقولاً لشراء التأمين؛ ففقدان المنزل، بالنسبة لجل الناس، سيكون أمراً مدمراً.

خاتمة

لقد أظهر دونالد ترامب، مراراً وتكراراً، الخصال الست قاطبة التي أربطها أنا وغيري من خبراء الصحة النفسية بالباثولوجيا الجسيمة في الطباع. ولا يسعني الجزم بأي خانة تشخيصية، إن وُجدت، ينضوي تحتها—يقيناً ليس قبل وبدون فحص واختبار دقيقين، كما يقر بذلك أنصار قاعدة غولدواتر. ولئن كان بعض زملائي، متذرعين بواجب إنذار الآخرين من خطر قد يكون وشيكاً، لا يجدون غضاضة في إدراج السيد ترامب في هذه الفئة أو في حالة أخرى من الدليل التشخيصي والإحصائي (DSM-٧) الصادر عن الجمعية الأمريكية للطب النفسي؛ فإنني لا أستشعر الارتياح لفعل ذلك. ومع ذلك، فإنني أوافق بشدة على احتمالية انطباق هذه المعايير على السواد الأعظم من الناس الذين يسلكون مسلك الرئيس ترامب. وهذا الشك يساورني بالقدر عينه حين أُبلغ وكالة الخدمة الاجتماعية المختصة بشعوري باحتمالية تعرض طفل معين للتحرش أو أن أحد مرضاي قد يخطط لإطلاق النار على عشيق زوجته. لا أفتقر إلى اليقين القاطع إذا كانت المآلات قد تكون وخيمة. فحين يكون المآل مدمراً، حتى وإن كانت احتمالية وقوعه ضئيلة نسبياً، فإن الطبيب السريري، ولعل كل مواطن، ملزم أخلاقياً بالإنذار.

وبتبوئه سدة الرئاسة والقيادة العامة لأعتى القوات المسلحة على وجه الأرض، غدا ترامب مدججاً بالسلاح حتى أسنانه، ولقد جهر بالقول عن العجب الذي يساوره من كوننا نحجم عن استخدام هذه القوة النارية النووية رغم حيازتنا لها. إنه يُظهر العلامات قاطبة لشخص يعاني اضطراباً جسيماً في الشخصية، ولقد تحدث مراراً عن استخدام العنف. وما المآل؟ إن المآل، إن كان حقاً عليلاً كما يظن شطر يعتد به من طائفة خبراء الصحة النفسية، خليقٌ بأن يكون مدمراً لنسبة عظيمة من البشرية.

وعودٌ على بدء: إنني أوقن أن واجبي الأخلاقي في الإنذار لا مراء فيه، شأنه شأن مسؤوليتي الأخلاقية في السعي ضمن حدود القانون لإخضاع السيد ترامب لفحص نفسي وطني—أو، في حال إبائه ذلك، السعي لعزله من منصبه. والحق أنني لست بدعاً في هذا. فالشرطي الذي يلقى سائقاً مسلحاً يهذي بالجنون ملزم أخلاقياً بتجريده من سلاحه. والمتسوق أو الراكب في حافلة مدينة أو في مسار ماراثون الذي يبصر طرداً متروكاً يتحمل مسؤولية اتخاذ إجراء. وزبون «ستاربكس» الذي يحتسي قهوته، وكذا المعالجة النفسية في عيادتها، الذي يجابه شخصاً يحمل مسدساً ويهذي بالجنون، يقع على عاتقه مسؤولية المواطن إما بتجريد ذلك الشخص من سلاحه أو تدبير من يفعل ذلك. فكيف لا أكون أنا،

أو أي خبير آخر في الصحة النفسية، ملزماً أخلاقياً بواجب الإنذار وبالنهي التوراتي عن الوقوف مكتوفي الأيدي بينما يحدق الخطر بالآخرين (سفر اللاويين ١٩: ١٦)؟ إن هذا، بلا ريب، ينسحب على رئيس قد يكون فاقداً للأهلية ويقبض على شفرات الإطلاق النووي الأمريكية.

د. هوارد إتش. كوفيتز، جمع بين ممارسة التحليل النفسي في ضواحي فيلادلفيا وطائفة من الاهتمامات الأخر. درّس الرياضيات، وعلم النفس، وعلم الطباع التوراتي على المستوى الجامعي (١٩٦٨-٢٠١١)، وكان محللاً مُدَرِّباً في معهد دراسات التحليل النفسي ومعهد العلاجات النفسية التحليلية، ومديراً له (١٩٨٦-١٩٩٨). كما أدار مدرسة للمراهقين المضطربين في الأحياء الفقيرة في السبعينيات. رُشح كتابه «النماذج الأوديبية في تصادم» (١٩٩٨، وأُعيد إصداره في ٢٠١٦) لجائزة جراديفا لكتاب العام. وإن ارتباطه الوثيق بزوجته، وأبنائه البالغين، وأحفاده لَيُمَثِّلُ الدافع المحرك لكتاباته وفكره.

آفاقٌ مستحدثة للعلاج في عصر ترامب

د. ويليام جيه. دوهرتي

لقد تصدعت التخوم الفاصلة بين ما هو شخصي وما هو عام في عصر ترامب. ولا ريب أن وجود حد فاصل وصلب كان محض خيال—فنحن أبداً نتأثر بما يعتمل في المجتمع، وأفعالنا الشخصية تلقي بظلالها على الكل. بيد أنه، قُبيل عهد ترامب، كان يسعنا نحن المعالجين، ممن استشعروا الارتياح في التيار السائد لمجتمع ديمقراطي، أن نفترض أن «قبعتنا» كمعالجين و«قبعتنا» كمواطنين منفصلتان. ففي دورنا كمعالجين، كنا نُحَدِّث أنفسنا بأننا شُفاة محترفون؛ وبصفتنا مواطنين، كنا نتابع القضايا العامة، ونناصر المرشحين، وندلي بأصواتنا. وكان التقاطع الأبرز بينهما هو مناصرتنا لسياسات أفضل للصحة النفسية وتغطية تكاليفها.

لطالما جادل المعالجون من النسويات، والأقليات العرقية، ومجتمع الميم لعقود خلت ضد هذا الانفصام بين الشخصي والسياسي في عالم العلاج—ويشهد على ذلك التراث الأدبي الضخم حول العلاج والعدالة الاجتماعية. بيد أن تلك الرؤية أُقصيت إلى هوامش عالم العلاج، وانحصرت في الحالات التي يكون فيها العملاء جزءاً من أقلية مقهورة. وفي

الأغلب الأعم، مضى العلاج النفسي قُدماً في تركيزه التقليدي على العوالم النفسية الداخلية والعلاقات بين الأفراد—ومرد ذلك في تقديري، جزئياً، إلى أن السواد الأعظم منا افترضوا أننا وعملاءنا نحيا حيوات شخصية محصنة بما يكفي ضد الاضطرابات والضغوط العامة. أجل، تارةً ما كان يقع حدث كالحادي عشر من سبتمبر ليفقأ تلك الفقاعة، بيد أنها سرعان ما كانت تتشكل من جديد.

بيد أنه، وعقب انتخاب دونالد ترامب في نوفمبر من عام ستة عشر وألفين، لم تَعُد الفقاعة إلى سابق عهدها. فكثير من عملائنا، عبر شتى الطبقات الاجتماعية والأعراق، يرزحون تحت وطأة الكرب جراء ما يحل بالبلاد، ويحيون في قلق راهن، وتوجس من المستقبل، وانبعاث لمخاوف سالفة. ويقع هذا لأولئك المعرضين للخطر المباشر، كالمهاجرين، وكذا لأولئك الأقل عرضة للخطر الشخصي ممن يرمقون تصاعد الكراهية، والاستخفاف بالحقيقة، والازدراء للقيم الديمقراطية الأصيلة كحرية الصحافة واحترام سيادة القانون. والأدهى من ذلك، أننا ابتلينا برئيس يمثل سلوكه العام انتصاراً لما يناقض العلاج—إذ يُمَجِّد الحياة الخلو من التأمل حيث تُسقط الزعازع الشخصية بصفاقة على العالم وحيث تستحيل المعتقدات الخادمة للذات حقائق عامة.

وفي مجابهة هذه التحديات، تكابد طائفة من المهن أزمة في نماذجها الإرشادية (البارادايمات): كيف يمضون قُدماً في أعمالهم كالمعتاد حين تكون الأسس الديمقراطية التي ينهض عليها عملهم عُرضة للتهديد؟ ولنأخذ على سبيل المثال تلك المراجعة الذاتية العميقة التي تعتمل في نفوس الصحفيين الآن: إذ يجدون لزاماً عليهم فضح الكذب الممنهج، لا مجرد الإبلاغ عن تلوين الحقيقة أو عرض وجهة نظر في الوقائع مقابل أخرى.

أما بالنسبة للمعالجين النفسيين، فإن التحدي يكمن في دمج أدوارنا كمعالجين ومواطنين ليتسنى لنا إعانة عملائنا على فعل الشيء عينه. ولابد أن يستهل هذا بـ «ذات المعالج»—كيف تتقاطع حيواتنا الشخصية مع ممارستنا المهنية؟ إن كل معالج أعرفه تقريباً يكابد ضغطاً شخصياً ويتعاطى مع عملاء تتراوح ردود أفعالهم بين استعادة تجارب التعرض للتنمر، إلى الخوف من الترحيل، إلى استشعار أن قوس الكون الأخلاقي لم يعد يميل حتماً نحو العدالة. إننا نعاين عائلات وصداقات تتصدع على أسس سياسية. وأنا أعرف حقاً بعض المعالجين الذين يستبشرون بارتقاء ترامب سدة الرئاسة، بيد أنهم، هم أيضاً، يساورهم القلق إزاء الاستقطاب في البلاد وتمزق النسيج الاجتماعي.

إن هذا الخطب لأعظم من ترامب وانتخابات نوفمبر لعام ستة عشر وألفين. إنه تتويج لعقدين، على أقل تقدير، من الشقاق المتفاقم في ثقافتنا وفي السياسة، حيث يُنظر إلى المخالفين في الرأي كأعداء خطرين، لا كمجرد خصوم ضلوا الطريق. فكيف نستجيب، كمعالجين ومواطنين، لوقع ترامب في سياق هذه التوجهات الأوسع؟ وكيف نتعاطى مع تفاعلنا الشخصي إزاء هذه الأحداث؟ إن نقطة الانطلاق تكمن في الإقرار بحاجتنا إلى سبل مستحدثة للتفكير في أنفسنا وعملائنا كأعضاء في المجتمع الأوسع (أي كمواطنين)، وليس كمجرد مزودين ومستهلكين للخدمات.

توسيع إطار العلاج النفسي في عصر ترامب وما بعده

من الجلي أن لزاماً علينا إعانة عملائنا على التعاطي مع «أثر ترامب» في حيواتهم. بيد أن التحديات أعظم، تماماً كما يمثل ترامب توجهات أوسع. فإن كان نهجنا في العلاج يروم تجاوز مجرد إعانة العملاء على التعاطي مع وقع هذا الرئيس الأوحد، فإننا نفتقر إلى مقولات مفاهيمية مستحدثة لما نتصدى له في عملنا. وأود هاهنا أن أطرح مقولتين: الضغط العام والضغط السياسي. وأُعَرِّفُهُمَا على النحو الآتي:

• يُشير الضغط العام إلى التحديات التي تجابه العافية الشخصية والعلائقية والمنبثقة من قوى في الحي، والمجتمع المحلي، والمؤسسات المحلية (كالمدارس والشرطة)، فضلاً عن القوى في البيئة السياسية، والاقتصادية، والثقافية، والتاريخية الأوسع.

• يُشير الضغط السياسي (وهو ضرب من الضغط العام) إلى الكيفية التي تخلق بها أقوال وأفعال وسياسات الهيئات الحكومية، والمسؤولين المنتخبين، والمرشحين للمناصب العامة تحديات للعافية الشخصية والعلائقية.

إن التوسل بلغة الضغط العام والسياسي يتيح للمعالجين تجاوز أطرنا التقليدية المقتصرة على ما هو نفسي داخلي واجتماعي مصغر، مع الإبقاء على العناية بما هو شخصي: كيف يفكر عملاؤنا، ويشعرون، ويتصرفون في مجابهة الضغوط.

ويسعنا أن نعكس هذا التفكير الأرحب في حيوات عملائنا من خلال الأسئلة التي نطرحها عند الاستقبال. فكل مهنة تفصح عن مجال اهتمامها في استمارات الاستقبال الخاصة بها. فالطب، على سبيل المثال، تهيمن عليه الأسئلة القائمة على الأمراض البيولوجية. ويسأل خبراء الصحة

النفسية في المقام الأول عن الأعراض النفسية والأداء في العلاقات بين الأفراد. ولقد صغت سؤالين للاستقبال لأُشير إلى اهتمامي بالحيوات العامة لعملائي. يسأل الأول عن الضغط العام والثاني عن انخراط العملاء في عالمهم.

تارةً ما يستشعر المنخرطون في الاستشارة ضغطاً من أحداث وقوى في مجتمعهم المحلي، أو الأمة، أو العالم. إن كان هذا يصدق عليك، فإنني أحثك على إعلامي بذلك بإيجاز. (وإلا، فتجاوز هذا القسم فحسب).

إليك ما يسبب لي الضغط: ________________.

تارةً ما يكون للمنخرطين في الاستشارة التزامات تجاه جماعات أو قضايا خارج نطاق أسرتهم وعالمهم الاجتماعي الضيق. إن كان هذا يصدق عليك، فهل تتفضل بكتابة ماهية تلك الالتزامات بالنسبة لك بإيجاز؟ (وإلا، فاترك هذا القسم فارغاً فحسب).

ولقد ألفيت أن أسئلة الاستقبال هذه تشرع الأبواب أمام حوارات حول المجال العام في حيوات العملاء—سواء من حيث تأثرهم به أو كيفية انخراطهم فيه كمواطنين. وثمة مفاتيح أخرى لشرع الأبواب في مستهل

الجلسات. منها الاستفسار عما إذا كان العملاء يتابعون ما يعتمل في العالم السياسي في الوقت الراهن، وإن كان الأمر كذلك، فكيف يلقي بظلاله عليهم. والمآل أن كثيراً من العملاء يفيضون بمكنون صدورهم حول القلق والتوترات العلائقية المرتبطة بترامب والتي لم يبوحوا بها من قبل، ولعل مرجع ذلك إلى ظنهم أن غرفة العلاج ينبغي أن تكون بمنأى عن السياسة—كما لعلنا نحن أنفسنا كنا نظن.

وثمة سبيل آخر للإشارة إلى الانفتاح على تدارس الضغط العام/السياسي، وهو رسالة مفتوحة توضع في غرفة الانتظار. وهاكم مثالاً على مثل هذه الرسالة:

أعزائي العملاء،

إننا نحيا في أزمنة عصيبة. أنا أستشعر ذلك، وجل من أعرفهم يستشعرونه. أسطر هذه الرسالة لأعلمكم بأنني منفتح على الحديث عن أمر لا يُطرح دوماً في العلاج: كيف يلقي ما يعتمل في العالم العام والسياسي بظلاله عليكم وعلى علاقاتكم، وكيف تتعاطون معه.

• في أعقاب انتخابات رئاسية أورثت الشقاق، يستشعر كثير من الناس الانزعاج والإحباط جراء التناحر السياسي في هذه البلاد.

• ثمة ضبابية كبرى تكتنف ما ستؤول إليه السنون القوادم. فبعض الناس يستشعرون الفزع، وانعدام الأمن، والتهديد، في حين يأمل آخرون أن يقع التغيير المنشود. وهذان الصنفان من الناس غالباً ما يكونان على طرفي نقيض.

• إنني أُبصر أعضاءً من مجتمعنا، ليبراليين ومحافظين على حد سواء، يستشعرون وكأن قيمهم لم تعد مقبولة في الساحة العامة—أو لدى بعض أصدقائهم وعائلاتهم.

وتطول القائمة. وفي الوقت الراهن، عُدَّ نفسك مدعواً لطرح هواجسك حول العالم العام في حواراتنا العلاجية. ولا تثريب عليك إن لم تفعل، بالطبع—فقط إن خلت أن ذلك قد يكون ذا نفع.

أنا هاهنا لأصغي إليك، وأشد من أزرك، وأعينك على تبين سبل التعاطي مع ضغوط اليوم في حين تحيا حياة تتسق مع قيمك الشخصية والمجتمعية.

وما إن يفيض العملاء بمكنون صدورهم، حتى يسعنا إعانتهم على التعاطي مع الضغط السياسي كما نفعل مع أي ضرب آخر من الضغوط: عبر سبل التخفيف كالحد من التعرض لدورة الأخبار التي لا تنقطع، والإباء

أن يُستدرجوا من لدن أقوام لا يرومون سوى استفزازهم، ومساعي العناية بالذات. أما الضرب الآخر من التعاطي، وهو التعاطي الفاعل، فمداره على إعانة العملاء على تنزيل قيمهم المدنية في العالم عبر خطوات عملية كالتزود بالمعرفة من مصادر موثوقة، والتبرع للقضايا التي يناصرونها، والتطوع لإعانة الآخرين، والانخراط في النشاط السياسي، أو (كما عقد العزم أحد العملاء) أن يكونوا أشد رفقاً في العلن بـ «الآخرين» في المجتمع. وحين يكابد العملاء استجابات وجدانية عاتية ومضطربة إزاء الوضع السياسي، يسعنا إعانتهم على تفكيك ارتباطها بمسيراتهم الشخصية.

إنني أرى أن مهمتنا تكمن في إعانة العملاء على درء الخطرين المزدوجين المتمثلين في التبلد/الانفعال أو الهياج/الانفعال في مجابهة الضغط السياسي. فالوسط هو غايتنا التي نيمم شطرها، لأنفسنا ولعملائنا: أن نكون راسخين/مستجيبين، حيث نكون على صلة بمشاعرنا ويسعنا التصرف بروية وفقاً لقيمنا. إن علاجاً كهذا لخليقٌ بأن يكون محضناً لمواطنين مُمَكَّنِين في ديمقراطية لا نكون فيها ضحايا ولا مشعلي حرائق.

المعالج المواطن في العالم الأرحب

لقد أسدى إليّ دونالد ترامب صنيعاً بإعانتي على إبصار الصلة الوثيقة بين العلاج النفسي والديمقراطية بجلاء أكبر. والحق أن ثمة صلة وثيقة بين تركيز العلاج النفسي على الفاعلية الشخصية وبين عمل الديمقراطية، لا بوصفها نسقاً انتخابياً فحسب، بل كفاعلية جماعية لبناء حياة مشتركة في المجتمع: نحن الشعب (المسؤول). ففي عياداتنا، نحن نعزز ذلك الضرب من الفاعلية الشخصية الذي لا غنى عنه لشعب ديمقراطي يحكم نفسه بنفسه، شعب عوالمه عامة وخاصة على حد سواء. وبعبارة أخرى، نحن ننشئ مواطنين للديمقراطيات. والعلاج يفتقر إلى النسق الأوسع للديمقراطية لكي يزدهر. (لقد دربت معالجين غير أمريكيين عادوا إلى أوطانهم ذات الأنساق الديكتاتورية التي كبلت بشدة ما يسعهم حث عملائهم على قوله وفعله في عالمهم الاجتماعي).

ومع ذلك، لكي نفي حقاً بإمكانات دورنا المهني في كنف الديمقراطية، لزامٌ علينا أن نكون فاعلين خارج جدران عياداتنا. إنني أوقن بشغف أننا شُفاة نحوز أمراً ذا بال لنبذله لجيراننا ومجتمعاتنا. وهاكم تعريفاً موجزاً لمفهوم المعالج المواطن: المعالج المواطن يعمل مع الناس في العيادة وفي

المجتمع على التعاطي المثمر مع الضغط العام وأن يغدوا فاعلين نشطين في حيواتهم الشخصية والمدنية. إن عمل المعالج المواطن ليس بمنأى عن الممارسة التقليدية للشفاء النفسي والعلائقي—بل هو مندمج فيها.

وكشاهد على عمل المعالج المواطن في بيئتنا العامة المسمومة اليوم، طفقت أعقد ورش عمل لدرء الاستقطاب مع الأمريكيين «الحمر» (الجمهوريين) و«الزرق» (الديمقراطيين). وتبرز إحداها على وجه الخصوص: ثلاث عشرة ساعة في عطلة نهاية أسبوع من شهر ديسمبر في ريف أوهايو مع أحد عشر من أنصار هيلاري وعشرة من أنصار ترامب. كانت الغاية هي تلمس ما إذا كان يسع الناس أن يفقهوا اختلافاتهم على نحو أفضل (متجاوزين القوالب النمطية) لتبين ما إذا كانت ثمة قيم مشتركة، ولتبادل أمر يبعث على الأمل، إن أمكن، مع مجتمعهم والعالم الأرحب. بالنسبة لي، كان الأمر أشبه بعلاج أزواج يضم واحداً وعشرين شخصاً—مكثفاً، ومؤلماً، ومنيراً، ومجزياً في نهاية المطاف. وبعد عطلة نهاية أسبوع ثانية تكللت بالنجاح عينه في جنوب أوهايو، تشكلت جماعة عمل جديدة لدرء الاستقطاب من مواطنين حمر وزرق، كفرع لمنظمة وطنية تُدعى «الملائكة الأخيار» (Better Angels). كما طورت سلسلة من ورش

العمل والتدريبات المتباينة، تُقدم عبر «الملائكة الأخيار»، والتي يسع المعالجين تعلمها لإدارتها في مجتمعاتهم المحلية.

إن عصر ترامب لَيَهيبُ بالمعالجين أن يتجاوزوا الانفصام بين ما هو شخصي وما هو عام، تلك البقعة العمياء التي أقعدتنا عن الانخراط في رعاية شاملة لأقوام يأتوننا بكامل ذواتهم، الخاصة والعامة، الحميمة والمدنية. إنها دعوة لتوسيع وإثراء الصنيع الذي نسديه لعملائنا ومجتمعاتنا.

د. ويليام جيه. دوهرتي، أستاذ العلوم الاجتماعية للأسرة ومدير مشروع «أزواج مينيسوتا على حافة الهاوية» ومركز المهنيين المواطنين في جامعة مينيسوتا. في مايو من عام ستة عشر وألفين، صاغ «بيان المعالج المواطن ضد الترامبية»، والذي ذيله بتوقيعاتهم ما ينيف على ٣,٨٠٠ معالج. وعقب الانتخابات، أسس «معالجون مواطنون من أجل الديمقراطية». وهو زميل أول في منظمة «الملائكة الأخيار»، وهي منظمة أخذت على عاتقها درء الاستقطاب في أمريكا على المستوى الشعبي. أسهم في ريادة

مجال العلاج الأسري الطبي، وفي عام سبعة عشر وألفين، نال جائزة إنجاز العمر من الأكاديمية الأمريكية للعلاج الأسري.

القسم الثالث

أثر ترامب

الصدمة، والزمن، والحقيقة، وترامب

كيف يُجَمِّدُ رئيسٌ الشفاءَ ويُذكي نار الأزمة

بيتي بي. تينغ

في الأيام التي تلت الثامن من نوفمبر لعام ستة عشر وألفين، غداة انتخاب دونالد ترامب رئيساً للولايات المتحدة—وهو أرفع مناصب القيادة سطوة في العالم—كابد كثير من الأفراد، ولا سيما أولئك الذين استهدفتهم تجليات ترامب الغاضبة من كراهية الأجانب، والعنصرية، والتحيز الجنسي، والإسلاموفوبيا، ذلك الحدث بوصفه صدمة، دون أن يدركوا كنه ذلك تماماً. «أشعر وكأنني في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر»، هكذا قال أحد الزملاء. «أنا في حالة صدمة»، هكذا أفاد أحد المرضى. «لا أدري فيمَ أفكر».

وعلى امتداد الأسابيع التوالي، أسرَّ إليّ المرضى والزملاء على حد سواء بأن مجرد فكرة وجود رئيس يُدعى ترامب قد أورثتهم شعوراً بالانكشاف، والهشاشة، وقلة الحيلة. «أنا أحمل أربعاً من أصل ست علامات هوية

سيستهدفها ترامب: عربية، ومثلية، ومهاجرة، وامرأة»، هكذا علقت إحدى المريضات.

«لم أعد أستشعر الأمان في السير في الأرجاء». وقررت امرأة كانت تتنازعها الحيرة حول الإبلاغ عن اغتصابها ألا تفعل. «ما الجدوى من ذلك بعد الآن؟» تساءلت. «لن يصدقني أحد الآن». وكانت ناجية أخرى أشد صراحة: «لقد انتخبنا مغتصباً للرئاسة»، في إشارة إلى اتهامات الاعتداء الجنسي التي ساقتها ضده نسوة عدة، دونما طائل. وقال زميل عالج سكان نيويورك في الأشهر التي تلت الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر على مركز التجارة العالمي إن ردود الأفعال التي عاينها في مرضاه إزاء انتخاب ترامب ورئاسته أدهى وأمر. ولاحظ قائلاً: «الفارق هو أن هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت محدودة واقترفها مصدر خارجي. أما ترامب فقد انتخبه أناس من بين ظهرانينا، وعدوانه يبدو متصلاً ولا انقضاء له».

ولقد كانت هذه الردود هي ردودي أنا أيضاً. فأنا، كذلك، كنت في حالة صدمة؛ وحين كنت أجلس مع المرضى، كنت أكابد لأحافظ على تركيزي. وكنت عُرضة لنوبات بكاء عفوية. وحين أُسأل، كان يعسر عليّ

استحضار الكلمات لأبين كربي. ولقد أدركت أن هذه الاستجابات هي أعراض صدمة رضحية، ولعلها نُذُرٌ لاضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD)—والذي غالباً ما يكابده المرضى المصدومون.

أنا معالجة نفسية—وعلى وجه الدقة، معالجة صدمات أعالج في مستشفى كبرى في مدينة نيويورك البالغين الناجين من الاعتداء الجنسي، والعنف الأسري، والاعتداء الجنسي في الطفولة. ومهمتي تقتضي أن أحوز فهماً سريرياً للصدمة وكيف تلقي بظلالها على الأفراد، وأن أعلم كيف أعالج آثارها القاهرة. ومع ذلك، كنت في حيرة من أمري. كيف لحدث يخلو من العنف كانتخاب سلمي لرئيس أن يولد استجابة صدمة؟ وأياً كانت ميول المرء السياسية، فلا يسعه أن يقرن فوز ترامب باعتداء بدني فعلي أو كارثة طبيعية.

أو هل يسعه ذلك؟

تُعَرِّفُ الجمعية الأمريكية لعلم النفس الصدمة بأنها «استجابة وجدانية لحدث مروع كحادث، أو اغتصاب، أو كارثة طبيعية». وبالنسبة لكثير من الناس—ولا سيما، وإن لم يقتصر الأمر عليهم، أولئك المنضوين في

الجماعات التي استهدفها ترامب إبان حملته—فإن انتخابه، والآن رئاسته، هي أحداث مروعة حقاً، بل وكارثية.

والحق أنه، في الأشهر التي تلت نوفمبر، أفاد المعالجون النفسيون في أرجاء البلاد بتركيز لم يُعهد من قبل على السياسة في جلساتهم، وبتدفق لمرضى جُدد ينشدون العون إزاء ما يكابدونه من قلق وضغط شديدين رداً على سيل ترامب المتصل من التغريدات المتطرفة والأفعال الاندفاعية.

والحق أنه، بدءاً من الحيرة والقلق اللذين أثارهما حظره الكارثي لسفر المهاجرين؛ واتهاماته اللامعقولة بأن الرئيس أوباما تنصت على برج ترامب؛ وأفعاله العسكرية المباغتة ضد سوريا وكوريا الشمالية، يبدو الرئيس ترامب أشد عناية بلفت الأنظار إلى سطوته عبر افتعال الأزمات بدلاً من حلها.

ومما لا مناص منه أن سلوكاً مزعزعاً للاستقرار كهذا، يصدر عمن يتبوأ أرفع مناصب القيادة سطوة في العالم، لخليقٌ بأن يذكي نار القلق والخوف، لا في نفوس من كابدوا الصدمات سالفاً فحسب، بل في نفوس من لم يكابدوها أيضاً.

ولقد نحت نقاد الإعلام والأطباء السريريون مصطلحات من قبيل «اضطراب ضغط ما بعد الانتخابات»، و«اضطراب ضغط ما بعد ترامب»، و«اضطراب ضغط العناوين الرئيسية» لعقد مقاربات بين استجابات القلق التي يكابدها أعداد متزايدة من الأمريكيين المهمومين وبين أعراض اضطراب كرب ما بعد الصدمة. فإن كان ما نطالعه حقاً—وسأعود إلى هذا، إذ إن ترامب وكبار مستشاريه قد زلزلوا أيضاً مفاهيمنا عن الحقيقة والواقع—فإن الأعراض المشابهة لاضطراب كرب ما بعد الصدمة، كالأرق، وتشتت الانتباه، وفرط التيقظ، وسرعة الاستثارة، والتقلب، لم تعد تقتصر على قدامى المحاربين، والمستجيبين الأوائل، والناجين من الاغتصاب، والجرائم العنيفة، والكوارث الطبيعية، والتعذيب، والاعتداء، بل باتت تعصف بكثير منا نحن أيضاً.

ومرة أخرى، بصفتي معالجة صدمات، أقف حائرة إزاء هذا الارتباط بين الأعراض في أعداد متزايدة من عامة الشعب الأمريكي وبين اضطراب كرب ما بعد الصدمة، حيث لا يكون مبعث الصدمة اعتداءً بدنياً أو كارثة طبيعية، بل ذلك الوابل المتصل من الكلمات العدوانية والتقارير اليومية عن السلوك المتخبط لزعيم عالمي ذي سطوة، نرجسي، ويلهث وراء لفت الأنظار. وثمة جدل محتدم حول ما إذا كان اضطراب ضغط

ما بعد ترامب «حقيقياً» أم مجرد شاهد آخر على كيف يبالغ «الليبراليون الهشون» (Snowflake liberals)، بتحريض من إعلام يساري «هستيري»، في تضخيم معاناتهم. وتُطرح تساؤلات عما إذا كان هذا يبخس من معاناة الناجين من الصدمات «الحقيقيين»، الذين كابدوا اعتداءات وأذى «حقيقياً».

بيد أنه، من منظور سريري، فإن أمثال هذه السجالات، في أحسن أحوالها، تشتت انتباهنا، وفي أسوأ أحوالها، تخجلنا وتصرفنا عن تدارس أعمق للجذور الأصيلة لهذه الظاهرة الفريدة: كيف لانتخاب رئيس كدونالد ترامب وأفعاله أن تفضي بشريحة واسعة من المواطنين الأمريكيين إلى استشعار الصدمة أو تجددها. ومن الأهمية بمكان أن نستحضر أن ارتقاء ترامب إلى البيت الأبيض أمر لم يُعهد له مثيل ومنافٍ للمألوف. إننا نلج أرضاً مجهولة. فكيف لقطب عقارات في مدينة نيويورك ونجم تلفزيون واقع، لم يُؤتَ من قبل أي خبرة قانونية، أو تشريعية، أو حكومية، أو في السياسة الخارجية، أن يغدو رئيساً للولايات المتحدة، لهو أمر لا يزال يعسر على الكثيرين استيعابه. فإن سلمنا بأن مهارات رئيس الولايات المتحدة تضاهي في خطورتها مهارات جراح القلب—الذي قد يعني حكمه المهني وخبرته الحياة أو الموت لمرضاه—

فإنه لمن دواعي الروع أن نرى أن الجسد السياسي الأمريكي قد وُلي عليه، في شخص دونالد ترامب، جراح قلب لم تطأ قدماه قط غرفة عمليات. إنه طبيب لا يفقه شيئاً عن، ويُجادل بأنه لا يكترث البتة بـ، الخلجات الباطنة لقلب الحكومة الأمريكية. ومن ثم، فمن المنطقي أن افتقاره إلى المؤهلات وتبلده إزاء تعقيدات دوره ووقعه، لخليقٌ بأن يبعث قلقاً عظيماً، بل وهلعاً، في نفوس أولئك منا الذين تعتمد حيواتهم على رعايته—بغض الطرف عن الانتماء السياسي أو تاريخ الصدمات.

أما بالنسبة لأولئك الذين كابدوا صدمات سالفة، فإن ترامب أشد إثارة للزعازع. فقد يكابد أمثال هؤلاء الأفراد سلوكه المتقلب، والانتقامي، والأحادي بوصفه مرآة للوالد المسيء، أو المتنمر العابث، أو المعلم السلطوي، أو المدير المعتدي جنسياً الذي قهرهم في سالف الأيام. ولما كان دماغ الناجي من الصدمة غالباً ما يقبع في حالة متأججة من فرط الاستثارة، فإن فظائع ترامب اليومية تسدد تحفيزاً عصبياً بيولوجياً مفرطاً لا طائل منه، مما يضيق «نافذة التحمل» لدى الناجي، أو الحيز المعرفي للتفكير الهادئ والمستقيم. ومن ثم، يغدو هؤلاء الأفراد أشد عُرضة لاستشعار قلق أعظم أو حتى السقوط خارج «نافذة تحملهم» في لُجج نوبات الهلع، واسترجاع الذكريات (Flashbacks)، والانفصام.

وحين نُعمل الفكر فيمن هو عُرضة على وجه الخصوص لمثل هذا القلق المتأجج، نلفي أن أعداد الأمريكيين الذين يحملون ضرباً من ضروب الصدمة أعظم مما قد نظن. فبحسب خبير الصدمات في جامعة هارفارد، الدكتور بيسيل فان دير كولك (٢٠١٤):

لقد أظهرت بحوث مراكز السيطرة على الأمراض والوقاية منها أن واحداً من كل خمسة أمريكيين قد تعرض للتحرش الجنسي في طفولته؛ وأن واحداً من كل أربعة قد ضُرب من لدن أحد والديه إلى حد ترك علامة على جسده؛ وأن واحداً من كل ثلاثة أزواج ينخرط في عنف بدني. ولقد شب ربعنا وفي كنفهم أقارب مدمنون على الكحول، وشهد واحد من كل ثمانية أمه تُضرب أو تُصفع.

وحين نتدبر كم من الأمريكيين يكابدون، شخصياً أو عبر الأجيال، صدمات العبودية، والهجرة، والحرب، والكوارث الطبيعية، والإبادة الجماعية، نشرع في إدراك، على مستوى آخر، كيف أن دونالد ترامب، وهو رئيس يفتقر إلى المؤهلات قاطبة، يغفل التاريخ، ويُبرز الشقاق، ويتخذ قرارات اندفاعية، خليقٌ بأن يذكي نار الاضطراب في نفوسنا جميعاً.

الصدمة، والزمن والحقيقة، وترامب

وهكذا، فإن الرئيس ترامب يمثل قوة مزعزعة للاستقرار تستفز بعضنا إلى حد أننا نكابده كإعصار نفسي-اجتماعي-سياسي. والحق أن السجال حول ما إذا كان اضطراب ضغط ما بعد ترامب «حقيقياً»، وما إذا كان في خطورة اضطراب كرب ما بعد الصدمة، هو في حد ذاته ضرب من استجابة الصدمة. فالتساؤلات التي جهر بها الأمريكيون رداً على انتخاب ترامب وعقب أيامه المائة الأولى في منصبه—«أهذا حقيقي؟»؛ «هذا ليس خطيراً، أم تراه كذلك؟»؛ و«لا أدري ما ألمّ بنا، لكني لا أقوى على المضي قُدماً»—تحاكي تلك التي يطرحها كثير من مرضاي إثر شروعهم في العلاج. إنهم يصارعون تجارب هي، للمفارقة، أشد إيلاماً من أن يُعمل فيها الفكر، وأعظم قتامة من أن تُنكر. وحين يثير رئيس أمريكي مثل هذه الحيرة الباطنية بين المواطنين الذين انتُخب ليسوسهم، فإن هذا يستوجب إمعان النظر. فهل يتسبب دونالد ترامب في وباء من الصدمات؟

من منظور معالجة صدمات، أُسلط الضوء على ركنين ركينين للصدمة (الزمن والحقيقة) لأجلي كيف يلقي ترامب بظلاله على كثير منا على نحو

مُوَلِّد للصدمات. وبفعلي هذا، لا أروم إثبات صحة استجابات الصدمة التي كابدها الكثيرون إزاء هذا الرئيس فحسب، بل أبتغي أيضاً الإشارة إلى كيف يسعنا الحد من أثر ترامب علينا. فإن فقهنا كيف تُبنى الصدمة، وسعنا أن نصنع شيئاً بأركانها لنخفف من وطأتها. وعلى هذا النحو، يسعنا أن نقي أنفسنا من الغرق في لُجج الغضب أو القلق والشلل في مجابهة سلوك ترامب المتخبط والانتقامي.

الزمن والصدمة

تتدبر عالمة بيئة الإعلام وأستاذة الدراسات الثقافية جيد إي. ديفيس (٢٠١٤) كيف تعكس الوسائط الرقمية عبر الشابكة مداركنا للأحداث التاريخية أو الراهنة وتصوغها. وفي تفكيكها للظاهرة، تقرر ديفيس أن «الصدمة لا يسعها أن توجد إلا في صيغة الماضي»، بعد أن يفلح الناجون في العثور على الكلمات لوصف الحدث المروع. وهذا يعني أن قدرتنا على تدارس الصدمة مرهونة أبداً بالزمن.

إن إلحاح ديفيس على أن الصدمة «تكمن في السردية ولا يُنفذ إليها إلا عبر الشهادة والشهود» ليعكس حجر الزاوية في عملنا في علاج الصدمات.

فالغاية الكبرى من العلاج هي إسباغ شعور بالأمان على الفرد المصدوم ليتسنى له سرد قصته، موقناً بأن معالجه يحوز من سعة الصدر والرحمة ما يمكنه من الشهادة على ألم الناجي، وخوفه، وخزيه. وهذا من شأنه أن يبدد العزلة العميقة التي تبتلي المصدومين. ويوافقها فان دير كولك (٢٠١٤) الرأي:

إن هذه لإحدى أعمق التجارب التي يسعنا مكابدتها، وإن رنيناً كهذا، تُكتشف فيه الكلمات التي لم يُنطق بها من قبل، وتُلفظ، وتُتلقى، لهو أساسي لشفاء عزلة الصدمة. فالتواصل التام هو النقيض التام للوقوع في براثن الصدمة.

وفي علاج الصدمات، كما في مجرى الحياة اليومية، يقتضي «التواصل التام»، سواء مع الذات أو مع الآخر، مهارة، وعناية، وزمناً. فالتأمل العقلي ينهض على حيازتنا للحيز والزمن لنتشرب التجربة ونغربل أجزاءها المتباينة، بغية الانخراط في حوار مع الذات ومع الآخرين. هكذا نوجه أنفسنا إزاء تجاربنا، وآرائنا، وقيمنا؛ وهكذا نتحقق من وقائعنا. هكذا نفكر.

وحين نُصدم، فإن قدرتنا على التفكير والتواصل قد تبلغ من الوهن مبلغاً يفتقر معه إلى عون إضافي. ومن المنظور العصبي البيولوجي، فإن التجارب الرضحية تخرس مراكز النطق في الدماغ (فان دير كولك ٢٠١٤)، ما يعقد ألسنتنا حرفياً. وحين لا يجد الناجي زمناً أو قدرة على العثور على الكلمات لسرد روايته في موقف صادم، فإن ديفيس تُعَرِّفُ هذا بأنه أزمة. وتصف الأزمة بأنها دائرة مغلقة ومحكمة تمثل موقفاً يستعصي على الزمن والشهادة—أي، ظرفاً يفتقر إلى حيز للرؤية، ظرفاً يُعزل إثر ذلك عن التبادل، والتغير، والنمو (ديفيس ٢٠١٤).

ويجلي الرسم البياني الآتي (ديفيس ٢٠١٤) الفارق بين الصدمة والأزمة: (رسم توضيحي بإذن من جيد إي. ديفيس)

تُشير الصدمة إلى استجابة لحدث كارثي يمتد في رحاب اللغة والزمن. وفي رسم ديفيس، تحوز الصدمة حداً مسامياً متقطعاً لأن السردية الرضحية هي شهادة تتيح للآخرين أن يشهدوا ويلجوا تجربة المصدوم. إنها منفتحة، لا منغلقة. وبالإصغاء، يعين الشاهد على احتواء الصدمة، كما يمثلها الدائرة الخارجية المتقطعة. وفي التبادل بين المريض المصدوم وشاهده،

تقع التحولات في السردية الرضحية بطبيعة الحال، ويسفر ذلك عن النمو. وتنتقل هذه السردية في نهاية المطاف إلى حيز مُرثى تماماً، مما يحرر المريض من الوقوع فريسة للقلق المتأجج والمثيرات التي تستحث استرجاع الذكريات ونوبات الهلع.

وعلى النقيض من ذلك، فإن «الأزمات تواريخ تقبع في دوائر مغلقة... لا شهادات فيها ولا شهود... فالقابعون في الأزمة يغدون محصورين، في غير مكانهم وخارج زمانهم» (ديفيس ٢٠١٤). وفي رسم ديفيس، تُصور الأزمة بدائرة محكمة. وتُظهر أنه داخل حدها غير المسامي، تُعزل الأحداث عن الزمن واللغة، وتغدو من ثم مستعصية على النفاذ. وبغير الرؤية الجوهرية التي يمنحها الزمن واللغة، لا يسع المرء أن يُعمل الفكر في تجربة كارثية، ولا أن يشاطرها، ولا أن يرثيها. ولا يسع الشهود المحتملين إلا أن يكونوا متفرجين لا حيلة لهم، عاجزين عن السماع أو الاستجابة لأولئك الأسرى في الداخل. ويظل الأفراد المأزومون عالقين في أماكنهم؛ فلا سبيل إلى نمو أو تجاوز. ويبقى فوضاهم الباطنية على حالها لأنه لا كلمات تسبغ عليها معنى. وبغير لغة، لا يبقى سوى فعل ورد فعل أعمى، حلقة مفرغة يحركها الخوف، والهلع، والانفصام.

وتلك هي الحالة التي يبقينا فيها الرئيس ترامب. وهو يفعل ذلك بإغراق منابر الإعلام، قديمها وحديثها، بفيض من التغريدات الانتقامية، والمؤتمرات الصحفية الدفاعية، والإقالات المباغتة. والسياق هاهنا هو قطب الرحى؛ فلو لم يكن ترامب رئيساً للولايات المتحدة، لما كانت هذياناته سوى هذيانات نجم تلفزيون واقع متغطرس، وغافل، وسليط اللسان، يلهث وراء لفت الأنظار بافتعال الصدمة والغضب على كلا طرفي الطيف السياسي. وإن فجاجة أفعاله التي تنهض على مبدأ «لا توجد صحافة سيئة» لم تكن لتجد لها صدى إلا في تلفزيون الواقع وفي صفحات الصحف الصفراء والنميمة التي كانت، قُبيل الدورة الانتخابية لعامي ٢٠١٥-٢٠١٦، هي الساحات الرئيسة التي تروج لبثوث ترامب المفرطة في تلميع الذات. ولئن كان الغوص في الظروف الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والديموغرافية التي أتاحت لترامب أن ينسلخ من شخصية ترفيهية ليغدو زعيماً للعالم الحر يجاوز نطاق هذا المقال، إلا أنه من الأهمية بمكان أن نلحظ جوانب من مناخنا التكنولوجي الراهن، والتي تتضافر مع دور ترامب المركزي الآن كرئيس للولايات المتحدة وشخصيته النرجسية القهرية، لتبقي العوام الأمريكيين مسمرين أمام سلوكه المسموم وعالقين في حالة من الأزمة الفوضوية العبثية.

إن إدماننا المتزايد على الشابكة (الإنترنت) يقتضي منا أن نعالج المعلومات المستحدثة بسرعة الحواسيب الفائقة التي تسيرها. وكما تلاحظ باحثة الإعلام الرقمي في جامعة براون، ويندي تشون (٢٠١٦): «ثمة سيل لا ينقطع من التحديثات التي تستوجب الرد، من خلاصات تويتر المتجددة أبداً إلى صناديق البريد الوارد المتفجرة. إن ضيق الوقت للرد، والناجم عن الزمن المحسوب آلياً لحواسيبنا والذي يحيل الجديد قديماً، مقترناً بمطلب الرد، هو ما يجعل الشابكة قاهرة».

لقد استحالت مقولة ديكارت في عصر التنوير لتعريف الوجود البشري: «أنا أفكر، إذن أنا موجود»، في القرن الحادي والعشرين إلى: «أنا أنشر، إذن أنا موجود».

ولئن كان هذا قاهراً، إلا أن ثمة زيفاً في هذا الوعد. ويشهد على ذلك الإرهاق الذي نكابده حين نمضي وقتاً أطول مما ينبغي على الشابكة. وبالنسبة للمبتلين بالأرق من بين مرضاي المصدومين، أشير عليهم باجتناب الشاشات قبل ساعة على الأقل من موعد النوم؛ فالتصفح يشتت الانتباه ويستثير الدماغ إثارة مفرطة. وعلاوة على ذلك، ثبت أن الشاشات ذات الإضاءة الخلفية تكبح إفراز الدماغ للميلاتونين، وهو

هرمون طبيعي يبعث على النوم. وبالنسبة للمصدومين، الذين تقبع أنساقهم العصبية البيولوجية سلفاً في حالة من فرط الاستثارة، فإن القلق المتأجج واضطراب النوم يضيقان «نوافذ تحملهم». وهذا يجعل التماس السكينة أشد عسراً ويعوق الشفاء إعاقة جسيمة.

لسنا بآلات؛ وإن إشباع نهمنا للمعرفة وتعريف وجودنا عبر الشابكة ليورثنا إشباعاً اصطناعياً عابراً ولا يدوم. وإن التماس مثل هذا الرضا عبر الشابكة كمن يروم إرواء ظمئه بارتشاف الماء من خرطوم إطفاء الحرائق. فبالشرب من خرطوم الشابكة، لا ننتهي ظماءً فحسب، بل قد نكابد أذى جسيماً في خضم ذلك. ولما كان هذا السيل العارم من المعلومات يحرمنا من التريث لتدبر أي منها حق التدبر، فإننا نشرع أبوابنا لتصديق أباطيل خطرة لم تُمحص. ويحذر كل من تشون والباحث في قانون الانتخابات بجامعة ستانفورد ناثانيال بيرسيلي (٢٠١٧) من المآلات السياسية المروعة لعجزنا الجماعي عن التفكير أو التحقق من صدق ما يُبث عبر الشابكة. وكما تلاحظ تشون (٢٠١٦): «لقد صيغت الشابكة... لتكون النقيض التام لحلم بارلو (بفضاء غير خاضع للرقابة لسوق حرة للأفكار): آلة قومية تروج للشائعات والأكاذيب».

ولئن كانت تشون تشير إلى قدرة الشابكة على احتضان بذور الدعاية القومية، فإن بيرسيلي يتساءل في عنوان ورقته البحثية الأخيرة: «هل يسع الديمقراطية أن تنجو من الشابكة؟». فبتحليله للحملة الرقمية للرئاسة الأمريكية لعام ستة عشر وألفين، يوجهنا إلى ما تضخمه الشابكة اليوم: إعادات التغريد على وسائل التواصل الاجتماعي، ومشاركات الأخبار الزائفة، والمقالات التي تسيرها البرمجيات الآلية (Bots)، والانتقادات التي يذكيها المتصيدون (Trolls)، والتي تعكس وتستثير الانفعال بدلاً من إشاعة الحقيقة: «إن ما تؤثره الشابكة بامتياز فوق كل شيء هو ذلك الضرب من رسائل الحملات الذي يستهوي الغضب أو يخطف الأنظار بوجه من الوجوه. إن سياسة الاستعراضات التي لا تنقضي لا يسعها أن تكون صحية لديمقراطية. ولا يسعها كذلك تلك الهشاشة أمام المؤثرات الخارجية التي تقوض سيادة انتخابات أمة ما. فالديمقراطية تنهض على قدرة الناخبين ورغبتهم في بناء أحكامهم السياسية على الحقائق».

ويُبرز بيرسيلي التوافق المختل بين ترامب، وهو شخصية تلفزيون واقع تسوقها الاستعراضات، وبين عصرنا التكنولوجي الراهن. إن اقتران مواقع الإعلام عبر الشابكة التي تعول على مشاهدات الصفحات لتعظيم عائدات الإعلانات، مع هذيانات ترامب المفتقرة إلى الحقائق ولكن

المستعصية على التجاهل لما تحدثه من صدمة، قد أفضى إلى اختراقه السلس لمنابر الإعلام المتأهبة لترويج بثوثه القابلة للانتشار الفيروسي. وإن إفلاحه في استغلال الاستخدام الجماهيري لوسائل التواصل الاجتماعي وتأثيرها لهو أمر يتسابق علماء الاجتماع والسياسة، وباحثو الإعلام الرقمي، وخبراء الحملات، والصحفيون، والمسؤولون الحكوميون لفقهه. وكما يلاحظ بيرسيلي: «بالنسبة لترامب، شملت أصوله شهرته، وأتباعه، وبراعته في الإبحار في المشهد الإعلامي المستحدث. كما أدرك أن اللغة التحريضية يسعها أن تستأثر باهتمام الإعلام أو تبدل مسار السردية. ولقد أتاحت له هذه الاستراتيجيات المجتمعة أن يجني ما يقارب ملياري دولار من التغطية الإعلامية المجانية إبان الانتخابات التمهيدية، وربما قدراً مقارباً إبان حملة الانتخابات العامة».

إن موهبة ترامب الفذة في خطف الأنظار وإحالتها إلى ثروة مادية وسطوة، لتجعل منه، قبل كل شيء، أستاذاً في التسويق. وما يشير إليه تشون وبيرسيلي هو أنه في عصر الشابكة، فإن الطبيعة المفتقرة إلى المرشحات، والمنفتحة، والتفاعلية لقنوات الإعلام عبر الشابكة تروج لانتشار الشائعات والاستعراضات لأن المعلومات تتدفق بسرعة تحول دون استيعاب الفروق الدقيقة ودقائق الحقيقة. ففي مناخ يغدو فيه

«الجديد» «قديماً» (تشون ٢٠١٦) في غضون لحظات، حيث تقبع أجهزة البث المحمولة في أيدينا حرفياً في كل حين، يغدو من اليسير والقاهر جداً أن ننشر من فورنا ما نستشعره منذراً أو شائناً لجمهورنا من «أصدقاء» وسائل التواصل الاجتماعي، الذين لا يبعدون عنا سوى نقرة واحدة.

الصدمة والحقيقة

وبالنظر عبر عدسة علاج الصدمات، فإنه لمن دواعي القلق البالغ أن نلفي أنفسنا في خضم عاصفة هوجاء حيث نبتلى، في شخص رئيسنا الأمريكي، بنرجسي مهووس ببث رواياته الأحادية والمتناقضة للواقع في مناخ تسيره قنوات الإعلام عبر الشابكة التي تفرز المعلومات بسرعة فائقة تؤثر الأباطيل على الحقيقة. وإنه لمن أصول علاج الصدمات أن نُصَدِّقَ حقائق مرضانا—أي، تجاربهم مع القهر. وبغير ذلك، لا يسع عمل الشفاء أن يمضي قُدماً. فأن يُصدق المرء وألا تُنكر تجربته لهو أمر حاسم لأي امرئ عاين أهوالاً لا تُوصف أو قُهر على يد آخر عبر التعذيب، أو الاغتصاب، أو الاعتداء البدني أو الجنسي. إن أحداثاً كهذه لتقلب عالم المرء رأساً على عقب، وإن حجر الزاوية في عملنا هو إعانة المريض على استعادة توازنه بتأكيد حقيقة ما كابده. وحينئذ فحسب يسعنا أن نبني،

بالكلمات، سردية للحدث ليتسنى للمريض أن يفقه ما ألمّ به ويبثه لنفسه وللآخرين. وبذلك يغدو قادراً على الخروج من عزلته وخزيه ليستجلب شهوداً يعينونه على حمل هذا العبء الفادح. وهذا يتيح للمريض أن ينقل تجربته من أزمة، أو انفعال أخرس؛ إلى صدمة، وهي سردية للألم؛ إلى تاريخ، وهو قصة عن الماضي. ومع إتاحة الزمن لتصديق الحقائق واستخلاص المعنى من رحم الفوضى، يسع المريض أن يحد من نوبات هلعه، واسترجاع ذكرياته، وانفصامه. وبدلاً من أن يظل حبيس حلقة مفرغة من أزمة عبثية، يسعه أن يستعيد استقراره، ويزيد من شعوره بالسكينة، ويمضي قُدماً في حياته. ومرة أخرى، كما عبر عن ذلك خبير الصدمات فان دير كولك (٢٠١٤): «التواصل التام هو النقيض التام للوقوع في براثن الصدمة».

ومن ثم، فإنه لمما يورث الصدمة أن نُبتلى، في البيت الأبيض، برئيس وإدارة يعقدان العزم على إرباك «التواصل التام» بالتلاعب بالحقيقة لبلوغ مآربهم الخاصة. وكما يشير المحلل النفسي في جامعة كولومبيا جويل وايت بوك (٢٠١٧)، فإنه بحسب ترامب وفريقه، ليس ثمّة سوى واقع واحد—واقع دونالد ترامب:

متسلحاً بموارد وسائل التواصل الاجتماعي التي أُحيلت إلى أسلحة، جنح ترامب بهذه الاستراتيجية إلى التطرف على نحو يروم تقويض صلتنا بالواقع بوجه عام. فالإلحاح على وجود «حقائق بديلة»، كما فعلت مستشارته كيليان كونواي، هو إلحاح على وجود واقع بديل وضلالي تهيمن فيه تلك «حقائق» والآراء الأشد ملاءمة لدعم سياسات ترامب ورؤيته للعالم. وسواء أقبلنا الواقع الذي يروم ترامب وأشياعه فرضه علينا، أم نبذناه، فإنه يظل مصدراً مهماً وماثلاً أبداً للحيرة والقلق المخصوصين اللذين تثيرهما الترامبية.

وحين يلح زعيم عالمي في سطوة رئيس الولايات المتحدة على وجود «حقائق بديلة» مستقاة من واقع لا يعلمه سواه، فإن هذا لَيُنْذِرُ بالخطر ويزعزع استقرارنا جميعاً. فالديمقراطية وسيادة القانون تغدوان في مهب الريح بغير اتفاق بين الحكومة ومواطنيها على موضوعية الحقيقة والواقع. وإن انهيار هذا الاتفاق لَيَجْعَلُ تعريف الحقيقة والواقع في أيدي أولئك الذين يحوزون أعظم سطوة اجتماعية، وسياسية، و/أو اقتصادية. وفي التاريخ، طالما أزر هذا الانهيار المظالم الجسيمة لمؤسسات كانت أشد حرصاً على صون سطوتها من حماية حقوق الأفراد. وإن التحرش الجنسي بالأطفال من لدن قساوسة في الكنيسة الكاثوليكية لَيُمَثِّلُ شاهداً

صارخاً ومزمناً على مؤسسة أصرت على حقيقتها وواقعها الخاصين بدلاً من حقيقة الأبرياء المعتدى عليهم. فتشبثاً بالسلطة، أباح قادة الكنيسة الكاثوليكية الاعتداء الجنسي المستمر على أشد فئات المجتمع استضعافاً، وهم الأفراد ذاتهم الذين أُنيطت بهم أمانة مقدسة لحمايتهم.

وفي علاج الصدمات، نعاين الآثار المدمرة بعيدة المدى على الروح البشرية حين تُنكر حقيقة الفرد وواقعه، ولا سيما حين يصارع هؤلاء الأفراد صدمات تسلبهم شعورهم بالذاتية والفاعلية الذاتية. وفي مساعيه التي لا تنقطع لإعادة تعريف الحقيقة في مواجهة المظالم التي اقترفها، يسلك دونالد ترامب مسلك الجاني العدواني الذي يفتقر في جوهره إلى أي احترام لحقوق وذوات أولئك الذين يخالفونه الرأي في المجتمع الأمريكي. وهو يُجلي ذلك من خلال إلحاحه على قهر وإذلال الأفراد الذين يأبون الإذعان لرأيه أو مشيئته. ومن مقامي كمعالجة صدمات، فإنه لما يدمي القلب أن أُبصر الدمار الذي يلحقه دونالد ترامب بالمجتمع الأمريكي. إنه اعتداء، يخلف جراحاً غائرة أخشى أن يستغرق برؤنا منها سنيناً طوالاً سلفاً.

خاتمة

حين تؤول الرئاسة الأمريكية، وهي منصب يستأثر سلفاً ببؤرة الاهتمام العالمي، إلى فرد متطرف كدونالد ترامب، فإن سلوكه الدرامي والمتناقض يخطف أنظار الإعلام قاطبة. وتستحيل هذه التغطية المتصلة إلى هوس قهري لنا جميعاً. وبالنسبة لأولئك منا ممن كابدوا القهر سالفاً، فإن هذا الضرب من التعرض مفرط الاستثارة على وجه الخصوص ويصدنا عن استجماع الأدوات التي لا غنى عنها للشفاء من الصدمة. فنُحرم من التريث لاستخدام اللغة في تصديق الحقائق وخلق المعنى عبر سرديات لتلك التجارب. وبغير زمن كافٍ لمعالجة ما يصدمنا أو يزعزع استقرارنا، لا يسعنا أن نفقه ما ألمّ بنا؛ ولا يسعنا أن نبث أهوالنا للآخرين. وهذا يسلب الجميع فرصة إضفاء الطابع الإنساني على الآثار القاهرة للرعب، والإساءة، والاعتداء، أو تبديد العزلة والخزي اللذين يلازمانها.

وعلاوة على ذلك، فإن التكافل البائس بين فظاظة رئيسنا النرجسية والمتعطشة للفت الأنظار وبين نهم عصر الشابكة الذي لا يشبع للاستعراض، قد أفضى إلى طوفان من الأخبار والمعلومات التحريضية التي لا يملك أي منا، سواء أكابد صدمة سالفة أم لا، الزمن أو الحيز

العقلي لمعالجتها. ومع ذلك، فإننا نلتهم هذا المزيج السام من المعلومات والترفيه بشعور ملح بدنو كارثة محتومة. وكما قال ديفيد ريمنيك، رئيس تحرير مجلة نيويوركر، عن نسب المشاهدة العالية على نحو غير مألوف للإحاطات الصحفية التي يقدمها السكرتير الصحفي للبيت الأبيض شون سبايسر: «مما لا ريب فيه أن بعض الناس يشاهدون سبايسر التماساً للترفيه. بيد أن ثمة علة أخرى لارتفاع نسب مشاهدته: نحن نشاهد لأننا قلقون» (ريمنيك ٢٠١٧).

والحق أننا قلقون. فجراء تقلبات ترامب وإدارته المتصلة والمضطربة في المزاج، والتواصل، وتصوير الحقائق الأصيلة، بات سواد أعظم من الأمريكيين يحوزون الآن «نوافذ تحمل» أضيق في التعاطي مع الضغط. وكرئيس، خلق ترامب وباءً من القلق المتأجج. وبحرماننا من النفاذ إلى الزمن والتشكيك في مداركنا للحقيقة، فإنه يوصد أبواب قدرتنا على التأمل، ويحملنا على الشك في الواقع، ومن ثم يذكي نار الانفعال والضغط، مبقياً إيانا في حالة أزمة يعسر احتمالها.

ويعسر التنبؤ بمدى قدرتنا على احتمال هذا، كأفراد أو كمجتمع. فالأزمنة الضبابية تقتضي قوة واستقراراً جماعيين، وإن سلباً للفاعلية كهذا لَيُهْلِكُ صحتنا النفسية، أفراداً وأمة. بيد أنه يسعنا أن نتوسل بهذا الفهم الأعمق للصدمة، ولرُكنيها المتمثلين في الزمن والحقيقة، لتعزيز الفكر المتروي بدلاً من التجمد الانفعالي، أو الهلع، أو التجنب. ويسعنا أن نكون على بينة من ميل منابر الإعلام المستحدثة إلى إيثار الأباطيل المثيرة للعواطف على الحقائق المتروية والدقيقة. ويسعنا أن نفصل أنفسنا عن الشابكة ونتريث لننعم محضاً بفعل التفكير الحر. إنه امتياز لا نزال ننعم به في الولايات المتحدة، وسيكون المهارة التي نفتقر إليها لتقينا من الانحدار نحو الأزمة، كما يبدو أن دونالد ترامب يبتغي لنا أن نفعل.

بيتي بي. تينغ، معالجة صدمات في مكتب خدمات الضحايا بمستشفى كبرى في مانهاتن السفلى. خريجة كلية ييل؛ ومدرسة المسرح والسينما والتلفزيون بجامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس؛ ومدرسة سيلفر للعمل الاجتماعي بجامعة نيويورك، وتتلقى السيدة تينغ تدريباً في التحليل النفسي وتمارس عملها في معهد العلاج النفسي المعاصر. وهي أيضاً كاتبة سيناريو ومحررة حائزة على جوائز، وتضم أعمالها أفلاماً لأنغ لي، وروبرت ألتمان، ومايك نيكولز.

اضطراب قلق ترامب

أثر ترامب في الصحة النفسية لشطر الأمة والفئات المخصوصة

د. جينيفر كونتارينو بانينغ

لقد وسم عام ستة عشر وألفين حقبة من الضبابية والاضطراب العنيفين قُبيل الانتخابات الرئاسية الأمريكية المحتدمة في الثامن من نوفمبر عام ستة عشر وألفين، بين دونالد جيه. ترامب وهيلاري آر. كلينتون. ورغم أن السواد الأعظم من استطلاعات الرأي (سيلفر ٢٠١٦) أشارت إلى أن حظوظ هيلاري كلينتون في الفوز بالانتخابات تتراوح بين ٧٠ و٩٥ بالمائة، ويقين كثير من الأفراد بأن ترشح ترامب لم يكن سوى مهزلة، إلا أن ترامب ظفر بالرئاسة (وإن كان قد خسر التصويت الشعبي بما ينيف على ٣ ملايين صوت).

ولقد أفضت هذه النتيجة المذهلة إلى مستوى لم يُعهد له مثيل من الصدمة، والحزن، والقلق غداة الانتخابات لدى قرابة شطر الشعب الأمريكي، وكثير منهم من ذوي الميول السياسية التقدمية، وإن لم يقتصر الأمر عليهم (الجمعية الأمريكية لعلم النفس ٢٠١٧).

وسيفصل هذا الفصل القول في القلق الذي سبق الانتخابات وتلاها (والذي أُطلق عليه «اضطراب قلق ترامب») والذي تفشى بين العوام. بيد أنه، وعلى خلاف أعراض القلق العام، كانت هذه الأعراض مخصوصة بانتخاب ترامب وما تمخض عنه من مناخ اجتماعي وسياسي متقلب. وإن دور الإعلام، مع التركيز على التقارير الإخبارية المتحيزة والزائفة، لَيُمَثِّلُ عاملاً آخر في تبلور هذه الأعراض. وسيُختتم هذا الفصل بضرب المؤلفة أمثلة على هذا الاضطراب من عملها السريري مع عملاء العلاج النفسي—والذين ينحدر جلهم من طبقة وسطى عليا، وهم من ذوي الذكاء والتعليم.

لقد خلقت كثير من مواقف ترامب الطنانة والمتعظمة وأباطيل حملته مناخاً من الضبابية، حيث استشعر الأمريكيون تهديداً لسلامتهم الشخصية؛ ولقد هيأت هذه الأيديولوجيات العوامل البيئية المثلى لتبلور القلق لدى مناهضي ترامب (شيهي ٢٠١٦). وبحسب تقرير «الضغط في أمريكا»، أقر شطر الأمريكيين (٤٩ بالمائة) بأن انتخابات عام ستة عشر وألفين كانت مصدر ضغط جسيم في حيواتهم (الجمعية الأمريكية لعلم النفس ٢٠١٧). ولقد جابه كثير من المعالجين مهمة إعانة عملائهم على التعاطي مع هذا الضغط، فضلاً عن الإحباط الناجم عن محاولة «تطبيع» سلوك لم يروه سوياً لرئيس أمريكي (شيهي ٢٠١٦).

ومن الأهمية بمكان أن نباين بين اضطراب القلق العام واضطراب قلق ترامب. فالدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية، الطبعة الخامسة (والمعروف اختصاراً بـ DSM-V)، ذائع الاستخدام بين خبراء الصحة النفسية (الجمعية الأمريكية للطب النفسي ٢٠١٣). وهو يصف اضطراب القلق العام (GAD) بأنه يُوسم بقلق مفرط، ومستعصٍ على السيطرة، وغالباً ما يكون مجافياً للعقل—أي، توجس خيفة من الأحداث أو الأنشطة.

وهذا القلق المفرط غالباً ما يعوق الأداء اليومي، إذ إن المصابين باضطراب القلق العام عادة ما يترقبون الكارثة ويفرطون في التوجس من أمور الحياة اليومية كالقضايا الصحية، والمال، والموت، والمشاكل الأسرية، ومشاكل الصداقة، ومشاكل العلاقات بين الأفراد، أو صعوبات العمل. وغالباً ما يُظهر الأفراد طائفة من الأعراض البدنية، ومنها الإرهاق، والتململ، والصداع، والغثيان، والخدر في اليدين والقدمين، والتوتر العضلي، وآلام العضلات، وصعوبة البلع، والتراكم المفرط لحمض المعدة، وآلام المعدة، والقيء، والإسهال، ونوبات من ضيق التنفس، وصعوبة التركيز، والارتجاف، والارتعاش، وسرعة الاستثارة، والهياج، والتعرق، والاضطراب، والأرق، والهبات الساخنة، والطفح الجلدي، والعجز عن السيطرة التامة على القلق. ولابد أن تكون

هذه الأعراض مطردة ومستمرة، وتدوم لستة أشهر على الأقل، ليُصار إلى تشخيص رسمي باضطراب القلق العام (الجمعية الأمريكية للطب النفسي ٢٠١٣). ويُعد اضطراب القلق العام من أكثر اضطرابات المزاج تفشياً بين الأمريكيين؛ فبحسب المعهد الوطني للصحة النفسية، يكابد ٣,١ بالمائة من البالغين الأمريكيين اضطراب القلق العام في غضون عام، أو ما ينيف على ٧ ملايين.

وتشتمل الأعراض المقترنة باضطراب قلق ترامب على: استشعار فقدان السيطرة؛ وقلة الحيلة؛ والاجترار/المخاوف، ولا سيما إزاء المناخ الاجتماعي والسياسي الضبابي إبان ولاية ترامب؛ والميل نحو الاستهلاك المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي. والحق أن الاستقطاب الذي أفرزه هذا قد أحدث شقاقاً عميقاً بين العائلات والأصدقاء ذوي المعتقدات السياسية المتباينة. وتُعد خصال ترامب الشخصية المخصوصة، وتوسله بأدوات التلاعب النفسي كالتلاعب بالعقول (Gaslighting)، والكذب، وإلقاء اللائمة، عوامل مساهمة في اضطراب قلق ترامب.

ولئن لم يكن اضطراب قلق ترامب تشخيصاً رسمياً، إلا أنه يفترق عن اضطراب القلق العام في مقاييس عدة. أحدها يكمن في المدة الزمنية لتبلور الأعراض. فالأحداث المتقلبة التي سبقت انتخابات عام ستة عشر وألفين (أي التقارير الإخبارية الزائفة، وتقرير كومي الذي شكك في أخلاقيات كلينتون) كانت عسيرة في حد ذاتها، بيد أن استطلاعات رأي جمة (مثل سيلفر ٢٠١٦) طمأنت كثيرين من الأمريكيين بتنبؤها بفوز هيلاري كلينتون في الانتخابات فوزاً ساحقاً. وهذا ما أفضى إلى استشعار الصدمة والذهول إثر إعلان ترامب رئيساً للولايات المتحدة.

وثمة عَرَض إضافي لاضطراب قلق ترامب يتمثل في أن الأعراض ترتبط ارتباطاً مباشراً بالمناخ الاجتماعي والسياسي الضبابي. فمستوى الضغط المتصاعد عند مطالعة مقالات حول قضايا شتى—كحظر المسلمين، والتهديد/الوعد بإلغاء قانون الرعاية بأسعار معقولة، والتوترات بين الولايات المتحدة وكوريا الشمالية، واحتمالية تدخل روسيا في انتخابات عام ستة عشر وألفين والصلة المالية لروسيا بترامب،
والجدار الأمريكي/المكسيكي، وقضايا الهجرة، وقطع التمويل عن الجماعات البيئية كإدارة المتنزهات الوطنية ووكالة حماية البيئة، وقطع

التمويل عن البحوث الطبية—لهو مستوى شديد. وقد يتأثر الفرد المبتلى باضطراب قلق ترامب تأثراً مباشراً بإحدى هذه القضايا المفردة، أو تساوره هواجس متعددة، أو يقلق إزاء مستقبل الدولة الديمقراطية في أمريكا بالنظر إلى هذه القضايا. ومن ثم، فإن القلق الاجتراري المقترن باضطراب القلق يكون مخصوصاً بهذه الأحداث (كلاريدج ٢٠١٧).

لقد بدلت وسائل التواصل الاجتماعي الكيفية التي يتعرض بها الأمريكيون للأخبار. فمواقع الأخبار عبر الشابكة (سي إن إن، هافينغتون بوست، إلخ) ووسائل التواصل الاجتماعي كفيسبوك وتويتر تتيح نفاذاً فورياً إلى الأخبار فضلاً عن تعليقات قراء آخرين ذوي وجهات نظر متباينة. ولقد أقر كثير من الأمريكيين المبتلين باضطراب قلق ترامب بهوس مرضي بتفقد مواقع الأخبار بوتيرة تفوق ما عهدوه سالفاً بأشواط، ولقد كان حجم الأخبار المتعلقة بترامب وإدارته المستحدثة متصلاً، وفوضوياً، ومربكاً، وغالباً ما يكون قاهراً. وحين يصارع الأفراد القلق، فإن كثيرين منهم، في مسعى للحفاظ على السيطرة، يفترضون واهمين أنهم كلما ازدادوا معرفة، ازدادوا تأهباً. بيد أن هذا يميل إلى إيهامهم بشعور زائف بالسيطرة، وللمفارقة، قد يفاقم من أعراض القلق ما إن يدركوا أن قبضتهم على السيطرة ليست محكمة.

ولقد شملت الأعراض الأخرى التي أقر بها كثير من الأمريكيين غداة الانتخابات: استشعار قلة الحيلة والشلل، والعجز عن التركيز على التزامات العمل أو الأسرة، وصعوبة النوم. وشملت استراتيجيات التعاطي المختلة: الأكل بشراهة جراء الضغط، والشرب، والتدخين، وغيرها من السبل لدرء الشعور بالقلق.

إن التلاعب بالعقول (Gaslighting)، وهو مصطلح ذاع صيته في الأدبيات النفسية على امتداد السنوات العشر إلى الخمس عشرة المنصرمة، يصف ديناميات مختلة في علاقة سلطة (ستيرن ٢٠٠٧). فالمتلاعب بالعقول هو «شخص يستميت في الحاجة إلى أن يكون على حق ليعزز شعوره بذاته ويحكم قبضته على شعوره بالسلطة» (ستيرن ٢٠٠٧). ولقد أورث كبير المتلاعبين بالعقول لدينا قلقاً لكثير من الأمريكيين. فإبان حملة ترامب، تجلت أمثلة جمة على أكاذيبه، وأباطيله، وغيرها من المعلومات التي رامت بث الشك والتلاعب. بيد أن التلاعب بالعقول يروم أيضاً خداع المرء ليشكك في إدراكه هو للواقع (جيبسون ٢٠١٧).

ولقد أشار استطلاع أجرته الجمعية الأمريكية لعلم النفس في فبراير عام سبعة عشر وألفين (٢٠١٧)، بعنوان «الضغط في أمريكا: التعاطي مع التغيير»، إلى أن ثلثي الأمريكيين يصرحون بأنهم يرزحون تحت وطأة الضغط إزاء مستقبل أمتنا. ولئن كان ٧٦ بالمائة من الديمقراطيين قد أقروا بالضغط إزاء مستقبل أمتنا، فإن ٥٩ بالمائة من الجمهوريين قد أقروا أيضاً بمستوى الضغط عينه.

ولقد انسحب هذا أيضاً على المعالجين أنفسهم. ففي حين كان خبراء الصحة النفسية يعينون عملاءهم على التعاطي مع ضغط حقبة ما بعد الانتخابات، كانوا هم أنفسهم يكابدون للتعاطي مع مشاعرهم ومعالجتها، والتي غالباً ما كانت تضاهي مشاعر عملائهم.

عمل إحدى عالمات النفس مع عملاء يكابدون اضطراب قلق ترامب

أنا عالمة نفس سريرية مرخصة وصاحبة عيادة جماعية صغيرة في إيفانستون، إلينوي، وهي ضاحية ليبرالية، ذات مستوى اجتماعي واقتصادي رفيع، ومثقفة، تقع شمال حدود مدينة شيكاغو مباشرة. وإيفانستون مدينة جامعية، تحتضن جامعة نورث وسترن، ويشكل

المهنيون الذين يعملون في نورث وسترن أو في وظائف مكتبية ومهنية أخرى شطراً عظيماً من سكانها البالغ عددهم خمسة وستين ألفاً. وسواد عملائي هم من طلاب المرحلة الجامعية والدراسات العليا في جامعة نورث وسترن، المشخصين باضطرابات يسيرة كالتكيف مع الحياة الجامعية ومكابدة تطور الهوية، فضلاً عن تشخيصات أشد خطورة كاضطراب الاكتئاب الجسيم، والاضطراب ثنائي القطب، واضطرابات الأكل، والضغط، وغيرها من اضطرابات المزاج (المرتبطة بالقلق في المقام الأول). وحري بي أن أشير إلى أنه بالنظر إلى المنطقة البالغة التقدمية التي أمارس فيها عملي، لم يكن في سجل عملائي إبان هذه الحقبة أي مناصر لترامب البتة.

وغداة انتخابات عام ستة عشر وألفين، ولا سيما في الأسبوع الذي تلاها، تدارس السواد الأعظم من عملائي مشاعرهم إزاء الانتخابات وعالجوها. والحق أنه كان من النادر ألا يأتي عميل على ذكر الانتخابات إبان هذه الحقبة. وكابد جل العملاء مشاعر متقاربة من الصدمة، والحزن، والقلق، والهلع، والتوجس من المستقبل، والغضب. وكان بعضهم لا يزال في حالة صدمة، وأقر كثيرون بشعورهم وكأن نتائج الانتخابات كابوس لم يستيقظوا منه بعد.

ومما يلفت النظر أن العملاء الذين وفدوا في اليوم التالي للانتخابات كانوا لا يزالون في حالة من الذهول. وبصفتي معالجتهم، ركزت على تصديق مشاعرهم المضطربة، وتطبيعها، والحفاظ على ملاذ آمن لهم لتدارسها. كما تدارسنا سبل العناية الأساسية بالذات، كنيل قسط وافٍ من النوم، وتناول وجبات صحية، والتواصل مع الأصدقاء والعائلة، والحد من استهلاك الأخبار المتعلقة بالانتخابات. واكتفى بعض العملاء بتدارس هذا الأمر لبرهة يسيرة ثم عادوا لتدارس قضاياهم الشخصية، في حين كابد آخرون في أداء وظائفهم اليومية في الأيام والأسابيع التي تلت الانتخابات.

لقد كابدت (شأني شأن كثير من خبراء الصحة النفسية الآخرين) لإعانة العملاء في حين كنت أكابد أنا نفسي مشاعر مقاربة من الصدمة، والغضب، والذهول، والإحباط، والخوف. ويميل السواد الأعظم من خبراء الصحة النفسية إلى الليبرالية في توجهاتهم (نورتون ٢٠١٦)، وهو أمر لا يثير العجب، بالنظر إلى تركيز مهنتنا على العدالة الاجتماعية، وحقوق الرعاية الصحية، وغيرها من القضايا التقدمية. ومن ثم، أُثقل كاهل كثير من المعالجين بإعانة عملائهم على التعاطي مع قلقهم في حين كانوا يصارعون أعراضهم هم أيضاً.

وكان بعض هذا العمل يبعث على السلوى. فالقدرة على إعانة العملاء منحتنا متنفساً محموداً من وابل الأخبار الذي لا ينقطع. كما أعانني على ألا أستشعر قلة الحيلة؛ فالوجود «في الخنادق» مع العملاء كان سبيلاً لاستشعار الإنتاجية.

ولقد ألفيت أن العملاء الذين يحوزون شخصاً عزيزاً (غالباً ما يكون أحد الوالدين أو شريك حياة) مصاباً باضطراب في الشخصية (ولا سيما اضطراب الشخصية النرجسية) كانوا أشد تأثراً من غيرهم. وإن شطراً عظيماً من العمل المنجز مع هؤلاء الأفراد يعينهم على الإقرار بالتلاعب بالعقول (Gaslighting) المنطوي في علاقتهم بشخصهم العزيز؛ وعلى إدراك أنهم ليسوا بمجانين وأنهم يحوزون حكماً سليماً وسوياً إزاء شخصهم العزيز المعتل؛ وعلى الإقرار بقصور شخصهم العزيز؛ وعلى تطوير استراتيجيات تعاطٍ صحية لمجابهة تقلبات مزاج شخصهم العزيز المتخبطة، وإلقائه اللائمة، وكذبه.

إحدى النسوة، وتُدعى «كلير» (لقد بُدلت الأسماء قاطبة في المواقف السريرية ووُضعت بين علامتي تنصيص عند ورودها أول مرة)، وهي أم لطفل صغير من ذوي الاحتياجات الخاصة وزوج يحوز سمات نرجسية،

كان زوجها قد أحالها إليّ لأنه خيل إليه أنها «تُجن» وتفتقر إلى عون مهني. وكان شطر من عملنا معاً هو إعانتها على فقه مشروعية تقييم زوجها؛ والمضي قُدماً في العمل على قلقها، الذي استثارته هذه الدينامية؛ ورسم حدود أصح مع زوجها.

كانت كلير على قدر عالٍ من التعليم، وليبرالية سياسياً، وكابدت وقع انتخاب ترامب. وتفاقمت أعراض قلقها إبان حقبة ما بعد الانتخابات وما بعد التنصيب. وتركز علاجها على تطبيع مشاعرها وحثها على إرساء السيطرة بإحداث فارق في السبل التي تسعها.

وبالنسبة لها، استلزم هذا التطوع، والإعراب عن التقدير لمعلمي طفلها وغيرهم من المهنيين ذوي الصلة، والاتصال بممثليها المحليين في الكونغرس.

وامرأة أخرى، تُدعى «آيدا»، كانت في أوائل العشرينيات من عمرها وطالبة جامعية في سنتها الثالثة.

كانت آيدا موهوبة وبالغة الحساسية وفضولية أيضاً. ولقد كابدت في العلاج لتفقه علاقتها بوالدها، الذي كان يحوز سمات نرجسية. وأذكر قولها غداة الانتخابات: «أشعر وكأننا جميعاً في علاقة مسيئة وجدانياً مع رئيسنا». ولقد كابدت قلقاً متزايداً أيضاً، وكان عملنا هو إعانتها على

ترسيخ قدميها فيما تسعها السيطرة عليه وما لا تسعها. فشاركت في مسيرات احتجاجية عدة، مما أعانها على التخفيف من شعورها بقلة الحيلة. بيد أنها كابدت للحد من استهلاكها لوسائل التواصل الاجتماعي، وغالباً ما كانت تَلِجُ الجلسات وهي تستشعر القهر من أحدث الأخبار.

إن عملي في منطقة بالغة التقدمية خلو من أي مناصر لترامب كعميل قد أتاح لي أن أصدق عملائي القول بأنني أكابد مشاعر مقاربة، وأن كثيراً من هذه المشاعر كانت مشاعة بين التقدميين غداة الانتخابات. ويطيب لي أن أظن أن عملائي أجلّوا صدقي وقدرتي على إظهار جانب إنساني جداً لمعالجتهم. بيد أنه، وفي أحيان جمة، ينطوي دور المعالج على إعانة العملاء على استشعار مزيد من الأمل والثقة في حيواتهم. ولقد تبين أن هذه المهمة بالغة العسر، إذ تُركنا نحن المعالجين نكابد مشاعر مقاربة من قلة الحيلة، ولعل مرجع ذلك إلى تدريبنا المهني، وقلقاً أعظم بالنظر إلى الخطوب الطباعية التي عايناها في سلوك ترامب وشخصيته.

د. جينيفر كونتارينو بانينغ، عالمة نفس سريرية مرخصة وصاحبة «مايندفل سيكولوجي أسوشيتس»، وهي عيادة جماعية صغيرة في

إيفانستون، إلينوي. نالت درجة الدكتوراه في علم النفس السريري من مدرسة شيكاغو لعلم النفس المهني في عام ثلاثة وألفين، وأتمت تدريبها في جامعة إلينوي الشمالية وجامعة نورث وسترن. افتتحت بانينغ عيادتها الخاصة في عام أربعة وألفين، وتضم الآن ثلاثة علماء نفس وزميل ما بعد الدكتوراه ضمن طاقمها. وتتخصص في علاج اضطرابات المزاج، واضطرابات الأكل، والصحة النفسية لطلاب الجامعات، والضغط، والصدمات متوسلة بنهج تكاملي يجمع بين العلاج السلوكي المعرفي، واليقظة الذهنية، والعلاج السلوكي الجدلي، كما أنها مدربة على التنويم المغناطيسي السريري.

في العلاقة مع رئيسٍ مُسِيء

هاربرويست، حائزة على الماجستير، ومعالجة نفسية مرخصة

وفيما كانت "أميليا" تبسط القول في مسالك زوجها داخل عيادتي، تجلى لي من فوري ما تنطوي عليه من إساءة وجدانية بالغة، وإن كانت تتصرف وكأن صنيعه هذا من صميم السواء.

فـ "جستين" قد يشتد في تقريعه إياها، ناعتاً إياها بـ "الخاسرة البدينة" وواصفاً طعامها الذي تعده بـ "الكارثة". وإن هي ساقت تساؤلات لا تجافي العقل، استشاط غضباً ورماها بقوله: "أنتِ أبداً سلبية وكثيرة الطعن". وإن هي جهرت بحقيقة تخالف هواه، رماها باختلاق أقاصيص "زائفة". وعلى الرغم مما يرفل فيه "جستين" من أمن أسري ومالي، فإنه خلوٌ من البهجة، مقطب الجبين في أغلب أحايينه.

وتقف أميليا حائرة إزاء الكيفية التي تستحيل بها أهون الخلافات إلى شقاق عظيم. فسألتها عما إذا كان يسع جستين أن يعتذر أو يقر بزلله. فأجابت: "أوه، كلا البتة. إنه عنيد غاية العناد. والذنب أبداً ذنبي. ولذا أسميه 'جستين المبرر'".

ولقد نشب أحدث شقاق بينهما حين سألته عما إذا كان قد سدد إحدى الفواتير. فاستشاط غضباً وادعى أنه فعل. ثم تبين لها لاحقاً أنه لم يسددها، بيد أنه أبى أن يعتذر عن كذبته، أو عما أعقبها من شقاق، أو عن غضبته المفرطة.

لقد تمادى جستين في كذبه حتى ساور أميليا الروع من أنها "تفقد صوابها" أو أن ذاكرتها قد خارت، وهو ظن يعضده دأب جستين على رميها بهذه النقائص. فهو يلح عليها أن تطوي زلاته في غياهب النسيان، في حين لا يفتأ ينبش زلاتها مراراً في خضم الشقاق.

وتصفه بأنه ناجح في تجارته، ماضٍ في عزمه، وقائد ذو بأس. وهي تتهيب مجابهته لأنها أيقنت أن ذلك يؤول إلى تفاقم الشقاق بغير طائل. وهي أبداً من يتجشم عناء التنازل.

وتفصح أميليا عن مكابدتها لمستويات عاتية من القلق، وتوجسها خيفة من ردود أفعال جستين التي تستعصي على التنبؤ.

وما هذا الزوجان إلا مزيج مستخلص من حالات جمة يتراوح فيها نمط الإساءة بين الخفاء والجلاء. وليس من قبيل المصادفة أن يكون هذا

الزوجان تمثيلاً قياسياً للعلاقة الراهنة بين أمريكا ورئيس مختل التوازن النفسي، ومسيء وجدانياً.

إن المعتدين في كنف الأسرة والرئيس دونالد ترامب ليشتركون في خصال شخصية جامعة، مرجعها إلى ما يتقاسمونه من دوافع، وانفعالات، وردود أفعال إنسانية مشتركة. وإن هذه الخصال لتلقي بظلالها القاتمة على العلاقات، سواء أكانت بين الأفراد أم مع أمة بأسرها، ولزامٌ أن يُتصدى لها صوناً لعافية أولئك الذين يقع عليهم الأذى.

إعادة تسمية النرجسيين

لقد قرن بعض خبراء الصحة النفسية ترامب بطائفة من التشخيصات، من قبيل اضطراب الشخصية النرجسية، واضطراب الشخصية المعادية للمجتمع، واضطراب الشخصية الارتيابية (البارانوية)، والاضطراب الضلالي، والنرجسية الخبيثة، وضرب من ضروب الخرف (لينزر ٢٠١٧).

وتستقى بعض هذه الأوسام من "الدليل التشخيصي والإحصائي" (الجمعية الأمريكية للطب النفسي ٢٠١٣)، والذي وسمه كُتّاب كثر بأنه نسق تصنيفي تعسفي يجافي العلم، يفرط في تعقيد الخطوب الوجدانية والسلوكية ويضفي عليها طابعاً طبياً زائفاً.

وبغية النأي عن هذا النسق التصنيفي، وتوخياً للتبسيط، وتسليطاً للضوء على العوار الطباعي القابع في صميم هذه الشخصيات، فإنني سأطلق على هذا الضرب من الناس اسم "الملقين باللائمة على الآخرين" (Other-blamers).

وإن العلة الكامنة وراء مسالكهم هي تدني استشعارهم لقيمتهم الذاتية، مما يفضي بهم إلى وهن في احتمال الخزي. فلقد تعلموا في سني طفولتهم أن يروضوا مشاعر النقص عبر تبني آليات تعاطٍ سقيمة لدرء تجارب الخزي أو النأي عنها.

وإن وهن احتمال الخزي لَيُفضي إلى مسالك تقترن باضطرابات الدليل التشخيصي سالفة الذكر، ومنها الغضب الانتقامي، وانعدام البصيرة والمسؤولية، ومجانبة الصدق، والاندفاعية، واستشعار الاستحقاق، وجنون الارتياب، وانعدام الندم والتعاطف، وتعظيم الذات، واللهاث وراء لفت الأنظار. ولئن كان ترامب أنموذجاً متطرفاً، فإن ثمة نسخاً "دون السريرية" من هذا السلوك تسري في ملايين البشر، ومنهم المعتدون في كنف الأسرة.

وقد يعسر على المرء أن يتبين تدني القيمة الذاتية لدى "الملقين باللائمة على الآخرين" لأنهم غالباً ما يتقمصون شخصية عدوانية مهيمنة بغية بلوغ

حماية وجدانية للذات. فهم نادراً ما يقرون بمشاعر النقص لاعتقادهم أن ذلك سيجعلهم عُرضة لذات الإساءة والسيطرة التي يقترفونها بحق غيرهم.

وبصفتي معالجة نفسية، فإنني أعاين ضحايا "الملقين باللائمة على الآخرين" في عيادتي يوماً بيوم. فالأقل عتواً من هؤلاء يورثون علاقات مشحونة بالشقاق أو الجفاء. أما الحالات الأشد عتواً فقد تنزلق إلى الإساءة الوجدانية والبدنية للشركاء والأبناء، والسلوك الإجرامي، والمسالك الإدمانية. ولطالما رددت أنه لا ينبغي لنا أن نشخص أولئك الذين يفدون التماساً للعلاج، بل حري بنا أن نشخص أولئك الذين ألجأوهم إلى هذا العلاج.

وعلى الرغم من سلوكهم المسموم، فإن "الملقين باللائمة على الآخرين" نادراً ما يذعنون طوعاً للعلاج، لفرط مقتهم لتجربة الخزي الكامنة في الوعي بالذات وتحمل المسؤولية. ومع ذلك، فهم غالباً ما يكونون المحور الذي يدور عليه علاج الآخرين.

ولا ريب أن "الملقين باللائمة على الآخرين" يجدون عوناً، إلى حد ما، في المسالك الإذعانية لأفراد يتوسلون بضربين آخرين من استراتيجيات ترويض الخزي: وهما إلقاء اللائمة على الذات، وتجنب اللائمة (ويست ٢٠١٦). فـ "الملقون باللائمة على الآخرين" ينشدون بغريزتهم أولئك الذين يرتضون الخضوع للسيطرة، أو التلاعب، أو الترهيب.

وهذا ما يرسي دعائم علاقات مع أقوام خاضعين لا يجرؤون على تحديهم، أو تقويمهم، أو إلقاء اللائمة عليهم. ولطالما أحاط الطغاة على مر التاريخ أنفسهم بحاشية من أفراد العائلة والمتملقين الذين يتحاشون مساءلة الزعيم توجساً من انتقامه الغاضب.

(وتوخياً للجلاء، سيشير هذا المقال إلى المعتدين بصيغة المذكر، وإن كان كلا الجنسين خليقاً بأن يكون من "الملقين باللائمة على الآخرين" والمعتدين).

علل سلوك "الملقين باللائمة على الآخرين

في سني طفولتهم، يغلب أن يكون "الملقون باللائمة على الآخرين" قد كابدوا صدمة نمائية أو صدمة تعلق، من قبيل التنشئة المسيئة، أو المخزية، أو الرافضة، أو المهملة. فالآباء المدمنون على المواد أو المضطربون نفسياً غالباً ما يبخسون حاجات الطفل حقها من العناية. وقد يكون الآباء قد أظهروا مسالك نرجسية أو مسالك إلقاء اللائمة على الآخرين فاتخذها الطفل نبراساً يحتذيه. وثمة علة أخرى محتملة تكمن في الآباء المتساهلين أو المتحاشين للشقاق الذين لم يحملوا الطفل على تحمل المسؤولية. كما أن الآباء الذين يفرطون في التركيز على الإنجاز أو الإذعان السلوكي خليقون بأن يذْكوا نار الخوف من الإخفاق، وهو ما قد يستجلب نزعات إلقاء اللائمة على الآخرين.

وإن هذه التجارب لتفضي بالأطفال إلى استشعار الحرمان من الحب، وانعدام الحماية، والنقص. وقد يكابدون عسراً في استشعار التعاطف مع الآخرين، وقد يطورون حساسية مفرطة سقيمة ومبالغة في ردود الأفعال إزاء تجارب الخزي. ولئن كان إلقاء اللائمة على الآخرين، بوصفه استراتيجية لترويض الخزي، قد يكون تكيفياً في الطفولة، فإنه يورث خطوباً في علاقات البالغين على الصعد كافة، من الرئاسية إلى الشخصية.

التفاعلية الوجدانية مع الخوف، والخزي، والغضب

في بني البشر قاطبة، يطغى خوف البقاء على الأداء التروي والمنطقي للدماغ المعرفي (باسكوالي ٢٠٠٦). فالأطفال الذين يكابدون الصدمات يكررون أبداً استجابات "الكر أو الفر" حتى تعتاد أدمغتهم على انفعالات البقاء ويسهل اختطافها بها (أندا وآخرون ٢٠٠٦). وإن التعرض المزمن لاستجابة الخوف لَيؤول إلى مسالك تنهض على القلق، كالاندفاعية، وفرط النشاط، واللامعقولية، والتقلب، والطيش، ووهن احتمال الإحباط، وضعف التركيز—وهي خصال يظهرها ترامب قاطبة يوماً بيوم. ولعل هراء ترامب المتهافت ليس إلا دليلاً على حالته الوجدانية الخائفة والتفاعلية؛ إذ لا طاقة له بتهدئة دماغه بما يكفي حتى لصياغة جملة تامة. فالمرء يفتقر إلى السكينة ليكون يقظاً لأفكاره، ومشاعره، وتجاربه، وليبلغ الوعي بالذات.

ولئن كانوا بارعين في مواراته، فإن "الملقين باللائمة على الآخرين" يعلمون علم اليقين كنه الخوف. فهم يفنون أعمارهم في هلع وجداني للبقاء، في روعٍ من أن يُحكم عليهم ويُلفوا مجردين من القيمة. إنهم في تهافت محموم لالتماس سبيل يستشعرون به الرضا عن أنفسهم، أو في أدنى تقدير، ليقوا

أنفسهم من مكابدة مزيد من الخزي. وإن ذلك الخزي لخليقٌ بأن يفضي إلى غضب وقائي، كما يتجلى في المأثور القائل: "الغضب هو الحارس الشخصي للخزي".

وبالنسبة لغلاة "الملقين باللائمة على الآخرين"، فإن التفاعلية المتأججة لـ "الكر أو الفر" قد تؤول إلى حنق يسوقه الخزي وعنف مسيء. فغالباً ما تندلع وقائع العنف الأسري حين يستشعر المعتدي أن شريكه يتحداه، أو يحط من قدره، أو ينبذه. ولما كان المعتدون قد أخفقوا في تعلم احتمال الخزي بسبل سوية، فإن أهون الإهانات، بل وحتى المتوهمة منها، لقيمتهم الذاتية الهشة، كألا يُقدم العشاء في موعده، قد تزج بهم في لُجج حنق لا قِبَل لهم بكبح جماحه.

لقد اتهمت إيفانا، زوجة ترامب الأولى، إياه باغتصابها في شهادة مشفوعة باليمين، وهو اتهام خففت من غلوائه لاحقاً، كشطر من تسوية طلاق مجزية، بيد أنها لم تتراجع عنه بالكلية. وإن هذا العنف المزعوم ليتسق مع شخصية امرئ يرتعد فرائصاً من النبذ ويحيا بقلق متأجج قد يستحيل إلى حنق عنيف. فالمرء المعتدي قد يتمادى إلى حد القتل أو الانتحار حين تشرف علاقة ما على الانقضاء ويُضطر لمجابهة هوان النبذ الذي لا مراء

فيه. وإن إقدام بعض المعتدين على قتل غيرهم أو حتى أنفسهم درءاً لمكابدة هذا الانفعال، لَيُجلي سطوة الخزي.

وإن هذا النمط من انعدام الاستقرار المتفاقم لَيَبعث على الروع حين نُعمل الفكر في حالة ترامب. فمع تعاظم ضغوط الحكم والتحقيقات، كتلك المتعلقة بالتواطؤ المزعوم مع روسيا، قد يطغى عليه الخوف، مما سيزيد من تضييق الخناق على قدراته المعرفية والاجتماعية الإيجابية. وقد تغدو مسالكه أشد تقلباً واستعصاءً على التنبؤ.

إن العلاقات السوية تقتضي شركاء يتسمون بالسكينة، والروية، والتروي، لا الخوف والانفعال. فالمسالك التي يسوقها الخوف وانعدام البصيرة هي النقيض التام لما ينبغي لنا أن نرتقبه من شريك آمن يُركن إليه، أو من قائد.

انعدام المسؤولية

لما كان الخزي والخوف هما الانفعالين الأصيلين اللذين يسوقان "الملقين باللائمة على الآخرين"، فإن انعدام المسؤولية يغدو أظهر عوار في طباعهم وأشده تدميراً.

فهم يكابدون عسراً في سبر أغوار أنفسهم والإقرار بوقع مسالكهم. إذ إن ذلك يقتضي بلوغ البصيرة، والاعتراف بالزلل، وإظهار الندم—وهي أفعال يلفيها "الملقون باللائمة على الآخرين" مهينة حد السحق. وفي خضم العلاج، يساورني شعور بأن "الملقي باللائمة على الآخرين" يود لو يسد أذنيه بيديه ويترنم بـ "لا-لا-لا" في مسعى للنأي عن سماع الحقيقة. فـ "الملقون باللائمة على الآخرين" يمقتون أن يُحملوا على المسؤولية لأنهم لا يحملون أنفسهم عليها.

وعلى وجه العموم، لا يوقن "الملقون باللائمة على الآخرين" بأن لزاماً عليهم أن يمتثلوا لذات الأعراف المجتمعية أو العلائقية التي يمتثل لها غيرهم، وهو أمر قد يورث الشركاء حيرة وضياعاً. وإن إباء ترامب الكشف عن إقراراته الضريبية أو الامتثال للوائح الأخلاقية لهو شاهد جلي على سيرورة التفكير هذه.

وإن انعدام المسؤولية لَيُذكي نار الشقاق المتفاقم بين الأزواج، لأن "الملقين باللائمة على الآخرين" يأبون بعناد الإقرار بالزلل، حتى وإن كانت الحقائق شاخصة أمام نواظرهم. أو قد يقرون بالزلل على مضض، ولكن ليس قبل الخوض في لُجج من الكذب واختلاق المعاذير. فتتراكم خيانات الثقة، لتضرب إسفيناً في صميم العلاقة.

ولقد سارت الركبان بانعدام المسؤولية لدى المعتدين في كنف الأسرة. فهم قد يبلغون شأواً متطرفاً في التسويغ. فقد أشار أحد المعتدين إلى أنه وإن كان قد حبس زوجته في الخزانة لساعات، وطرحها أرضاً مراراً، وصوب مسدساً إلى رأسها، فإنه لم يلكمها—وكأن هذا الحد الفاصل التعسفي يعفي جرائمه التي لا تُغتفر. فـ "الملقي باللائمة على الآخرين" دأب على إلقاء اللائمة على الضحية، وكأن تأخر العشاء يسوغ صفعة على الوجه.

وعلى النقيض من هاري ترومان، الذي وضع لافتة على مكتبه في المكتب البيضاوي خُط عليها: "المسؤولية تقف هنا"، يبدو ترامب خلوًا تماماً من أي حس بالمسؤولية. فهو دأب على إلقاء اللائمة على الآخرين ولا يبدو أنه يعتذر قط عن أي من أكاذيبه أو زلاته. وإن إلقاء ترامب للائمة لَيبلغ من التوقع مبلغاً يجعله لا يكاد يطلق تصريحاً واحداً بغير مراوغة (ميلبانك ٢٠١٧). وإن زعمه، وإن كان باطلاً، بأنه لا يسوي الدعاوى القضائية لهو شاهد على مقته لتحمل المسؤولية. كما أن ميل

ترامب إلى السخرية من الحقائق أو آراء الآخرين هو سبيل آخر للنأي عن التعاطي مع المواقف بصدق.

ولما كانوا مفتقرين إلى المسؤولية وما يترتب على ذلك من انعدام البصيرة، فإن "الملقين باللائمة على الآخرين" يستعصون أشد الاستعصاء على التغيير، تاركين شركاءهم بغير حيلة تُذكر للتأثير في العلاقة. ففي العلاقة بين الأفراد، يسع الشريك أن يرحل. بيد أننا، كأمة، لا نملك من الملاذ سوى الإيمان بأن مؤسساتنا الديمقراطية ستكبح جماح ترامب.

وأسفاه، إن المعتدين والسلطويين أمثال ترامب يمقتون القوانين، التي غايتها القصوى هي حمل الناس على المسؤولية. وإن هذه الرؤية للعالم لَتُمَثِّلُ خطراً داهماً على ديمقراطية شُيدت على سيادة القانون.

وعلى النقيض من ذلك، يسع الناضجين وجدانياً أن يتقبلوا الحدود التي يرسيها الآخرون. وحين يخيبون الآمال، يسعهم أن يعتذروا من فورهم وبكياسة، مما يفض النزاعات ويرأب صدع العلاقات. فالعلاقات السوية تقتضي وعياً بزلات المرء؛ واكتراثاً بوقعه على الآخرين؛ وقدرة على التعاطي مع الأخطاء، والهزائم، والنقد برباطة جأش.

انعدام الانفعالات الاجتماعية الإيجابية

إن عجز "الملقي باللائمة على الآخرين" عن الاعتذار لَيُشير بجلاء للآخرين إلى افتقاره إلى الضمير والتعاطف. فالرحمة، والرأفة، والإيثار هي خصال اجتماعية إيجابية ومسالك أخلاقية فطرية إلى حد بعيد (مارتن وكلارك ١٩٨٢). بيد أن أولئك الذين يُوصفون بالمعتلين اجتماعياً (السيكوباتيين) والنرجسيين (الجمعية الأمريكية للطب النفسي ٢٠١٣) غالباً ما يُعرفون بانعدام الندم، أو الشعور بالذنب، أو التعاطف.

ويفتقر "الملقون باللائمة على الآخرين" إلى هذه الخصال الوجدانية لعلل شتى. فبعضهم لم ينعم بتفاعلات دافئة في علاقات التعلق المبكرة مع من رعوهم. ولعلهم تعلموا أن يكونوا مؤذين للآخرين عبر مكابدة الإساءة أو مشاهدتها. وإن التنشئة في كنف بيئة مشحونة بالصدمات لَتزيد من ركون المرء إلى استجابات البقاء المتمثلة في "الكر أو الفر" وتحد من النفاذ إلى استجابات "الرعاية والمصادقة"، مما يجعله أقل ميلاً لإعانة الآخرين أو حتى الوعي بحاجاتهم.

وحين يلم بالناس الكرب أو يُحشرون في الزاوية، فإنهم غالباً ما يستشيطون غضباً، ولا سيما إن كانوا يحوزون أنموذجاً للعلاقات قد يخلو من الأمان، أو السكينة، أو الحب. وإن حنق المعتدي العنيف لهو نسخة متطرفة من قصور في الوجدان الاجتماعي الإيجابي ينهض على الخوف. قد يزعم المعتدي أنه يحب شريكته ويدعي أنه لن يؤذيها قط، بيد أن مسالكه التفاعلية الوجدانية تنطق بالحق: وهو أنه، حين يختل توازنه بفعل الخوف والخزي، لا يسعه أن يكترث إلا بنفسه.

أما بالنسبة لـ "الملقين باللائمة على الآخرين"، فإن صراعهم الوجداني لوقاية صورتهم الذاتية الهشة من الخزي هو ما يورثهم انعدام الاكتراث. فـ "الملقون باللائمة على الآخرين" يطغى عليهم ألمهم الوجداني، لذا يؤثرون إفراغه على كاهل غيرهم، حتى وإن اقتضى ذلك إيذاء ذلك الشخص أو الإضرار بالعلاقة.

وحتى أولئك الذين يحوزون سمات أقل عتواً من إلقاء اللائمة على الآخرين، يؤول بهم المطاف إلى تدمير العلاقات لافتقارهم إلى القدرة على الالتفات إلى انفعالات شركائهم أو الاستجابة لها برأفة وعناية. وإن ما ينجم عن ذلك من انعدام للصلة الوجدانية لهو علة كبرى في إخفاق

العلاقات. وفي علاج الأزواج، يعسر أن تحمل "الملقي باللائمة على الآخرين" على الالتفات إلى وقعه على شريكه. فحتى وإن كانت زوجته تنتحب، قد يجلس الزوج "الملقي باللائمة على الآخرين" جامداً لا يحرك ساكناً، أو، وهو الأدهى، مجادلاً ومدافعاً عن نفسه. فهو لفرط انشغاله بوقاية نفسه من مكابدة الخزي واللائمة، لا يكاد يحوز سعة لاستجابة دافئة. ولا ريب أن المعتدين يلحقون الأذى بالعلاقة في كل مرة يستجيبون فيها بعنف.

وغالباً ما يكابد "الملقون باللائمة على الآخرين" عسراً في التناغم مع الحالة الوجدانية للآخرين، لأنه، كما أقر أحد "الملقين باللائمة على الآخرين" في لحظة نادرة من الوعي بالذات: "أنا أكترث بأن أكون على حق أكثر من اكتراثي بفعل ما هو حق للعلاقة".

وهذا هو عين ما يقع في علاقة ترامب بأمريكا. فهو يكترث بإيواء نفسيته الهشة أكثر بأشواط من اكتراثه بفعل ما هو حق للبلاد. لقد تجلى انعدام التعاطف لدى ترامب لعقود خلت، من خلال تعصب موثق، وجشع، وتنابز بالألقاب، وترهيب، وحقد انتقامي.

ولما كان قابعاً في حالة بقاء وجداني، فإن ترامب يعمى عن إدراك أن مؤتمراته الصحفية الصاخبة أو تغريداته المتنمرة تزعزع الاستقرار. فغايته المحضة هي أن يستشيط غضباً ليستشعر الرضا عن نفسه في تلك اللحظة. ولا يعبأ ترامب بأن خطاب الكراهية الممزق الذي يتبناه يحدو بالكثيرين إلى التوجس خيفة على سلامتهم وحريتهم. وهو غير مكترث بالوقع بعيد المدى على البلاد. إنه لفرط انشغاله بأن يكون على حق مهما كان الثمن، يعمى عن إدراك أن أكاذيبه واتهاماته تدمر علاقته بالمواطنين الذين يقودهم.

وليس لترامب أي وازع أخلاقي ظاهر لرعاية الآخرين أو خدمة ناخبيه. قد يتشدق بشعارات "أمريكا أولاً"، بيد أنه لا يفقه حقاً كنه البذل المتجرد من الأنانية في الوطنية الصادقة. لقد نال ترامب خمسة تأجيلات إبان حرب فيتنام، ومع ذلك دأب على التهجم اللفظي على أبطال الحرب. وإن سياساته لَتُكَرِّسُ القسوة تجاه الأقل حظاً وتتخلى عن الوصاية الرعوية على موارد الأرض.

وكما هو الشأن مع جل "الملقين باللائمة على الآخرين"، فإن البلاد تدرك بجلاء تام أن ترامب لا يسعى إلا لمصلحته الخاصة. وإن الشعور المتفشي بأن "الملقي باللائمة على الآخرين" لا يكترث بك لهو خيانة وتؤول، بحق، إلى انعدام الثقة والقطيعة. وإن هذا الضرب من السلوك لَيَنْتَهِكُ حاجتنا الفطرية إلى التبادلية والثقة في العلاقات، وهو العلة في أن العلاقات مع النرجسيين مسمومة وغالباً ما تنقضي بمآل بائس.

سلب الضحية إنسانيتها

إن انعدام التناغم الوجداني والاستجابة الاجتماعية الإيجابية لَيُفضي إلى تشييء الآخرين أو سلبهم إنسانيتهم. وإن هذا الإبعاد لهو آلية تكيفية تتيح لـ "الملقين باللائمة على الآخرين" مكابدة قدر أقل من الشعور بالذنب حين يلحقون الأذى بشركائهم.

"إن الرجل المسيء لَيُضطر إلى وأد رحمته في حفرة عميقة بغية الفرار من النفور الفطري العميق الذي يعتمل في نفوس بني البشر إزاء رؤية الآخرين يكابدون الألم. ولزامٌ عليه أن يتشبث بمعاذيره وتسويغاته، وأن يطور قدرة مزعجة على عزل نفسه عن الألم الذي يسببه، وأن يتعلم الالتذاذ بالسلطة والسيطرة على شريكاته" (بانكروفت ٢٠٠٢).

لقد دأب ترامب، لعقود خلت، على إطلاق تعليقات تحط من قدر مظاهر النساء وتباهى في شريط مسجل بالاعتداء الجنسي عليهن. وإبان الحملة الانتخابية، سخر من مراسل صحفي معاق.

وحين زعم جل المعلقين أن سلوك ترامب قد ينصلح في البيت الأبيض، تنبأت بأن سلوكه سيزداد سوءاً. فإن سلبه المتطرف لإنسانية الآخرين سيتفاقم مع تعاظم استشعاره للاستحقاق بفضل سطوة منصبه.
"إن التشييء لهو علة حاسمة في ميل المعتدي إلى التفاقم سوءاً بمرور الأيام. فكلما تكيف ضميره مع درك من القسوة—أو العنف—ارتقى إلى ما يليه. وبسلبه شريكته إنسانيتها، يقي المعتدي نفسه من الانفعالات الإنسانية الفطرية كالذنب والتعاطف، ليتسنى له أن ينام قرير العين مرتاح الضمير. إنه ينأى بنفسه بعيداً عن إنسانيتها حتى تغدو مشاعرها بلا وزن، أو ببساطة، كأن لم تكن" (بانكروفت ٢٠٠٢).

وإنه لمما يبعث على الروع أن نتدبر أن لدينا رئيساً ربما يكون قد فقد القدرة على الاكتراث بأرواح البشر التي أُنيط به حمايتها.

استشعار الاستحقاق

يُظهر "الملقون باللائمة على الآخرين" استشعاراً للاستحقاق، وهو وثيق الصلة بسلب الإنسانية وانعدام المسؤولية. ويبدو أن ترامب يوقن بأنه فوق كل لوم، إذ صرح ذات مرة بأنه يسعه أن يطلق النار على أحدهم في الجادة الخامسة ولن يفقد ناخباً واحداً (جونسون ٢٠١٦).

يروم جل المعتدين مواراة السمات المستهجنة اجتماعياً؛ فهم غالباً ما يتصنعون اللطف مع الآخرين في حين يسيئون لشركائهم. واأسفاه، لا يتجشم ترامب عناء إخفاء إساءته اللفظية. فهو يستشعر الحق في التخجيل والتحقير علانية. فالتنابز بالألقاب بتعليقات من قبيل "الخاسر" و"احبسوها" كانت من الركائز الأصيلة لحملته. ويبدو خلوًا من أي وازع من لياقة أخلاقية، مما يشي بمعتدٍ بالغ الخطورة والتطرف لا يحاول حتى أن يواري سوء طويته بسحر المعتل اجتماعياً (السيكوباتي). فلا يسعه حتى أن يتصنع دماثة الخلق، رغم كل ما يحوزه من شعبية، وثروة، وسطوة.

الخداع

يكذب "الملقون باللائمة على الآخرين" ليضخموا إنجازاتهم في مسعى لالتماس الاستحسان، ودرء اللائمة، والنأي عن المسؤولية. ويغدون بارعين في الخداع الصراح، وأكاذيب الكتمان، والردود الملتوية، والإنكار، وتحويل مسار الحديث.

وإن الكذب على الآخرين لَيُمَثِّلُ طبيعة ثانية لـ "الملقين باللائمة على الآخرين" لأنهم يكذبون على أنفسهم باطراد. فإن إلقاء اللائمة على الآخرين بصورة روتينية لهو جهد هائل وممتد طيلة الحياة في خداع الذات. يكذب "الملقون باللائمة على الآخرين" بالتسويغ، مقنعين أنفسهم بأن مسلكهم لائق، بغية النأي عن سماع الحقيقة ومكابدة الخزي.

لقد قال الكاتب توني شوارتز عن ترامب: "إن الكذب طبيعة ثانية فيه... وبما يفوق أي امرئ لقيته قط، يحوز ترامب القدرة على إقناع نفسه بأن كل ما يتفوه به في أي لحظة معطاة هو حق، أو ضرب من الحق، أو في أدنى تقدير ينبغي أن يكون حقاً" (مايو ٢٠١٦).

ويكذب "الملقون باللائمة على الآخرين" والمعتدون بوتيرة مفرطة حتى إن شركاءهم غالباً ما يقفون حيارى لا يدرون ما يصدقون. فكيف لعلاقة من أي ضرب أن تصمد أمام خيانة وابل لا ينقطع من الخداع، والمعاذير، والإنكار؟

يحوز بنو البشر حاجة فطرية للبقاء تكمن في الثقة في العلاقات: "هل يسعني حقاً أن أعول عليك حين يلم الخطب؟ هل تحمي ظهري؟" ومع تواتر الأكاذيب، سيوقن الشركاء (والحلفاء الوطنيون) أن الجواب هو كلا.

وهذا هو عين ما يورث الكرب لكثير من الأمريكيين منذ انتخاب ترامب. فهم يستشعرون، وبحق، أنه سيغدر بنا برعونة لبلوغ مآربه، حتى وإن كان ذلك يجافي المصلحة العليا للبلاد.

ولقد أشار النائب آدم شيف، الديمقراطي من كاليفورنيا، إلى أن أكاذيب ترامب المتصلة قد تؤول إلى فقدان الثقة في كلمات الزعيم، وهو ما قد ينطوي على مآلات دولية جسيمة. "حين يسوق رئيس الولايات المتحدة مزاعم يثبت بطلانها، فإن ذلك يوهن الرئاسة ويقوض أمننا ومكانتنا في العالم. فالمصداقية الرئاسية متى ما بُددت قد لا تُسترد بالكلية قط. وإن زعم الرئيس يوماً ما أن كوريا الشمالية قد نصبت سلاحاً نووياً على صاروخ

باليستي وأن التحرك بات ضرورة، فستكون تلك معضلة هائلة إن كان الزعم باطلاً. وإن كان حقاً، فقد تكون المعضلة أدهى وأمر إن كان الرئيس قد فقد القدرة على إقناع حلفائنا بالحقائق، بله الشعب الأمريكي" (شيف ٢٠١٧).

وتشتمل الخصال الأخر لـ "الملقين باللائمة على الآخرين" المسيئين على:

• إعلاء شأن الولاء الشخصي، وإحاطة أنفسهم بـ "الإمعات". فترامب يعول تعويلاً يكاد يكون حصرياً على أفراد عائلته كمستشارين، وإن كانوا قاطبة خلوًا من أي حنكة حكومية.

• عزل شركائهم وغالباً إقناع ضحاياهم بأن الآخرين لا يضمرون لهم الخير. وطيلة الحملة، أرسى ترامب عقلية "نحن في مواجهتهم" في نفوس أشياعه، محقراً من شأن كل من قد يوهن قبضته على قلوب أولئك الأشياع وعقولهم.

• الانجذاب إلى السلطة والميل إلى إساءة استغلالها. فهم يتوسلون بأسلوب سلطوي في الحديث يحمل الآخرين على الشك في الواقع. فترامب يردد الأكاذيب بصفاقة حتى لا يكاد يذر للحقيقة متسعاً لتزدهر.

• الترويج لصورة النجاح. فإن نمط حياة ترامب المطلي بالذهب وهوسه بأحجام الحشود وأعداد الأصوات لَيُقَدِّمُ شاهداً دامغاً على أن وقاية غروره الهش تتبوأ الصدارة.

مدفوعون إلى التشتت: أثر ترامب في صحتنا النفسية

إن المعضلة الجوهرية في رئاسة ترامب لا تقتصر محضاً على أن سياساته المفتقرة إلى الروية قد تلحق بنا الأذى. بل تكمن في أن عوار طباعه سيُطَبِّعُ المسالك اللاأخلاقية المتمثلة في إلقاء اللائمة على الآخرين ويحفز تجليها التام في أولئك الذين لعلهم كانوا مكبوحين سالفاً بتوقعات السلوك المقبول اجتماعياً. وإن كان التصاعد الأخير في العنف العنصري شاهداً، فإن ترامب قد منح أشياعه ضوءاً أخضر للتنفيس عن مكنوناتهم.

وكما أن صدمة مشاهدة العنف الأسري تلحق الأذى بالأطفال، فإن رئيساً غير ناضج وجدانياً خليقٌ بأن يلقي بظلاله على مستقبل أمتنا فيما يخص السلوك الأخلاقي، والاستقرار الثقافي، والعافية النفسية.

ولا سبيل إلى كبح جماح "الملقين باللائمة على الآخرين" إلا بإرساء حدود عاجلة وهادئة و إنفاذ للأعراف الأخلاقية والاجتماعية. وبغير هذه المؤثرات، يزداد "الملقون باللائمة على الآخرين" جسارة وتطاولاً في ادعاء السلطة. فـ "الملقون باللائمة على الآخرين" سيغتصبون من الأرض ما وسعهم اغتصابه.

لزامٌ علينا أن نقاوم، لا لاحتواء مسالك ترامب فحسب، بل لنرسل إشارة إلى أشياعه بأن السلوك المسيء ليس باللائق. واأسفاه، الآن وقد حُفز ملايين من "الملقين باللائمة على الآخرين" من لدن ترامب على إساءة السلوك، فقد يغدو من المحال إعادة ذلك المارد إلى قمقمه.

وفي أروقة العلاج، من المألوف أن نعاين عائلات لم يُكبح فيها جماح نرجسي أو معتل اجتماعياً—وتارة أجيالاً متعاقبة منهم—وإن الخلل الناجم عن ذلك لَيَخْلُقُ تموجات من الصدمة النفسية، تشمل أنماط تعلق غير آمنة في الأطفال، و إدمانات، وجفاء، وشقاقاً.

ولما كان "الملقي باللائمة على الآخرين" يأبى التنازل أو الانخراط في لعب نزيه، فإن الأمر يستحيل إلى "كل امرئ ونفسه". فيمقت أفراد العائلة اضطرارهم أبداً إلى البذل ليتسنى لـ "الملقي باللائمة على الآخرين" أن يأخذ. ويمقتون كذب "الملقي باللائمة على الآخرين" وإباءه الإقرار بالحقائق. ويمقتون إلقاء اللائمة عليهم أبداً في حين لا يسع "الملقي باللائمة على الآخرين" أن يقر بزلل قط. وغالباً ما يكابد ضحايا الإساءة إحباطاً لأنهم حين يرومون النفاذ إلى المعتدي، يلفون أن قواعد اللعب النزيه لا تسري.

وبصفتنا أمة، فإننا نروم تنزيل سيادة القانون الديمقراطي على ترامب. فإن أبى ترامب اللعب وفق القواعد، ولم تحمله المحاكم والكونغرس على المسؤولية، فلن نجد نحن المواطنين ملاذاً يُذكر، مما سيورثنا شعوراً بيأس منقطع الحيلة كشأن الزوج المُعْتَدَى عليه.

إن التنازل والتبادلية لَرُكْنَانِ رَكِينَانِ في السياسة والعلاقات السوية. ويميل "الملقون باللائمة على الآخرين" إلى تبني موقف "إما طريقي أو فلا"، كما فعل ترامب في اندفاعه الأخرق لتمرير بديل لقانون الرعاية بأسعار معقولة بغير نقاش. فإن كان لزاماً على ترامب أن يكون على حق وأن

يفوز مهما كان الثمن، وإن كان يرى في النقاش والتنازل خسارة، فإن هذا لا يذر أملاً يُذكر لمستقبل علاقة البلاد به.

من المألوف لزوج غيور أن يراسل زوجته بغضب ثلاثين مرة في اليوم، ويهاتفها مراراً، ويجادلها لساعات. وإن الجهد الذي يقتضيه ترويض المعتدي لَيَسْلُبُ الشريك وقته وطاقته للرعاية الأبوية، أو المسيرة المهنية، أو العناية بالذات.

ففي العلاقات النرجسية، لا يكاد يتبقى للمرء شيء بعد الشقاق. ويميل الشركاء المُعْتَدَى عليهم إلى الإفراط في التركيز على العلاقة، بدلاً من الالتفات إلى ارتقائهم بذواتهم، حتى تنقضي العلاقة.

وعلى النحو عينه، ومنذ انتخابات عام ستة عشر وألفين، يقبع شطر عظيم من العالم في حالة هلع، مفرطاً في التركيز على ترامب وعاجزاً عن التعاطي مع كثير مما سواه سوى نقائصه وحماقاته. فالعالم يتهافت للرد على الفوضى، مما لا يذر طاقة تُذكر للتصدي للقضايا المشروعة. فحين زار رئيس الوزراء الياباني، طغى النقاش حول أسلوب ترامب العدواني الشاذ في المصافحة على الحديث عن الصفقات التجارية أو كوريا الشمالية. انكسار الجرف الجليدي في القطب الجنوبي؟ حروب، ولاجئون، والاتحاد

الأوروبي في خضم الاضطراب؟ إن هذه القضايا لا تحظى بما يكفي من العناية لأن العالم يكابد لفقه التشتت اللاهث وراء لفت الأنظار في البيت الأبيض. وإن هذا لَمَأْسَاوِيٌّ في مآلاته لأولئك الأقوام وتلك القضايا التي طواها النسيان جراء العلاقة المختلة التي نكابدها مع هذا الرئيس.

وإنني لأكابد هذا شخصياً، إذ أمضي وقتاً أطول بأشواط في مطالعة المقالات الإخبارية، وتنظيم التجمعات، وتسطير الرسائل، وإجراء المكالمات الهاتفية. وهو وقت وطاقة كان يسعني أن أبذلهما في مناصرة قضايا حقيقة بالاهتمام. والحق أنني هاهنا أسطر عن صحة ترامب النفسية، في حين أنه، لو كان ثمة امرؤ آخر في المنصب، لكان يسعني أن أعمل على الارتقاء بنسق الرعاية الصحية النفسية.

إن هذا الرئيس النرجسي لَيَصْنَعُ ما يصنعه النرجسيون قاطبة: يمتص الهواء من الغرفة. فحين يكون المرء في علاقة مع "ملقٍ باللائمة على الآخرين"، لزامٌ عليه أن يفني وقته وطاقته في الجدال حول الجدال، بدلاً من أن يحيا في سكينة وإنتاجية. وسيظل ترامب يلقي بظلاله المسمومة على الصعيدين الفردي والعالمي، لا عبر قراراته السياسية المؤذية والمفتقرة إلى الروية فحسب، بل عبر القلق المتفاقم وصرف الأنظار عن قضايا أخر.

إن القائد الحق أو الزوج العطوف لَيُرَوِّضُ مسالكه وانفعالاته بنهج ناضج ومعتدل. وستغدو البلاد أقل قدرة على التركيز على حلول للخطوب المعقدة حتى نبرأ من كبير "الملقين باللائمة على الآخرين" الذي نرتبط به. وإن غلظة المجتمع وفقدان التحضر والتعاطف لَخَلِيقَانِ بألا يُرقع صدعهما في الأمد القريب. ولا يسعنا إلا أن نأمل أن نفصم عرى علاقتنا بهذا الرئيس المسيء قبل أن يفصم هو عرى البلاد.

هاربر ويست (www.HarperWest.co)، حائزة على الماجستير، ومعالجة نفسية مرخصة في كلاركستون، ميشيغان. تخرجت في جامعة ولاية ميشيغان بدرجة في الصحافة وعملت في الاتصالات المؤسسية، لتنال لاحقاً درجة الماجستير في علم النفس السريري من مدرسة ميشيغان لعلم النفس المهني. السيدة ويست هي مطورة "سيكولوجية تقبل الذات"، التي تتحدى الأنموذج البيولوجي للاضطرابات النفسية وتقدم نموذجاً إرشادياً مستحدثاً يعيد صياغة الخطوب الوجدانية بوصفها استجابات تكيفية للخوف، والصدمة، والخزي، وانعدام التعلق الآمن. حاز كتابها في المساعدة الذاتية "سيكولوجية قائد القطيع" على جائزة بن فرانكلين لعلم النفس من جمعية ناشري الكتب المستقلين.

خر افة المولد وتنزيل العقلية الترامبية

د. لوبا كيسلر

يقف دونالد ترامب على طرفي نقيض في شقاق البلاد بين أولئك الذين يهللون لارتقائه سدة الرئاسة وأولئك الذين يساورهم بالغ الروع منه. وإن هذا الشقاق المحتدم لَيُشير إلى الوقع الوجداني العاتي الذي يحدثه في الأمة. فما كنهه؟ لقد ساق الناس طائفة من العوامل. ويقدم هذا الفصل نظرة متفردة لنهج ترامب في الدسيسة السياسية عبر تمحيص اعتناقه وترويجه الصاخب لمؤامرة "خرافة المولد". وإن اتخاذه إياها منصة وثوب لإطلاق ترشحه الرئاسي لَيُجلي منذ البدء علامات لا تخطئها العين على ليٍّ سافر لعنق الواقع وتنزيل للديماغوجية بغية بلوغ مآربه السياسية.

فما هي خرافة المولد؟ منذ عام أحد عشر وألفين، كان دونالد ترامب أشد الأبواق صخباً وإلحاحاً لنظرية المؤامرة القائلة بأن باراك أوباما ليس مواطناً أمريكياً أصيلاً. وبإنكاره أن أوباما أمريكي بالولادة، انضوى ترامب تحت لواء حجة "خرافة المولد" التي اعتنقتها حثالة اليمين السياسي المتطرف في البلاد.

لقد كانت تلك أولى أباطيل ترامب السياسية الجلية، لتستهل انحرافاً في الخطاب السياسي آل به المطاف في النهاية إلى انتخابه. وأعقب ذلك عهد زائف مع العوام، أفرز فيضاً من وقائع "بديلة" أخر.

وإن هذا لَيُثير تساؤلات تبعث على الروع. لِمَ ضرب هذا الباطل بجذوره؟ وما هي مآلات رئاسة تنهض عليه؟ يروم هذا الفصل تدارس هذا التساؤل في ضوء التاريخ الحديث.

لقد شهد العقد الأول من التاريخ السياسي للبلاد في القرن الحادي والعشرين حدثين وطنيين بالغي الأثر والتحول. فقد كابدت أمريكا أول وآخر هجوم أجنبي على برها الرئيسي منذ حرب عام اثني عشر وثمانمائة وألف، وذلك في الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد. وفي عام ثمانية وألفين، انتخبت رجلاً أسود رئيساً لها، وأعادت انتخابه لولاية ثانية في عام اثني عشر وألفين. أتى أحد الحدثين من الخارج؛ والآخر من تطورات في الداخل. فهل ثمة سر في هذا التقاطع بين صدمة الأول والتموجات الباطنة للآخر؟ هلم نمحص الأمر.

لقد زلزلت هجمات الحادي عشر من سبتمبر الإرهابية شعور البلاد بأنها لا تُقهر. ومنذئذ، وما انفكت الولايات المتحدة تخوض غمار الحروب في أراضٍ أجنبية، في مسعى لاسترداد شعورها بالأمن والسطوة. لطالما زُهيت أمتنا بسيادتها، وبقدرها الجلي التوسعي في الداخل، وبصوت سطوتها في الخارج. ولقد كان تقويم صورتها الذاتية غداة الحادي عشر من سبتمبر على المسرحين الوطني والدولي أمراً مريراً. لقد ولجنا الألفية المستحدثة بفيض من المساءلة الذاتية. وجابه جيل الألفية الأمريكي الآخرية العرقية والدينية بإلحاح لم تعهده الأجيال السالفة. فمن جهة، وسع ذلك آفاقهم، مذكياً اهتماماً وانفتاحاً أعظم على العالم. بيد أنه، من جهة أخرى، غدت الحياة أشد اضطراباً؛ وإن انهيار الشعور بالأمن الاجتماعي والأسري قد جعل ولوجهم إلى هذا العالم المستحدث أشد عُرضة لمشاعر الارتياب والخوف. وإن النزوع إلى "التقوقع" والانكفاء على الذات قد أذكى نار الشك في الآخرين: كراهية الأجانب.

ولقد مَثَّلَ انتخاب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة تحولاً عظيماً في حياة الأمة وسيكولوجيتها، وإن كان من طراز مغاير. لطالما حمل السود تاريخياً دلالات الآخرية في أمريكا، لتباين لون بشرتهم وظروف وفودهم إلى القارة، مقارنة بأغلبية السكان، مما أفضى إلى عنصرية مزمنة. ولا

ريب أن انتخاب رجل أمريكي أفريقي لأرفع منصب في البلاد قد مَثَّلَ إنجازاً مدنياً درامياً في تاريخ البلاد. ولقد أورث ذلك مسوغاً لتدبر احتمالية أن تكون الولايات المتحدة قد بلغت وعياً يتجاوز العنصرية.

بيد أن انبثاق حركة "خرافة المولد"، في هذا السياق التاريخي، لَيَقُصُّ رواية مغايرة. فكيف ذلك؟

إن التشكيك في أصالة مولد باراك أوباما لهو أمر لم يُعهد له مثيل في تاريخ الرئاسة الأمريكية. فما من رئيس سواه، وكلهم كانوا بيضاً، قد كابد الإهانة العميقة لمثل هذا الباطل القاسي. وكأن مثل هذه الإهانة المتغطرسة لكرامة الرئيس، أو أي امرئ، كانت مباحة لأنه أسود. وبمثل هذا البهتان، أومأ دونالد ترامب إلى تعصب لا يكاد يواريه حجاب. ولئن لم يجهر بسبة عنصرية صراح، فإن اعتناقه لخرافة المولد كان "صافرة كلاب" (إشارة مبطنة)، دعوة لا تخطئها العين لنزع الشرعية عن مواطن أمريكي أسود بوصفه الآخر لأنه طمح إلى رئاسة الأمة.

إن العوام الأمريكيين لَيُزْهَوْنَ أيما زهو بحقيقة أن أي امرئ من مواليد البلاد يسعه أن يغدو رئيساً. لطالما كان هذا هو المثل الأعلى المبتغى

لصورة هذه البلاد الذاتية بوصفها موئلاً للحرية والفرص للجميع. فكلا الرجلين، باراك أوباما، أستاذ القانون الدستوري الأمريكي الأفريقي ذو السجل الحافل في خدمة المجتمع وجسارة الأمل، ودونالد ترامب، المطور العقاري المتبجح الخلو من أي حنكة سياسية، كان يسعهما أن يفلحا في مسعاهما لبلوغ أرفع منصب في البلاد بقوة جاذبيتهما للمواطنين.

لقد ضرب تعصب خرافة المولد حداً لهذا الطموح الوطني.

وأومأ إلى أن المرء الأسود لا يسعه أن يكون أمريكياً حقاً. وكما أن انتخاب باراك أوباما قد أبهج الأمة، مشبعاً إيانا بزهو مدني في الإنجاز الظاهر لمجتمع يتجاوز العنصرية، فإن خرافة المولد قد أومأت إلى أنه من المباح لأمريكا، في قرارة روحها، أن تمضي في إيواء ورعاية التحيز العنصري التاريخي. لقد نطقت بأن رئيساً أسود لا يسعه أن يكون شرعياً، ومن ثم لزم إنكار الحقيقة الواقعة لمولده ذاته على التراب الأمريكي. وفي هذا التشويه المتعمد للحقيقة، جلى دونالد ترامب الخصلة الجوهرية في شخصيته: انحراف صلته بالحقيقة.

لقد أظهر أنه يسعه وسيعمد إلى تشويه الحقيقة ومسخها في مسعاه لإبرام أي صفقة يبتغيها. فالحقيقة والواقع لم يكونا سوى سلعتين كغيرهما—

مسألة بيع تعاقدي لمقتنىً منشود. ويبدو أن هذا هو السمة المميزة للعقلية الترامبية. وكانت خرافة المولد هي عطاءها السياسي الاستهلالي.

إننا نحيا في أزمنة تحول ديموغرافي، واقتصادي، واجتماعي، وسياسي عظيم في الداخل والخارج.

وما يعنيه هذا هو أن الضغوط الوافدة من خارج التخوم الوطنية تتردد أصداؤها مع تلك التي في داخلها. فالتنوع الديمقراطي الأمريكي الذي لا يُضاهى، كما يتجلى في أحفاد المهاجرين، ما انفك يتطور، تماماً كما أن مكانتها في التحول العالمي تتكيف من جديد مع وقائع متطورة، ومنها الإرهاب العالمي. وإن هذا لَيَسْتَنْزِفُ الموارد النفسية للأمة، وجلدها. وتجابه الرعية الأمريكية لحظة الحقيقة في ظل ظروف من الأمن المتزلزل والهوية المتبدلة. ومن ثم، يغدو من الأهمية القصوى لعافية البلاد أن تصمد وتروض هذه الضغوط بعزم هادئ ينهض على حس أخلاقي باللياقة والعقل.

وفي أمثال هذه الأوقات، تولي الأمة وجهها شطر زعيمها ليذود عن مصالحها وقيمها الحيوية. ولهذا العلة، نُجِلُّ أولئك الرؤساء الذين أظهروا

القدرة على مجابهة الوقائع العسيرة في لحظتهم التاريخية بوقار، واستنهضوا ما أسماه أبراهام لينكولن "ملائكة طبعنا الأخيار". وهذا هو السر في تبوأ لينكولن مكانة في صرح الرئاسة الأمريكية إلى جوار جورج واشنطن وفرانكلين ديلانو روزفلت. فكل من هؤلاء الرجال قد ارتقى بالأمة، لا بصفقات حزبية، بل برؤية وغاية أخلاقية.

أما جاذبية دونالد ترامب فلها الوقع النقيض تماماً. فهي تحط من قدر الخطاب المدني وتنهش في جسد الوحدة الوطنية.

إن خرافة المولد لَتُجلي الخصال الجوهرية لعقلية دونالد ترامب: فبوصفه صانع الصفقات الأوحد كما يزعم هو نفسه أولاً وقبل كل شيء، فقد سعى إلى الرئاسة بنهج تعاقدي محض. ولم يتردد في اختلاق الأباطيل أو غض الطرف عن التعصب بغية الفوز. وعلى غرار استغلاله لكل ثغرة ضريبية متاحة؛ وكل ميزة ممكنة على دائنيه، ومقاوليه، وعماله؛ وكل فرصة لعلاقات "خاصة" تدفع بمآربه في إبرام الصفقات، فقد أجرى حساباً سياسياً لا يخطئ لاغتنام اللحظة الانتقالية من انعدام الأمن الوطني. ولقد آتت فطنته التجارية أكلها ببراعة، على الرغم من كل الصعاب. بيد أن فوزه التعاقدي لَيُمَثِّلُ خطراً داهماً على الأمة لأنه يبيع أثمن خصال

القيم الديمقراطية، والنزاهة الأخلاقية، والابتكار الحق. إن ما يربط بيننا هو الواقع المشترك لتاريخ بلادنا وحاضرها: (E pluribus unum). "من بين الكثيرين، واحد". إن شعار البلاد الأثير لا يسعه أن يصمد حين تغدو الحقيقة عُرضة لمنافسة تعاقدية من لدن "حقائق بديلة".

ويبقى أمامنا التساؤل عما جعل العوام الأمريكيين متقبلين لعطاء دونالد ترامب الوعودي على الرغم من أباطيله. أجل، إن بلادنا أبداً منفتحة على الابتكار الجسور والجرأة العظيمة. بيد أنها ليست ساذجة. لقد بُذل من الكد، والمشقة، والزهو المدني العتيد في بناء هذه الأمة ما يربأ برعيتها عن التخلي عن عادات الحس السليم والبراغماتية الصافية. ومع ذلك، فإن هذا لا يعصم أمريكا من الآثار الباقية لإرثها التاريخي من العبودية والعنصرية. وبغير مصالحة تامة بين ذلك الإرث والمثل التأسيسية للأمة، فإن خط الصدع الجسيم بينهما سينفطر في أوقات الضغط المتفاقم. وإن الافتراء المذهل لحركة خرافة المولد لَيُشْرِعُ نافذة على خط صدع كهذا. ولا يفتقر المرء إلى دربة مهنية مخصوصة ليدرك أن خرافة المولد كانت علامة فاضحة على الانشغال بالآخرية. فمن اليسير فقه استشعار التهديد من الآخر الأجنبي في عصر الإرهاب والهجرة العالمية العارمة. بيد أنه من

العسير الإقرار بالخوف المزمن والارتياب الباقي من الآخر الأسود في عقر دار أمريكا. إننا نبتغي أن نوقن باندماجنا ومساواتنا التي تتجاوز العنصرية. ونحن نُزْهَى بما أحرزناه من تقدم. وإن انتخاب باراك أوباما لهو برهانه الحق. بيد أنه من العسير بأشواط أن ندرك التحيزات الناجمة عن ضرب فطري ومتأصل من القولبة النمطية. وإن حقيقة أن دونالد ترامب قد أفلح في التوسل بأسطورة خرافة المولد كتنزيل خفي للتعصب لَتَشْهَدُ على بقائه الدفين.

وليس هذا باتهام للمجتمع الأمريكي. بل هو دعوة للإقرار بالظروف التاريخية لأمريكا. إننا نقرن استيطان البلاد بالمستعمرين البيض. ونشب على تلك الدروس من تاريخنا وثقافتنا. ولئن كان كدح السود لا غنى عنه للاقتصاد الأمريكي الغض، فإن العبودية قد سحبت منهم الاعتراف وحقوق المشاركة المتكافئة. وكان المآل تمييزاً مزمناً، زاد من حرمانهم من المشاركة المدنية التامة، وكل منهما يكرس الآخر. ومضت التقاليد الثقافية البيضاء والسوداء لتطور تعابيرها الخاصة، ما عمق الشقاق العنصري.

وإنه لَيَجَاوَزُ نطاق هذا الفصل أن نتدبر السبل الجمة التي ما انفكت العنصرية تبتلي بها وقائعنا الوطنية. ويبقى تحدينا هو تقويم العلاقات السياسية، والمدنية، والشخصية المقتضاة للمنفعة المتبادلة لأجيال أمريكا الحاضرة والقادمة: بيضاً، وسوداً، وأي آخر. وبغية النهوض لهذا التحدي، نفتقر إلى شجاعة الحقيقة والوعي. لزامٌ علينا أن نسائل السياسات العامة المسوغة التي تكرس العزل وانعدام المساواة، سواء أكان ذلك في كبائن الاقتراع أم في الحماية القضائية أو الشرطية. لزامٌ علينا أن نتناغم مع عادات التحيز والتعصب ونسائلها. لزامٌ علينا أن نسبر غور القوالب النمطية لثقافتنا ولأنفسنا على نحو أفضل. وإن فحصاً كهذا لَيُحَصِّنُ وعينا المدني ضد الأكاذيب المتدثرة برداء الحقيقة. وسنصطفي قادة أهلاً للمسؤولية يدركون واجبهم في تمثيل نزاهة قيم الأمة الجوهرية. إن خرافة المولد لَتُجلي دونالد ترامب لا بوصفه غير أهل فحسب، بل بوصفه خطراً على عقيدة الأمة المركزية: "من بين الكثيرين، واحد". وهو أمر لا يقبل المساومة.

د. لوبا كيسلر، طبيبة نفسية ومحللة نفسية في عيادة خاصة. وُلدت في خضم التهجير غداة المحرقة (الهولوكوست) في جبال الأورال، وعاشت وتلقت تعليمها في الاتحاد السوفيتي، وبولندا، وإيطاليا، والولايات

المتحدة. ولقد انطوت تلك الرحلة على دروس جوهرية في التاريخ، والجغرافيا، والثقافة، والفن، والسياسة. وأعقب ذلك تدريب ما بعد التخرج ومناصب أكاديمية، في الطب النفسي في مستشفى هيلسايد في لونغ آيلاند، وفي التحليل النفسي في معهد التحليل النفسي بجامعة نيويورك (الآن معهد التعليم التحليلي النفسي، التابع لكلية الطب بجامعة نيويورك). وهي محررة "قضايا في التعليم" لمجلة "المحلل النفسي الأمريكي" التابعة للجمعية الأمريكية للتحليل النفسي.

عُقَدُ ترامب الأبوية:
مزيجٌ مسموم لأمريكا
د. ستيف روبل

بصفتي طبيباً نفسياً، يستهويني سبر العلة التي تجعل الناس على ما هم عليه. وفي نهاية المطاف، كلما ازددت فقهاً للآخرين، ولصلتي بهم، ازددت فقهاً لنفسي. وإنني لَمَأْخُوذٌ بتلك العوامل التي ساقت دونالد ترامب إلى المكتب البيضاوي، وإلى قلوب، وعقول، وقبضات كثير من الأمريكيين. ويشتد إحباطي على وجه الخصوص لاستئثاره باهتمام وإجلال الرجل الذي طالما تقت إلى توثيق صلتي به—ألا وهو أبي.

لقد سطر الآباء والأبناء تاريخاً حافلاً من التفاعل فيما بينهم وهم يصارعون هوياتهم المنفصلة والمشتركة الآخذة في التبلور. إننا نتقلب في غياهب الزمان باذلين قصارى جهدنا لاستخلاص المعنى من كل ما نشهده ونكابده. وأنا، كشأن دونالد ترامب، شببت وأنا أرمق أباً قوياً، وفخوراً، وناجحاً، وأتفاعل معه. كلانا ولى وجهه شطر أبيه التماساً للإرشاد، بيد أننا في الوقت عينه استشعرنا ضرباً من التنافس معهما ونحن نكافح تلبية لحاجتنا الفطرية إلى الانفصال والتفرد. وإن طيف تفاعل الأبناء مع

آبائهم لَشَاسِعٌ. فالمعتقدات المبكرة التي يحوزها كل امرئ عن نفسه هي ما سيخط الدرب المختار لتجسيد دراماهم. وبقدر ما يساورني الروع من مسلك ترامب، لا أملك إلا أن أتساءل: ما الذي يسري فيّ من طباعه، وما الذي يسري فيه من طباعي؟ من هو هذا الرجل الذي خلب ألباب شطر عظيم من الناخبين الأمريكيين، بل والعالم بأسره؟ وبصفتي ابناً حبيس دراما مع أبيه، هل يسعني أن ألقي بصيصاً من نور على هذا التساؤل؟

من المنظور السياسي، يُعد كثير من الناس في أمريكا ناخبين ذوي قضية أوحدة. وسواء أكانت تلك القضية هي الإجهاض، أم الاقتصاد، أم السياسة الخارجية، فإنها القضية الكبرى التي تقبض على زمام أصواتهم. وفي حالة عائلتي، فإن تلك القضية الأوحدة هي إسرائيل. أنا أنحدر من عائلة من اليهود الأرثوذكس المعاصرين، وإن يهود الأرثوذكس كجماعة قد ألقوا بثقلهم وراء الرئيس ترامب ليقينهم بأن إسرائيل ستكون أشد أمناً في عهده. ولا ريب أن ثمة قضايا أخر تهم يهود الأرثوذكس، بيد أنها غالباً ما تتوارى في ظلال الاهتمام بإسرائيل.

وقبل قرابة عشر سنين، اتخذت قراراً عسيراً بإعلام عائلتي بأنني قد كففت عن الامتثال للفرائض الجمة التي يُرتقب من اليهودي الأرثوذكسي أن يمتثل لها. ولقد كان هذا الخيار المستحدث تحرراً لي، إذ كنت أحيا على هذا النحو سراً لبضع سنين سلفاً. وفي الوقت عينه، كان أمراً مفجعاً لوالديّ، ولا سيما أبي، لأن اليهودية تمثل شطراً أصيلاً من هويته. وقال إنه يخشى أن يورث هذا فوضى في عائلتنا، وتمنى، من أجل أبنائي، أن أطوي سري في كتمان. وعلى مستوى أعمق، خيل إليّ أنه تلقى الأمر كتهديد لقيادته في العائلة.

إن قراري بهجر اليهودية الأرثوذكسية يبدو موصولاً بتطور رؤاي السياسية نحو أجندة أشد ليبرالية. ولقد كان هذا، في بادئ الأمر، مدعاة لعدم الارتياح، إذ كان من المستهجن في مجتمعي أن يُساءل أي أمر يناصر دولة إسرائيل. لقد كان مسلك دونالد ترامب جلياً ومروعاً في ناظري، وطغى على مناصرته لإسرائيل. بيد أن هواجسي لم تجد لها صدى في مجتمعي. ولقد كانت مساعيي لأُفهم من لدن عائلتي وصحبي عسيرة على نحو يثير العجب.

يبدو أن كثيراً من الجمهوريين حبيسو علاقة مختلة مع ترامب بوصفه صورة أب قوي يبدو أنه يملك ما يقدمه أقل بكثير مما يتوقون إليه. ومع ذلك، وكشأني أنا، فإنهم يولون وجوههم شطر "أبيهم" آملين أن ينتشلهم مما يستشعرونه محطماً في دخائل نفوسهم وفي الحيوات التي يحيونها.

وقبل التصدي للخطوب في عائلتي حول كنه رؤية العالم السياسي على نحو متباين غاية التباين مع الاستمرار في مشاطرة المناسبات العائلية والأفراح، أود أن آخذكم في جولة يسيرة عبر حياة دونالد ترامب لأجلي لكم بعض الأمور التي تعين على فقه ما نشهده جميعاً.

ثمة تفاصيل عدة تبدو وكأنها تسلط الضوء على الكيفية التي ألقى بها تفاعل ترامب مع أبيه، فريد ترامب، بظلاله على ارتقائه. دونالد هو الرابع من بين خمسة أبناء. شقيقته الكبرى قاضية في محكمة الدائرة، وشقيقه الأكبر، فريدي الابن، قضى نحبه في الثالثة والأربعين من عمره جراء مضاعفات ناجمة عن إدمان الكحول. وبحسب مقال في صحيفة نيويورك تايمز (هورويتز ٢٠١٦)، فقد كان جلياً لمن رمقوا فريد ترامب مع أبنائه أن حدته كانت أعتى من أن يطيقها فريدي الابن. وفيما كان دونالد يرمق الفاجعة تتكشف فصولها، تقدم ليغدو صنيعة أبيه في إمبراطوريته

المعمارية. ولا يسعني إلا أن أتخيل أن اقتفاء أثر شقيق أسرف في الشرب حتى الموت لم يذر لدونالد متسعاً لفعل أي شيء سوى السعي لسد الفراغ حيث أخفق شقيقه الأكبر. ومن الجلي أنه أفلح في هذا المسعى في عالم أبيه العقاري، وأمضى الاثنان سنيناً طوالاً يعملان معاً حتى مضى دونالد ليقود شركته الخاصة. لم يسع فريد ترامب قط أن يفقه لِمَ رام دونالد خوض غمار المخاطرة المالية بالبناء في مانهاتن. فقد خيل لترامب الأب أن الرغد الذي نعموا به في نجاحهم في بروكلين وكوينز كان حرياً به أن يكون مسكراً بما يكفي لابنه. بيد أن دونالد بدا مأخوذاً بأضواء المدينة الكبرى الساطعة وتحدي بلوغ نجاح يفوق نجاح أبيه.

ومن مقال نيويورك تايمز عينه: "لقد صرح أصدقاء طفولة ترامب بأنهم يبصرون فيه حدة أبيه، ولكنهم يلحظون أيضاً حاجة متصلة وغالباً ما تكون ملموسة لإرضاء وإبهار البطريرك الذي ساس عائلته بقبضة من حديد. وحتى اليوم، يبدو أن دونالد ترامب يستحم في رضا أبيه. فصورة مؤطرة لفريد ترامب تواجهه على مكتبه المكتظ".

لقد صرح دونالد بأنه تشرب قيم أبيه، وحسه القاتل بالمنافسة، باقتفاء أثره في مواقع البناء ورمقه وهو يعتصر أقصى منفعة من كل دولار. وفي خطاب ألقاه أمام الرابطة الوطنية لبناة المنازل، قال ترامب: "كان أبي يذهب ليلتقط المسامير والقصاصات الزائدة، ويستغل كل ما تطاله يداه ويعيد تدويره في صورة ما أو يبيعه".

وبحسب مقال في صحيفة الغارديان (دين ٢٠١٦)، حين قضى فريد ترامب نحبه في عام تسعة وتسعين وتسعمائة وألف، ساق دونالد ترامب اقتباساً مبتهجاً لنعي أبيه في صحيفة نيويورك تايمز، مسلطاً الضوء على كيف أن أباه لم يرغب قط في التوسع نحو مانهاتن. قال: "لقد كان ذلك خيراً لي. أتعلمون، كوني ابن شخص ذي شأن، كان من الممكن أن يمثل ذلك منافسة لي. وبهذا، حظيت بمانهاتن لي وحدي!". وفي عزاء أبيه، تقدم دونالد ليخاطب العائلة، والأصدقاء، وسماسرة السلطة في المجتمع المحتشدين. واستذكر أحد الحضور تأبين السيد ترامب غير المألوف لأبيه، إذ أعلن السيد ترامب للحضور: "لقد علمني أبي كل ما أعرفه. وكان ليفقه ما أنا بصدد قوله. إنني أشيد مبنى عظيماً في ريفرسايد بوليفارد يُدعى ترامب بليس. إنه مشروع رائع". لم يكن هذا أدفأ وداع، بيد أنه سلط الضوء على اللغة والمشاعر التي تقاسمها الرجلان. لقد كانت تلك هي نقطة التقائهما. فحين كان والد دونالد، فريد ترامب، في الخامسة عشرة من

عمره، استهل عمله في البناء إلى جوار أمه لعلة أن أباه قد قضى نحبه قبل ذلك بثلاث سنين فحسب. وفي الثالثة والخمسين من عمره، لم يكن دونالد، بوفاة أبيه، ليضيع وقتاً في ذرف الدموع؛ بل كان يمضي قُدماً في المسعى العائلي لبلوغ النجاح المالي.

لقد عاين دونالد أسلوب أبيه الصارم في التفاوض، حتى في عقر داره. فذات مرة، وقف بعض أصدقاء دونالد حيارى إزاء إباء أبيه الثري أن يبتاع له قفاز بيسبول جديداً. فقال ترامب إن مرد ذلك إلى أن أباه ارتاب، وبحق، في أنه يتصنع الجهل بغلاء ثمن القفاز الذي يبتغيه، وأنه يروم حمل البائع على مجاراته في هذه الحيلة. ويبدو أن دونالد قد تعلم منذ نعومة أظفاره أن تقتير أبيه سيتركه في عوز. ولعل ذلك قد علمه أيضاً أنه يفتقر إلى أن يكون ماكراً تارة لينال مبتغاه.

وحين كنت في العمر عينه تقريباً، أذكر أن أبي أخبرني بمدى عجبه وإعجابه بقدرتي على إقناع بائع برد أموالنا واسترجاع لعبة لوحية باهظة الثمن كنا قد فتحناها سلفاً بيد أنها لم ترق لنا. كان يسعني أن أقرأ في وجه أبي أنه مأخوذ بجسارتي. إن سطوة انتباه الأب لمسالكنا لَتُشَكِّلُ قفلاً ومفتاحاً متينين ليغدو ذلك السلوك أمراً نعول عليه راجين أن نحظى

بذات الانتباه المنشود مراراً وتكراراً. وبالطبع، لقد تعلمت بالطريقة القاسية أن المسالك التي اكتسبتها من إرضاء أبي لا تترجم دوماً إلى أصح السبل للتفاعل مع الآخرين. فتلك العادات تقتضي زمناً وتجربة لكسرها.

لقد أورثت مشاريع الإسكان فريد ترامب ثراءً وسطوة. فبعض المستأجرين أجلّوه لشققه المتينة والمعقولة الثمن؛ في حين مقته آخرون لظنونهم بإقصائه السود من عقاراته. وكان المغني الشعبي الذائع الصيت وودي غاثري، الذي صاغ أغنية "هذه الأرض أرضك"، مستأجراً في شقق بيتش هيفن التابعة للسيد ترامب لعامين. وفي أوائل الخمسينيات، صاغ أغنيتين تعربان عن اشمئزازه من الممارسات العنصرية لفريد ترامب التي عاينها. وهاكم بعضاً من كلمات الأغاني التي سطرها: "أظن أن العجوز ترامب يعلم علم اليقين مبلغ الكراهية العنصرية التي أثارها في وعاء دماء القلوب البشرية حين رسم خط اللون ذلك هنا في مشروعه الذي يضم ألفاً وثمانمائة عائلة... تبدو بيتش هيفن كالفردوس حيث لا يطأها أسود ليهيم فيها! كلا، كلا، كلا! أيها العجوز ترامب! بيتش هيفن القديمة ليست دياري!".

وعلى النقيض من ترامب، كنت محظوظاً بأن أرمق أبي وهو يؤوب إلى الديار يومياً من إنقاذ الأرواح كطبيب. ولا يسعني إلا أن أتخيل مبلغ الخزي الذي كنت لأستشعره لو أن أحداً رمى أبي بالعنصرية، بله ملحن ذائع الصيت. ومع ذلك، لعل دونالد لم يعر الأمر أدنى اهتمام.

إن الدماغ البشري لَيَسَعُهُ أن يقينا من إبصار واستشعار ما يوقن بأنه قد يكون أشد إيلاماً من أن نطيقه. فقد يحدونا إلى إنكار، أو مدافعة، أو تهوين، أو تسويغ ما لا يتسق مع رؤيتنا للعالم. والحق أنني، وأنا أرمق مسلك الرئيس ترامب، أتصور أن ثمة احتمالاً راجحاً بأنه يتماهى مع أسلوب أبيه العدواني في التجارة والتنشئة، وأنه يُنَزِّلُ هذا التوجه الآن على دوره كرئيس. وفي علم النفس، يُدعى هذا "التماهي مع المعتدي". وفي بادئ الأمر، قد يبدو من المجافي للحدس أن يتماهى المرء مع معتدٍ أساء استغلال سطوته ليجني منفعة. بيد أن أدمغتنا غالباً ما تتخذ من هذه العلاقة المبكرة قالباً تصوغ عليه مسالكنا المستقبلية. إننا ننجذب إلى السطوة التي نعاينها من مقامنا المفتقر إلى الحيلة. وقد نتعطش لذات السطوة التي امتعضنا منها أو حتى حاربناها في البدء. وبوضع هذا كله في الحسبان، يبدو أن مسلك الرئيس ترامب العدواني لَيُسَلِّطُ الضوء على ذلك الشطر من أبيه الذي لا يزال حياً في دخيلة نفسه.

وغالباً ما يُظهر الأفراد الذين يحملون تاريخاً كهذا زعازع قد تفضي إلى شتى ضروب المسالك التعويضية. بيد أنه، ومهما بلغ نجاح المرء في تسكين القلق المقترن بها، فإن الخوف يظل قابعاً في اللاوعي عادة، وقد ينكشف في أوقات الضغط. وإن حساسية ترامب إزاء أن يُرى واهناً أو هشاً، مقترنة بحاجته إلى المبالغة وتشويه الحقيقة، لَهِيَ علامات على انعدام أمنه المتأصل. فاختلاقه للأقاصيص يقي غروره الهش. وفي غضون ذلك، تغدو عنترياته مادة دسمة للكوميديين والإعلام. وإن مشاهدة الصحفيين وهم يرومون التعاطي مع "الحقائق البديلة" وتغريدات ترامب الاندفاعية مع طاقم سكرتيره الصحفي لَهِيَ مشهد سريالي يثير الضحك.

وبصورة مبسطة، وبغية أن ينأى ترامب عن مكابدة آثار زعازعه، وليشبع حاجاته النرجسية، يبدو أنه يعوض عن ذلك بالسعي لأن يُرى ذا بأس وفرادة آملاً أن يستشعر حقاً البأس والفرادة. ولا يعلم حقيقة مبلغ نجاحه في هذا سواه. إن الدماغ البشري لَيَحُوزُ قدرة فريدة على العمل في الخفاء، متوسلاً بالمعتقدات السالفة وكأننا نحيا في الأزمنة التي وُلدت فيها تلك المعتقدات. ومن منظور البقاء، تعمل أدمغتنا على افتراض أن من الأسلم لنا أن نوقن بأن المواقف ستكرر نفسها في الأرجح. ولا نسائل تلك المعتقدات ما لم يقع خطب جلل يطغى على دفاعاتنا.

ولقد تعلمنا من خلال البحوث على الناجين من الصدمات أن الأحداث المبكرة التي تستثير استجابة "الكر أو الفر" لدينا تخلف آثاراً بعيدة المدى. فهي غالباً ما توجهنا لخلق معتقد سلبي عن أنفسنا، والذي يؤول بدوره إلى مسالك موازنة تروم الحد من الآثار المهلكة لتلك المعتقدات السلبية. ومن ثم، فإن الرئيس ترامب لن يبدل نهج كينونته في الأرجح إلا إذا رماه الواقع بمعضلة عاتية يعجز عن الرد عليها متوسلاً بالتدابير الدفاعية المعهودة التي ألفها.

وإن المعتقدات والآليات التعويضية التي ابتدعها دونالد الغض لتعينه على الإبحار في لُجج طفولته المضطربة لَتَزَالُ فاعلة في الأرجح حتى اليوم. ولقد ترسخت إبان سني عمله مع أبيه، ولاحقاً كرجل أعمال ناجح. وبصفته مالكاً لشركته الخاصة، كان يسعه أن يفرض سيطرته ويطالب بالولاء بسبل لا يسعه إتيانها كرئيس. وإن نقل استراتيجياته وتوقعاته إلى ثقافة الحكومة لَيُمَثِّلُ إحباطاً له، ولقد كانت ردود أفعاله إزاء ذلك الإحباط كاشفة للعيان. فهو لا يبدو أنه يحوز من المرونة ما يمكنه من تبديل نهجه ليتعاطى مع مهام وظيفته كرئيس. وإن تعاطيه مع مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي لَخَيْرُ شاهد على ذلك. فيبدو أن الحوارات حول الولاء قد أسهمت في إقالته. وإن حيرة ترامب إزاء كل ما أعقب ذلك من صخب لَتُظْهِرُ أنه إما قاصر عن فقه وقع مسلكه أو متبلد

إزاءه. وفي كلتا الحالتين، فإن قيادته تترك شريحة واسعة من الشعب تستشعر انعدام الأمن والتوجس مما قد يقع تالياً.

ولقد كانت تنافسية فريد ترامب جلية غاية الجلاء قُبيل انقضاء أجله، حين نُقل عنه قوله إن ابنه المطلق ثلاث مرات لن يتفوق عليه قط في "مضمار الزواج"، إذ إنه كان متزوجاً من المرأة عينها لستين حولاً. وعلاوة على ذلك، حين سُئل دونالد ترامب في عام ستة عشر وألفين إبان ترشحه للمنصب عما كان أبوه ليقوله عن ترشحه للرئاسة، أجاب: "كان ليأذن لي قطعاً بفعل ذلك". يأذن؟؟ على الرغم من بلوغه السبعين من عمره، أجاب ترامب وكأنه مراهق يخوض غمار معركة أوديبية مع أبيه الذي قضى نحبه قبل سبعة عشر عاماً.

وفي أغسطس من عام ستة عشر وألفين، كنت أحدث أبي على الهاتف حول الانتخابات الرئاسية، وكان يعرب عن حيرته إزاء العلة التي تحدو بترامب إلى التصرف بهذا التخبط. كان ذلك في وقت سُطرت فيه مقالات عدة حول ما يكابده مستشارو ترامب من عسر في حمله على الكف عن التغريد بأفكاره ومشاعره العدوانية. ولقد أخذني العجب حين سألني أبي عن فهمي كطبيب نفسي لمسلك ترامب. ففي العادة، يحوز

أبي أفكاره الخاصة حول علل الأشياء ويستهويه أن يلقنني ما يوقن أنه الحقيقة. ولئن كنت أحوز مشاعر وأفكاراً راسخة حول العلة التي تحدو بترامب إلى التصرف على هذا النحو، إلا أن تساؤل أبي بدا وكأنه درب يسير لنيل بعض الانتباه والإجلال اللذين ما انفككت أنشدهما. لقد كان من دواعي القوة والانتعاش أن يسألني أبي عن أفكاري.

وفيما طفقت أبسط فرضيتي عما كان يعتمل في نفس ترامب، أخبرت أبي بثقة وزهو أنني أوقن بأن ترامب كان يخرب حظوظه في الفوز بالانتخابات في لاوعيه، لأن شطراً منه كان يدرك في الأرجح أنه ليس أهلاً و/أو قادراً على النجاح في ذلك المنصب. ومضيت قائلاً إن ترامب بدا أشد ارتياحاً في التذمر من النسق الذي كان يوقن بأنه يتآمر ضد مسعاه للانتخاب، ومحاربته. ورداً على ذلك، قال أبي: "حسناً، أياً كان ما يجري، أود لو أنه يخرس فحسب، لأنه إن فازت هيلاري، فسيكون ذلك مروعاً لإسرائيل". وعلى الرغم من أنني منحت أبي ما خلت أنه ذهبي الفكري، إلا أنه لم يعلق إلا على ما كان ذا بال بالنسبة له.

ومنذ أن تقلد ترامب منصبه، حاولت أن أشرك أبي، وغيره من أفراد عائلتي وفي مجتمع اليهود الأرثوذكس، في هواجسي إزاء مبالغات ترامب

وأكاذيبه، فضلاً عن كراهيته للأجانب، والتي يبدو أنها قاطبة تعزف على أوتار مخاوف وزعازع قاعدته الداعمة. وأكاد أسمع باطراد: "أجل، إنه مجنون قليلاً، ولكنه سيكون خيراً مما كان عليه أوباما قط"، أو شيئاً من قبيل: "لا تكن خاسراً سيئاً. لقد خسرتم يا رفاق؛ تعايشوا مع الأمر!".

وحين كان الناس يحتجون سلمياً في أرجاء البلاد، كنت أسمع: "حين فاز أوباما، لم نتصرف قط على هذا النحو". وحين كنت أبين أن من الروعة بمكان أننا نحيا في بقعة نملك فيها حق الاحتجاج، كانت كلماتي غالباً ما تقع على آذان صماء. لم أكن لأصدق أن مسلك ترامب يُهون من شأنه.

وبمساءلتي له، وُصمت تلقائياً من لدن البعض بأنني قد تجرعت سموم الليبرالية. واستنتج البعض أنني لابد أن أوقن بأن إسرائيل لم تكن خلوًا من الخطيئة في صراعها لتحيا في سلام مع الفلسطينيين. ورماني آخرون بابتغاء دولة اشتراكية. ولقد غدا جلياً أن ثمة عقلية "نحن في مواجهتهم" تسري في أطراف من عائلتي وداخل المجتمع الأرحب لليهود الأرثوذكس. وإنه لمما يبعث على الإحباط أن يُقال لي إن أفكاري ورؤاي السريرية حول الأحداث المتكشفة ليست في حقيقتها سوى دوافع سياسية.

وإنه لَيَشُقُّ عليّ على وجه الخصوص أن أُزج في خانة يفترض فيها الأهل والصحب واهمين أنني لابد ألا أكترث بإسرائيل بما يكفي، أو أنني أشد تعاطفاً مع محنة اللاجئين السوريين مني مع سلامة الإسرائيليين والأمريكيين. أحاول أن أبين أن حبي لإسرائيل منفصل عن مشاعري تجاه أي امرئ يُسحق تحت وطأة مسيرة ترامب. فلا ينبغي أن تُنبذ أي أرواح بوصفها لا قيمة لها.

وإن هذا كله لَيَبْدُو سريالياً وأنا أروم الإلحاح على أن أي غاية، حتى وإن كانت أمن إسرائيل، تعقب مسيرة غير لائقة لَهِيَ هشة هشاشة خطرة ولا يُركن إليها.

لقد تبوأت بيئة فيسبوك عبر الشابكة صدارة المشهد كحلبة مختارة لكثير من اليهود للتناحر حول السياسة بوجه عام وحول ترامب على وجه الخصوص. لقد قال لي "صديق" على فيسبوك إنني بمضيي في الطعن في مسلك ترامب، أتناسى المحرقة (الهولوكوست). وقيل لي إن سياسات ترامب تقي الأمريكيين بإبقاء الأقوام "الخطرين" خارج حدودنا. وقالوا إن حقيقة أن أبرياء يقع عليهم الأذى هي أثر جانبي بائس ولكنه ضروري. وعلى النقيض من ذلك، فإن قلة من المرضى اليهود الذين أعالجهم، وهم من أبناء الناجين من المحرقة، يتوجسون خيفة من أن محرقة أخرى باتت أرجح وقوعاً جراء سياسات ترامب وصلته بأمثال ستيف بانون.

فهم يخشون أن أولئك الذين يضاجعون القوميين البيض يبعثون برسالة إلى المعادين للسامية مفادها أنه من الآمن تنزيل أجنداتهم العنصرية والمتحيزة على أرض الواقع.

لقد أمضيت مؤخراً عطلة عيد الفصح اليهودي مع عائلتي في منتجع استُؤجر فيه كاتب سياسي محافظ ليلقي كلمة. وحضرت أنا وعائلتي الخطاب، الذي خلت أنه سيكون مناصراً لترامب. وجلست إلى جوار أبي في حين جلى المتحدث أنه لم يكن راضياً عن ترامب، وعلاوة على ذلك، فإنه يرى أن أسلوب ترامب في القيادة خطر.

وكدت أضحك بصوت عالٍ وأنا أرمق فم أبي ينفغر ذهولاً. وفي غضون جلسة الأسئلة والأجوبة، سألت عن وقع تصويت اليهود الأرثوذكس لرجل يحوز مثل هذا المسار المعيب في القيادة، وإن كان يناصر دولة إسرائيل مناصرة عاتية. فصدق المتحدث على هواجسي بإجابته بأن الغايات لا تبرر الوسائل، مصرحاً بحزم:

"لزامٌ على الرئيس ترامب أن يخرس ويدع أولئك الذين اصطفاهم لمجلس وزرائه يؤدون أعمالهم ويدفعون بأجندتهم المحافظة قُدماً". وعقب ذلك، هون أبي ما سمعه وكأن الإقرار برسالة المتحدث التامة كان ليتركه في هشاشة بالغة. وفي نهاية المطاف، خيل إليّ وكأنني ظفرت في معركة.

ولعل الأهم من ذلك، أن هذا الموقف لَيُجلي الرقصة التي غالباً ما أنزلق فيها أنا وأبي حين نستكشف، بغير وعي منا، أين نقف في علاقتنا ببعضنا بعضاً.

أنا وأبي، كشأن دونالد وأبيه، رجال نحوز نكهات فريدة من انعدام الأمن. وبغير وعي منا، نتخذ من بعضنا بعضاً مطية لإثبات الحكم الذي نوقن به سلفاً عن أنفسنا. إن دونالد وأنا لَخَبِيرَانِ في رفع آبائنا على قواعد التبجيل في حين نروم في الوقت عينه الإطاحة بهم لنفسح لأنفسنا مجالاً لنحظى بوقتنا في أن نُرى فريدين. ويوقن شطر منا أن هذا سيؤول إلى استشعار الفرادة، بيد أنه شعور عابر. فهو لا يدوم إلا ريثما يحملنا على المضي في تمنيه مراراً وتكراراً. واأسفاه، ولما كان هذا غطاءً لمعتقداتنا السلبية الحقيقية عن أنفسنا، فإننا غالباً ما نخرب ونبتر مقامنا على هذه القاعدة المترنحة. إنه لَمَقْعَدٌ محفوف بالمخاطر بالنسبة لنا. مشهد موحش من بقعة لا نستشعر في قرارة أنفسنا أننا نستحقها تماماً.

في الليلة التي ظفر فيها دونالد ترامب بالانتخابات، لم يُعثر له على أثر لساعات عدة ليعلق على نصره التاريخي. وفي مقابلة ليزلي ستال في برنامج "٦٠ دقيقة" التي بُثت بعد ثلاثة أيام، سُئل أين كان في غضون تلك

الساعات. فأجاب برصانة: "أدركت أن هذه حياة مغايرة تماماً بالنسبة لي". وكأن الرئيس المنتخب لم يتخيل قط أنه سيفوز حقاً. بدا مذهولاً من أنه قد أطاح بخصمه العتيد وأنه يُرتقب منه الآن أن يطوي شخصية المقاتل الغاضب في النسيان ويمضي للعمل كالرئيس القادم. أهذا ما كان يبتغيه حقاً؟ لَيَتَسَاءَلُ المرء عما إذا كان قد أعد خطاب نصر البتة.

وكشأن البالغين قاطبة، فإن ارتقاء دونالد ترامب المبكر قد صاغ من نشهده الآن. فالأطفال يفتقرون إلى نيل الحب والانتباه ليستشعروا الأمن، بيد أنهم لا ينالون إلا ما يسع آباءهم بذله من حب وانتباه. ولا ريب أن حدة أبيه قد تركت بصمتها على العائلة بأسرها. فشقيق دونالد الأكبر قد أهلك نفسه فعلياً تحت وطأة حكم أبيه. ولابد أن هذه الفاجعة قد لعبت دوراً بارزاً في تشكيل هوية دونالد ولم تذر له متسعاً يُذكر للتمرد على سلطة أبيه، إلا عبر المنافسة في مضمار النجاح التجاري. وعلى الرغم من إجلالهما لبعضهما بعضاً، فإن التوتر بين الأب والابن قد أورث دونالد جراحاً نفسية لا تزال تتقيح. وللتعويض عن ذلك، ينفخ دونالد ترامب في صورته ليبرز هيئة الرجل المفتول العضلات التي تستهوي كثيرين من أشياعه. بيد أنها خاوية، ومحض دفاع ضد خوفه من أن يبدو واهناً وعاجزاً كشقيقه. وقُبيل انتخابه، كان يسع ترامب أن يعامل الناس كما

يشاء، متوسلاً بثروته ومكانته كذريعة لبلوغ مآربه. أما بصفته رئيس الولايات المتحدة، فيُرتقب منه أن يتعاطى مع القضايا بكياسة أكبر وأن يمتثل للضوابط والتوازنات التي تشكل مجتمعنا الديمقراطي. واأسفاه عليه، وربما على الأمة، فإن نقاط قوته التي أوصلته إلى سدة الرئاسة لا تضمن له النجاح في ذلك المنصب.

لقد أبصرت قاعدته الداعمة فيه القوة ليكون ذا بأس بسبل لم يبصروها في أنفسهم و/أو في القيادات السالفة. وما قد يغفلون عنه هو أن الرئيس ترامب يبدو وكأنه يشكك في قدرته هو نفسه على تقديم ما ينشدونه. وتتجلى شواهد ذلك في توسله بالكذب، والتشويه، والتهميش، وإقالة من يخشى غدرهم. لقد بذل آباؤنا قصارى جهدهم بما أوتوا من موارد، وإن صلتنا الفريدة بهم لَتُعِينُ على سد الثغرات حيث نستشعر النقص. وعلى الرغم من لحظات الشقاق، ولعل ذلك بفضلها، أستشعر أنني محظوظ بحيازة علاقة مع أب ما انفك يضطلع بدوره ليعين علاقتنا على أن تغدو أوثق. كما أنني ممتن للبصيرة التي نلتها عبر العلاج النفسي للتصدي لتلك الأجزاء من نفسي العالقة أو الحائرة جراء ماضيّ. وإنه لَمِنَ البؤس أن رئيسنا لم يهتدِ إلى سبيل لشفاء نفسه أو في أدنى تقدير تعلم كيف يؤدي وظيفته بغير أن يكون دفاعياً وعدوانياً مع من يخالفونه الرأي.

إنني لأشفق على الأجزاء الغضة من الرئيس التي تستميت في إعانته على السباحة في لُجج المياه العاتية رغم خوفه من الغرق. وما يثير بالغ قلقي هو ما إذا كان يسعنا نحن الأمريكيين أن نطفو على السطح طويلاً بما يكفي لنتآزر وننجو من الغرق.

د. ستيف روبل، مغنٍ ومؤلف أغانٍ وراوٍ بارع. فاز بجائزة "موث ستوري سلام"، ويوشك أن يعرض مسرحيته الفردية "الفرار من أرض الآباء" خارج برودواي. والدكتور روبل هو أيضاً طبيب نفسي معتمد للأطفال والبالغين يزاول عيادته الخاصة في مانهاتن وريدجوود، نيوجيرسي، في مركز فين. يتخصص في اضطرابات القلق، والصدمات، والصحة النفسية للرجال. التحق بكلية الطب في مسقط رأسه ممفيس، تينيسي، وأتم فترة إقامته في الطب النفسي العام في جامعة نورث وسترن. وأتم زمالته في الطب النفسي للأطفال في معهد أبحاث الأحداث في جامعة إلينوي في شيكاغو، حيث كان كبير الزملاء.

ترامب والنفسية الجمعية الأمريكية

د. توماس سينغر

لئن كنت أنضوي في صفوف أولئك الذين يوقنون بضرورة مساءلة أهلية دونالد ترامب النفسية لتولي الرئاسة، فإن بؤرة اهتمامي لا تنصب على الباثولوجيا النفسية الفردية بقدر ما تنصب على التماس بين ترامب والنفسية الجمعية الأمريكية. فثمة سبل يغدو فيها ترامب مرآة تعكس، بل وتضخم، اضطراب تشتت الانتباه الجمعي لدينا، واعتلالنا الاجتماعي، ونرجسيتنا. ومن ثم، فإن الخطب هاهنا لا يتعلق بتشخيص شخصية عامة بقدر ما يتعلق بإدراك باثولوجيتنا نحن.

لقد خلب ترامب ألباب نفسيتنا الوطنية على نحو لم تبلغه أي شخصية عامة أخرى في الذاكرة القريبة. ولا مراء في أن جاذبيته (ثروته، وسطوته، ومكانته كنجم، وجسارته المتبجحة في إطلاق التصريحات برعونة) تتردد أصداؤها بقوة في النفسية الجمعية لكثير من الأمريكيين، في حين أن هذه الخصال ذاتها تثير اشمئزاز كثيرين غيرهم. وكلما أوغل ترامب في فجاجته، وتنمره، واندفاعيته، وتهنئته لذاته في سلوكه وخطابه، ازداد ولع البعض به، في حين يستميت آخرون في استنكاره بوصفه

خطراً داهماً يتهدد جمهوريتنا. ولسبر غور هذا الاضطراب الجمعي العميق الذي يستثيره ترامب ويرمز إليه، فإنني أنهال من معيني كطبيب نفسي ومحلل نفسي يونغي.

نظرية نفسية حول جاذبية ترامب: تزاوج الظل، والدفاعات النمطية البدئية، والذات على مستوى النفسية الجمعية لتشكيل عقدة ثقافية

لا تفتقر إلى أن تكون عالم نفس أو طبيباً نفسياً لتبصر أن دونالد ترامب يكابد معضلة النرجسية. فلقد أعلن تيد كروز في الثالث من مايو عام ستة عشر وألفين، يوم الانتخابات التمهيدية الرئاسية للحزب الجمهوري في إنديانا، أن ترامب "كذاب مرضي، متجرد تماماً من الأخلاق، نرجسي على مستوى لا أظن أن هذه البلاد قد شهدت له مثيلاً، وزير نساء متسلسل" (رايت، كوبان، ووينشستر ٢٠١٦). وفي سلسلة من الأوراق والأسفار التي سطرتها على امتداد العقد المنصرم، طورت نموذجاً عملياً لنظرية العقد الثقافية قد يكون نافعاً لفقه الترامبية. وسأفاض القول في نفسية الجماعة—ما يحيا في دخيلة كل منا كحملة أفراد لنفسية الجماعة وما يحيا بيننا في نفسيتنا الجمعية المشتركة. فنفسية الجماعة تتشابك مع تيمات وصراعات تباين صراعاتنا النفسية الأشد شخصية.

إنني أفترض صلة مباشرة بين نرجسية ترامب الشخصية والنفسية الجمعية لأولئك المواطنين الأمريكيين الذين يعتنقون رؤيته لأمريكا ويستشعرون أنه يفقههم وينطق بلسانهم. وليس هذا بتحليل سياسي. بل هو تحليل نفسي لما يسعنا أن نعده نفسية الجماعة، والتي تسهم إسهاماً عظيماً في السيرورات السياسية وتذكي نارها. وينهض هذا التحليل على فكرة مفادها أن ثمة طاقات نفسية بعينها، بل وبنى، على مستوى النفسية الثقافية أو الجمعية تُستثار في أوقات التهديدات المتأججة للهوية الجوهرية للجماعة—ما يسعنا أن نعده الذات الجمعية. وثلاث من أهم هذه الطاقات/البنى هي (١) الظل، و(٢) الدفاعات النمطية البدئية للذات الجمعية، و(٣) الذات الجمعية نفسها. وتتبلور هذه الطاقات/البنى حول تيمات اجتماعية، وسياسية، واقتصادية، وجغرافية، ودينية تحيا في سياقات مخصوصة وبمضامين بعينها. ولعل هذا الضرب عينه من التحليل ينسحب حالياً على أزمة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي (بريكست) في بريطانيا العظمى، أو في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، مع سياقات ومضامين متباينة غاية التباين حيث يسع المرء أن يبصر جماعات شتى تذود عن ذاتها المهددة أو المجروحة من أن تكابد مزيداً من الأذى بانتهاج هجوم دفاعي وعدواني ضد أعداء خطرين، متوهمين كانوا أم حقيقيين.

فما الذي يجعل من ترامب مغناطيساً لا يُقاوم بجاذبية أو تنافر ضارٍ؟ هل ترامب هو الثمرة النهائية لثقافتنا النرجسية؟ هل هو ما نجنيه ونستحقه لأنه يجسد الإله أو الآلهة التي نعبدها حالياً في طائفتنا الاستهلاكية العمياء والمفرطة في الانغماس في التحفيز والترفيه المتصلين؟ هاكم كيف يصيغ كريستوفر هيدجز الأمر في كتابه "إمبراطورية الوهم: نهاية محو الأمية وانتصار الاستعراض":

إن ثقافة تنهض على الصورة لَتَتَوَاصَلُ عبر السرديات، والصور، والدراما الزائفة. فالشؤون الفاضحة، والأعاصير، والميتات في غير أوانها، وحوادث القطارات—إن هذه الأحداث لَتَلْقَى رواجاً على شاشات الحواسيب والتلفاز. أما الدبلوماسية الدولية، ومفاوضات النقابات العمالية، وحزم الإنقاذ المالي المعقدة فلا تفرز سرديات شخصية مثيرة أو صوراً محفزة... إن الواقع لَمُعَقَّدٌ. إن الواقع لَمُمِلٌّ. ونحن قاصرون أو غير راغبين في التعاطي مع فوضاه... إننا نغدو أسرى في سجن لغوي من التكرار الذي لا ينقطع. نُلقم كلمات وعبارات من قبيل الحرب على الإرهاب أو مناصرة الحياة أو التغيير، وفي كنف هذه المعايير الضيقة، يتلاشى كل فكر معقد، وغموض، ونقد ذاتي. (هيدجز ٢٠٠٩)

وعلاوة على عجزنا الجمعي عن الفصل بين الوهم والواقع، فإن ثقافتنا تزداد تورطاً ميئوساً منه في طائفة المشاهير لدينا. ولا يعفينا هيدجز من المآلات الوخيمة لانتشائنا بالمشاهير، والذي يذكي نار الشقاق بين الوهم والواقع في حين يسد الفجوة بينهما في آن.

إن ثقافة المشاهير لَتَزُجُّ بنا في فراغ أخلاقي. فما من امرئ يحوز أي قيمة تتجاوز مظهره، أو منفعته، أو قدرته على النجاح. وإن أسمى الإنجازات في ثقافة المشاهير لَهِيَ الثروة، والفتوحات الجنسية، والشهرة. ولا تثريب على الكيفية التي تُجنى بها... إن لنا الحق، في طائفة الذات، أن ننال كل ما نشتهيه. يسعنا أن نفعل أي شيء، حتى تحقير وتدمير من حولنا، بمن فيهم أصدقاؤنا، لنجني المال، ونكون سعداء، ونغدو مشاهير. وما إن تُؤرشف الشهرة والثروة، حتى تغدوا تسويغاً لذاتهما، وأخلاقهما الخاصة. (هيدجز ٢٠٠٩)

ويبدو جلياً أن نرجسية ترامب وتهجمه على الصوابية السياسية يتناغمان مع حاجات عميقة في شريحة يعتد بها من الشعب الأمريكي لتعزيز شعورهم المتضائل بمكانتهم في أمريكا ومكانة أمريكا في العالم. ويسع المرء أن يرى في نرجسية ترامب مرآة تعويضية مثلى للحاجات والجراح

النرجسية لأولئك الذين يناصرونه—أو، بعبارة أخرى، ثمة "ملاءمة" حسنة.

ومع استحضار هذه الصياغة العامة، فإنني أحلل كيف تخاطب رئاسة ترامب ثلاثة أجزاء متشابكة غاية التشابك من النفسية الجمعية الأمريكية: (١) جرح في صميم الذات الجمعية الأمريكية؛ (٢) الدفاعات المستنفرة في الجماعات التي تستشعر الجرح، والتي تروم الوقاية من مزيد من الأذى للذات الجمعية المشتركة؛ و(٣) الوعد أو الأمل في البرء من الجرح.

جرح في الذات الجمعية الأمريكية

ثمة جرح في صميم الذات/الروح الجمعية الأمريكية يستشعره الكثيرون بعمق، ولا سيما أولئك الذين لم ينالوا حظاً من رخاء أمتنا وآخرون ممن هم في رغد من العيش نسبياً بيد أنهم يدركون بحدة أن نسق حكومتنا ونهج حياتنا مهددان في صميم كينونتنا الجمعية. وهاكم تعريفاً عملياً للذات أو الروح الجمعية كنت قد طرحته في ورقة سالفة:

إن روح الجماعة لَهِيَ المعتقدات الجوهرية التي لا تُوصف أو الشعور بالهوية الذي يربط الناس بعضهم ببعض... والذي يُعرف لأعضائها عبر شعور بالانتماء، ومعتقدات أساسية مشتركة، وتجارب تاريخية جوهرية من الفقد والتجلي، وأعمق التطلعات والمثل... ويسع المرء أن يشرع في الطواف حول طبيعة روح جماعة ما بطرح تساؤلات من قبيل:

ما هو الأقدس لدى الجماعة؟

ما الذي يربط أعضاء الجماعة بعضهم ببعض؟

(سينغر ٢٠٠٦b)

إن كثيرين في بلادنا، في اليسار، واليمين، والوسط، يستشعرون أن هذه المرحلة من تاريخنا أقل أمناً من المراحل السالفة. وإن هذا التوجس إزاء عافيتنا الجوهرية لَيُسْتَشْعَرُ بعمق من لدن اليسار التقدمي، واليمين المحافظ، وكل أولئك الذين يستشعرون الاغتراب والغضب من القادة الراهنين لفروع الحكومة قاطبة، والذين يرونهم يدمرون البلاد، سواء أكان العدو الألد هو دونالد ترامب من الجمهوريين أم هيلاري كلينتون من الديمقراطيين. ففي اليمين، يُرى خطر الإرهاب (المسلمين)، أو المهاجرين (المكسيكيين)، أو الاقتصاد العالمي (الصين والاتفاقيات التجارية الدولية)، أو التقدميين على أنه يسوقنا إلى حافة الهاوية. وفي اليسار، تنبثق التهديدات للشعور بالعافية والأمن في ذاتنا الجمعية الوطنية جراء التفاوت المتفاقم في توزيع الثروة والدخل؛ وإساءة معاملة الأقليات المستضعفة من شتى الأعراق، والألوان، والإثنيات، والهويات الجنسية، أو الأجناس؛ وعلاقات القوة التي نبرمها مع البلدان الأخرى حول العالم؛ وبالطبع الإساءة إلى البيئة.

وإنني لأفترض أن هذه التهديدات تتضخم من كل حدب وصوب بتهديد أعمق وأقل وعياً أسميه قلق الانقراض. فقلق الانقراض قابع في النفسية الشخصية والجمعية على حد سواء وينهض على الخوف من فقدان

التفوق من لدن الأمريكيين البيض في الولايات المتحدة، وفقدان مكانة أمريكا في العالم كما عهدناها، وفي نهاية المطاف تدمير البيئة والعالم بأسره. ويسع المرء أن يرى في قلق الانقراض المعادل في النفسية الثقافية لقلق الموت في الفرد. فمثلاً، يسعنا أن نرى في منكري التغير المناخي على اليمين أنهم ينكرون الاحتمالية الحقيقية جداً لدمار الكوكب كسبيل للذود عن أنفسهم ضد الخوف من الانقراض. وباصطفافه مع هذا الموقف، يعرض ترامب تبديد قلق الانقراض بإنكار حقيقته وتعيين منكر ذائع الصيت للتغير المناخي على رأس وكالة حماية البيئة. فالإنكار، سواء على الصعيد الفردي أو الجمعي، هو أبدأ دفاع يتوسل به العقل ليقي نفسه من الألم النفسي.

وهاكم كيف وصف جوزيف إبستين (٢٠١٦) الجرح في الذات/الروح الجمعية لأولئك الذين استهواهم ترامب:

إنني أوقن أن ثمة أمراً أعمق يعتمل وراء الدعم المذهل للسيد ترامب، وهو رجل يبدو، باستثناء نجاحه التجاري الضخم وإن كان تشوبه شائبة، خلوًا تماماً من أي مؤهل للرئاسة. ولقد لاح لي بصيص مما قد يكمن وراء دعمه قبل بضعة أسابيع حين رمقت، في أحد البرامج الإخبارية الكبرى

على الشبكات، مراسلاً يسأل امرأة في تجمع لترامب لِمَ تاصره. فأجابت تلك المرأة التي تبدو من الطبقة الوسطى وتحظى بكامل الاحترام، بغير تردد: "أريد استرداد بلادي"...

لست أظن أن هذه المرأة عنصرية، أو أنها تتوق إلى قمع المهاجرين، والمثليين، وغيرها من الأقليات، أو حتى أنها ترجو حقاً أن تعيد عقارب الساعة إلى الوراء فيما يخص التغيير الاجتماعي في الولايات المتحدة. إن ما تبتغيه هو على وجه الدقة ما تقوله: استرداد بلادها... لم يعد يسعها أن تطيق رؤية الولايات المتحدة في انحدار، رهينة لأفكار تقدمية لا تورث قناعة ولا رضا بل تذكي حالة من الاحتجاج والاضطراب، والغضب والصخب المتصلين. لقد بلغ الإحباط بالأمريكيين الذين لا يوقنون بهذه الأفكار التقدمية، والذين يرونها تمزق أوصال البلاد في نهاية المطاف، مبلغاً جعلهم مستعدين لأن يولوا وجوههم، في شبه يأسهم، شطر رجل بائس الجودة بوضوح كدونالد ترامب. (إبستين ٢٠١٦)

إن الذات أو الروح الجمعية لأمريكا لَتَنْهَضُ على ما ينيف على ثلاثمائة حول من التقدم، والنجاح، والإنجاز، والدهاء، والابتكار، مشفوعة بفرص وحظ حسن لا يكاد ينقضي. إننا نهوى ونوقن بإمكاناتنا البطولية؛

وحريتنا واستقلالنا؛ وعبادتنا للارتفاع والسرعة، والشباب، والجدة، والتكنولوجيا؛ وتفاؤلنا وبراءتنا الأبدية. ولقد نعمنا بالجلد العميق للروح الأمريكية، والذي تجلى مراراً وتكراراً عبر محن تاريخية بالغة العسر، ومنها حربنا الأهلية، والحرب العالمية الأولى، والكساد العظيم، والحرب العالمية الثانية، وحرب فيتنام، وهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وحرب العراق، والانهيار المالي في عام ثمانية وألفين، وغيرها من الأزمات الكبرى، بما فيها تلك التي لعلنا نكابدها الآن. وكأمة، لقد حُبينا بقدرتنا على تجاوز الفقد، والإخفاق، وخطر الهزيمة في مجابهة الأزمات مَرَّةً تلو أخرى، ولقد أسهم هذا في صياغة رؤية إيجابية لأنفسنا كانت صلبة في جوهرها لأمد بعيد. وبالطبع، فإن صورة الذات تلك عُرضة للتضخم، والغطرسة، والاستحالة إلى كبرياء أعمى (Hubris)، حيث نوقن باستثنائيتنا ونعمى عن إلحاقنا أذى جسيماً بالشعوب في الداخل والخارج. ومن الوارد جداً أن تضخم ترامب الشخصي، وغطرسته، وكبرياءه الأعمى يمثل ترياقاً تعويضياً في نفسيتنا الجمعية التي تشرع في مكابدة شك ذاتي عاتٍ إزاء قدرتنا على الإبحار في مستقبل بالغ الضبابية—والذي يتجلى حنينه الجارف بامتياز في عبارة "أريد استرداد بلادي".

الدفاعات النمطية البدئية للذات الجمعية

إن شريحة يعتد بها من الناس في مجتمعنا تستشعر انقطاعاً عما توقن بأنه حقها الفطري الموروث كمواطنين أمريكيين. ولئن كانوا لن يتوسلوا بهذه اللغة، إلا أنهم يكابدون جرحاً وتهديداً على مستوى الذات الجمعية، حتى وهم يكابدون على الصعيد الفردي أيضاً. ويسعنا أن نرى في هذا جرحاً نرجسياً على المستوى الجمعي. وأفترض أن ترامب قد أدرك بحدسه هذا الجرح بطريقة ما وهو يعزف على أوتاره، بوصفه حاملاً معلناً لتجدد الجماعة وذائداً ضد من قد يلحقون بها مزيداً من الأذى—سواء أكانوا إرهابيين، أم مهاجرين، أم ساسة واشنطن المتنفذين، أم الحزب الجمهوري الراسخ، أم باراك أوباما، أم هيلاري كلينتون، أم جيمس كومي، أم أي امرئ آخر يقف حجر عثرة في طريق ترامب.

اعتناق ترامب لظل الصوابية السياسية

لقد تجلت عبقرية ترامب السياسية المخصوصة في الدورة الانتخابية الرئاسية لعام ستة عشر وألفين في استهلال حملته بتهجم على الصوابية السياسية. وببراعة تلاعبية مذهلة، أطلقت دعوة ترامب لحمل السلاح: "أخرجوهم من هنا!" أولى صيحاتها في تجمعاته، حين حث المخلصين في

حشوده على التخلص من المحتجين. ويبدو أن "أخرجوهم من هنا!" هي أيضاً عهده بتطهير البلاد من المكسيكيين، والمسلمين، وغيرها من الجماعات التي تُصور بوصفها تهديدات خطرة لنهج الحياة الأمريكي.

لقد كانت استراتيجية ترامب داهية. فقد استشعر أن الصوابية السياسية قد تكون الكلمة المحفزة والهدف لإطلاق العنان لمستويات عاتية من طاقات الظل التي ما انفكت تتراكم في اللاوعي الثقافي لنفسية الجماعة. فامتطى صهوة موجة عاتية من الامتعاض، والعنصرية، والكراهية المكبوتة طويلاً بما يكفي لسحق خصومه قاطبة والارتقاء إلى سدة الرئاسة في الولايات المتحدة. وإن فكرة الكلمة المحفزة التي تستثير عقدة لَتَرْجِعُ إلى اختبارات تداعي الكلمات المبكرة ليونغ، حيث كانت كلمات بعينها تفجر انفعالات عاتية قارة في العقد الشخصية—كعقدة الأم أو الأب. ويسع الساسة الدهاة أن يستثيروا العقد الثقافية أو الجمعية عبر سيرورة تداعي كلمات جمعية تتخذ إثر ذلك حياة مستقلة بذاتها.

إن ترامب لَيَبْلُغُ أوج تألقه حين يكون في أوج فظاعته: فاستعداده لمجانبة الصوابية السياسية غدا، في نواظر الكثيرين، دليلاً على "صدعه بالحق". وفي خضم معركة بالغة الخطورة بين "الحقائق البديلة" لليمين البديل و"الأخبار الزائفة"، تدفق سيل عارم من الارتياب والعداء القابع في العقدة الثقافية لأولئك الذين يمقتون "الدولة العميقة". فالانفعال الجمعي هو الحقيقة الأوحدة التي يُعتد بها. وإن جماعة أسرتها عقدة ثقافية لَتَحُوزُ ذاكرة انتقائية غاية الانتقائية—إن كان ثمة ذاكرة تاريخية البتة—ولا تصطفي من الحقائق التاريخية والمعاصرة إلا ما يصدق على رأيها المسبق. والشاهد على ذلك أنه مهما أتى ترامب من أفعال أو اختلق من أكاذيب، فإن قاعدته تظل راسخة في مناصرتها له، كما تنبئنا استطلاعات الرأي.

إن هذا الضرب من طاقة الظل لَمُتَاحٌ للاستغلال إذا ما ألفَت جماعة كانت ترى نفسها سالفاً متبوأة مكانة راسخة في المجتمع الأمريكي (كالأمريكيين البيض من الطبقة الوسطى في حزام الصدأ أو عمال مناجم الفحم في وست فرجينيا) نفسها مهمشة ومنحدرة، اجتماعياً واقتصادياً على حد سواء. فما أيسر على جماعة كهذه أن ترى في المهاجرين الجدد إلى هذه البلاد سراقاً يسلبونهم الحلم الأمريكي.

وهاكم كيف تخيل جورج أورويل، في رواية ١٩٨٤، استغلال أولئك الأشد عُرضة للانتشاء بزعيم سلطوي كترامب:

بوجه من الوجوه، لقد فرضت رؤية الحزب للعالم نفسها بأعظم نجاح على أقوام قاصرين عن فقهها. فقد أُكرهوا على تقبل أفظع الانتهاكات للواقع، لأنهم لم يدركوا قط فداحة ما طُلب منهم... لقد ابتلعوا كل شيء ببساطة.

لقد كشف دونالد ترامب عن بالوعة هائلة من الانفعالات المظلمة والفجة في النفسية الوطنية ليراها الجميع. فلقد طفا الحنق، والكراهية، والحسد، والخوف على السطح في طبقة دنيا بيضاء منسية، ويائسة، ومتنامية لم تجد مسوغاً يُذكر للاعتقاد بأن المستقبل سيحمل وعداً بغاية أشرق ومؤكدة للحياة. لقد عزف ترامب على أوتار المشاعر السلبية التي يضمرها كثير من الأمريكيين إزاء كل ما يُفترض بنا أن نتعاطف معه—من اختلافات إثنية، وعرقية، وجنسية، ودينية. فيا لها من سلوى، لابد أن الكثيرين قد ظنوا، أن يسمعوا سياسياً ينطق بامتعاضاتهم المكتومة ويعرب عن حنقهم. لقد عزف ترامب على وتر السر القذر الصغير لمقتهم لأقليات شتى، وإن كنا جميعاً قد نغدو أقليات الآن. وكانت وصفة ترامب لبرء هذه الجراح الغائرة هي ترديده في أرجاء البلاد لتعويذة الأمل

المتمثلة في إبرام "صفقات" أفضل. وما إن تستحوذ العقدة على السردية أو تمنح السردية صوتاً لجوهر العقدة، حتى تغدو الحقائق ببساطة لا وزن لها. ومما لا مناص منه أن هذا يؤول إلى ذلك الضرب المروع من سيناريو ١٩٨٤ حيث:

تُعنى وزارة السلام بالحرب، ووزارة الحقيقة بالأكاذيب، ووزارة الحب بالتعذيب، ووزارة الوفرة بالمجاعة. وإن هذه التناقضات ليست وليدة الصدفة، ولا هي ناجمة عن نفاق مألوف: بل هي ممارسات متعمدة للتفكير المزدوج... فإن كان للمساواة البشرية أن تُدرأ إلى الأبد—وإن كان للعلية، كما أسميناهم، أن يحتفظوا بمقاماتهم أبد الدهر—فإن الحالة العقلية السائدة لابد أن تكون جنوناً محكماً.

وإن تعيينات ترامب لمجلس وزرائه لَتُشِيرُ بقوة إلى أن هذا هو عين ما يقع في بلادنا. فمهمة كل قائد جديد في مجلس الوزراء هي نقض أو تفكيك العلة ذاتها التي من أجلها وُجدت وزارته.

التزاوج الآثم بين الظل، والدفاعات النمطية البدئية للذات الجمعية، والذات الجمعية

إن ما يجعل إطلاق ترامب لعقال الظل في النفسية الأمريكية أشد خطراً هو أن هذه الطاقات ترتبط أو حتى تتماهى مع ما أسميه الدفاعات النمطية البدئية لروح الجماعة:

حين يُستثار هذا الشطر من النفسية الجمعية، تدب الحياة في أبدأ القوى النفسية بغية الذب عن الجماعة وروحها الجمعية أو ذاتها. وإنني لأكتب "الذات" (Self) بحرف كبير لأنني أروم الجلاء بأنه ليس قناع الجماعة (Persona) أو هويتها الأناوية (Ego) فحسب ما يتعرض للهجوم، بل أمر على مستوى أعمق بكثير من النفسية الجمعية والذي يسع المرء أن يعده الموئل الروحي أو إله الجماعة. فغالباً ما ترقد روح القبيلة للعشيرة أو الأمة في سبات أو في الخلفية، بيد أنها حين تتهدد، فإن الدفاعات المستنفرة لوقايتها تكون ضارية ومجردة من الشخصنة. وإن استنفار مثل هذه الدفاعات العاتية والعتيقة لَيُذْكَى بانفعال جمعي فج وأفكار و/أو معتقدات مبسطة وقولبية تملي على الجماعة كيف تفكر، وتشعر، وتتفاعل، وتتصرف. (سينغر ٢٠٠٦b)

وتجد هذه الدفاعات النمطية البدئية المستنفرة لروح الجماعة تعبيراً عينياً في صور متباينة كتباين اضطرابات الشعوب المنقسمة حول الوضع القانوني للمهاجرين الأجانب في بلدان حول العالم؛ أو التهديد بتطوير أسلحة نووية من لدن دول قومية كإيران أو كوريا الشمالية؛ أو نشر انتحاريين من لدن جماعات إرهابية؛ أو إطلاق حملات عسكرية هائلة من لدن قوى عالمية. وتدب الحياة في هذه الضروب عينها من الدفاعات النمطية البدئية في شتى المناوشات بين جماعات متباينة من الناس الذين يرون أقدس قيمهم في مهب الريح—كمجتمع الميم، والسود، واللاتينيين، والرجال البيض، والنساء، واليمين المسيحي في الولايات المتحدة، واليهود حول العالم، والإخوان المسلمين في أرجاء الشرق الأوسط. وتبدو قائمة الجماعات المهددة في صميم كينونتها أو على مستوى الذات الجمعية لا تنقضي (سينغر ٢٠٠٦b). وإن ما يجعل نرجسية ترامب بالغة الخطورة في مزيجها من الظل (تهجمه على طوائف شتى من الناس) وعناصر الذات (شعوره المتضخم والمتعظم بنفسه وبمن يزعم أنه ينطق بلسانهم) هو أنها تعزف على وتر التزاوج الآثم بين الذات والعناصر العدوانية، والبغيضة، والعنيفة في النفسية الجمعية.

إن أنموذج ترامب لَيَمْنَحُ الإذن لأفكار، ومشاعر، وأفعال ظلية باسم الذات. وإن هذه الدينامية الجمعية الدفينة لَتُفَسِّرُ مقارنة ترامب بهتلر. فباستحضاره صورة عتيقة للذات الألمانية، استنفر هتلر أشد القوى ظلية في التاريخ الحديث فيما يُسمى بخدمة صورة الذات تلك، والتي تمحورت حول تفوق العرق الآري—بدءاً بالقمصان البنية، ثم الغيستابو، وقوات الأمن الخاصة (SS)، وغيرها من قوات الرخ الثالث، بما في ذلك بيروقراطيته البالغة الكفاءة. ويبدو أن ترامب يعبث بالظل الجمعي، محفزاً تجسيده باسم الذات. وإنه لَيَعْسَرُ تخيل ترامب يسوق الولايات المتحدة في ذات الدرب الذي ساق فيه هتلر ألمانيا—وإنني لأرجو يقيناً ألا أعيش لأندم على تسطير هذه الكلمات!—بيد أن الدينامية تظل مروعة. فمن منظور يونغي، حين تصطف الدفاعات الظلية لروح الجماعة والذات الجمعية اصطفافاً وثيقاً، يلوح خطر داهم من العنف، والطغيان، والاستبداد المطلق—ولا سيما مع زعيم سلطوي ورعية تستجيب للسلطوية.

برء ذات أمريكا المجروحة: "سيلفي" ترامب و"سيلفي" أمريكا

إن الركن الثالث والأخير من هذا الثالوث المتشابك من القوى في النفسية الجمعية هو وعد ترامب الضمني بتوفير برء للجرح على مستوى الذات الجمعية. وهاهنا تتجلى نرجسيته في أبهى صورها وأشدها خطراً. ويسعنا صياغة المعادلة اللاواعية على النحو الآتي: "أنا العظمة التي يسع أمريكا أن تطمح إليها كَرَّةً أخرى. وبالتماهي مع مبلغ عظمتي، يسعكم أن تذْكوا جذوة حلمكم الأمريكي المجروح وتجعلوا من أنفسكم ومن أمريكا عظيمة مرة أخرى". أو بعبارة أشد صراحة: "لقد بلغت الحلم الأمريكي؛ أنا الحلم الأمريكي؛ أنا تجسيد للذات التي تطمح إليها البلاد". وهذا، بالطبع، تضخم هائل. فمضاهاة ترامب لكينونته الشخصية بذات أمريكا هي منبع جاذبيته الديماغوجية. إنه يحث أولئك الذين فقدوا موطئ قدم في الحلم الأمريكي على وضع ثقتهم فيه كمرآة لإمكاناتهم الخاصة—وهي إمكانات قد بلغها هو سلفاً.

ويصف كتاب ترامب "فن الصفقة" جاذبيته المغناطيسية:

إنني أعزف على أوتار خيالات الناس. فالناس قد لا يفكرون دوماً على نطاق واسع بأنفسهم، بيد أنهم يظلون قادرين على الاستثارة البالغة

بأولئك الذين يفعلون ذلك. ولهذا فإن قليلاً من المبالغة لا يضر قط. فالناس يبتغون أن يوقنوا بأن أمراً ما هو الأضخم والأعظم والأشد إبهاراً. وأنا أسمي ذلك المبالغة الصادقة. (فيشر وهوبسون ٢٠١٦؛ ترامب مع شوارتز ١٩٨٧)

لقد أفلح ترامب في رعاية واقتناص إسقاط شخص قوي وناجح، يسعه، بفضل فطنته التجارية المزعومة وقدرته على التفاوض، أن يحقق الأمور لمنفعته الخاصة—وإن كان نادراً ما يفعل ذلك لمنفعة الآخرين، على الرغم من مزاعمه الباطلة بالبذل السخي للجمعيات الخيرية وخلق وظائف لا تحصى. "أنتم أيضاً يسعكم أن تكونوا مثلي: عدوانيين، وناجحين، وعظماء، وذوي بأس"، هكذا يقول. هذه هي نرجسية ترامب تلتحم بالنرجسية المجروحة لأولئك الأمريكيين الذين أبصروا حظوظهم في العافية والأمن تتسرب من بين أيديهم بوتيرة متسارعة. إن ترامب لَيُبَجِّلُ النسخة المادية والسلطوية من الحلم الأمريكي—نسخة الرجل العظيم الذي أثرى نفسه وبسط سطوته بقوة شخصيته. فهو حر في الجهر بما يجول في خاطره والسعي، بغير حدود، وراء غاياته المعظمة لذاته والتي يضاهيها بغايات أمريكا.

وإن الجوانب السلبية لنرجسية ترامب لَتَصْدِمُ أولئك الذين يشمئزون منه في الداخل والخارج على حد سواء بوصفها مرآة رمزية لكل ما هو سلبي في ثقافة النرجسية. ففي نواظر الكثيرين، غدا هو التجسيد الحي لكل ما هو سيئ في أمريكا: علامة تجارية تروج لنفسها؛ ومتنمر متغطرس يطفح بالكبرياء الأعمى؛ وتبلد فج إزاء حاجات الآخرين؛ واستحواذ من لدن النزعة الاستهلاكية والجشع؛ واستشعار للاستحقاق في الحظ الحسن، والذي بتنا نوقن بأنه حقنا الفطري. إن هذه لخصال جوهرية لعقدة ثقافية أمريكية تخون تلك الذات أو الروح الأسمى التي شُيدت عليها الأمة ودستورها. إن نرجسية ترامب لَهِيَ مرآة مثلى لنرجسيتنا الوطنية بل والشخصية.

وفي نهاية المطاف، أوقن أن ظاهرة ترامب لا تتعلق بترامب بقدر ما تتعلق بنا—بمن نكون كشعب: فالفيل القابع في الغرفة يتبين أنه "نحن شعب الولايات المتحدة". فيا له من أمر يبعث على الروع أن نفكر في أن سياستنا وحيواتنا اليوم قد اختلطت اختلاطاً مريعاً بتلفزيون الواقع، ووسائل التواصل الاجتماعي، وتكنولوجيا الحواسيب والهواتف المحمولة، وقدرتها اللامتناهية على إحالة الواقع إلى وهم، والذات إلى نرجسية.

خاتمة: التحسس الأعمى للنفسية الأمريكية والعدوى النفسية

ثمة مآلات مدمرة محتملة جمة لرئاسة ترامب البازغة—على المناخ، والأقليات، والمهاجرين، وحقوق النساء، ونزاهة الدستور، وعلى علاقاتنا مع الصين، وروسيا، وسوريا، وإيران، وكوريا الشمالية، بل وحتى حلفائنا. بيد أن من أشد الأفكار إزعاجاً حول رئاسة ترامب هو أنه لم يتخذ من البيت الأبيض مقراً له فحسب، بل استوطن في نفسية كل فرد منا. سيتعين علينا أن نتعايش معه وهو يقرع في دخائلنا، ونحن جميعاً تحت رحمة نزواته الاندفاعية والمتنمرة، إذ يستشيط غضباً إزاء كل ما يثير حفيظته في اللحظة بأشواك جاهلة وتحريضية. وإن الطريقة التي يحيا بها رئيس في دخيلة كل منا لخليقة بأن تُستشعر كشأن شخصي وحميم جداً. فأولئك الذين يتماهون مع ترامب ويهوون طريقته في وخز "النخب" التي يخشونها، ويحسدونها، ويمقتونها، قد يلتذون بحقيقة أنه يحيا في دخائلنا كجلاد. فترامب متمرس في العبث بوحشية بأعدائه، الذين يضمون النساء، والمهنيين، والإعلام، والطبقات المتعلمة، والأقليات—على سبيل المثال لا الحصر.

وإن أشد ما يثير روعي في ترامب هو مهارته الفذة في غزو النفسية الوطنية والتحسس الأعمى لها. لقد سئم الكثيرون من اتخاذ عائلة كلينتون إقامة دائمة في نفسيتنا الوطنية. وسرعان ما سيخجل ترامب عائلة كلينتون في قدرته على الاستيطان وإفساد حيزنا الداخلي الجمعي، كشأن الضيف الثقيل المأثور الذي يطيل البقاء فوق ما يُحتمل. والحق أن كثيرين منا لم يدعوا ترامب قط إلى بيوتهم النفسية في المقام الأول. ولعل هذا هو السر في أن الصورة التي علقت بذهني أكثر من غيرها من العار الوطني الذي مثلته عمليتنا الانتخابية في عام ستة عشر وألفين هي صورة تلك المرأة التي تقدمت لتقص روايتها عن تعرضها المزعوم للتحرش الجنسي من لدن ترامب (ليغاسبي ٢٠١٦).

فمنذ بضع سنين، حظيت بترقية إلى الدرجة الأولى على متن طائرة وألفت نفسها جالسة إلى جوار "الدونالد". وفي غضون لحظات، كما تقول، كان يتحسسها حرفياً في كل مكان—ثدييها وما دونهما. وتصف الطابع البدني للاعتداء بأنه أشبه بالتشابك في مجسات أخطبوط، وبالكاد أفلحت في تحرير نفسها والتراجع إلى الدرجة السياحية.

ويُخيل إلينا الآن وكأننا جميعاً قد تُحسسنا بمجسات نفسية ترامب الأخطبوطية، التي غزت نفسيتنا وتهدد بإحكام قبضتها لسنوات عدة. ولنصغ الأمر بفظاظة كما قد يفعل ترامب نفسه: لقد أمسك ترامب النفسية الأمريكية من "الفرج".

وفيما نستجمع شتات أنفسنا رويداً رويداً إثر التسونامي المدمر وغير المتوقع لفوز ترامب بالرئاسة ورحلة الأفعوانية لأيامه الأولى كرئيس، يلفي الكثيرون طاقة متجددة وعزماً على تحدي أجندته الظلية بسبل مستحدثة ومبتكرة. وإنني لأرجو، في خضم انبعاث عميق للنشاط لاسترداد أثمن قيمنا الأمريكية المهددة، أن نقاوم نزوعنا إلى التقوقع في فقاعة متعجرفة ومستعلية من المثل النرجسية، حتى وإن كان ذلك باسم "التقدمية".

د. توماس سينغر، طبيب نفسي ومحلل نفسي يونغي يزاول عمله في سان فرانسيسكو. وعلاوة على عيادته الخاصة، خدم في فريق الإعاقة العقلية التابع لجلسات الاستماع والاستئناف في الضمان الاجتماعي. وتشتمل اهتماماته على دراسة الصلات بين الأسطورة، والسياسة،

والنفسية في "شيء الرؤية" وسلسلة "اليونان القديمة، النفسية الحديثة". وهو محرر سلسلة من الأسفار التي تسبر غور العقد الثقافية، ومنها "توطين النفسية"، و"الإصغاء إلى أمريكا اللاتينية"، و"أرواح أوروبا الجمة"، و"العقدة الثقافية"، وسفر قيد الإعداد عن آسيا. وهو الرئيس الحالي للأرشيف الوطني للبحوث في الرمزية النمطية البدئية (ARAS)، وهو أرشيف للصور الرمزية أبدع "كتاب الرموز".

مَنْ يَمْضِي مَعَ ترامب؟

الطغيان بوصفه انتصاراً للنرجسية

إليزابيث ميكا، حائزة على الماجستير، ومستشارة سريرية مهنية مرخصة

إن الطغيان لَوَحْشٌ ذو ثلاث قوائم. فهو يزحف على عالمنا بخطى وئيدة في أغلب الأحايين بدلاً من أن يكتسحه في استيلاء عنيف، ولعل هذا هو أحد الأسباب التي تجعل تبينه أمراً عسيراً قبل فوات الأوان. وإن أركانه التي لا غنى عنها، تلك القوائم الثلاث المترنحة، هي: الطاغية، وأشياعه (الشعب)، والمجتمع الأرحب الذي يمهد أرضاً خصبة للتواطؤ بينهما. ويطلق علماء السياسة على هذا "المثلث المسموم" (هيوز ٢٠١٧).

وإن القوة التي تعقد أواصر الثلاثة قاطبة لَهِيَ النرجسية. فهي التي تبث الحياة في الوحش في حين، للمفارقة أو لغيرها، تنهشه حياً، لتودي به إلى حتفه في حينه. وإن هذه القوة وتأثيراتها، التي تحيك الوحش في كيان بالغ السطوة والدمار، لَتَظَلُّ خافية عن نواظرنا لعلل يُشار إليها بجلاء بيد أنها، لسبب ما، ما انفكت تستعصي على إدراكنا الفردي والجمعي. فهي تكفل ألا نتبين وقع أقدام الطغيان الزاحفة، والتي يسع المرء أن يسمعها

من على بعد أميال وأشهر، حتى تطرق أبوابنا، وذلك على الرغم من أن هذه السيرورة ذاتها قد تكررت مرات لا تحصى في التاريخ.

لقد علمنا من هم الطغاة وكيف يتشكل الطغيان منذ العصور الغابرة، ولقد تعضدت هذه المعرفة بالشواهد الفاجعة المتكاثرة أبداً لآثار الطغيان على البشرية. ومع ذلك، وعلى الرغم من عهودنا لأنفسنا ولبعضنا بعضاً بـ "ألا ننسى قط"، يبدو أننا لا نذكر أو لا نعلم، وتكون المآلات مدمرة أبداً. وينبع نسياننا جزئياً من فساد التعليم (جيرو ٢٠١٤) وجزئياً من الإنكار. وهو يمنحنا دلائل على ضرب العمل (النفسي، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي) الذي لزامٌ علينا أن نضطلع به إن رُمنا النأي عن التدمير الذاتي الذي ينذر به الطغيان اليوم.

فهلم نلقِ نظرة على أركان الطغيان وتفاعلاتها.

الطاغية

يأتي الطغاة في أشكال وأحجام شتى، وبحسب المنظور، يبرز كُتّاب متباينون أوجه الشبه أو الاختلاف بينهم (نيويل ٢٠١٦). ولن يغوص هذا المقال في تلك التصنيفات، بل سيروم تبسيط ولعل حتى جلاء أبرز خصالهم المشتركة.

ولئن كان مصطلحا الديكتاتور والطاغية يُستخدمان بالتبادل، فلعل من الحكمة أن نؤكد أن ليس كل الديكتاتوريين طغاة. فالطغاة هم ديكتاتوريون فسدوا. فقد يستهل زعيم ما مسيرته كديكتاتور يبدو خيراً، بيد أنه يستحيل إلى طاغية مع مضي عهده، ليغدو مدمراً بغير رحمة بمرور الأيام، وهو أمر عايناه مراراً في التاريخ.

ويشترك الطغاة قاطبة في خصال جوهرية عدة: فهم في الأغلب الأعم رجال يحوزون عواراً طباعياً مخصوصاً، ألا وهو الاعتلال النفسي النرجسي (السيكوباتية النرجسية) (ويُعرف أيضاً بالنرجسية الخبيثة). ويتجلى هذا العوار في ضمير معتل بشدة أو منعدم، ودافع لا يشبع نحو السلطة والتملق يواري قصور الضمير. وهو يشكل صميم الجاذبية بينه وبين أشياعه، وجوهر ما يُرى على أنه "سحره" (كاريزماه). وفي ورقته

البحثية الرائدة عن "اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع والنرجسية المرضية في الصراعات والحروب الممتدة في القرن الحادي والعشرين" (٢٠١٥)، يلاحظ فريدريك بيركل أن النرجسية تعزز وتكثف الخصال المرضية لبنية الشخصية المعتلة نفسياً (السيكوباتية)، مما يجعل المبتلين بها خطرين على وجه الخصوص، وليس أقل ذلك قدرتهم على التوسل بالسحر التلاعبي وادعاء المثل الإنسانية سعياً وراء غاياتهم البدائية بامتياز. ولقد أفضنا القول في الخصلة الرئيسة للاعتلال النفسي النرجسي، ألا وهي قصور الضمير، ومآلاتها المدمرة في "الخفة التي لا تُحتمل لكينونة النرجسي" (ميكا وبيركل ٢٠١٦).

ولما كان المعتل نفسياً النرجسي اندفاعياً، لاهثاً وراء الإثارة، وقاصراً عن مكابدة التعاطف أو الشعور بالذنب، فإنه يعامل الآخرين كأشياء لإشباع حاجاته وتحقيق رغباته. وهذا ييسر له استغلالهم والإساءة إليهم، في علاقاته الشخصية وفي أفعاله واسعة النطاق، بغير وخز من ضمير. وإن افتقاره إلى الضمير لَيُعْمِيهِ عن القيم الإنسانية العليا، مما يبيح له الاستخفاف بها بالكلية أو التعاطي معها كأدوات لبلوغ مآربه، على النحو عينه الذي يعامل به الناس.

بيد أن هذا العوار الطباعي الخطر يخدمه أيما خدمة في سعيه وراء السلطة، والمال، والتملق. ولما كان خلوًا من الكوابح والوازع التي يفرضها التعاطف والضمير، فإنه يسعه في يسر أن يكذب، ويغش، ويتلاعب، ويدمر، ويقتل إن شاء—أو، حين يشتد بأسه، يأمر غيره بفعل ذلك نيابة عنه.

وإن الخصال التي تشي بالاعتلال النفسي النرجسي لَقَابِلَةٌ للرصد منذ الطفولة. فالسير الذاتية للطغاة (فروم ١٩٧٣؛ ميلر ١٩٩٠؛ نيويل ٢٠١٦) تلحظ التجليات المبكرة للغرور، واللهاث وراء الإثارة، والاندفاعية التي غالباً ما تقترن بضعف السيطرة على الذات، والعدوانية والقسوة، والتلاعب، ودافع تنافسي عاتٍ ورغبة في الهيمنة تتزامن مع انعدام التعاطف والضمير. ولقد أشار أفلاطون إلى الطبع "المتأجج" لطاغية المستقبل الذي يُظهر الأعراض سالفة الذكر منذ صباه.

وثمة اكتشاف سيري آخر مألوف، وإن لم يكن مطرداً، وهو تاريخ من الإساءة في الطفولة. وهاهنا، تتباين الروايات؛ فمثلاً، في حين يلح البعض، كميلر (١٩٩٠)، على ما يُزعم من إساءة بالغة كابدها هتلر على يد زوج أمه، يلحظ آخرون (فروم ١٩٧٣؛ نيويل ٢٠١٦) أن طفولته كانت

خلوًا من الأحداث في هذا الصدد. وقد تكون السير الذاتية قاصرة أو متحيزة، بقصد أو بغير قصد، ومن ثم لا يتيسر دوماً التحقق من الحقيقة. ومن المحال استبعاد ضلوع التنشئة النرجسية في تربية طاغية المستقبل—خالقة جرحاً نرجسياً يصوغ حياة الطفل ويسوقه في درب "رأبه" عبر سعي لا يرحم وغالباً ما يكون سادياً وراء السلطة والتملق—حتى وإن لم يقم دليل على إساءة و/أو إهمال سافرين في بياناته السيرية.

ولئن كانت العلل الدقيقة لهذا العوار الطباعي محض تكهن، فإن أصولها المحتملة تقدم احتمالات مثيرة للاهتمام تفسر تجلياتها السريرية. فمثلاً، قد يفضي جرح نرجسي في سني حياة الطفل الأولى إلى إعاقة تطور قدرة ثبات الموضوع (Object constancy). وهذا يؤول إلى عجز عن إدراك صلابة الحقائق والتشبث بها، وتبعاً لذلك، الاستخفاف بالحقيقة وغيرها من القيم الإنسانية، التي يشكل فقهها شطراً عظيماً من ضميرنا. وإن نزوع المعتل نفسياً النرجسي إلى الكذب، سواء أكان عن عمد لبلوغ غاية بعينها أو، كما يبدو بغير مشقة، لاختلاق كون من "الحقائق البديلة" التي تصادف أن تصدق على صورته المتعظمة والمنزهة عن الذنب لنفسه، قد يكون ثمرة لقصور قدرة ثبات الموضوع تلك.

وإن افتقاره إلى التعاطف، سواء أكان ناجماً عن علة فطرية أو تنشئة نرجسية/سلطوية، لَيَحُدُّ أبعد من ذلك (أو على نحو منفصل) من تطور ضميره ويلقي بظلاله لا على تطور الطفل الاجتماعي الوجداني فحسب، بل وعلى قدراته المعرفية أيضاً، مما يؤول إلى ما يسميه بيركل (٢٠١٦) بكونه ذكياً ولكنه ليس نابغاً.

ولقد وسم دابروفسكي (١٩٩٦) هذا بالتطور أحادي الجانب، حيث ينمو الذكاء ومهارات معرفية بعينها نمواً سوياً إلى حد ما، بيد أن نمو المرء الوجداني يظل معاقاً. وإن القدرة على النمو الوجداني لَحَاسِمَةٌ، إذ إن هذا هو الضرب الأوحد من النمو الممكن طيلة حيواتنا: توسيع ضميرنا وتعميقه، وحثنا على التعلم والتغيير ذي المغزى.

وسواء أكان التوقف النمائي المعهود في هذا الضرب من الباثولوجيا فطرياً، أم مكتسباً، أم مزيجاً من الطبيعة والتنشئة، فإنه يؤول إلى بنية شخصية ضيقة وعصية على التكيف، حيث يُطوع الذكاء لخدمة الدوافع البدائية (للسلطة، والجنس، والتملق).

وكما يكتب دابروفسكي (١٩٨٦، ترجمة إي. ميكا):

إن المعتل نفسياً (السيكوباتي) لَصَلْبٌ وضيق وجدانياً. فهو يحوز طموحات عاتية ومواهب يعتد بها، بيد أنها تظل ضيقة وتحت سطوة الدوافع البدائية. إنه لا يكابد صراعات باطنية، بل يختلق صراعات خارجية بدلاً من ذلك. وهو قاصر عن التعاطف، ومن ثم يسعى لبسط سيطرته على الآخرين، أو، قبل أن يسعه بلوغ الهيمنة، يذعن لسيطرة الآخرين. وهو في العادة أصم وأعمى عن خطوب الآخرين، وعن تطورهم وصعوباتهم النمائية. إنه يسعى بغير هوادة لبلوغ غاياته الخاصة. ويحيا المعتل نفسياً على مستوى التكامل الأولي وهو معاق وجدانياً.

ويسعنا أن نباين بين المعتلين نفسياً "الصغار" و"الكبار". فنحن نلفي الكبار بين أعتى مجرمي العالم ذوي السمعة السيئة، وبين الطغاة والديكتاتوريين العدوانيين (مثل نيرون، وهتلر) الذين لا يترددون في التضحية بالآخرين لبلوغ غاياتهم. فبالنسبة للمعتل نفسياً الكبير، لا يحوز الشخص والجماعة الاجتماعية أي قيمة أخلاقية. وبالنسبة له، لا وجود لقواعد العدالة. فالإبادة الجماعية أو معسكرات الاعتقال ليست معضلة أخلاقية في ناظره، بل وسيلة لبلوغ غاية.

أما المعتلون نفسياً الصغار فهم نسخ مصغرة من الكبار. وعلى وجه العموم، فهم يذعنون للمعتلين نفسياً الكبار في الظروف المواتية. وينشد المعتل نفسياً الصغير الفرص لتحقيق مصالحه الخاصة وإشباع رغبته في إشاعة الفوضى في المجتمع. ويظن المعتل نفسياً أن القوانين جُعلت لتُخرق وأنها لا تسري عليه. وهو يستغل أي ظروف لتأمين مكانته، وماله، وثروته، بغض الطرف عن المآلات على الآخرين، وبغير أي اعتبار للأعراف الأخلاقية. إن المعتلين نفسياً لا يفقهون كيف يقارنون أنفسهم وجدانياً بالآخرين، ولا يسعهم فهم الآخرين وجدانياً، ويفتقرون إلى الموقف التعاطفي.

ويبدو أن الفروق الفردية بين المعتلين نفسياً "الصغار" و"الكبار"، أي الطغاة، تكمن في المقام الأول في مستوى نرجسيتهم، كما لاحظ بيركل (٢٠١٥)، ولكن أيضاً في حضور بعض المهارات المستحسنة اجتماعياً، والقدرة على ترويض و/أو مواراة اندفاعاتهم وأفعالهم العدوانية، فضلاً عن فرص الحياة والحظ. فالمعتل نفسياً النرجسي الذي يفتقر إلى سيطرة على الذات متطورة بما يكفي أو فرص حياة مواتية قد يستحيل إلى قاتل جماعي تزج به جرائمه في غياهب السجن قبل أن تؤتي أحلامه المتعظمة بالسلطة والهيمنة أكلها.

أما المعتلون نفسياً النرجسيون الذين استحالوا طغاة فيحوزون المزيج الأوفق من التلاعب، والسيطرة على الذات، والذكاء لإقناع الآخرين بمناصرتهم طويلاً بما يكفي لتنزيل أفكارهم المتعظمة على أرض الواقع على نطاق واسع. كما يبدو أنهم يحوزون مهارات تُرى على أنها سحر (كاريزما)، وأكثرها تواتراً هي القدرة على إلقاء خطب عامة تلهم الآخرين لاقتفاء أثرهم. بيد أنه، في أغلب الأحايين، لا يعدو هذا "السحر" كونه قدرتهم على إخبار الآخرين بما يبتغون سماعه (أي الكذب)، لحملهم على مجاراة أي مكيدة اختلقوها في اللحظة. وإن تذلقهم لهو أمر يخدع في يسر الأسوياء من الناس، الذين لا يفقهون كنه الباثولوجيا الناجمة عن انعدام الضمير.

وما إن يتبوأ الطغاة مناصب السلطة، حتى يسعهم إطلاق العنان لساديتهم بالكلية تحت دثار من المثل المشوهة، التي يروجون لها كغطاء لدوافعهم البدائية. فبدلاً من أن يستحيلوا مجرمين عاديين يستهجنهم المجتمع، يغدون قاهرين و/أو قتلة للآلاف أو الملايين، مع تسويغ فظائعهم أبداً في عقولهم وعقول أشياعهم. ولهذا وسع بول بوت أن يقول بغير تردد: "يسعكم أن تنظروا إليّ. هل أنا شخص متوحش؟ إن ضميري لمرتاح" (ميدانز ١٩٩٧)، على الرغم من مسؤوليته المباشرة عن إزهاق أرواح الملايين من بني وطنه.

ويتماهى الطغاة مع طغاة آخرين ويستلهمون من نجاحاتهم، في حين يعمون عن إخفاقاتهم. فهم يدركون السلطة ويجلونها بقدر ما يحسدون ويمقتون القابضين على زمامها. وكلما كان الطاغية الحي أو التاريخي أعظم وأشد قسوة، كان إلهامه أعظم للطغاة الطامحين. فإن ازدراءه للأخلاق والقانون وعدوانه الجامح في السعي وراء السلطة لَيَسْتَهْوِي الطاغية في طور التكوين ويشكل قالباً لمسلكه، مجلياً له ما هو ممكن.

وقُبيل غزو بولندا في عام تسعة وثلاثين وتسعمائة وألف، وعقب إصداره أوامر بإبادة "كل رجل، وامرأة، وطفل من العرق واللغة البولندية" "بغير رحمة ولا شفقة"، تحدث هتلر بإعجاب عن أحد أمثال هؤلاء القدوات: "لقد ساق جنكيز خان ملايين النساء والأطفال إلى حتفهم، وفعل ذلك عن وعي وبقلب منشرح. ولا يرى التاريخ فيه سوى المؤسس العظيم للدول". ثم حث مرؤوسيه في بولندا على أن "يكونوا قساة، ولا يبقوا على شيء، ويتصرفوا بأسرع، وبوحشية تفوق الآخرين"—ولقد استجابوا له بلهفة (جيلاتيلي ٢٠٠٧).

ويحلم الطاغية الصاعد بأن يغدو في عظمة، ويُستحب أن يفوق عظمة، قدواته الطغيانية الأثيرة؛ وإن كان أولئك القدوات أحياء، فيُرتقب من الطاغية في طور التكوين أن يتزلف إلى القائمين منهم في حين يدبر مكيدة للإطاحة بهم والتفوق عليهم في تصنيفات عالم الطغاة. بيد أنه، لبلوغ ذلك، لزامٌ عليه أن يتبوأ منصب السلطة المطلقة داخل أمته أولاً.

وهذا يفضي بنا إلى القائمة الثانية للوحش الطغياني...

أشياع الطاغية

إن السيرورة التي يكتسب بها الطاغية شعبيته وسطوته لَتُحَيِّرُ عادة المراقبين والمؤرخين من الخارج الذين يرمقونها من منظور الزمن، إذ إن ركنها الأصيل، النرجسية، يظل لسبب ما خافياً عن المشاركين والمراقبين على حد سواء.

إن نرجسية الطاغية لَهِيَ الجاذب الأكبر لأتباعه، الذين يسقطون آمالهم وأحلامهم عليه. فكلما تعاظم شعوره بذاته ووعوده لمحبيه، اشتدت جاذبيتهم وعظم دعمهم. وكما كتب أفلاطون في "الجمهورية": "إن للشعب أبداً بطلاً ما ينصبونه عليهم ويرعونه حتى يبلغ العظمة".

وعبر سيرورة التماهي، يتشرب أتباع الطاغية كليته ومجده ويتخيلون أنفسهم في مثل سطوته، فائزين في لعبة الحياة. وإن هذا التماهي لَيُبْرِئُ جراح الأتباع النرجسية، بيد أنه يميل أيضاً إلى تعطيل عقولهم وضمائرهم، مما يبيح لهم الانخراط في مسالك لاأخلاقية وإجرامية بشعور من الإفلات من العقاب يورثه هذا التماهي. وبغير دعم أشياعه النرجسيين، الذين يرون في الطاغية مرآة وتصديقاً لأحلام المجد التي رعوها طويلاً، لظل الطاغية نكرة لا شأن له.

إن تفاعل الآمال والتوقعات المتعظمة بين الطاغية في طور التكوين وأشياعه، والذي يغمره بالسلطة ويعين على دفعه إلى منصب السلطة السياسية، لَهُوَ شاهد على التواطؤ النرجسي: تضافر لحاجات نرجسية متوافقة تبادلياً. فالشعب يرى فيه مخلصه المنتظر طويلاً وبديلاً للأب، مما يلمح إلى الإساءة النرجسية المنطوية في التنشئة السلطوية التي تقتضي الطاعة وعبادة صورة الأب كلي القدرة. وفي إيمانهم وإعجابهم الذي لا يُساءل، يتلقى هو بدوره خطاً جاهزاً من الإمداد النرجسي، آلاف المرايا التي تعكس عظمته.

وفي وصفه للتواطؤ النرجسي بين الطاغية وأشياعه، ألح إريك فروم (١٩٨٠) على عنصري الإذعان والتماهي مع الرجل القوي:

إن الجماعة المفرطة في النرجسية لَتَتَلَهَّفُ إلى زعيم يسعها أن تتماهى معه. فيغدو الزعيم حينئذ موضع إعجاب الجماعة التي تسقط نرجسيتها عليه. وفي فعل الإذعان ذاته للزعيم القوي، والذي هو في جوهره فعل من التكافل والتماهي، تُنقل نرجسية الفرد إلى الزعيم. فكلما عظم الزعيم، عظم التابع.

وإن الشخصيات التي تتسم بنرجسية مفرطة كأفراد لَهِيَ الأكفأ للاضطلاع بهذا الدور. فنرجسية الزعيم الموقن بعظمته، والذي لا تساوره الشكوك، هي على وجه الدقة ما يستهوي نرجسية أولئك الذين يذعنون له. وغالباً ما يكون الزعيم نصف المجنون هو الأنجح حتى يحدوه افتقاره إلى الحكم الموضوعي، وردة فعله الغاضبة إزاء أي انتكاسة، وحاجته إلى الحفاظ على صورة كلية القدرة، إلى اقتراف زلات تؤول إلى هلاكه. بيد أن ثمة دوماً أنصاف ذهانيين موهوبين في المتناول لتلبية مطالب حشد نرجسي.

ولقد أكد جيرولد بوست (٢٠١٥) على جانب التنشئة السلطوية في ذلك التماهي حين ناقش شباب هتلر:

ولا سيما بالنسبة لحركة شباب هتلر، التي كانت في طليعة داعمي هتلر، فقد كان خطاب هتلر الخارجي المروج للكراهية رسالة تبعث على السلوى والإلهام، ولقد وفر هتلر صورة الأب القوي والملهم التي لم يلفها هؤلاء الأطفال في كنف عائلاتهم. بيد أنهم، في تمردهم على عائلاتهم، أذعنوا بغير نقد لقيادة هتلر السلطوية. والأهم من ذلك، أن إطلاق أدولف هتلر لعقال شياطين الحرب كان يحيل الهوان السلبي للهزيمة[في الحرب العالمية الأولى] إلى تجربة نشطة من الفعل الخلاصي.

إن المزيج النرجسي من التوقعات المرتفعة، والامتعاضات، والرغبة في الانتقام من أهداف بعينها و/أو المجتمع بوجه عام لتقاعسه عن تلبية تلك التوقعات هو ما أسماه عالم الاجتماع مايكل كيميل (٢٠١٣) الاستحقاق المكلوم (Aggrieved entitlement). ولئن كان كيميل يتحدث على وجه الخصوص عن الرجال الأمريكيين البيض في القرن الحادي والعشرين، فإن ضرباً من الاستحقاق المكلوم قد ساق الطغاة وأشياعهم، فضلاً عن الإرهابيين المنظمين و"الذئاب المنفردة"، في أرجاء المعمورة منذ غابر الأزمان.

يسوق الطاغية وعوداً جمة تبدو حسنة—بيد أنها أيضاً غير واقعية بسفور، وتتاخم الضلال—لأشياعه، وغالباً ما لا يحوز نية أو قدرة على الوفاء بجلها (إن وفى بشيء منها). وهو يزدري أشياعه، كما يزدري بني البشر "الأضعف" بوجه عام، ولا يتخذهم إلا مطايا في مكائده الرامية إلى الهيمنة والتملق.

كما أن التواطؤ النرجسي بين الطاغية وأشياعه تسوقه حاجة هؤلاء الأخيرين إلى الانتقام، إذ يُصطفى الطاغية أبداً للاضطلاع بهذا الدور المرمم نفسياً: أن يثأر لإهانات (الجراح النرجسية) أتباعه ويعاقب من

ألحقوها بهم. بيد أنه، ولما كانت الجراح غالباً ما ترجع إلى ماضي الأتباع الشخصي السحيق، وفي أغلب الأحايين تكون متوهمة لا حقيقية، فإن اصطفاء هدف هذا العقاب الانتقامي لا ينهض على الواقع. بل ينهض على الإزاحة والإسقاط المعهودين في سيرورة اتخاذ كبش فداء والتي تغدو شطراً لا ينفصم من التواطؤ النرجسي بين الطاغية وأتباعه.

إن اتخاذ كبش فداء لَيُعَيِّنُ الآخرين كهدف سيُصب عليه الانتقام النرجسي. ويمثل الآخرون أبداً الأجزاء المنفصمة، والمبخوسة، والمكبوتة من نفسية الفرد النرجسي ذاته، والتي تُسقط عليهم. وتُشاطر هذه الإسقاطات وتُضخم عبر نرجسية الفروق اليسيرة (فرويد ١٩٩١)، والتي تتيح لنا التركيز على فروق تافهة بيننا وبين الآخرين وتضخيمها بغية ترسيخ إسقاطاتنا السلبية وتسويغ ازدرائنا وعدواننا تجاههم.

وعادة ما يصطفي الطاغية وأتباعه كأوعية لإسقاطاتهم وعدوانهم السلبيين أفراداً من المجتمع ليسوا مختلفين فحسب بل وأضعف. ويذكي الطاغية نار ذلك العدوان ليرسخ سطوته ولكنه أيضاً ليصرفه عن نفسه، ويقي نرجسيته، ويرأب جراحه النرجسية التي ترجع إلى طفولته. وتُحمى صورة

المعتدي/الطاغية الأبوي النرجسي عبر اتخاذ كبش فداء والعودة إلى نمط الأداء الاجتماعي السلطوي، القائم على النظام والطاعة والذي يعد به الطاغية، إذ يتقمص هو نفسه دثار الأب الحامي ويوجه عدوانه وعدوان أشياعه شطر الآخرين، الذين لا ناقة لهم ولا جمل في جراح أولئك الأشياع الحقيقية والمتوهمة.

وتلمح نرجسية الطاغية ذاتها إلى مستوى الجرح في أشياعه. فكلما عظم جرحهم النرجسي، عظم الزعيم المقتضى لرأبه. ولئن كانت عظمته تبدو مشوهة للناس غير النرجسيين الذين لا يشاطرونه أجندته، فإنه يمثل لأتباعه كل عظمتهم المنكرة والمحبطة، والتي ستزدهر أخيراً في عهده. إن حلم هتلر الشاذ برخ يمتد لألف عام ويبسط سيطرته على العالم لم يبدُ منافياً للعقل أو خطراً البتة لكثير من الألمان الذين كانوا يكابدون الألم، والهوان، والحرمان الذي ألحقه بهم إخفاق الحرب العالمية الأولى، تماماً كما أن رؤية ستالين للشيوعية كديكتاتورية للطبقة العاملة تستولي على العالم لم تبدُ غريبة أو خطرة لأتباعه المحاصرين. فالنرجسية عمياء عن نفسها.

وإن المآل الطبيعي لاتخاذ كبش فداء والذي ينبثق من إسقاطات أجزاء النرجسي المبخوسة من نفسه هو سلب الآخرين إنسانيتهم، وهو ما يسوغ إثر ذلك شتى ضروب الفظائع المقترفة بحقهم. وإن السهولة التي يتفشى بها هذا الموقف في الجماعات النرجسية لَتَبْعَثُ على الروع، وتشي بحنق نرجسي يذكيه، حنق ينصب على التطهير، نفسياً وبدنياً، لكل ما هو ضعيف وغير مرغوب فيه من عوالم النرجسيين الباطنة والخارجية.

وإن ذلك الحنق، إلى جانب أحلام المجد، هو ما يجعل الرابطة بين الطاغية وأتباعه بالغة المتانة حتى إنها تظل عصية على الواقع. كما أنه ييسر حكم الطاغية، إذ لا يضطر إلى تجشم عناء كبير ليصيب أتباعه بعدوى الازدراء للآخرين المسلوبين إنسانيتهم ويحرض على العدوان ضدهم. والحق أن إذن الطاغية بمثل هذا العدوان يبدو شطراً عظيماً من جاذبيته لأتباعه المتعطشين للدماء والانتقام.

وإن إسقاطات الطاغية وأتباعه لَتُفْصِحُ أبداً عن الكثير حول باثولوجيتهم الخاصة. ففي مذكراته الخاصة عن اليهود في بولندا المحتلة من لدن النازيين، كتب وزير دعاية هتلر، جوزيف غوبلز، أنهم "لم يعودوا بشراً" بل "وحوشاً ضارية مسلحة بعقل بارد" (جيلاتيلي ٢٠٠٧)، والوصف

الأخير ينطبق بجلاء على غوبلز والنازيين أنفسهم أكثر من ضحاياهم (والذين، لزامٌ أن نؤكد، رمقهم غوبلز في الأسر، تحت ظروف حياة الغيتو المسلبة للإنسانية).

وما إن نسلب الآخرين إنسانيتهم ونسبغ عليهم دافعاً قاتلاً موجهاً نحونا، حتى يسعنا في يسر أن نسوغ أي فعل عنف نقترفه بحقهم بوصفه دفاعاً عن النفس. وهكذا، غدا استئصال تلك "الوحوش الضارية" جماعياً وبغير رحمة أحد الغايات الكبرى للنازيين، الذين أيقنوا أن اليهود، والبولنديين، والغجر، وغيرهم من غير الآريين يهددون وجودهم. ولقد اتُخذ الخوف، سواء أكان أصيلاً أم مصطنعاً، والنابع من هذا المعتقد الباطل تسويغاً كافياً للقتل الجماعي على نطاق لم يشهده العالم الحديث من قبل.

ولزامٌ أن نلحظ أن أشياع الطاغية ولا سيما المتملقين في دائرته الأقرب يميلون إلى مشاطرته عواره الطباعي. فغرفة الصدى المتملقة حول الطاغية تضخم باثولوجيته ولكنها تواريها أيضاً. وعادة ما يخدم وكلاؤه كبدائل أنا (Ego) لهُوَهُ (Id) الهائج، ويُناط بهم تقديم خططه المدمرة وتنزيلها بسبل تبدو عقلانية ومقبولة للعوام.

ويتعاظم شأن دورهم بمرور الأيام، مع تدهوره النفسي، وهو ما يحل لا محالة بالمعتلين نفسياً النرجسيين في مناصب السلطة المطلقة. فمع تفاقم ارتيابه، وجنون عظمته، واندفاعيته، يتهافت مساعدوه، وأفراد عائلته، ووكلاؤه، توجساً على مناصبهم وغالباً على حيواتهم، للحفاظ على صورة "سوائه" وعظمته لاستهلاك العوام حتى الرمق الأخير. وقد يكون ولاؤهم شرساً ولا يموت، على النقيض من ولاء الطاغية نفسه.

المجتمع

لا ينبثق الطغاة من فراغ، تماماً كما لا يثب الطغيان على العالم بغير نذير. فالأمر يقتضي سنيناً من رعاية ظروف مخصوصة في مجتمع ما ليستولي عليه الطغيان. وتشتمل تلك الظروف حتماً على تفاوت اقتصادي واجتماعي متفاقم وقاهر لا يُطاق، تغض النخب الطرف عنه إذ تنتفع منه، أقله لبعض الوقت؛ وخوف، وتخبط أخلاقي، وفوضى تنبع من ذلك التفاوت المتعمق؛ وانهيار للأعراف الاجتماعية؛ وازدراء متزايد لإنسانية شطر عظيم من الشعب وللقيم العليا.

وفي حقيقة الأمر، يسعنا أن نرى أن مجتمعات ما قبل الطغيان، سواء أكانت ديمقراطية اسماً أو تنهض على صور أخر من التنظيم السياسي، تُظهر علامات باثولوجيا نرجسية متفشية. وتنطوي تلك على الانشطار المحتوم إلى أجزائها المتعظمة والمبخوسة، بما في ذلك أجزاء صورة المجتمع الذاتية، وإنكار لظلها، الذي يُسقط خارجاً على الآخرين.

فالأنساق القاهرة، المسلبة للإنسانية (النرجسية)، كشأن النرجسيين أنفسهم، ترعى ضلالاتها بالتفوق على أساس ذلك الانشطار الباطني، والخفي، والمسكوت عنه بين الـ أنا/نحن المتعظم والمنزه عن اللوم وبين الآخرين المبخوسين والدونيين. فيغدو الآخرون مستودعات لرذائل

النرجسيين المكبوتة، تماماً كما أن الطاغية هو الوعاء لمعتقداتهم المتعظمة عن أنفسهم.

وثمة جانب نرجسي آخر لمثل هذه المجتمعات يتمثل في التنافس المتفاقم والذي لا يرحم، والغيرة، والعدوان داخل حدودها، ولكنه يُوجه أيضاً خارجياً نحو أمم أخر في آلية اتخاذ كبش فداء يُراد بها الحيلولة دون انهيار باطني لمجتمع ما عبر إعادة توجيه حنقه النرجسي نحو أشياء خارجية. وفي أغلب الأحايين، تترنح هذه المجتمعات الهشة من ضرب من الجرح النرجسي، كهوان حرب خاسرة، أو عقوبات دولية، أو معاهدات تُرى على أنها مجحفة، كما فعلت ألمانيا إثر معاهدة فرساي غداة الحرب العالمية الأولى.

ولا يُقر بأي من هذه السيرورات علانية أو حتى يُلتفت إليها من لدن أفراد المجتمع، باستثناء قلة من كاسندرات (المنذرين بالخطر) الذين يُتجاهلون عادة. وكما أن النرجسيين الأفراد قاصرون عن مكابدة الشعور بالذنب، أو تحمل المسؤولية عن رذائلهم، أو بذل مساعٍ صادقة لتقويم الأمور في حيواتهم، فإن المجتمعات النرجسية تمضي أيضاً في عماها المدمر

لذاتها. وفي حين تعتمل الفوضى والشقاق في الطبقات الدنيا، تظل النخب، القابعة في فقاعاتها النرجسية، غافلة عن معاناة بني وطنها وما ينذر به ذلك من مصير للأمة.

لقد قال فريتز ستيرن (٢٠٠٥) إن "المعتدلين الألمان والنخب الألمانية استخفوا بهتلر، مفترضين أن السواد الأعظم من الناس لن يذعنوا للامعقوليته المانوية؛ لم يظنوا أن كراهيته وكذبه يمكن أن يُؤخذا مأخذ الجد". لقد رأى الكثيرون في هتلر مهرجاً طناناً ولكنه غير ضار، في حين أن كثيرين غيرهم، ومنهم رجال دين، ونخب فكرية، وأثرياء، كانوا مع ذلك مأخوذين برؤاه العظيمة لمجد ألمانيا القادم، وناصروا أجندته بلهفة.

إن نرجسية النخب لَتُعْمِيهِمْ هم أيضاً عن الطغيان الزاحف. إنها لأسطورة مريحة—وأجل، نرجسية—أن المحرومين والجهلة وحدهم هم من يناصرون الطاغية. فليس المقام الاقتصادي أو التعليمي هو ما يحدد هذه الهشاشة، بل نرجسية المرء، وهي تخترق الطبقات الاجتماعية والاقتصادية.

وتصف دوروثي تومبسون ذلك ببراعة في مقالها عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف، "من يمضي نازياً؟"، حيث تحدد تلك الخيوط من

العظمة المحبطة، والامتعاضات، والكراهيات في طباع الأفراد الميسورين التي توقعهم في حبائل الأيديولوجيات والحركات الطغيانية. كما تلاحظ أولئك الذين سيقاومون بطبيعتهم الجاذبية المسمومة للنازية، مشيرة إلى تواضعهم وعمقهم.

ويقتبس ستيرن (٢٠٠٥) رسالة من الفيلسوف والفيزيائي الحائز على جائزة نوبل كارل فريدريش فون فايتسكر، الذي أسر له "أنه لم يوقن قط بالأيديولوجية النازية بيد أنه فُتن بالحركة، التي بدت له حينئذ كـ 'فيض من الروح القدس'. ولما أعمل فكره، ظن أن الاشتراكية الوطنية كانت شطراً من سيرورة لم يفقهها الاشتراكيون الوطنيون أنفسهم. ولعله كان محقاً. لم يدرك النازيون أنهم كانوا شطراً من سيرورة تاريخية وجد فيها الامتعاض ضد عالم علماني مجرد من السحر خلاصاً في الهروب المنتشي للامعقولية".

ولنلحظ أن السيرورة التي لم يفقهها النازيون أنفسهم هي التواطؤ النرجسي عينه، عدوى شبه ذهانية بهذا الفيروس من جنون العظمة والحنق على نطاق جماهيري. ونادراً ما يُدرك، حتى من منظور الزمن، إذ إن عماها

يحول دون الإقرار به، مما يجعل نرجسيتنا المحرم (التابو) الأخير في عالم نبذ المحرمات. وإن إنكارنا وفقدان الذاكرة الاجتماعي لَيُرَسِّخَانِ عجزنا عن الفهم ويكفلان أن يعيد التاريخ نفسه.

وإن شطراً من نسياننا لَيَنْطَوِي على تشويه للحقائق التاريخية والنفسية. ففي مأمننا، زماناً ومكاناً، من أحدث فوضى أحدثها الطغيان، نميل إلى تخيل الطغاة ككائنات شريرة يسهل تبينها من فورها والطغيان كأمر بالغ الغرابة حتى إنه لن يحل بنا قط. بيد أنه، وكما يبرهن التاريخ والتجربة، فإن المعتلين نفسياً النرجسيين المتعطشين للسلطة لا يبدون مختلفين عن الأسوياء من الناس؛ وإن هم برزوا، فغالباً ما يكون ذلك لعلل مستحسنة اجتماعياً: عزمهم، وسحرهم، وحسمهم، وقدرتهم على إلهام الآخرين.

ما من طاغية يرتقي سدة الحكم على منصة طغيان إبادي، حتى وإن كانت أفكار كهذه تعتمل سلفاً في مجاهل عقله. فكل واحد منهم يعد بإعادة القانون والنظام، وخلق ظروف اقتصادية أفضل للشعب، واسترداد مجد الأمة.

وإن هذه الوعود الجوفاء—إذ لا يحوز الطاغية رغبة تُذكر وقدرة أقل على الوفاء بها—لَتُرْبَطُ أبداً بخيط اتخاذ الآخرين كبش فداء، وهو ركن لا غنى عنه يوجه الحنق النرجسي نحو الخارج ويزيد من تماسك المجتمع. بيد أن الطاغية يبذر بذور الشقاق والفرقة بين أبناء شعبه أيضاً. فلا طاقة له بمغالبة ذلك: فتأليب الناس بعضهم على بعض يشبع نزعته السادية التي لا تُكبح وييسر له الهيمنة عليهم والسيطرة عليهم.

يطل الطاغية برأسه في مجتمع أوهنه الاضطراب سلفاً، وعمي عنه، وعجز و/أو أبى اتخاذ تدابير تقويمية من شأنها أن تدرأ استيلاءً طغيانياً. وما إن يقبض هو وعصبته المتملقة على زمام السلطة، حتى يعمقوا الاضطراب ويوسعوه، مفككين ومبدلين أعراف المجتمع، ومؤسساته، وقوانينه لتعكس باثولوجيتهم الخاصة انعكاساً تاماً.

ويفيض أندرو لوباتشيفسكي (٢٠٠٧) في الحديث عن تشكل وتطور الباثوقراطيات (Pathocracies)، وهي أنساق سياسية وغيرها يديرها أفراد معتلون طباعياً، وفي الأغلب الأعم من المعتلين نفسياً (السيكوباتيين) والنرجسيين. ويصف كيف تبدل الباثوقراطيات المجتمع بإدخال المغالطات المنطقية (Paralogisms)، وهي سبل لتشويه الواقع والحقيقة؛

والمغالطات الأخلاقية (Paramoralisms)، وهي مناهج لمسخ القيم الأخلاقية. وفي كنف الطغيان، تُطلق المغالطات المنطقية والأخلاقية من عقالها على نطاق واسع عبر وسائل دعائية شتى تشتمل على ترديد أكاذيب صراح، مشفوعة بإنكارات وتعميات تُقدم عبر إعلام يزداد مركزية وخضوعاً للسيطرة. ومحصنة بالتفكير السحري والازدراء للعقل، تؤول هذه التشويهات إلى خلق ذلك الضرب من اللاواقع العبثي المعهود لدى الأقوام الذين شبوا في كنف أنظمة سلطوية، حيث الأعلى هو الأسفل والأسود هو الأبيض، وحيث ما يوقن المرء بصدقه قد لا يمت بصلة للنسخة المصدق عليها رسمياً من الحقيقة.

ويسعنا أن نبصر باثولوجيا الطاغية الخاصة تلقي بظلالها على كل مضمار من مضامير أداء المجتمع، من السياسة مروراً بالثقافة والأعراف الاجتماعية وصولاً إلى العلم والتكنولوجيا. فما يُرى، ويُقال، ويُدرس، وما يُتجاهل ويُسكت عنه، مرتهن بنزوات الطاغية، وسرعان ما يُهيكل المجتمع ذاته وأيديولوجيته بسبل تلبي حاجاته المرضية للسلطة والتملق. وإن تنزيل هذه الأيديولوجية لَهُوَ في العادة سيرورة تدريجية، تُعزز في نهاية المطاف بالتوسل بالعنف ضد المعترضين المصرين.

ومع تواري حرية التعبير، والصحافة، والتجمع، وتجذر "إصلاحات" الطاغية المدمرة، يُفرض على الرعية إيثوس "الإنسان الجديد"، وهو مثل أعلى لكائن بشري يتسق مع الأيديولوجية المضطربة.

وإن هذا الإنسان الجديد لَهُوَ كاريكاتير مسلوب الإنسانية لشخص بشري، يجسد عادة رؤى الطاغية المشوهة ويلبي من ثم حاجاته المرضية، ولا سيما للهيمنة والتملق. إنه—وسنتوسل بضمير المذكر، بيد أن ثمة بالطبع نسخة متوافقة من المرأة الجديدة لترافق الإنسان الجديد—مكرس بكليته للقضية والزعيم (واللذين، في الطغيان، غالباً ما يكونان شيئاً واحداً، كتجلٍ أسمى لنرجسية الطاغية) ويتصرف بسبل مقررة يُراد بها البرهان على هذا التكريس في حياته. وتغدو عبادة البطل والولاء المطلق شطرين من سلوك الإنسان الجديد المقرر، تعززهما قوانين وأعراف مستحدثة، ولكن أيضاً أفراد يتعاونون بلهفة مع القواعد السلطوية بالتجسس على بني وطنهم والإبلاغ عن سلوكهم غير اللائق أيديولوجياً.

ولا يسع المرء أن يبالغ في تقدير نزوعنا البشري إلى الإذعان للقواعد المنافية للإنسانية التي ترسيها سلطة مرضية. فلدينا من الشواهد التاريخية

والمعاصرة ما يفيض عن الحاجة، فضلاً عن المعطيات التجريبية (ميلغرام ١٩٧٤). فإيماءة استحسان من شخصية سلطوية، مهما كانت تافهة أو حتى حقيقية، يسعها في يسر أن تعفينا من المسؤولية في عقولنا وتطغى على أي وازع يفرضه ضميرنا، مبرهنة على طواعيته المحيرة.

وإن السهولة التي يعطل بها كثير مما يُسمون بالأسوياء من الناس ضمائرهم لَتَجْعَلُهُمْ لا يفترقون كثيراً عن المعتلين نفسياً (السيكوباتيين) الوظيفيين. وإن هذه الحقيقة المزعجة عن الحياة البشرية لَهِيَ أمر يعول عليه الطاغية حين يرسي دعائم حكمه. فهو يعلم أنه يسعه أن يرتقب الولاء من أشياعه وأن يطالب به بنجاح من أغلبية المجتمع. وأما أولئك الذين يأبون اقتفاء أثر إملاءاته و/أو يعارضونها بنشاط فسيُستأصلون.

ولزامٌ بالطبع أن تتبدل أفكار الإنسان الجديد أيضاً، لتعين على تحوله على نحو أفضل. وهكذا، يُعاد تعريف معايير السواء والباثولوجيا العقلية أيضاً، ويُطوع علم النفس والطب النفسي، كغيرهما من فروع العلوم الاجتماعية، لخدمة النظام. فما يُعد سوياً، سواء بمعنى المعيار الإحصائي أو

الصحة النفسية، هو في حقيقته مرضي، والصحة النفسية، المُعَرَّفَةُ بأنها القدرة على التطور متعدد المستويات والأبعاد، تُوسم بالمرض.

وإن السهولة التي تتفشى بها الأيديولوجية الطغيانية لَهِيَ أبداً أعظم مما نبتغي تخيله. فعمانا النرجسي يحول دون يقيننا بأن ذلك قد يقع هاهنا وأننا، نحن أيضاً، قد نكون عُرضة له كأي كائنات بشرية أخرى في التاريخ.

يقتات الطغيان على لامعقولية الأساطير النرجسية والتفكير السحري، حتى وإن تدثرت أيديولوجيته برداء العقلانية المفرطة، كما كان الشأن مع الشيوعية. وفي هذا، لَيُشْبِهُ الطغيان إلى حد بعيد الشخصية المعتلة نفسياً والنرجسية للطاغية نفسه: متمركزة حول الذات (أنانية معرفية)، ومنفصمة عن الواقع، ومترعة بمعتقدات متعظمة وارتيابية تستعصي على التأثيرات التقويمية للحقائق الموضوعية.

وإن هذه العوامل المرضية لَتَكْفُلُ انهيار عهد الطاغية في نهاية المطاف. فاللامعقولية المتأصلة والعنيفة، الخلو من الكوابح الباطنية التي تنبع من الضمير، والمتحررة من أي رادع خارجي، لَهِيَ العلة الكبرى في أن الطغاة وأنظمتهم محكوم عليهم بالبوار (جلاد ٢٠٠٢). فخباثتهم المتفاقمة (من فساد،

وعدوان، وقهر) تستثير معارضة تؤول في نهاية المطاف إلى الإطاحة بالطغيان، بيد أن ذلك لا يقع إلا بعد أن يخلف عهدهم الناهب والعنيف معاناة إنسانية جمة. ولئن كانت إعادة ضبط أعراف المجتمع التي تعقب المآلات الفاجعة للحكم الطغياني تفضي عادة إلى إجلال أعظم لأهمية القيم الإنسانية العالمية (كالمساواة، والعدالة، والحقيقة، والرحمة)، إلا أنه إن لم يُتوخَّ الحذر في تنزيل هذه القيم في ممارسة مطردة، فإن نزعاتنا النرجسية تتسلل لتورث اضطراباً اجتماعياً، مما يجعلنا عُرضة للطغيان كَرَّةً أخرى. وبالنظر إلى إمكاناتنا المتعاظمة للتدمير الذاتي، فإن الرهانات ترتفع مع كل منعطف طغياني.

خاتمة

إن النرجسية لَهِيَ معضلة في الطباع بقدر ما هي زلل في تفكيرنا. فرؤية المرء لنفسه "فوق" الآخرين هي الموقف العام للنرجسي إزاء العالم، وهي زلل الطاغية وأشياعه. ويبدو أن هذا الزلل يطبق بخناقه على كثير مما يُسمى بالمجتمعات البشرية المتحضرة، ويتجلى بوضوح في تلك التي يتفاقم فيها انعدام المساواة على الرغم من أي شعارات رسمية تلهج بخلاف ذلك. إن نرجسيتنا هي ما يفرز انعدام المساواة، وانعدام المساواة يذكي نار

نرجسيتنا. وإن المعاناة واليأس الناجمين عن ذلك، مقترنين بالرغبة في الانتقام، لَمِنْ بين الظروف التي لا غنى عنها لانبثاق الطغيان.

وكما يلاحظ بيركل (٢٠١٥)، فإننا نشهد انبعاثاً للقادة الطغاة في أرجاء المعمورة، حتى في أمم يُفترض أنها قد وعَت دروس الطغيان السالفة بأقسى السبل. وإنه لَنَذِيرٌ بحاجتنا الماسة إلى مجابهة ظلنا الجمعي.

فإن رُمنا، كجنس بشري، أن نزدهر ونرتقي، فلزامٌ علينا أن ندرك أن مهمتنا الملحة والضرورية هي تجاوز وتفكيك نرجسيتنا، فردية كانت أم جمعية.

إليزابيث ميكا، حائزة على الماجستير، ومستشارة سريرية مهنية مرخصة، من مؤسسة "موارد الموهوبين" في شمال إلينوي (في منطقة شيكاغو)، نالت درجتها في علم النفس السريري من جامعة آدم ميتسكيفيتش في بوزنان، بولندا. تتخصص في تقييم واستشارة الأطفال والبالغين الموهوبين. وتشتمل اهتماماتها المهنية على الإبداع والصحة النفسية، وفروق التعلم وأنماط التعلم، والاستثنائيات المتعددة، والتطور الوجداني والأخلاقي.

القسم الرابع

المآلات الاجتماعية والثقافية

صدمة الاستعباد النسقية المزمنة: الوقع المهلك لخطاب ترامب على السود والسمر

د. كيفن واشنطن

إن للبيان والخطابة سطوةً عاتية في صياغة الثقافة، ولا سيما حين تنبثق من لسان رئيس. فخطاب دونالد ترامب يستهوي الأفئدة بوعود الاسترداد ("لنجعل أمريكا عظيمة كَرَّةً أخرى")، والنزعة الأصلانية ("ابنوا جداراً")، والقومية المتعصبة ("أمريكا أولاً")، وهي وعودٌ يُراد بها انتشال أشياعه من براثن نسقٍ فاسد وتهديدات لا حصر لها. وإن هذا التوجه لَخَطِرٌ، إذ يدور على قطب غاياتٍ معدودات تخلو من أي قابلية واقعية للتنزيل (ترحيل "الأجانب المجرمين"، واسترداد الوظائف، وخفض الضرائب، وتأمين الرعاية الصحية للجميع بتكلفة أدنى مع جودة أعلى) (جاميسون وتوسيغ ٢٠١٧). إنه يخلب الألباب عبر استثارة العواطف، في حين أن حنينه الجارف إلى عظمة الماضي نادراً ما يُجلي متى كانت البلاد عظيمة حقاً، أو ما الذي كان محموداً فيها، أو من ذا الذي نهض بتلك الأمجاد السالفة، باستثناء ملحوظ يتجلى في حنين ترامب إلى العقوبات

القاسية التي كانت تُنزل بالمحتجين "في الأيام الخوالي" (باركر ٢٠١٦). فإن كان له من أيديولوجية، فما هي إلا "التفوق الأبيض". وإن السبيل إلى إنفاذ هذه الأيديولوجية لَيَكْمُنُ في الانخراط في إرهاب أبيض يتسق تماماً مع تكوينه النفسي. وإن لغته، التي تُعد بمثابة "صافرة كلاب" (إشارة مبطنة) لدعاة التفوق الأبيض، لَهِيَ نذير رعب عنيف يقرع أسماع الأمريكيين الأفارقة وغيرهم من الجماعات العرقية والإثنية والثقافية المهمشة.

ولئن كانت ألفاظه تسلب الإنسانية، وتهمش، وتقصي ذوي البشرة غير البيضاء قاطبة، مستحضرةً زمناً كان فيه الاستعباد البدني للأفارقة هو العرف السائد، فإن طائفة من الناس تزعم أن لغته لا ضير فيها لمن يفقه كنه الانتماء الأمريكي حقاً. بيد أنه، في نواظر المنحدرين من أصول أفريقية، فإن النكوص إلى الماضي يؤول إلى عودة تلك الجموع إلى التجريد من الإنسانية، والرزوح تحت نير العبودية، والكدح القاسي، والجلد من بزوغ الفجر حتى غسق الدجى (منذ أن يبصر المرء الشمس حتى تتوارى عن ناظريه). ومن ثم، فإن الخطاب الذي يلهج بالعودة إلى الماضي لَيَعْصِفُ بنفسية المنحدرين من أصل أفريقي عصفاً مدمراً، إذ يستحضرون به أهوالاً أنزلها بهم بيضٌ راموا التلذذ بمقامهم الاستعلائي على حساب فجيعة الآخرين. وعلى وجه العموم، فإن لغته لَتُمَثِّلُ عنتاً نفسياً

لكثير من الأمريكيين—بيضاً كانوا أم منتمين إلى جماعات عرقية وإثنية وثقافية ولغوية غير بيضاء.

لقد نُحت مصطلح "اضطراب قلق ترامب" (TAD) للإحاطة بتلك المشاعر المقترنة بخطاب الرئيس الخامس والأربعين التحقيري ومسالكه المتخبطة كما يكابدها البيض. ولقد بسطت الدكتورة جينيفر بانينغ القول في هذه الحالة في فصل سالف من هذا السفر لتصوير الاستجابة النفسية للكثيرين إزاء انتخاب الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة. ولقد اقترن هذا الاضطراب بالقلق الذي يستشعره من يُصنفون بيضاً: فالأمريكيون بوجه عام يكابدون مستويات لم يُعهد لها مثيل من الضغط والقلق منذ بزوغ فجر هذه الرئاسة. ومما يوافق العقل أن المنحدرين من أصول أفريقية سيكابدون استجابات باطنية أعمق وأشد غوراً إزاء لغة الرئيس الخامس والأربعين.

ويبلغ خطابه أوج ترويعه حين يصف ذوي البشرة غير البيضاء.

فقد أشار إلى البلدان الأفريقية وتلك التي تغص بالمنحدرين من أصول أفريقية بوصفها أحط البقاع عيشاً أو ممارسةً للتجارة. وحط من قدر المناطق الحضرية الداخلية أو الأقاليم التي يقطنها السود داخل الولايات

المتحدة واصماً إياها ببؤر الجريمة. وجزم بأن البلدان ذات الأغلبية المسلمة أو تلك الوثيقة الصلة بدين الإسلام هي بلدان إرهابية. وحين خاض غمار السباق الرئاسي، صرح بأن المكسيك لا تبعث بخيرة أبنائها، بل تقذف بأقوام مثقلين بالآفات. وقال: "إنهم يجلبون تلك الآفات معهم. يجلبون المخدرات والجريمة. إنهم مغتصبون". وأردف أنه يفترض أن بعضهم صالحون، ملمحاً إلى أن سوادهم الأعظم أشرار، وأن قلة منهم فحسب قد يكونون أخياراً.

وما يغيب عن هذا الخطاب هو حقيقة أن إنجلترا قد قذفت بحثالتها ليعمروا الأرض التي تُعرف اليوم بالولايات المتحدة؛ وأن الحملات الصليبية قد اتُخذت مطية لاضطهاد الناس باسم المسيحية؛ وأن هذه الأرض قد اغتُصبت عنوةً وبالدم من أسلاف السكان الأصليين لما يُدعى اليوم بأمريكا الشمالية. ومما يغيب أيضاً عن هذا الخطاب حقيقة أن الأمريكيين الأوروبيين، إثر طردهم من أوروبا، قد انخرطوا في الاتجار بالبشر من سكان أفريقيا وأكرهوهم على مكابدة كدح يقصم الظهور في الزراعة، وتربية الماشية، وغيرها من الأعمال التي نَهَضَ عليها اقتصاد الولايات المتحدة. وعلاوة على ذلك، فقد استباح البيض أعراض النساء الأفريقيات ومزقوا شمل العائلات الأفريقية تلبية لنزواتهم.

ومارسوا إرهاباً سحق الأفارقة عبر الإساءة، والضرب، والسحل الجماعي. ولو أننا أنزلنا عدسة فرويدية على تصريحاته أو مسالكه الكارهة للأجانب وقارناها بالطبيعة المتفشية للاغتصاب، والنهب، والقوادة العنيفة، والاضطهاد الديني الأوروبي (الأبيض)، لتبين لنا أن الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة إنما يتوسل بآلية دفاع أناوية تُدعى "الإسقاط". والإسقاط يُعرف بأنه العزو اللاواعي لمشاعر المرء، أو أفكاره، أو مسالكه، أو معتقداته المنبوذة أو المستهجنة إلى شخص أو جماعة أخرى.

يتوسل الرئيس الخامس والأربعون للولايات المتحدة بلغةٍ تسلب الإنسانية من المنحدرين من أصول أفريقية، وكذا ممن يُصنفون في خانة "الآخر الثقافي" (آني، ١٩٩٤)، حين ينعتهم بـ "الكلاب"، مشككاً في ملكاتهم العقلية وملمحاً إلى أنهم جُبلوا على نزعات إجرامية فطرية. ويتجلى هذا في التصريح الذي ألقاه أمام المشرعين في كاليفورنيا في مايو من عام ثمانية عشر وألفين حول المكسيكيين الذين يُزعم إجرامهم والمهاجرين إلى الولايات المتحدة. ففي هذا التصريح، يفترض أنهم قاطبة ينضوون تحت لواء منظمة "إم إس-١٣" (وهي عصابة). قال: "لدينا أقوام يفدون إلى هذه البلاد... لن تصدقوا مدى سوء هؤلاء القوم. هؤلاء ليسوا بشراً. هؤلاء حيوانات... إنه لأمر جنوني" (مارتيل ٢٠١٨).

يزعم الرئيس الخامس والأربعون أن المهاجرين غير الأوروبيين قاطبة هم في الأغلب من ذوي الطباع المريبة والعقول القاصرة، وأنه لا ينبغي الإذن لهم بولوج الولايات المتحدة.

وإن تشويه السمعة ركن ركين في تدمير كينونة المرء.

وإن خطابه الموجه شطر الرجال السود والنساء السود لَيَبْلُغُ مبلغاً من السمية يفتك بنفسية تلك الجماعة. فحين تصدى لمسالك بعض لاعبي كرة القدم في الرابطة الوطنية (NFL) الذين آثروا الجثو على ركبة واحدة إبان عزف النشيد الوطني الأمريكي، "الراية الموشحة بالنجوم"، تنديداً بوحشية الشرطة التي يكابدها الذكور السود في الولايات المتحدة، شن هجوماً شعواء على مجتمع السود، إذ كان جل اللاعبين الجاثين من الذكور السود. ولقد صاغ الأمر بوصفه امتهاناً للعلم الأمريكي. بيد أن الخطب الذي أثاره كولين كايبرنيك، لاعب الوسط الأسبق في الرابطة، كان في جوهره تنديداً بالعنصرية المتأصلة في البلاد والمُمَجَّدَة في نشيد فرانسيس سكوت كي، الذي كان من غلاة المناصرين لاستعباد الأفارقة في الولايات المتحدة. وإن المدى الذي بلغه الرئيس الخامس والأربعون في طمس موقف السيد كايبرنيك، والمدى الذي بلغه من يُسمون بالبيض في

التعامي عن جوهر القضية، لِيُمَثِّلَ عاملاً آخر يذكي نار العنت النفسي الذي يكابده المنحدرون من أصول أفريقية. وإن إعادة صياغة البيض لقضايا العرق، بخفة ومكر، لتغدو طعناً في الوطنية الأمريكية بغية إخراس أصوات السود، لَتَزِيدُ من مرارة القهر. فحين يصدع المقهورون بالحق تنديداً بقهرهم، يُشيطنون ويُرمون بأقذع الألقاب—من لدن الرئيس الخامس والأربعين للولايات المتحدة بشحمه ولحمه.

نعت الرئيس الخامس والأربعون أمهات اللاعبين بالكلاب حين صرح بأن على ملاك فرق كرة القدم أن يأمروا أولئك "أبناء العاهرات" بالوقوف إجلالاً للنشيد ولعب كرة القدم أو يُطردوا. وإن نعت النساء السود بالكلاب الإناث لَيَتَّسِقُ مع ديدنه، كما تجلى في تصريحه عن موظفته الأمريكية الأفريقية السالفة، أوماروسا مانيغولت-نيومان: "حين تمنح حثالة باكية ومجنونة فرصة، وتوليها وظيفة في البيت الأبيض، أظن أن الأمر لم يفلح فحسب. عمل رائع من الجنرال كيلي لطرده السريع لتلك الكلبة". إن لغته قاطبة لَتَبْعَثُ على الروع في نفوس كثير من المنحدرين من أصول أفريقية، وتستحضر في الأذهان أعتى الفصائل عنفاً في الأيديولوجية الغربية/الأوروبية.

وإنه لَيَعْسَرُ على المرء أن يغفل عن التنزيل العنصري لمقياس حاصل الذكاء (IQ) من لدن لويس تيرمان وغيره من علماء السلوك بغية التمييز ضد المهاجرين وسن قوانين التعقيم القسري للجماعات غير المرغوب فيها كأولئك المنحدرين من أصول أفريقية. ففي يونيو من عام ثمانية عشر وألفين، صرح الرئيس الخامس والأربعون بأن عضوة الكونغرس الأمريكية الأفريقية ماكسين ووترز هي "شخص ذو حاصل ذكاء متدنٍ بصورة استثنائية" لأنها جابهت مسؤولي البيت الأبيض بشأن سياساتهم في الهجرة (كامينغز ٢٠١٨).

وحين يُساءل عن سياساته، فإنه يثأر باطراد متوسلاً بالخطاب الثقافي المعهود الذي يكرس التفوق الأبيض. ولقد أجرى دون ليمون، المذيع الأمريكي الأفريقي في شبكة سي إن إن، مقابلة مع لاعب كرة السلة الأمريكي الأفريقي ليبرون جيمس في أغسطس عام ثمانية عشر وألفين حول مدرسة افتتحها جيمس للأطفال المعرضين للخطر. فصرح جيمس بأن الرئيس الخامس والأربعين يتخذ من الرياضة مطية لتمزيق أوصال البلاد. ويبدو أن هذا قد أثار حفيظة الرئيس الخامس والأربعين، فثأر قائلاً: "لقد أُجريت مقابلة للتو مع ليبرون جيمس من لدن أغبى رجل على شاشة التلفاز، دون ليمون"، هكذا سطر السيد ترامب.

"لقد جعل ليبرون يبدو ذكياً، وهو أمر ليس باليسير. أنا أحب مايك!" (ستيوارت ٢٠١٨). إن هذا الرد لَيَبْلُغُ الغاية في الصبيانية، بيد أنه يتسق مع الخطاب الزائف علمياً للأيديولوجية العنصرية التي اتُخذت ذريعة لترويج عنف العبودية والاستعمار.

ولقد كانت هذه الأيديولوجية منبعاً لآلام ومآسٍ لا حصر لها للسود في أمريكا. إنها تستحضر فواجع الماضي، والتي يسع المرء أن يقرنها بتصريحات الرئيس الخامس والأربعين التي تلمح إلى أن الغاية هي جعل أمريكا "تكره" كَرَّةً بعد كَرَّة.

الصدمة النفسية

تجلي البحوث المستحدثة قابلية الصدمة للتوريث (دياس وريسلر ٢٠١٤)، وإن فكرة الصدمة العابرة للأجيال وعلاجها لَحَرِيَّةٌ بالتدبر، بالنظر إلى الأبعاد التاريخية للصدمة التي يكابدها المنحدرون من أصول أفريقية، مقترنةً بالأبعاد المستمرة للصدمة كما تتجلى مجتمعياً في لغة الرئيس الخامس والأربعين، ووحشية الشرطة، ومسيرات جماعات التفوق الأبيض أو الجماعات الإرهابية كتلك التي شهدتها شارلوتسفيل بولاية

فرجينيا، وبايكفيل بولاية كنتاكي في عام سبعة عشر وألفين، وتجمع واشنطن العاصمة في عام ثمانية عشر وألفين.

إن "اضطراب كرب ما بعد الصدمة" (PTSD) لَهُوَ تسمية في غير محلها حين تنسحب على الأمريكيين الأفارقة، إذ إن سابقة "ما بعد" تلمح إلى أن الصدمة قد انقضت وانطوت.

وحين تكابد جماعة بأسرها أو ثقافة ما صدمة مستمرة في الولايات المتحدة، سواء أكانت وحشية الشرطة، أم رداءة خدمات الرعاية الصحية، أم العنصرية البيئية، أم صحاري الغذاء، أم مسار الانحدار من المدرسة إلى السجن، فليس من الجلي البتة أن يُوسم ذلك بأنه اضطراب ما بعد الصدمة. ولقد طرحت الباحثة النفسية والتاريخية جوي ديغروي نظرية "متلازمة ما بعد صدمة العبودية" (PTSS)، والتي تقرر أن الأمريكيين الأفارقة قد كابدوا إصابات نفسية ووجدانية فاجعة كنتيجة مباشرة للعبودية، وما انفكوا يكابدون الإصابات جراء الصدمات التي تفرزها سياسات المجتمع الأرحب القائمة على انعدام المساواة، والعنصرية، والقهر.

ولئن كانت هذه النظرية تضع الصدمة التي يكابدها المنحدرون من أصول أفريقية في سياقها، فإن جانب "ما بعد" الصدمة في الوصف يلمح إلى أن المرء قد جاوز الصدمة. وليس هذا هو الحق.

وإزاء الصدمة التي لا تلين والتي ما انفك المنحدرون من أصول أفريقية يكابدونها، فإننا نطرح مفهوم "صدمة الاستعباد النسقية المزمنة" (PEST). فلفظ "المزمنة" يلمح إلى أنه، ولئن كان الاستعباد البدني قد ولى وانقضى، فإن الاستعباد يتخذ صوراً شتى، وإن صورته العقلية لَأَشَدُّ عنفاً من صورته البدنية بوجوه عدة. بيد أن حقبة الاستعباد العقلي تمثل فصلاً مغايراً من سيرورة الصدمة وتقتضي نهجاً متفرداً للشفاء.

وهاهنا، نروم الإقرار بالاعتداءات البدنية-النفسية-الروحية لسيرورة استعباد الأفارقة، إذ كانت جلية للعيان وأشد أثراً في ترسيخ قبضة بنى الاستعباد العقلي التي تعيد إنتاج الوحشية البدنية. فهاهنا، تكمن الغاية الكبرى للوحشية البدنية في إحداث تمزق نفسي/روحي، وهي "نسقية" من حيث استهدافها لجماعة بأسرها من الناس على مستويات الوجود قاطبة.

ومن ثم، فإننا نرى أن ما يعقب الاستعباد البدني هو أقرب إلى "صدمة الاستعباد النسقية المزمنة". وهذا التمزق هو ما نروم تسليط الضوء عليه ورأب صدعه.

إن هذا المفهوم لَحَدِيثٌ بيد أنه وثيق الصلة بالمصطلح الذي طرحته عالمة النفس الجنوب أفريقية جيل ستراكر: "الضغط الصدمي المستمر" (CTS). ويفترق هذا الضغط عن اضطراب كرب ما بعد الصدمة في كونه مستمراً في سياق العنف السياسي وقهر الدولة في جنوب أفريقيا إبان الثمانينيات (إيغل، جيليان، وكامينر ٢٠١٣).

ولقد طرح آخرون فكرة الوقوعات المتعددة للصدمة، من قبيل اضطراب كرب ما بعد الصدمة المعقد (هيرمان ١٩٩٢) واضطراب الصدمة النمائية (فان دير كولك ٢٠٠٥) للإحاطة بالوقع النفسي للإساءة الممتدة في سياق علاقة مع الجاني.

وإن الصدمة الجمعية أو التاريخية (آيرمان ٢٠٠١) وصدمة الهوية (كيرا ٢٠٠١) لَهِيَ بناءات تعكس الصدمات الناجمة عن استهداف جماعات بعينها من الناس، لا الأفراد. والتساؤل الذي يفرض نفسه هاهنا هو: ما عسانا أن نسمي التقاء هذه الصدمات قاطبة في ذات الفرد الواحد؟ هذا هو عين حال السود وكثير من السمر داخل الولايات المتحدة.

ولئن كان هذا القسم قد ركز على التجربة الأمريكية الأفريقية، فمن الأهمية بمكان أن نلحظ أننا بصدد تطوير نسخة معاصرة من العبودية كَرَّةً

أخرى مع أعراق وقوميات أخر في أرجاء المعمورة. وعلاوة على ذلك، فإن جماعات إثنية أخر كالمسلمين يكابدون ويلات التهجير في الشرق الأوسط جراء التدخلات العنيفة للسياسة الخارجية الأمريكية.

ومن ثم، ولئن كانت التجربة الأفريقية مخصوصة، فإن ثمة دروساً عالمية حري بنا أن نستخلصها.

حتمية التدخل في الصحة النفسية

لن تُلبى الحاجات النفسية للجموع المتباينة إثنياً، وثقافياً، وعرقياً، ولغوياً، بمن فيهم الأمريكيون الأفارقة، ما لم نتصدَّ للديناميات التي تكتنف تجاربهم الفردية والثقافية. فإن العنف الاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والمجتمعي لَيُلْقِي بظلالٍ كثيفة على العافية الوجدانية والنفسية لكثير من العائلات المتباينة.

وإن العنصرية، والتهميش الاقتصادي، وشتى ضروب التمييز لَهِيَ أفعال من العنف النفسي لا تتجلى في صورة عنف بدني إلا للحظات عابرة غالباً. وإن هذه الوقائع السلبية لَغَالِباً ما تفضي إلى حوادث انتهاك شخصي أو تقترن بها.

لقد وصف عالم النفس روبرت كارتر الصدمة القائمة على العرق بأنها استجابات وجدانية، ونفسية، وبدنية لتجارب شخصية مع التحرش و/أو التمييز العنصري الذي يورث الألم (كارتر ٢٠٠٧). وتشتمل على ما يلي:

- التمييز العنصري التجنبي: سد منافذ الوصول، والإقصاء، والمنع، والخداع.
- التحرش العنصري العدائي: اعتداءات بدنية، وشخصية، ولفظية، مقولبة نمطياً.
- التحرش التمييزي العداء التنفيري: هروب البيض، والعزل، والحرمان من الترقية، والتشكيك في المؤهلات.

تكابد الجموع غير البيضاء ضغطاً جسيماً ينجم عن تجارب شتى (ثقافية، وفردية، ومؤسسية) من العنصرية. ولئن كان التمييز العنصري وأعراض ما بعد الصدمة والضغط الصدمي القائم على العرق ميادين بحثية حديثة العهد نسبياً، إلا أنها كانت مفهومة بعمق منذ أمد بعيد في التجارب المعيشة للسود.

الصدمة والسود

تُشير التقارير إلى أن معدلات انتشار اضطراب كرب ما بعد الصدمة (ومرة أخرى، هي تسمية في غير محلها) بين السود هي الأعلى بين الإثنيات قاطبة، إذ تبلغ ٨,٧ بالمائة (روبرتس وآخرون ٢٠١١). وإن أحد التفسيرات لارتفاع معدلات هذا الاضطراب بين الأمريكيين الأفارقة يُعزى إلى التفاوت في التعرض للأحداث المسببة للصدمات. وإن اللغة المشتركة (Lingua franca) التي يتوسل بها الرئيس الخامس والأربعون لَتَسْتَحْضِرُ في الأذهان صدمة الأسلاف الأفارقة.

وإن التعرض للتجربة الأمريكية الأفريقية في الولايات المتحدة، والذاكرة الجمعية لما كابده أسلافهم، وكيف ما انفك الأمريكيون الأفارقة يكابدون سوء المعاملة، لَيَسَعُهُ في حد ذاته أن يكون عامل خطر محتمل لتطوير اضطراب كرب ما بعد الصدمة أو صدمة الاستعباد النسقية المزمنة (PEST).

الشفاء والرأب

إن فقه الرؤية الكونية للمنحدرين من أصول أفريقية لَهُوَ قطب الرحى في برء التمزق النفسي-الروحي والآثار النفسية التبعية والمتبقية لما سُمي بتجارة الرقيق عبر الأطلسي والتي كابدها الأفارقة في أمريكا وفي أرجاء الشتات الأفريقي فضلاً عن الأفارقة في القارة الأم. ولابد من صياغة سيكولوجية شفاء وثيقة الصلة بالثقافة. وإن سيكولوجية شفاء متفردة كهذه لَتَتَّسِقُ مع السيكولوجية الفريدة للأفارقة، سواء أكانوا أمريكيين أفارقة، أم أفارقة في الشتات، أم أفارقة في القارة، إذ ستكون بوجه عام متناغمة مع جوهر "الأفريقانية" وروحها.

وإن هذا الضرب من السيكولوجية لَيَنْهَضُ على المتصل الثقافي الأفريقي بين الأفارقة/السود في أمريكا وخارجها (أكبر ١٩٩٦؛ مايرز ١٩٨٨؛ نوبلز ٢٠١٥). ولقد كان التعبير الثقافي الأفريقي الراهن معيناً لا ينضب من القوة لبقاء الأفارقة في خضم قوى الأيديولوجية الأوروبية سالفة الذكر (هيرسكوفيتس ١٩٥٨). وتقر السيكولوجية الأفريقية/السوداء بأن الجوهر الأيديولوجي للأفارقة متسق عبر القبائل، والمجتمعات، والبلدان، وغيرها من الحدود التعسفية (نوبلز ٢٠١٥؛ واشنطن ٢٠١٠).

وإن الركن الركين لهذه السيكولوجية الأفريقية/السوداء لَهُوَ النسق الفلسفي الأفريقي للحياة (مبيتي ١٩٧٠؛ مايرز ١٩٨٨؛ نوبلز ٢٠١٥؛ أوجيلادي وآخرون، ٢٠١٤). وتكمن المكونات الجوهرية لهذه السيكولوجية الأفريقية في أن الروح حاضرة أبداً، وأن كل شيء متصل، وأن العائلة مقدسة، وأن المجتمع لا غنى عنه (موكوكا ٢٠١٣). ولقد كان البقاء التاريخي والمعاصر وازدهار المنحدرين من أصول أفريقية، ولا يزال، كامناً في جوهر الهوية الجمعية ودافع البقاء المجتمعي للرؤية الكونية الأفريقية (مايرز وسبيت ٢٠١٠).

وفي جنوب أفريقيا، فإن فلسفة "أوبونتو" (وهي كلمة زولوية تعبر عن فكرة الإنسانية العميقة في سياق مجتمعي؛ إذ تشير "أوبو" إلى الكينونة بينما تلمح "نتو" إلى قوة الحياة العالمية) هي الاسم الذي يُطلق على الأيديولوجية القائلة بأن المرء جزء من مجتمع متميز وأن عليه أن يظل مسؤولاً أمام ذلك المجتمع. وإن العلاج النفسي القائم على الأوبونتو لَمُتَقَدِّمٌ وحقيقٌ بالتدبر (واشنطن ٢٠١٠) عند علاج المنحدرين من أصول أفريقية. فالعلاج النفسي الأوبونتو يدور حول استعادة الشعور بالاتصال والكمال داخل شعب يستشعر الاغتراب والانفصال.

ومن ثم، يسعنا استنباطه ليتغلغل في الثقافات ومجتمعات الاغتراب قاطبة. وستظل أيديولوجية الأوبونتو تقوض الخطاب الثقافي للعنصرية، والكراهية الإثنية، والقهر عبر تعزيز الهوية الجمعية والمسؤولية المجتمعية.

د. كيفن واشنطن (مواتا كايري)، عالم نفس مرخص متمركز حول أفريقيا في فلوريدا وفي مقاطعة كولومبيا. درّس في كليات عدة على الصعيدين الوطني والدولي. وهو الرئيس السابق المباشر لجمعية علماء النفس السود ورئيس قسم علم الاجتماع وعلم النفس في جامعة ولاية غرامبلينغ. يسبر غور الصدمة الثقافية والتاريخية للأقوام الذين يرزحون تحت وطأة صدمة الاستعباد النسقية المزمنة (PEST). وبوصفه مؤسس العلاج النفسي الأوبونتو، فإنه يدفع قُدماً بتدخلات صحة نفسية مسؤولة ثقافياً ومستنيرة بالصدمات للرجال والفتيان السود فضلاً عن العائلات السوداء.

المآلات الفاجعة لجموع المهاجرين في الولايات المتحدة

روزا ماريا برامبل

"هاتوا إليّ متعببكم، وفقراءكم،
وجموعكم المحتشدة التواقة لتنفس الحرية،
ونفايات شطآنكم المكتظة البائسة.
ابعثوا بهؤلاء، المشردين، الذين عصفت بهم العواصف إليّ،
فها أنذا أرفع مصباحي بجوار الباب الذهبي!"
— "العملاق الجديد"، إيما لازاروس

قُبيل الانتخابات الرئاسية لعام ستة عشر وألفين بيوم واحد، جلستُ مع عائلة تلتمس العون في قضية هجرتها. كان الخوف يقطر من كلماتهم حين باحوا لي: "إن فاز دونالد ترامب بالرئاسة، فلا ندري ما سيحل بعائلتنا". كان الطفلان، البالغان من العمر اثني عشر وتسعة أعوام، مواطنين أمريكيين بالولادة، بيد أن والديهما كانا يفتقران إلى الوثائق.

وكانا يلتمسان العون في إلغاء الترحيل، وهو ضرب من ضروب الإعفاء من الإبعاد. فإن رُفض الطلب، فقد يُكره الوالدان على العودة إلى وطنهما لما يبلغ عشر سنين.

كانت ثمة حالة من الهلع الصادق، والدموع تترقرق في مآقي الوالدين. كانا يرتعدان فرائصاً من أنه إن ظفر ترامب بالانتخابات الرئاسية، فسيُرحلان لا محالة. كانت العائلة تستشعر الضبابية؛ فمستقبلهم مستعصٍ على التنبؤ وخارج عن إرادتهم.

عملتُ لما ينيف على خمسة عشر حولاً مع المهاجرين، وطالبي اللجوء، واللاجئين، باذلةً العلاج النفسي والخدمات المجتمعية. وإن والديّ لَيُلْهِمَانِ عملي، إذ فرا من اضطراب سياسي في فنزويلا التماساً للاستقرار، والعمل، والفرص التعليمية لعائلتهما.

ولقد نذرت نفسي لخدمة الأفراد الذين ينشدون الملاذ من العنف والاضطهاد لعلل سياسية، أو دينية، أو إثنية، أو لهويتهم الجنسية. وفي غضون الثمانية عشر شهراً المنصرمة من الإدارة الرئاسية الراهنة، غدت ممارستي أشد كثافة، وبات تدريبي في العلاج النفسي المستنير بالصدمات أمراً لا غنى عنه.

وفي هذا الفصل، أبسط ملاحظاتي السريرية مع العائلات والأفراد الذين خدمتهم. كما أطرح رؤى حول المآلات المترتبة على جماعات بعينها، ومنهم طالبو اللجوء، والمشمولون ببرنامج (DACA)، والأطفال، والعائلات، ومقدمو خدمات الصحة النفسية.

لطالما جابه المهاجرون خطوباً في الولايات المتحدة. فمن التمييز الوظيفي في الثلاثينيات والاعتقال الياباني إبان الحرب العالمية الثانية إلى المشاعر المعادية للمسلمين غداة الهجمات الإرهابية في الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد، ما انفكت بلادنا تصارع التمييز النسقي، والمؤسسي، والشخصي. ولقد جلب السباق الرئاسي لعام ستة عشر وألفين معه موجة مستحدثة من الخطاب المعادي للمهاجرين، مانحاً صوتاً وطنياً لأولئك الذين أضمروا مشاعر مقاربة.

ولقد ظفر الرئيس بالمنصب على منصة من التمييز، شملت اللاتينيين والمهاجرين المكسيكيين غير الموثقين على وجه الخصوص. فغدت حيواتهم في مهب الريح لأن الحملة صورت المهاجرين غير الموثقين بوصفهم مجرمين ومغتصبين يسلبون الوظائف ويثقلون كاهل الاقتصاد الأمريكي. والحق هو النقيض تماماً: فالمهاجرون غير الموثقين يقترفون

معدلات أدنى من الجرائم ويسهمون إسهاماً عظيماً في الاقتصاد الأمريكي. ولقد مَثَّلَ نصر ترامب تصديقاً سافراً على المشاعر التمييزية التي ألحقت أذى مباشراً بعملائنا.

وكما كابد معالجون لا يحصون في أرجاء الولايات المتحدة، فقد بثت الانتخابات الرئاسية لعام ستة عشر وألفين مستوى مستحدثاً من القلق في نفوس عملائنا. فمن خلال ممارستنا، نُشْرِعُ نافذة على الإساءة، والتعذيب، والإقصاء الذي يكابده الفرد لمحض هويته وظروفه. إننا نشهد على أبشع التجارب الإنسانية. وعلى الرغم من صدماتهم الغائرة، يُظهر عملائي جلداً مذهلاً، محيلين معاناتهم ببراعة إلى غاية متى ما مُنحوا الفرصة ليحيوا أحراراً آمنين. وبالنسبة لآلاف اللاجئين وطالبي اللجوء، لم تعد الولايات المتحدة تبذل هذا الوعد.

وفي غضون الثماني والأربعين ساعة الأولى غداة الانتخابات الرئاسية، طُلب مني أن أتصدى للخوف والرعب المنذرين بالخطر اللذين طفوا على السطح في مجتمع اللاتينيين غير الموثقين، لعملائي ولجمهور الإذاعة على راديو (WADO)، وهي المحطة الإذاعية الأوسع استماعاً في المجتمع اللاتيني على الصعيد الوطني. تحدثت عن كيف يسعنا أن نصوغ هذه المخاوف من منظور مستنير بالصدمات، وهو إطار وضعته الطبيبة النفسية ذائعة الصيت عالمياً جوديث هيرمان (١٩٩٧).

يسعنا تعريف الصدمة بأنها مشاهدة أو مكابدة تهديد داهم للفرد، سواء أكان بدنياً، أم عقلياً، أم وجدانياً. فالأحداث الفاجعة تزلزل واقعنا، فنستشعر أن بيئتنا غير آمنة.

ولقد مثلت الحملة الرئاسية، والانتخابات، والتنصيب، والخطاب، وما أعقب ذلك من سياسات معادية للمهاجرين، ضغوطاً متراكمة على مجتمع مستضعف سلفاً. ولقد ناقشت كرب ما بعد الصدمة والعبارة الرائجة، "كرب ما بعد صدمة ترامب" (والتي تضاهي "اضطراب قلق ترامب" الموصوف سالفاً في هذا السفر).

كان المهاجرون غير الموثقين يكابدون أعراضاً تتسق تماماً مع الكرب الصدمي: القلق، والضبابية، والخوف من محيطهم، وفرط التيقظ، والكوابيس.

لقد التمست إحدى النسوة استشارة داعمة وتقييماً لتعضيد قضية هجرة زوجها ودرء ترحيله. كانت ترزح تحت وطأة كرب وجداني لاضطرارها إلى إعالة أطفالها الصغار في غياب زوجها.

وكان أطفالها يرتعدون فرائصاً ويستشعرون القلق بجلاء. وكشأن والديهم، كانوا يرمقون الأخبار ويتوجسون خيفة مما قد يحل بعائلتهم. وكما هو الحال في أعقاب حدث فاجع، كانت العائلة تكابد لفقه وضعها وكيف يسعها

استعادة أمنها. ولئن كانت العيادات القانونية وغيرها من الموارد قد أُرسيت، إلا أن استشعار انعدام الأمن والكرب الصدمي ما انفك قائماً. ولقد توسلتُ بالعلاج المستنير بالصدمات وأساليب الصحة النفسية للكوارث لأعين العائلة على فقه ما يكابدونه.

ولقد ألحّت هذه الاستراتيجيات على البقاء راسخين والانخراط في الأنشطة اليومية المعتادة عند مكابدة أحداث فاجعة تعصف بحياة المرء ومجتمعه.

وعلى الرغم من مساعيي لاستخلاص المعنى من هذا الواقع المستحدث، فإن استشعار التهديدات لبقاء المهاجرين غدا حقيقة واقعة جداً في حيواتهم اليومية. ولقد تضخم الخوف من محيطهم جراء تجريم عقوبات الحدود في مدن الملاذ. فالعملاء غير الموثقين البالغ عددهم اثني عشر مليوناً والذين يحيون في الولايات المتحدة كانوا سلفاً يعيشون في الخفاء، بيد أن الإدارة الراهنة قد منحت وكالة الهجرة والجمارك (ICE) تفويضاً شرساً لتعقبهم وترحيلهم.

فباتوا يخشون أن يُفصلوا عن أحبائهم وعن الأرض التي غدت وطناً لهم. وغدا تهديد وكالة الهجرة والجمارك حقيقة واقعة جداً، حتى في مدينة نيويورك، وهي "مدينة ملاذ" وملاذ آمن لملايين المهاجرين غير الموثقين.

لقد سقط أحد عملائي وأُصيب في محطة قطار في كوينز لأن أحدهم صرخ بغتة بأن عملاء الوكالة يدنون من المكان. كان الرعب والهلع متفشيين في كل صقع. وحتى المهاجرون ذوو الوضع القانوني كابدوا رعب الانفصال عن أحبائهم، والاحتجاز، والتجريم، لمحض هيئاتهم. وتهافت المقيمون الدائمون الشرعيون ليغدوا مواطنين أمريكيين، إذ كان ذلك هو الدرع الأوحد ضد الترحيل.

إن طريقي اليومي للعمل لَيَمُرُّ عبر جادات يغص فيها عمال المياومة، يترقبون وينشدون عملاً يومياً. وغداة التنصيب، خلت الشوارع بغتة من العمال تحت وطأة هذا السحر من الخوف والصمت. فكوينز، التي تُعد من أشد بقاع الأرض تنوعاً، قد كابدت الخوف بجلاء. قلّ خروج الناس، وأفاد أصحاب المتاجر بتراجع التجارة. وإن وحشة الصمت التي أعقبت التنصيب لَتُضَاهِي الأيام التي تلت الهجمات الإرهابية الفاجعة جمعياً في الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد. وفي هذه الحالة، كان مجتمع المهاجرين اللاتينيين هو المستهدف على وجه الخصوص وتُرِك يتخبط في غياهب الخوف. كما كابدت المجتمعات التي واجهت النبذ هشاشة أيضاً. فأحد عملائي، وهو ابن لناجين من المحرقة (الهولوكوست)، كان يخشى تصاعد الهجمات على المجتمع اليهودي.

الأحداث الفاجعة التبعية

لقد كان أسبوع السابع والعشرين من يناير عام سبعة عشر وألفين من أشق الأسابيع في مسيرتي المهنية. ففي ذلك اليوم، وُقع أمر تنفيذي يحظر الدخول من سبع دول في الشرق الأوسط وأفريقيا. ولقد أثار "حظر السفر" هذا الخوف والرعب لا في نفوس اللاجئين وطالبي اللجوء من المناطق المحددة التي تُعد "تهديداً للأمن القومي" فحسب، بل وفي نفوس المهاجرين قاطبة. لقد تلقوا رسالة جلية: "أنتم غير مرحب بكم، ولم تعودوا آمنين". لقد مَثَّلَ ذلك فعلاً متعمداً وتحقيقاً للخطاب المعادي للمهاجرين الذي ما انفك قائماً. ولئن كان حظر السفر قد عُدل جراء أفعال احتجاجية، ومناصرة، وقرارات محاكم جمة، إلا أن إدارة ترامب قد أرست من فورها نبرة إدارتها: الولايات المتحدة ليست مشرعة الأبواب للاجئين، أو طالبي اللجوء، أو غيرهم من المهاجرين.

وإن المبادئ التوجيهية المستحدثة للجوء، والتي دخلت حيز التنفيذ في فبراير عام سبعة عشر وألفين، لَتَرْفَعُ الآن السقف أمام المدعين لتقديم رجحان من الأدلة لإثبات خوف ذي مصداقية.

فطالبو اللجوء، الذين يكابدون سلفاً اضطراب كرب ما بعد الصدمة بنسب متفاوتة، يُلزمون الآن بالبوح بقصتهم لضابط اللجوء واستعادة

صدمتهم. ومع المبادئ التوجيهية المستحدثة، يُوعز إلى الضابط بأن يكون أشد ارتياباً. فإن تبين للضابط تناقض في قصتهم، رُفض الادعاء في يسر أكبر، ورُحل المدعي. وتوجه الإرشادات المستحدثة ضباط اللجوء إلى الشروع في اعتبار الدخول غير الشرعي إلى الولايات المتحدة عاملاً قد يُحسب ضد طلب الفرد للجوء.

ولقد وُضعت سياسة "عدم التسامح المطلق" حيز التنفيذ في عام خمسة وألفين بغية معاقبة الدخول غير الشرعي إلى الولايات المتحدة (مجلس الهجرة الأمريكي ٢٠١٨). ولقد شددت الإدارة الراهنة هذه السياسة لتسوق البالغين المتهمين بعبور الحدود بصورة غير شرعية مباشرة إلى المحكمة الفيدرالية. أما أطفالهم فيُبعث بهم إلى مكتب إعادة توطين اللاجئين التابع لوزارة الصحة والخدمات الإنسانية، والذي يعمل مع الملاجئ أو الأقارب في الولايات المتحدة.

ومن أبريل إلى مايو عام ثمانية عشر وألفين، فُصل ما يقارب ٢,٦٥٤ طفلاً عن والديهم واحتُجزوا. وتحت وطأة ضغط اجتماعي وسياسي هائل، وقع الرئيس ترامب أمراً تنفيذياً للعدول عن هذه السياسة في العشرين من يونيو عام ثمانية عشر وألفين (شير، غودنو، وهابرمان ٢٠١٨). ومع ذلك، ما انفكت تحديات هجرة أخر قائمة. فسياسات الهجرة الراهنة لا تزال تحد من عدد اللاجئين إلى ٣٠,٠٠٠ سنوياً (ديفيس ٢٠١٨) وتملي كيف أن

الانتفاع من المنافع العامة قد يعوق قدرة المهاجرين على نيل وضع موثق. وإن هذه التحولات لَتَزْدَرِي بجلاء الفقراء، والمتعبين، والتواقين إلى تنفس الحرية.

التماس اللجوء

إنني لأستحضر مئات الأشخاص الذين عملت معهم في مجتمع الميم والذين يُضطهدون لعلة ميولهم الجنسية، والنساء اللواتي كابدن تشويه الأعضاء التناسلية الأنثوية، والرجال والنساء الذين يُعذبون لعلة آرائهم السياسية. وأتأمل في حوارات مع عميلة صينية عُذبت لعلة شعائرها الدينية. وأذكر عميلة مثلية كابدت اعتداءً جنسياً في مراهقتها في أمريكا الجنوبية لأن الجاني الذكر قال: "سأريكِ ما تفتقرين إليه"، وأتساءل عن شاب من السلفادور كابد التمييز لعلة هويته الأصلانية واضطر أيضاً للفرار من محاولات تجنيد العصابات. لقد أفلحوا في العثور على وطن ومستقبل في الولايات المتحدة. فهل كانت أصوات هؤلاء العملاء لتُسمع الآن؟ هل كانوا ليُقبلوا، أم كان ليُقال لهم عودوا إلى بلدانكم لأنكم غير مرحب بكم هاهنا؟ كيف كان لهم أن يشرعوا في الشفاء؟

إنني لأستحضر الفنزويليين الذين أعنتهم، والذين يحيون في الولايات المتحدة في حين تكابد بلادهم أزمة إنسانية. وكانوا لينتفعوا من وضع الحماية المؤقتة (TPS)، وهو وضع وقائي للأفراد الذين يعجزون عن العودة إلى بلدانهم لعلة كارثة بيئية أو ظروف استثنائية. وإن البرنامج الذي أتاح لآلاف الأفراد من بلدان شتى أن يعملوا بصفة قانونية ويبنوا حيواتهم لَمُهَدَّدٌ الآن بالانقضاء. فهل ستغدو الإغاثة الإنسانية أثراً بعد عين في نسيجنا الوطني؟

تكتب هيرمان (١٩٩٧) عن أطوار التعافي من الصدمة: الأمان والاستقرار، والتصالح مع الذكريات والأحداث الفاجعة، والاندماج والمضي قُدماً. وبالنسبة لطالبي اللجوء، فإن الموافقة على اللجوء هي الطور الأول للشروع في حياة مستحدثة. فيسعهم الشروع في عيش حيوات مفعمة بالرضا حين يتوفر الأمان، حيث تنتفي التهديدات القائمة على الهوية.

لقد فرت عميلتي زويلا من الإكوادور بعد أن جابهت سنيناً طوالاً من العنف القائم على النوع الاجتماعي. وُلدت زويلا ثمرة لاغتصاب. ولعلة الفقر، عملت زويلا وعاشت مع أقارب شتى اعتدوا عليها جنسياً أيضاً.

وإن الاعتداء الجنسي في الطفولة لَيَضَعُهَا في مرمى خطر العنف بين الأفراد في الرشد. لقد استشعرت الحب والحماية من لدن رجل يكبرها سناً جعلها تستشعر الأمان. وبمرور الأيام، غدا مسيئاً بدنياً إلى حد أن كدماتها وخزيها أبقياها حبيسة الجدران. كما أكرهها على العمل لساعات طوال لإعالته، وفعلت ذلك، راجية أن يتبدل حاله.

وقامت زويلا بمحاولات عدة مخفقة للفرار إلى أصقاع أخر من البلاد، وقطعت في نهاية المطاف الرحلة الفاجعة عبر أمريكا الوسطى إلى الولايات المتحدة، تصارع من أجل بقائها. وحين بلغت حدود أريزونا، التمست اللجوء. فعبرت الحدود بغير تفتيش ووُجهت إليها تهمة جنحة.

تزخر نيويورك بمحامين متطوعين يعملون بسخاء مع المهاجرين. ولقد تعاقد محامي زويلا معي لألتقي بها، مبيناً أن كرب زويلا الوجداني قد يلقي بظلاله على قدرتها على نقل تجاربها للقاضي. ففي إجراءات اللجوء، تكون سردية العميل هي دليله. فإن لاحت تناقضات، شُكك في مصداقية الفرد، وباتوا عُرضة لخسارة قضيتهم.

وعبر التثقيف النفسي لأساليب الصدمة، بما في ذلك تمارين التجذر والتنفس، أعنت زويلا على ترويض انفعالاتها وفقه السيرورة القانونية. وسرعان ما غدت مرتاحة بما يكفي لسرد قصتها. وكان أول ما تفوهت به: "لو علمت أن لزاماً عليّ أن أسرد قصة العنف التي كابدتها، لما غادرت قط".

وإن هذا التصريح العميق لَيُجْلِي فداحة الإساءة التي كابدتها—لقد تحاشت الخوض في الأمر لفرط إيلامه. وبعد أن عملنا معاً وأقررنا بصدمتها، أفلحت زويلا في عرض قضيتها واهتدت إلى درب نحو الشفاء في الولايات المتحدة.

الإجراء المؤجل للقادمين في مرحلة الطفولة (DACA)

لقد كان الخامس من سبتمبر عام سبعة عشر وألفين يوماً فاجعاً آخر لمجتمعات المهاجرين في أرجاء الولايات المتحدة. فسياسة الهجرة الراهنة المعروفة بـ "الإجراء المؤجل للقادمين في مرحلة الطفولة" (DACA) قد ألقت بظلالها على ٨٠٠,٠٠٠ شاب بالغ وفدوا إلى الولايات المتحدة كقصر وأُتيح لهم التماس فرص التعليم والعمل؛ ويُطلق عليهم "الحالمون". ولقد ساد ذهول من أن يبلغ الرئيس ترامب حد إنهاء البرنامج، إذ كان قد

صرح: "سنتعاطى مع برنامج (DACA) بقلب رحيم... أنا أحب هؤلاء الأطفال" (٢٠١٧).

بيد أن أمة المهاجرين هذه قد صُعقت حين أعلنت الإدارة التنفيذية أن الحالمين لن ينالوا تمديداً. فهؤلاء الأفراد الذين وفدوا كأطفال، وغالباً ما لا يعرفون بلداً آخر كوطن لهم، سيغدون غير شرعيين بين عشية وضحاها وعُرضة للترحيل. وفي المساء عينه، عقد الاتحاد الهيسباني يوماً إعلامياً رداً على إنهاء برنامج (DACA). وطُلب مني أن أكون حاضرة للقاء العائلات والتصدي لحاجاتهم في الصحة النفسية. فالتقيت باثني عشر حالماً وعائلاتهم.

وساد صمت مطبق في الغرفة بادئ الأمر، بيد أننا حين طفقنا نتعارف، سرد كل حالم قصته عن الخوف المباغت، واليأس، وخيبة الأمل. وذُرفت الدموع لعلة ضبابية المستقبل وانعدام الأمان فيما عهدوه وطناً لهم. ولقد أيقنا أن خلق حيز لمشاطرة التجربة والدعم هو ما يسعنا بذله، ودُعي الحالمون وعائلاتهم للمشاركة في المسيرة في واشنطن العاصمة.

ولقد هبت المؤسسات الأكاديمية في أرجاء الأمة قاطبة لنصرة المشمولين ببرنامج (DACA)، وغالباً ما عدلت سياساتها لحماية طلابها ودعمهم. وإن الحراك الذي اندلع في أرجاء البلاد قاطبة قد أفضى إلى وقف التشريع

الرامي لإنهاء برنامج (DACA). ومع ذلك، ما انفكت حالة من الضبابية تكتنف هؤلاء الأفراد، الذين مضى كثير منهم إلى الجامعة، ونالوا درجات عليا، وحيوا حيوات منتجة، وأسهموا بلا ريب في نماء الولايات المتحدة وارتقائها.

الأطفال والعائلات

في مساعي لدعم وحدة العائلة لسنين طوال، دأبت على إشراك الأطفال في سيرورة التقييم. فغالباً ما يبوحون بكيف ترعاهم أمهم، وأنها "أعز أصدقائي"، أو أن أباهم "يطهو لي ويأخذني إلى المدرسة". بيد أنه، ومنذ الحملة الرئاسية ولا سيما غداة انتخاب ترامب، تبدل سمت هؤلاء الأطفال. فكشأن والديهم، يرمقون الأخبار ويتوجسون خيفة مما قد يحل بعائلتهم. بل إن هيئات أجسادهم، بأكتافهم المتدلية والمنحنية، لَتَنْطِقُ بشعور بالهزيمة، والخوف، وقلة الحيلة.

وحديثهم يقطر يأساً، ونظراتهم خفيضة وقانطة. وإن خوفهم الحاد من ترحيل والديهم لَيَتَجَلَّى غالباً في عجز عن التركيز في المدرسة وخوف من ألا يلفوا أمهم وأباهم حين يؤوبون إلى الديار.

لقد التمست إحدى النسوة استشارة لطفليها تعضيداً لقضية هجرة زوجها ودرءاً لترحيله. وظل الطفلان متلاصقين غاية التلاصق على الأريكة. وتحدثنا عن كيف تمضي العائلة وقتها معاً.

وبعد إرساء أواصر الألفة والثقة ("كونفيانزا" بالإسبانية)، سألت كل طفل عما إذا كان يعلم لِمَ نتحدث، وكانا يعلمان. فشرعا في البكاء من فوريهما، وباحا بما سيكون عليه الحال لو لم يكن أبوهما معهما. لقد كان ذلك أشق شطر من الجلسة. وعلى النقيض من المقابلات مع الأطفال في السنين الخوالي، كانت هذه هي المرة الأولى التي تقترن فيها هذه الانفعالات بخوف صادق.

ولقد هزني خوفهما وحبهما، ولم أملك حبس دموعي. وبعد معاينة أطفال كثر يكابدون قلقاً حاداً وكرباً صدمياً، هديت إلى تدخل من شأنه أن يمنحهم القوة ويرتبط ارتباطاً مباشراً بقضية هجرة والديهم. فطلبت من الشقيقين تسطير رسائل كسبيل للبوح بمشاعرهما ولكن أيضاً لإسباغ شعور بالسيطرة على محيطهما. وفي الأسبوع التالي، ولج الطفلان بخطى واثقة، وقاماتهما أشد استقامة بعض الشيء. وكانا متلهفين لتلاوة رسائلهما وممتنين لعلمهما بأن رسائلهما ستكون شطراً من ملف هجرة والدهما. وباحا قائلين:

مما تناهى إلى سمعي في الأخبار، أبتغي أن يكون أبي وأمي وسائر عائلتي معاً لأنه يحزنني حقاً كيف يمزق دونالد ترامب شمل عائلات جمة. إن عائلتي لَتَعْنِي لي الكثير، وأستشعر أن كل فرد في عائلتي يضطلع بدور ذي بال يحفظ شملنا. وما أظنه في رئيسنا الجديد هو أن أحدهم قد أساء فهمه، والآن يعقد العزم على صب عدوانه على أناس أبرياء. هذا ما أستشعر أنه يعتمل في عائلتي، ومجتمعي، وبلادي.

لقد مُنحا فرصة للجهر بمخاوفهما، بل وأشارا إلى قوى سياسية-مجتمعية طغت على أفكارهما.

وإن تسطير الرسائل لَيُزَعْزِعُ مركز سيطرة باطني ويخدم كقوة للتمكين.

إن الأطفال لَيَشْهَدُونَ ويتشربون انعدام الرحمة الجلي في بلادنا؛ وإن لهذا لَمَآلَاتٍ سياسية، ونمائية، وواقعية. فإن حيازة آباء من ذوي الوضع المختلط ممن يخضعون لإجراءات الهجرة لَيُلْقِي بظلاله العميقة على الأطفال.

فما يقارب ٥,٥ مليون طفل في الولايات المتحدة، بمن فيهم ٤,٥ مليون مواطن أمريكي بالولادة، يحوزون والداً واحداً على الأقل من المهاجرين

غير المصرح لهم (مركز بيو للأبحاث ٢٠١٨). لقد عاش الآباء وعملوا هاهنا لسنين طوال، بيد أنهم، لعلة ولوجهم البلاد بغير تفتيش، أو تجاوزهم مدة تأشيراتهم، أو افتقارهم إلى النفاذ للموارد والعون، يظلون غير موثقين. وغالباً ما يُضطر الآباء المهددون بالإبعاد إلى اتخاذ قرار بشأن ما إذا كانوا سيصطحبون أطفالهم معهم أو يتركونهم في الولايات المتحدة في رعاية والد آخر، أو قريب، أو صديق، وغالباً ما يخلصون إلى أن من أصلح مصالح طفلهم أن يبقى في الولايات المتحدة.

وتبعاً لذلك، فإن تمزق شمل العائلة لَيَجْلِبُ مزيداً من الصدمة للأطفال. وإن فكرة انتقال الأطفال إلى وطن والديهم لَهِيَ فاجعة بالقدر عينه، لأن "الهجرة القسرية العكسية" لا تصب في أصلح مصالح العائلة. وإن سياسات الهجرة وممارساتها لَتَصْدِمُ كل فرد في العائلة مباشرة، مهددةً شعورهم بالأمن والاستقرار.

ولقد جلت البحوث المستحدثة أنه في الأعقاب المباشرة لترحيل الوالدين، شملت المآلات على الأطفال والعائلات مشاعر الهجر، وأعراض الصدمة، والخوف، والعزلة، والاكتئاب (برابيك وشو ٢٠١٠). وفي سفره "مواطنون منسيون: الترحيل، والأطفال، وصناعة المنفيين والأيتام الأمريكيين"، يصف الدكتور لويس زياس كيف أن إبعاد الوالدين يزج بالأطفال في مرمى خطر متزايد لتطوير خطوب نفسية (٢٠١٥).

ويكابد كثير من الأطفال قلقاً حاداً وكرباً صدمياً. وإن استعادة الصدمة لَتُفْضِي إلى أعراض كالكوابيس، والاستثارة، وخطوب الانتباه، والتيقظ المفرط، والتبلد، والانسحاب من مقدمي الرعاية، وانقباض اللعب. وتدل مراجعة السجلات المدرسية على أن درجات هؤلاء الأطفال تتدنى، ويعزلون أنفسهم عن أقرانهم، وينفصمون، حيث يربك الكرب الصدمي الذي يكابدونه أداءهم اليومي.

ولقد باح طفل إحدى العميلات، والبالغ من العمر أربع سنين، بذكريات فاجعة عن احتجاز أبيه ويخشى أن يقع ذلك كَرَّةً أخرى. وإن لتحديات الهجرة هذه مآلات إضافية على الحمل ونتائج الولادة السلبية (نوفاك وآخرون ٢٠١٧).

فغالباً ما تكابد الأمهات اضطرابات مزاجية في الفترة المحيطة بالولادة وبعدها، في حين قد يكابد الرضع ضغطاً ساماً وقصوراً في النمو العصبي في الرحم. ومن الجلي أن هذه التجارب تستنزف موارد الطفل الباطنية، وتحد من رؤيته للعالم، وتهيئه لعلل طبية ونفسية مستقبلية قد تلازمه طيلة حياته.

وعلى الرغم من المساعي لاستعادة الشعور بالسواء، لزامٌ أن يُتصدى لحلول أشد نسقية تعالج الهواجس الدفينة. فمداهمات الهجرة، والاحتجاز، والترحيلات هي احتمالات واقعية ومتواترة.

وإننا لَنُسِيءُ إلى الأطفال حين نأذن لهذا الخوف والضبابية أن يعوق فضولهم الفطري، ونموهم، واستقرار عائلاتهم، وعافيتهم. وإن لسياسات الهجرة التي تنتهجها الإدارة آثاراً فاجعة، ولقد نسجت القلق، والاكتئاب، والغضب، وانعدام الأمن في نسيج الحيوات اليومية للأطفال والعائلات الأمريكية.

تطلع إلى المستقبل

بصفتي مهنية في الصحة النفسية الشرعية أستشير الهيئات القانونية التي تفصل في صحة قضية لجوء من عدمها، فإنني أحظى بشرف العمل مع فرق متعددة التخصصات للمناصرة نيابة عن عملائنا.

ولقد غدا عملنا أشد تعقيداً، ويجابه العملاء تحديات لم يُعهد لها مثيل. فالمهاجرون غير الموثقين وطالبو اللجوء يكابدون مستويات عاتية من الكرب الصدمي، واليأس، والعزلة.

وفي مجابهة الرعب، ينفصلون. إننا نفتقر إلى سياسات هجرة تتيح التوازن، وتجل الصدمة السابقة للهجرة التي يحملها المهاجرون معهم وهم ينشدون الأمن والدعم في بلد جديد ومجهول. لا يسعنا أن نعاقب العائلات والأطفال بدافع من الخوف والعنصرية.

وفي عام سبعة عشر وألفين، صرح كال أمكران، المدير السياسي الأسبق للجمعية العامة للأمم المتحدة: "إن ما نكابده اليوم ليس أزمة هجرة بل أزمة رحمة". وأردف: "لنكن جليين: إن الفعل المتخذ اليوم ليس مقتضى قانوناً. إنه قرار سياسي ومسألة أخلاقية".

إن مهنتنا لَتُعَلِّمُنَا أن نبعث الأمل حيث يحل اليأس. وفي الوقت الراهن، فإن الوجود ذاته لملايين المهاجرين، وطالبي اللجوء، واللاجئين، والمشمولين ببرنامج (DACA) لَمُهَدَّدٌ.

لزامٌ علينا أن نبذل المزيد. لم يعد يسعنا أن نقف متفرجين في مجابهة الصدمة والهشاشة الإنسانية. لزامٌ علينا أن نناصر صياغة سياسة هجرة شاملة تتسم بالواقعية والرحمة. ويُجابه المهنيون السريريون الآن تحدي الاضطلاع بدور أشد استباقية مع العملاء. لزامٌ أن يُعاد تصور دورنا كخبراء في الصحة النفسية ومواطنين لاستعادة الأمل عبر المناصرة،

والتصويت، والصدع بأصواتنا. إن في أعناقنا واجباً لتجاوز مناطق راحتنا للذب عن عملائنا وصحة العوام. لزامٌ علينا أن نناصر حقوق الإنسان، والكرامة الإنسانية، والحق في أن نكون بشراً.

روزا ماريا برامبل (كاباليرو)، أخصائية اجتماعية سريرية مرخصة، وممارسة ثنائية اللغة تحوز عيادة خاصة في الخدمات النفسية الاجتماعية السريرية والشرعية في مدينة نيويورك. تجري تقييمات نفسية اجتماعية وتقدم شهادات خبراء في قضايا الهجرة. تبذل برامبل علاجاً لاضطراب كرب ما بعد الصدمة متوسلة بالعلاج النفسي الحسي الحركي، وإزالة التحسس وإعادة المعالجة بحركة العين (EMDR)، وأنموذج أنساق العائلة الداخلية (IFS)، والتنفس المتماسك. وبصفتها محاضرة في مدرسة العمل الاجتماعي بجامعة كولومبيا ومستشارة، تدرب الطلاب ومقدمي الخدمات على تقديم الخدمات المستنيرة بالصدمات. أسست "حدود الأمل" لتعزيز الوعي بالصدمات في مجتمعات المهاجرين اللاتينيين.

في عُرف ترامب، بعض الأرواح لها شأن

د. إلين أورام كاشاك

نحن في عام ثمانية عشر وألفين. انقضى قرن من الزمان منذ أن ظفرت النساء بحق الاقتراع في عام عشرين وتسعمائة وألف بإقرار التعديل التاسع عشر. ولم يكفل قانون حقوق التصويت لعام خمسة وستين وتسعمائة وألف الحق عينه للأقليات العرقية قاطبة إلا في عام خمسة وستين وتسعمائة وألف (وزارة العدل الأمريكية ٢٠١٧).

ولم ينقضِ سوى خمسين حولاً منذ أن ظفرت النساء بحق السيطرة المشروطة على أجسادنا بقرار من المحكمة العليا في قضية "رو ضد وايد" في عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف.

وإننا نحن النساء لَفِي خطر داهم بفقدان الحقوق قاطبة التي تجشمنا عناء النضال لترسيخها. وفي غضون ذلك، يحتفظ الرجال البيض، في كنف هذه الإدارة، بحقوقهم ويحوزون المزيد منها.

وفي مستهل العلاج النفسي النسوي، عقدنا العزم نحن المعالجات على الإصغاء باحترام لقصص النساء وتدبرها في سياقها الاجتماعي بدلاً من نبذها كباثولوجيا باطنية كما كان يُفعل سالفاً. لم تكن هذه قاطبة خيالات، أو رغبات، أو ضلالات كما توهم فرويد وغيره، بل إساءة حلت بنساء فاق

عددهن ما كان يسعنا تخيله. وتدفقت القصص كالسيل العارم، ووقفنا نحن أنفسنا مذهولات مما اكتشفناه.

وكلما أمعنت في الإصغاء، طفقت أطور فكرة مفادها أن العلة النفسية كانت ثمرة لجراح أكثر منها لعلة، وأن الجنون (Madness) والغضب (Mad) كانا موصولين بما يجاوز علم أصول الكلمات (الإيتيمولوجيا).

وفي أول صف درّسته في العلاج النسوي في بيركلي عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، سردت كل طالبة قصتها الخاصة عن الزج بها في عنبر خلفي لطلبها الطلاق أو الإجهاض، أو لاتهامها زوجاً بالخيانة. لقد كان الرجال يملكوننا. وبعد عمر من النضال من أجل المساواة، يبدو أننا نرتد على أعقابنا إلى ذلك الزمان. إن النضال من أجل مساواة النساء لم يكد ينقضي بعد.

وحين كان يُنظر في إدراج اضطراب كرب ما بعد الصدمة (PTSD) كإضافة إلى الدليل التشخيصي والإحصائي، سطرتُ أنه ينبغي إسقاط حرفي "P" (ما بعد) و"D" (اضطراب) لأولئك الذين لم يكونوا يؤوبون من فيتنام بعد أن أقصوا أنفسهم عن ساحة معركة الحرب الرسمية التي يسميها الفيتناميون الحرب الأمريكية (كاشاك ١٩٩٢). فبالنسبة للنساء،

وذوي الإعاقة، ومجتمع الميم، والملونين، فإن الكرب لا يغدو "ما بعد" قط. إننا نتعلم التعايش معه بسبل شتى، ليس من بينها ما يمت بصلة لكوننا أصحاء أو سعداء. إننا نتكيف. ونحتج. ونمضي قُدماً.

أما فيما يخص حرف "D" (اضطراب)، ففي تقديري، ليس ثمة ما هو مضطرب في هذه الاستجابات لخطر لا ينقضي. إنها أصدق الاستجابات الفطرية لكائنات بشرية فاعلة، ولزامٌ علينا أن نصيخ السمع إليها.

لقد كانت النساء وغيرها من الجماعات المهمشة، ولا تزال، مروعة، ومخزية، وغاضبة. ولقد كنت لأوثر مصطلح إصابة رضحية لاحقة، أو حادة، أو مزمنة.

فإن مررت بامرئ ملقى في الشارع ينزف، فإن الفارق لَحَاسِمٌ إن كان ذلك المرء مصاباً بالناعور (الهيموفيليا) أو مطعوناً. وإن إنقاذي لحياته لَمَرْهُونٌ بتشخيصي الصائب. فالصدمة هي ثمرة لاعتداء وهي إصابة (هيرمان ١٩٩٢؛ هيرمان ٢٠١٥). ولقد كابدت نساء جمة في الولايات المتحدة وفي جل البلدان الأخر الازدراء أو الإساءة، والاعتداء الجنسي أو الاغتصاب.

ولقد أُحرز تقدم عظيم في التصوير العصبي منذ أن اكتشفنا الصدمة (إيدلمان وتونوني ٢٠٠١؛ كانديل ٢٠١٨). وإن هذه الاكتشافات والتقنيات لَتُفْضِي في نهاية المطاف إلى علاج أشد فاعلية. فكل من العلاج بالحديث والأدوية نافع، وغالباً ما يُجمع بينهما، وكلاهما علاجان بيولوجيان (كانديل ٢٠١٨). وأنا أعد العلاج بالحديث راسخاً في الفيزياء أيضاً.

إذ يقع تبادل عميق للطاقة. ومع ذلك، وكما هو الشأن في إصابات جمة، فإن الندوب قد تلازم المرء طيلة حياته والذكريات غائرة في مواضع شتى داخل الدماغ وخارجه (كاشاك ٢٠١٥). ويسعها أن تُستثار باطنياً أو بسياق ما.

ومن فواجع الأقدار، أننا نبدو وكأننا نرتد إلى زمان خلنا أننا طويناه في غياهب النسيان. فالرجال السود يُقتلون في الشوارع وفي خصوصية شققهم المزعومة لجرم كينونتهم في جسد ذكر أسود.

والنساء يُعتدى عليهن جنسياً بإفلات من العقاب يضاهي ذلك لجرم كينونتهن في جسد أنثى.

والسكان الأصليون يُقتلون لمسعاهم للذب عن أرضهم من أن تُسلب منهم. والآن، يُزج بأطفال أبرياء في أقفاص، ويُفصلون عن أمهاتهم مؤقتاً أو أبد الدهر، بتكلفة يتكبدها دافع الضرائب الأمريكي ومنفعة يجنيها دونالد

ترامب وزبانيته تبلغ ٧٧٥ دولاراً عن كل طفل من الأطفال البالغ عددهم ١,٥٠٠ طفل، لربح إجمالي يبلغ ١,١٦٢,٥٠٠ دولار في اليوم. إنه لمبلغ جسيم، وكل ما عليك فعله لتجنيه هو تدمير حيوات آلاف اللاجئين المستضعفين الذين يرومون الفرار من خطر عصابات أمريكا الوسطى. فإن لم يكن ثمة أمان لهؤلاء القوم، فليس ثمة أمان لأي منا. إن هؤلاء الأمهات والأطفال لَيُصْدَمُونَ صدمة وحشية لا رجعة فيها. وإن "الكرب" لَكَلِمَةٌ أهون من أن تحيط بأهوال هذا الموقف. ولعل "الرعب" أوفق لوصف هذه الحرب التي لا تنقضي ضد النساء وغيرهن، بيد أنني في أدنى تقدير كنت لأتوسل بالقلق وليس الكرب كوصف.

وفي الوقت عينه الذي تُفصل فيه الأمهات الأمريكيات الوسطيات المفقرات والمروعات عن أطفالهن قسراً، تقبع النساء الروسيات البيض الحوامل في رغد عقارات ترامب الباهظة الأثمان في فلوريدا، دافعات ما يبلغ ١٠٠,٠٠٠ دولار (ماكفادين وآخرون ٢٠١٨) ليلدن أطفالهن على التراب الأمريكي.

وكبديل لتقييم العلة فحسب، فقد ابتكرت أداة أسميها "خريطة المعنى والاعتبار" (Mattering Map) (كاشاك ١٩٩٢، ٢٠١٣). إننا نتوسل بها لتقييم الإصابة أو العلة سياقياً ولتكون متوافقة مع تخطيط الدماغ الذي يقع كلما أتاحت التكنولوجيا ذلك. فالدماغ البشري هو مكتشف للأنماط ومصمم للبحث عن المعنى أو الاعتبار أو خلقهما. فإن هو خلق عفواً معاني مفرطة في التفرد، فإن خبراء الصحة النفسية يسمون هذا "علة". وإن هو خلق معاني متفردة من التجربة، فلزامٌ علينا أن نسميها "إصابات".

لقد طورت "خريطة المعنى والاعتبار"، التي تطلب من كل منخرط في العلاج أن يستهل بوصف خريطة، بالكلمات أو الصور، لما يحوز أعظم معنى في موقفه المخصوص. ويشتمل هذا على قضايا السياق ومن ثم يشير إلى أن الجلد لا يخدم إلا كأشد الحدود مسامية (كاشاك ١٩٩٢). ونستهل بقائمة من الفئات التي أقر مبحوثون آخرون بأن لها شأناً كبداية. وليس ثمة إلزام باستخدامها قاطبة، بيد أن كثيرين يفعلون.

وهذه الفئات هي:

النوع الاجتماعي

العرق

الإثنية

الثقافة

اللغة

الطبقة

الإيكولوجيا-البيئة، الصحة البدنية، البيولوجيا، علم الأعصاب

العائلة

العلاقات بين الأفراد بخلاف العائلة

الديني-الروحي

الإعلام المكتوب والإلكتروني. مستوى محو الأمية

مؤسسات أخر، كالمدرسة، والعمل

العمر، دورة الحياة

المعتقدات السياسية

عضويات الجماعات

التعليم

الميول الجنسية

تعاطي المواد وإساءة استخدامها

العنف

الشؤون المالية

السلطة

ويسع المرء أن يرسم "خريطة المعنى والاعتبار" في مستهل أو ختام كل جلسة علاجية. ويسع رسمها على شرائح شفافة لتيسير المقارنة. ويسع استخدامها في ظروف شتى، ولقد توسلت بها في فصولي حول النوع الاجتماعي والسلام. ولقد مضى كثير من طلابي الدوليين لاستخدام هذه الأداة في بلدانهم، عاملين مع النساء، واللاجئين، ومجتمع الميم.

ويسع هذه الخريطة أن تتبدل في أي لحظة بكلمات معالج أو بصيرة مستحدثة أو تدخل كيميائي فاعل. ولعلها تتبدل لبعضكم الآن وأنتم تطالعون هذه الكلمات. ويسع المرء أن يلفي النظرية التي تنهض عليها

هذه الأداة في منشوراتي السالفة (كاشاك ٢٠١٠)، فضلاً عن رواية ريبيكا غولدشتاين عام ثلاثة وثمانين وتسعمائة وألف "معضلة العقل والجسد".

لقد ناضلت النساء السود، والسمر، والبيض من أجل الحقوق التي نحوزها. لم يبتغِ أحد أن نكون مواطنات متساويات سوانا. ولقد كانت المعارك طويلة وضروساً كشأن ما يسميه الرجال الحروب الرسمية، تلك التي تدور رحاها بين الرجال ورجال آخرين (وفي الآونة الأخيرة انخرطت بعض النساء في القوات المسلحة). أما الحروب غير الرسمية فتدور رحاها في شوارع وبيوت بلادنا كل يوم، وتلك هي الحروب ضد النساء، والملونين، ومن لا يمارسون الجنسانية المعيارية المغايرة. وإن النساء اللواتي يُعتدى عليهن جنسياً لَهُنَّ أشد عُرضة مرتين إلى ثلاث مرات لتطوير اضطراب كرب ما بعد الصدمة من الرجال الذين يلجون القتال ثم يغادرونه (أولف ٢٠١٧). ولعل مرد ذلك إلى أننا نحن النساء نحيا حيواتنا قاطبة في ساحة الوغى. فبالنسبة لنا، هو في كل صقع ولا يسع المرء أن يتوقع هجوماً، ولا نُزود بالدبابات والبنادق ونُحث على استخدامها. بل إننا نُهان ونُصدم أبعد من ذلك إن نحن تقدمنا للإبلاغ.

ومن التهجم على الرعاية الصحية وتقويض حقوق النساء القانونية إلى ترفيع مرشحين رجعيين ومنفصلين عن الواقع إلى مناصب مفصلية، على الرغم من ادعاءات الاعتداء الجنسي، يُجلي ترامب ازدراءه المتأصل للتحديات الجمة التي تجابهها النساء وكيف تترابط. وحين تُؤخذ هذه الأفعال مجتمعة، فإنها تُجلي اعتداءً سافراً على حقوق النساء وصحتهن النفسية. لزامٌ علينا أن نفعل ما يجاوز المسيرات بأشواط، وخبراء الصحة النفسية ليسوا بمنأى عن هذا المطلب. فلم يعد الأمر قضية حزبية، بل نضالاً من أجل صحتنا وبقائنا ذاته. وبصفتنا علماء نفس وأطباء نفسيين، لا يسعنا أن نقف مكتوفي الأيدي في صمت ونرقع جراح ضحايا الاعتداء والرعب. لزامٌ علينا أن نصدع بالحق. إن في أعناقنا واجباً للإنذار وواجباً لخلق أقصى قدر ممكن من الأمان لدرء الإصابات. إننا نحوز ميثاقاً أخلاقياً.

لقد ألحق ترامب الأذى بأقوام كثر بسبل شتى حتى إنه لَيَسْتَحِيلُ التركيز على النوع الاجتماعي بمعزل عن سياق الإثنية، والميول الجنسية، والعرق، وغيرها من العوامل. وفي تقديري، فإن أسوأ ما اقترفه ترامب هو خفض سقف الأخلاق، لما يسع المرء قوله وفعله في العلن وفي الخفاء. فماذا لو أن رئيسة تصرفت كما يتصرف هو؟ لبدت ذهانية في نواظر جلنا (كاشاك

٢٠١٥). ومع ذلك، فليس هو أسوأ ما في القصة، والتي تنطوي على المسؤولين المنتخبين قاطبة الذين يذودون عنه والأشياع الذين سيظلون مترعين بالكراهية طويلاً بعد أن يطوي النسيان ترامب.

وبصفتنا خبراء في الصحة النفسية، فإننا نعلم أن ثمة فارقاً بين الضلال والواقع، بين العلة والصحة. وإن التلاعب بالعقول (Gaslighting) لَيَجْعَلُ من المحال تبين ما هو حقيقي وما هو زائف، وتلك هي نقطة قوة ترامب. لقد باع للأقوام الذين يناصرونه إكسيراً زائفاً لإصلاح خطوبهم قاطبة. لقد كذب على البيض المفقرين أو المهمشين. وادعى أنه يمثلهم. وأجج في نفوسهم سعار الكراهية. وسخر من خصومه ومن النساء بوجه عام. وحط من قدرهن بأساليبه الاستحواذية وتنمره الصبياني. واشتهى ابنته علانية.

وإن الحيرة لَهِيَ ما يغدو مهلكاً، إذ إنها تفرز أيضاً الاعتداء، والإصابة، والموت.

إن الذكورة السامة لَوَفِيرَةٌ وهشة في آن وتنهض على أساس مترنح يتمثل في اضطرار كل ذكر كل يوم إلى البرهان على أنه ليس امرأة أو فتاة (كاشاك ١٩٩٢).

وإن أسوأ ما يسع المرء أن ينعت به صبياً في ساحة المدرسة هو "فتاة": أنهم "يرمون كفتاة"، أو "يبكون كفتاة"، أو "يتصرفون كمهبل". وإن النعت بـ "مثلي" هو، كما يُجادل، مجرد سبيل آخر لفعل ذلك. إنه يُقصد به أن يكون قاسياً ومهيناً.

وليس هذا من قبيل الصدفة. فالحديث عن النساء كفرائس بأسلوب استعلائي ومستشعر للاستحقاق، وكلما كان أشد فظاظة كان أفضل، يفي بهذا المطلب اليومي.

ويبدو أن الخلايا العصبية المرآتية المكتشفة حديثاً وغيرها من البنى العصبية مسؤولة إلى حد ما عن العدوى الوجدانية (كولر وآخرون ٢٠٠٢؛ كانديل ٢٠١٨) جنباً إلى جنب مع الانتقال السريع للآراء. ولقد تفشت الكراهية والتخجيل كالنار في الهشيم في إدارة ترامب. ويسعها أن تشتعل في يسر ما إن تُتعلم، وإن هذا لَمُكَوِّنٌ رئيس مما يعتمل في شوارعنا

وفي شبكاتنا الاجتماعية. الجميع يتجادلون. الجميع على حق. ليس ثمة متسع للتنازل. وإن الضجيج لَيَصُمُّ الآذان.

فما الذي تبدل فأباح هذا الاستعراض الفج لسلطة الذكر الأبيض؟ من الجلي أنها النجاحات الأخيرة لجماعات كانت مُحتقرة سالفاً، ومنها النساء، والملونون، ومجتمع الميم، في استشعار ثقة أعظم في ممارسة الحقوق التي كانوا يحوزونها سلفاً، بيد أنهم لم يجرؤوا على إنفاذها. والإهانة لكل ما يمثله ترامب من رئيس أسود ناجح، ومحترم، وذكي، ونسوي، والذي رام تدميره بحركة "خرافة المولد" التي لا تنقضي. ولقد حظي بنجاح أعظم بأكاذيبه عن هيلاري، التي يُجادل بأنها المرشحة الأكفأ والأشد تأهباً للرئاسة في التاريخ. لقد سخر منها وجرمها، متوسلاً بأمضى مهاراته ليحمل أشياعه على الهتاف "احبسوها". وإن سطوة سيكولوجية الجماعة والهتاف الموحد والإيقاعي على النفسية البشرية لَأَمْرٌ ذائع الصيت.

من ذا الذي يبتغي امرأة بالغة الكفاءة، ونابغة، ومحنكة لتكون رئيسة؟ لكان ذلك بالغ التهديد. لقد خُربت مساعيها في كل منعطف من لدن رجال بيض، وبعض النساء البيض، وكثير من الشباب. وتنبئنا السيكولوجية النسوية بأن هيلاري لم يكن يسعها إلا أن تكون مخطئة، إما

مفرطة في العدوانية أو مفرطة في السلبية، إما مفرطة في الشباب أو مفرطة في الكبر، إما مفرطة في الأنوثة أو مفرطة في الذكورة، إما مفرطة في الذكاء أو تفتقر إلى الذكاء. ولم يُتح لقرابة خمسين حولاً من عمل العدالة الاجتماعية أن يُقر بها وتُدعم علانية، جنباً إلى جنب مع حركة #أنا_أيضاً (#MeToo)، لتستحيل إلى مسألة مبارزة بين المشاهير، إلا بفضل المناصرة العلنية من لدن عدة مشاهير جميلات، ومحترمات، وناجحات. ولزامٌ على هذه الحركة أن تنمو وتمتد عبر الطبقات والإثنيات.

إن المواطنين الساعين للارتقاء، والنساء والرجال ذوي الضمائر الحية، والملونين، وذوي الإعاقة، ومجتمع الميم، والمهنيين المهمومين لَقَادِرُونَ على التآزر واستعادة عافية أمتنا. ولقد حُفزت نساء جمة للترشح للمناصب، وإن رُدَّت للبلاد عافيتها أو ارتقت، فسيكون ذلك إلى حد بعيد لأن النساء كن من القوة حين تآزرن ما مكنهن من دحر هؤلاء الرجال ذوي النوايا الأقل سلامة. وتجري مساعٍ للمقاومة المبتكرة لاستعادة بلادنا إلى اللياقة والعافية. وإن أولى مهامنا هي تطهير الفوضى السامة التي خلفها هؤلاء الرجال لئلا تتفشى. ولزامٌ علينا أن نفعل ذلك معاً. ويفتقر خبراء الصحة النفسية إلى دعم النساء والرجال ذوي الضمائر الحية، الأصحاء وذوي الإعاقة، المثليين والمغايرين، السود، والبيض، والسمر. إنه واجبنا

الأخلاقي، والمهني، والإنساني. ولزامٌ على خبراء الصحة النفسية أن يعملوا وقتاً إضافياً لتثقيف العوام، ولإنتاج أسفار كهذا وأدوات كـ "خريطة المعنى والاعتبار"، ولعلهم يلحون على العمل الجماعي والدعم الجماعي بأكثر مما هو مألوف. ولزامٌ على نساء جمة أن يستهللن العلاج فرادى ليدركن حتى أنهن يحزن هذه القوة، بيد أنه، عند منعطف حاسم ما، حري بنا أن نجتمع في جماعات للحد من الخزي والعزلة، في حين نعزز القوة الكامنة في الكثرة. والحق أن هذه الإدارة لَتُعِينُ على إماطة اللثام الذي وارى الفساد، والعنصرية، وكراهية النساء، والمكائد الرامية إلى استبدال السجن بالتعليم والوعي بضعف المحاكمة المعرفية بين الجماعات المحرومة، مقوضة بذلك سلطة الشعب.

وحين نتحدث عن الصحة النفسية، فإنني أقترح أن نستحضر السياق البدني والبيئي. فمثلاً، إن صحة العقل والدماغ لَمُتَرَابِطَتَانِ. ولقد اكتُشف حديثاً أن جهاز المناعة والجهاز الهضمي يلعبان دوراً كبيراً في الصحة النفسية عبر صلاتهما بالدماغ (دانتزر وآخرون ٢٠٠٨). ولزامٌ على النساء أن يلجن مواقف تنطوي على خطر محتمل كل يوم. فمجرد وقع خطوات رجل خلفك في الليل أو مصعد لا يضم سوى امرأة ورجل واحد هو شطر من ساحة الوغى للنساء. ويسعنا أن نكون مفرطات التيقظ في كل

حين، بيد أن هذا الضرب من المثير الضاغط للدماغ ليس صحة نفسية.
ويسعنا ألا نخرج إلا في وضح النهار، بيد أن هذا ليس صحة نفسية.
ويسعنا أن نتعلم القتال؛ ويسعنا أن نخرج بصحبة رجل. إن هذه قاطبة لَاسْتِرَاتِيجِيَّاتُ ساحة وغى للحروب غير المعلنة.

وبصفتنا خبراء في الصحة النفسية، يسعنا ولزامٌ علينا أن نصدع بالحق، إذ ثمة وباء من العنف، وكراهية النساء، والعنصرية في بلادنا، وإن مهنتنا لَهِيَ الأقدر على تبينه بجلاء. إننا نعالجه كل يوم إن كنا نزاول العلاج النفسي. ولزامٌ علينا أن نطلق نذير الخطر ونبذل العلاج، بيد أن لزاماً علينا أن نفعل المزيد داخل جدران العيادات الخاصة، كالإقرار والمساعدة في إماطة لثام الأكاذيب، ولزامٌ علينا أن نصدع بالحق خارج العيادات الخاصة، في حين نتدبر بعناية أخلاقياتنا المهنية والشخصية. ذلك هو دورنا في دحر الوباء.

وفي الوقت الراهن، يفتقر بعضنا إلى الراحة والاستشفاء للتأهب للمعركة القادمة. وحين يسع كل منا ذلك، فقد حان أوان النهوض ومواصلة النضال. ونفتقر إلى أن نذكر ألا نفرغ غضبنا وحزننا في أنفسنا أو في

بعضنا بعضاً. إننا نقف في الخندق عينه من الحروب غير المعلنة، ومعاً نحن أشد بأساً. فلو لم يبتغوا قهرنا، لما راموا تفريقنا. ولزامٌ على النساء، والملونين، ومجتمع الميم، وغيرهم أن يوحدوا صفوفهم ويقفوا شامخين ومعاً في صميم "خريطة المعنى والاعتبار" الخاصة بنا. ولزامٌ على الخبراء، خبراء الصحة النفسية، أن يقودوا المسير حين يسعنا ذلك وأن يشدوا من أزركم كما يسعنا لأن الأمر ذو شأن.

د. إلين أورام كاشاك، إحدى مؤسسات علم النفس النسوي. كانت ضمن هيئات التدريس في جامعة ولاية سان خوسيه منذ عام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف، والجامعة الوطنية وجامعة السلام، وكلتاهما في كوستاريكا، وكانت محررة مجلة "النساء والعلاج" من عام ستة وتسعين وتسعمائة وألف إلى عام سبعة عشر وألفين. وكاشاك هي الرئيسة السابقة لمعهد العلاج النسوي وزميلة في خمسة أقسام من الجمعية الأمريكية لعلم النفس. نالت جوائز عن كتابيها الرائدين، "حيوات مجندرة: سيكولوجية جديدة لتجربة النساء" (١٩٩٢) و"رؤية ما لا يُرى: النوع الاجتماعي والعرق عبر عيون عمياء" (٢٠١٥)، فضلاً عن جوائز جمة أخر، منها جائزة إنجاز العمر من قسم قضايا مجتمع الميم وجائزة المسيرة المهنية المتميزة من جمعية النساء في علم النفس.

علاقة القائد الكاريزمي بأتباعه وقاعدة ترامب

د. جيرولد إم. بوست

إن من أظهر سمات ظاهرة ترامب النفسية-السياسية لَهِيَ صلابة قاعدته. فلقد كان المرء ليظن أن أعتى مسالكه الاندفاعية وخطابه المتطرف لَخَلِيقَانِ بأن يلحقا أذى بليغاً بشعبيته، بيد أن استطلاعات الرأي ما انفكت تعكس دعماً يتراوح بين ٤٣ و٤٨ بالمائة. ولقد سطرتُ سالفاً عن السيكولوجية السياسية للرابطة بين القادة والأتباع. فإن شعور القائد بالقدرة الكلية المتعظمة لَيَسْتَهْوِي أتباعه المفتقرين استهواءً خاصاً.

وعلى النقيض من "الكاريزميين المرممين" الذين يبرئون جراح أمتهم، فإن السمة المميزة للقادة الكاريزميين المدمرين هي الخطاب الاستقطابي المطلق، الذي يحشد أتباعهم معاً ضد العدو الخارجي.

وإنني لأباين بين التابع المعافى نفسياً الذي أورثه الضغط المجتمعي افتقاراً مؤقتاً، وبين التابع المتعطش للمرآة الذي لا يستشعر الكمال إلا حين يندمج مع الآخر المُثَّل.

لم يلبِّ انتصار الثورة الإسلامية في إيران طموحات آية الله الخميني الخلاصية. فمدفوعاً بأحلام المجد، مضى آية الله الهرم بغير هوادة في السعي وراء غايته الكبرى المتمثلة في "أمة إسلامية متحدة" واحدة تحت إرشاده

(زونيس ١٩٨٥). وإن التحولات السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية الجذرية، والعنف والخراب الذي أطلقته الثورة من عقاله لَهِيَ شهادة حية على القوى العاتية التي يسع علاقات القائد الكاريزمي بأتباعه أن تستنفرها. وعلى النحو عينه،

صاغ أسامة بن لادن رابطة متينة مع أتباعه المغتربين، مما أفضى إلى الأحداث المروعة في الحادي عشر من سبتمبر عام ألفين وواحد. وإن الثورة الإسلامية، والإرهاب الإسلامي الراديكالي لتنظيم القاعدة، والآن رئاسة ترامب لَهِيَ مذكرات جلية بأن أمثال هذه العلاقات ما انفكت تلعب دوراً ذا بال، وغالباً ما يكون حاسماً، في الشؤون العالمية.

إنني لا أتحدث عن القادة الكاريزميين بل عن علاقات القائد الكاريزمي بأتباعه. وسأفيض القول في السيكولوجية السياسية لهذه الرابطة بين القادة والأتباع، رارماً تحديد جوانب مفصلية في سيكولوجية القائد والتي، كالمفتاح، تلائم وتشرع جوانب بعينها من سيكولوجية أتباعهم. وفي رسم معالم علاقة القفل والمفتاح هذه، سأنهل من الفهوم البازغة لسيكولوجية النرجسية.

حين طرح ماكس فيبر (١٩٢٢) مفهوم السلطة الكاريزمية أول مرة، تصدى لسيكولوجية الأتباع، بيد أنه فعل ذلك على نحو عابر فحسب. فقد اعتبر أن محدد العلاقة بين القائد الكاريزمي وأتباعه هو القوة القاهرة لشخصية القائد، والتي في مجابهتها كان الأتباع مجردين من الخيار جوهرياً واستشعروا دافعاً قهرياً للاتباع.

ولقد لاحظ إيرفين شيفر (١٩٧٣) أن المعلقين اللاحقين على ظاهرة السلطة الكاريزمية قد ركزوا هم أيضاً تركيزاً غير متناسب على جاذبية القائد، غافلين عن الملاحظة الجوهرية المتمثلة في أن القادة قاطبة—ولا سيما القادة الكاريزميين—هم في صميمهم صنيعة أتباعهم.

ولقد ألح على الخصال النفسية للأتباع التي تجعلهم عُرضة لسطوة القائد الكاريزمي وتفضي إلى نكوص جمعي، مسلطاً الضوء على الأفراد المجروحين نرجسياً وعلاقات القائد الكاريزمي بأتباعه.

وإن العلاقة بين ترامب وأشياعه المتشددين لَتُمَثِّلُ علاقة قائد كاريزمي بأتباعه، حيث تشرع جوانب من سيكولوجية القائد، كالمفتاح، جوانب من سيكولوجية أتباعه. وثمة فرضية قوية تخص سيكولوجية أتباع القادة الكاريزميين، والتي نوقشت في كتابي، "النرجسية والسياسة: أحلام المجد"

(٢٠١٤)، مفادها أنه "في أوقات الأزمات، ينكص الأفراد إلى حالة من القدرة الكلية المفوضة ويطالبون بزعيم ينتشلهم، ويرعاهم".

وحين سبر ماكس فيبر غور الظاهرة الكاريزمية أول مرة، ولى شطر عنايته نحو القادة الكاريزميين وقوة شخصياتهم. ولم يكد يقل شيئاً عن الأتباع. وفي دراستها للقادة الكاريزميين، "الساحرون" (١٩٨٤)، لاحظت روث آن ويلنر أن مفهوم الكاريزما قد أُسيء استخدامه ومُيع منذ أن طرحه فيبر (١٩٢٢) أول مرة.

والحق أن الإعلام غالباً ما يستخدم الكاريزما كمرادف للجاذبية الشعبية، في حين عرف فيبر السلطة الكاريزمية بأنها سلطة شخصية تنبع من "التكريس للقدسية المخصوصة، أو البطولة، أو الطبع النموذجي لشخص فرد وللأنماط المعيارية أو النظام الذي يجليه أو يشرعه". ولتفعيل المفهوم، استقرأت ويلنر الأدبيات الواسعة التي تتناول القيادة الكاريزمية.

وخلصت إلى التعريف الآتي: القيادة الكاريزمية هي علاقة بين قائد وجماعة من الأتباع تشترك في الخصال الأربع الآتية:

يُرى القائد من لدن الأتباع على أنه خارق للعادة بوجه من الوجوه؛

يوقن الأتباع إيقاناً أعمى بتصريحات القائد؛

يمتثل الأتباع امتثالاً غير مشروط لتوجيهات القائد بالعمل؛
يمنح الأتباع القائد دعماً وجدانياً غير مشروط.

بيد أنه، وكما لوحظ في مراجعتي لكتاب ويلنر، فإن هذه ليست خصالاً للقادة، بل للأتباع! إنها تمت بصلة لإدراك، أو معتقد، أو استجابة الأتباع. وتنبذ ويلنر بوصفها فرضيات مثيرة للاهتمام ولكنها غير مثبتة تلك التي تقول إنه "في أوقات الأزمات، ينكص الأفراد إلى حالة من القدرة الكلية المفوضة ويطالبون بزعيم (ينتشلهم، ويرعاهم)" وأن "الأفراد العُرضة لـ (الجاذبية المنومة لـ) القيادة الكاريزمية يحوزون هم أنفسهم بنى أنا (Ego) متشظية أو واهنة".

كما تنبذ ويلنر بوصفها مثيرة للاهتمام ولكنها غير مثبتة استكشافات شيفر (١٩٧٣) الرائدة للكاريزما، والتي لاحظ فيها بحدة أن "القائد هو صنيعة أتباعه". وفي حاشية مطولة، تشارك مناقشة ويلنر لشيفر الصحبة المرموقة لسيغموند فرويد وإريك إريكسون.

وفي تقديري، ثمة دعم قوي حقاً لهذه الفرضيات. فالعمل السريري مع الأفراد ذوي الباثولوجيا النرجسية، والدراسات المستفيضة للأفراد الذين ينضوون تحت لواء جماعات دينية كاريزمية، والملاحظات الدينامية

النفسية لظواهر الجماعة، كلها توفر دعماً مقنعاً لهذه الفرضيات المتعلقة بالتكوين النفسي واستجابات الأفراد العُرضة للقيادة الكاريزمية—قفل التابع لمفتاح القائد. وإن تشكل "الذات المجروحة" لَيُفْرِزُ نمطين من الشخصية يحوزان مآلات مخصوصة لدراستنا للعلاقات الكاريزمية.

ثمة مآلان لـ "الذات المجروحة": "الشخصية المتعطشة للمرآة" و"الشخصية المتعطشة للمثل الأعلى".

وأود أن أقترح أن هذين هما القالبان للشطرين المتكاملين من علاقة القائد الكاريزمي بأتباعه: القائد والتابع. الأول هو الشخصية "المتعطشة للمرآة". يحوز ترامب شخصية قائد متعطش للمرآة، يقتات على إعجاب أتباعه في علاقة القائد الكاريزمي بأتباعه التي يعقدها مع قاعدته.

وينبثق نمط الشخصية هذا من "الذات المجروحة"، التي تقتات واجهتها المتعظمة على الاستجابات المؤكدة والمعجبة لموازنة شعورهم الباطني بانعدام القيمة وافتقارهم إلى تقدير الذات.

ولتغذية ذاتهم الجائعة، يستشعر الفرد دافعاً قهرياً لعرض نفسه بغية استجلاب انتباه الآخرين. بيد أنه، ومهما بلغ حظهم من الانتباه الإيجابي، فإنهم لا يقنعون قط، وينشدون باطراد جماهير مستحدثة يسعهم

أن يتلقوا منها الانتباه والاعتراف المتصلين اللذين يتوقون إليهما. وإن هذه الحاجة المتصلة لانتباه مستحدث وأعظم هي ما حدت برجل الأعمال البارز ترامب إلى السعي باطراد وراء مكانة مشاهير مرموقة، والتي بلغت ذروتها في نهاية المطاف في برنامجه التلفزيوني الواقعي الناجح "المتدرب" (The Apprentice) بدءاً من عام أربعة وألفين. بيد أن الانتباه الذي حظي به من هذا البرنامج لم يسعه أن يشبعه، مما حدا به إلى التماس جمهور مستحدث بالترشح لرئاسة الولايات المتحدة.

وإن قطب الرحى في قدرة القادة المتعطشين للمرآة على استجلاب الإعجاب الذي يفتقرون إليه لَيَكْمُنُ في قدرتهم على بث شعور بالعظمة، والقدرة الكلية، والبأس. فالقادة أمثال ترامب الذين يبثون هذا الشعور بالقدرة الكلية المتعظمة يستهوون الأفراد الذين ينشدون مصادر بأس مُتَّلَة لأنهم يبثون شعوراً باليقين والقطع لأولئك الذين تنهشهم الشكوك والضبابية. ولقد تجلى هذا في دعم ترامب من لدن الناخبين البيض في الأغلب من الريف والطبقة العاملة، والذين تردد صدى شعار ترامب "لنجعل أمريكا عظيمة كَرَّةً أخرى" بقوة في نفوسهم. وعلى الرغم من افتقاره إلى أي سياسة عينية، فإن تغريداته المتعلقة بـ "وظائف، وظائف، وظائف" قد ترددت أصداؤها لدى كثير من أتباعه، ولا سيما أولئك الذين يكابدون ويستشعرون أن الإدارة السالفة قد تخلت عنهم.

وينجذب القادة الكاريزميون المتعطشون للمرآة إلى الحشود الغفيرة، حيث يغدو هدير الإعجاب موسيقى تطرب لها آذانهم. ولقد كان جلياً إبان الانتخابات مدى انتعاش ترامب بهتاف أتباعه باسمه في التجمعات الحاشدة. ولهذا العلة، حتى بعد انقضاء الانتخابات، ما انفك يعقد تجمعات هائلة في أرجاء البلاد، لأنه لا يزال يفتقر إلى تعبيرات الإعجاب من أتباعه كتعويض عن انعدام أمنه وشكه في ذاته.

ومن الأهمية بمكان أيضاً أن نلحظ أن هذه التجمعات كانت حيوية لأنصاره أيضاً. فثمة سمة من الانتشاء المتبادل لكلا الطرفين، حيث يطمئن ترامب أتباعه، وهم بدورهم يطمئنونه على قيمته الذاتية.

وإبان الحملة الانتخابية، أفلح ترامب في العزف على أوتار الخطاب القائم سلفاً لليمين البديل المنادي بالتفوق الأبيض في الولايات المتحدة. فتعليقاته المناهضة للأجانب، واللاتينيين، والمسلمين، والأمريكيين الأفارقة، والنساء، وطائفة من الجماعات الأخر تتسق مع الخطاب القائم لعدد من أحزاب اليمين البديل.

ولقد كانت أمثال هذه التعليقات هي ما أفضى إلى دعم واسع النطاق بين صفوف اليمين البديل، بما في ذلك جماعة كو كلوكس كلان (KKK). ولقد حظي ترامب بدعم من عدد من كبار أعضاء الجماعة، ومنهم الساحر الإمبراطوري الأسبق ديفيد ديوك والمتحدثة الحالية باسم حزب الفرسان، راشيل بندرجرافت.

ففي الثاني من نوفمبر عام ستة عشر وألفين، غردت بندرجرافت قائلة: "الصحيفة الرسمية لجماعة كو كلوكس كلان تناصر دونالد ترامب للرئاسة". وما انفكت الجماعة تناصر ترامب عبر برنامجها الإذاعي، "أخبار المقاومة البيضاء"، حيث يتهجم المضيفان (بمن فيهما بندرجرافت) أيضاً على كل من يعارض ترامب.

وبعد المؤتمر الصحفي الذي أعقب أحداث شارلوتسفيل، وبعد أن غدا ترامب مناصراً علنياً للنازيين الجدد والتفوق الأبيض، شكره ديفيد ديوك، الساحر الأكبر الأسبق للجماعة، علانية. وبعد الشغب المميت بين دعاة التفوق الأبيض والمحتجين على أفعالهم، لم يتبرأ ترامب من تطرف التفوق الأبيض بل صرح قائلاً: "ثمة أناس أخيار على كلا الجانبين"، وهو ما جلب له استهجاناً واسع النطاق.

أما النمط الثاني فهو الشخصية "المتعطشة للمثل الأعلى". فهؤلاء الأفراد لا يسعهم استشعار قيمتهم إلا ما داموا قادرين على الارتباط بأفراد يسعهم أن يعجبوا بهم لوجاهتهم، أو سطوتهم، أو جمالهم، أو ذكائهم، أو مكانتهم الأخلاقية. وإن الجاذبية المنومة للقائد الكاريزمي لَقَاهِرَةٌ للتابع المتعطش للمثل الأعلى. فالتابع المجروح يستشعر النقص في ذاته وينشد الارتباط بآخر مُثَّل.

ومن ثم، ثمة جاذبية عاتية، تكاد تكون كيميائية، بين القائد الكاريزمي المتعطش للمرآة والتابع الكاريزمي المتعطش للمثل الأعلى. ولئن كان ترامب ينتعش بالاستجابة المرآتية المتيمة لأتباعه، فإنه يوفر لهم شعوراً بالكمال. ولما كانوا ناقصين في ذواتهم، فإنهم يحوزون حاجة لا تنقضي للارتباط بآخر مُثَّل.

وأود أن أؤكد أنني يقيناً لا ألمح البتة إلى أن أولئك الذين اقترعوا لدونالد ترامب قاطبة هم أفراد مجروحون نرجسياً. فظاهرة علاقة القائد الكاريزمي بأتباعه لَأَعْقَدُ من أن تُختزل في أنموذج نفسي شامل أوحد. وإن من أظهر سمات ظاهرة ترامب لَهِيَ استقرار أتباعه وقوتهم النفسية.

بيد أنني، في مسعاي لفقه جلد أتباع ترامب وصميم قاعدته، أقترح أن شخصية ترامب السياسية تستهوي استهواءً خاصاً الأفراد المجروحين الذين

ينشدون قيادة خارجية وأن ترامب موهوب على وجه الخصوص في استهواء الأفراد الذين ينشدون منقذاً بطلاً.

وأوقن أن عناصر من الانتقالات النرجسية التي وُصفت للتو حاضرة في علاقات القائد الكاريزمي بأتباعه قاطبة، وفي بعض علاقات القائد الكاريزمي بأتباعه تكون محددات حاسمة.

وفي لحظات الأزمات المجتمعية، قد ينتهي المطاف بأفراد ناضجين وأصحاء نفسياً بخلاف ذلك إلى استشعار القهر مؤقتاً والحاجة إلى قائد قوي وواثق من نفسه، منقذ بطل. ولنتدبر كيف استجاب الشعب البريطاني المقهور إبان الغارات الجوية للقيادة الكاريزمية الفذة لوينستون تشرشل. بيد أنه بعد أن انقضت أوزار الحرب، وحين لم يعد الشعب البريطاني يفتقر إلى منقذ وعاد إلى اكتفائه الذاتي المعهود، ألقوا بتشرشل في مزبلة التاريخ. وحين طمأن ترامب وست فرجينيا بأن تعدين الفحم سيعود، كان يبعث برسالة إنقاذ إلى كتلة اجتماعية واقتصادية كانت مقهورة مؤقتاً وتفتقر إلى منقذ قوي.

وإن قطب الرحى في قدرة القادة المتعطشين للمرآة على استجلاب الإعجاب الذي يفتقرون إليه لَيَكْمُنُ في قدرتهم على بث شعور بالعظمة، والقدرة الكلية، والبأس.

وإن هؤلاء الأفراد الذين استُيقظت في نفوسهم مشاعر القدرة الكلية المتعظمة لَيَسْتَهْوُونَ استهواءً خاصاً الأفراد الذين ينشدون مصادر بأس مُثَّلَة. ولفرط عمق الشك الباطني، تغدو جبهة من اليقين الدوغمائي ضرورة لدرئه. فبالنسبة لهم، فإن الحفاظ على مشاعر البأس والمعرفة المطلقة المتعظمة لا يذر متسعاً لتعبيرات الوهن والشك. وإن آلية الانشطار، التي أشرنا إليها سالفاً، لَذَاتُ أهمية مركزية في الحفاظ على وهمهم. فثمة أنا واللا-أنا، الخير في مواجهة الشر، البأس في مواجهة الوهن. وإن تحليل خطب القادة الكاريزميين لَيُجْلِي مراراً وتكراراً مثل هذه المطلقية القطبية القائمة على كل شيء أو لا شيء.

لقد وسم آية الله الخميني الولايات المتحدة بأنها "الشيطان الأكبر". ولئن كان من التكتيكات السياسية المألوفة السعي لتوحيد الشعب ضد عدو خارجي، فإن خطاب الاستقطاب يبلغ أوج فاعليته حين يُوقن يقيناً مطلقاً، كما في حالة هتلر، بأنهم مصدر الخطب، وأنهم أشرار، وأن استئصالهم هو استئصال لخطوبنا.

ولقد لاحظت فيليس غرينيكر أنه لكي يكون المرء كاريزمياً بفاعلية، فإنه لَمِنَ الأصول العظيمة أن يحوز يقيناً ارتيابياً (بارانوياً). ولئن لم تكن ثمة صلة حتمية بين الكاريزما والارتياب، فإنه حين يقترنان، تقع بعض أفظع تجاوزات العنف البشري روعاً في التاريخ (روبينز ١٩٨٤).

وإن هيئة اليقين المطلق للقائد لَتَسْتَهْوِي أيما استهواء من تحاصره الشكوك. والحق أن هذه الهيئة ضرورية لدرء الشك الباطني للقائد أيضاً. وفي إحدى أواخر مقالاته، شرع كوهوت (١٩٨٤) في تدارس مآلات سيكولوجية الذات على سيكولوجية الجماعة والظواهر التاريخية. فأوجز خصال الفرد الأوفق ليغدو الأنموذج الكلي القدرة والمُعجب به، ملاحظاً أن "أنماطاً بعينها من الأشخاص المثبتين نرجسياً (والذين يتاخمون حتى الارتياب)... يُظهرون ثقة بالنفس تبدو عصية على التزلزل ويجهرون بآرائهم بيقين مطلق... وإن حفاظ أمثال هؤلاء الأفراد على تقديرهم لذواتهم لَيَنْهَضُ على الاستخدام المتصل لوظائف عقلية بعينها... فهم لا يفتأون يحكمون على الآخرين—وغالباً ما يشيرون إلى النقائص الأخلاقية في شخصيات الآخرين ومسالكهم—وبغير خزي أو تردد، ينصبون أنفسهم مرشدين، وقادة، وآلهة لأولئك الذين يفتقرون إلى الإرشاد، والقيادة، وهدف لتبجيلهم".

والحق أن درجة الصلاح الأخلاقي غالباً ما تكون استثنائية غاية الاستثناء. ويمضي كوهوت ليلاحظ أن التوازن النفسي لأمثال هؤلاء القادة الكاريزميين هو من "طراز كل شيء أو لا شيء: فليس ثمة إمكانات بقاء بين قطبي الحزم والبأس المطلقين من جهة، والدمار المطلق من جهة أخرى".

ومن الأهمية بمكان أن نؤكد كَرَّةً أخرى أن أمثال هؤلاء الأفراد قد تبرأوا من كل الوهن والنقائص المرفوضة في دخائل نفوسهم وأسقطوها على البيئة.

فبالنسبة للقائد الكاريزمي ذي الخصال الارتيابية الذي يسقط عدواناً باطنياً، يغدو الخطاب هو الأساس لتسويغ مهاجمة العدو الخارجي.

وثمة سمة من الانتشاء المتبادل في تطمين القائد لأتباعه الذين يطمئنونه بدورهم. وإن هذا لَيَتَجَلَّى بقوة في تجمعات ترامب.

ولقد شبه مراقبو الوقع الآسر لهتلر على أتباعه في التجمعات الحاشدة إياه بنوم مغناطيسي أوقع جمهوره بأسره في غشية. فحتى أولئك الحاضرون في التجمعات ممن لم يفقهوا الألمانية قد وصفوا أنفسهم بأنهم وقعوا تحت سطوته المنومة. وأعجب ما في الأمر، أنه تنويم مغناطيسي ذاتي أيضاً، إذ يبدو أن هتلر نفسه كان يلج حالة غشية، مأخوذاً بالاستجابات المنتشية

لأتباعه المأخوذين. بيد أن سطوة المنوم المغناطيسي ترتهن في نهاية المطاف بلهفة خاضعيه للإذعان لسلطته، والتنازل عن السيطرة على استقلاليتهم، وتسليم إرادتهم لسلطة المنوم المغناطيسي.

وحتى في أهدأ الأوقات، تتبلور علاقات القائد الكاريزمي بأتباعه.

فما هي خصال الأتباع المتعطشين للمثل الأعلى؟ إن الأذى الذي يلحق بمفهوم الذات إبان التطور في الطفولة المبكرة لَيَذَرُ الفرد مكلوم النفسية أبد الدهر، مع حاجة لا تنقضي للارتباط بآخر قوي وعطوف. ولما كانوا ناقصين في ذواتهم، فإن أمثال هؤلاء الأفراد لا يسعهم استشعار الكمال إلا حين يكونون في علاقة، أو ارتباط، أو اندماج مع هذا الآخر المُثَّل.

ويهب القائد الكاريزمي للإنقاذ النفسي للأتباع المتعطشين للمثل الأعلى. وباتخاذه أبعاداً بطولية وتجسيده لما يبتغي الأتباع أن يكونوا عليه، فإنه يقيهم من مجابهة أنفسهم وقصورهم واغترابهم الجوهريين.

ويغدو نجاح القائد نجاحاً للتابع، وسلوى لتقديرهم لذواتهم. وتؤكد دراسات جالانتر (١٩٧٨) للجماعات الدينية الكاريزمية الفرضية القائلة بأن الأفراد المجروحين نرجسياً يستهوون استهواءً خاصاً بعلاقات القائد الكاريزمي بأتباعه. فبالنسبة لكنيسة التوحيد، كلما كان الأفراد أشد وحدة

وعزلة قُبيل الانضمام، كانوا أشد ميلاً للانضواء والبقاء طيلة سيرورة التجنيد بأسرها.

ومالوا إلى تعليق الحكم الفردي واتباع إملاءات القائد بغير مساءلة.

وعلاوة على ذلك، كلما عظم السلوى النفسي الذي كابدوه عند الانضمام، قل احتمال مساءلة الفرد لمطلب القائد بأفعال ومسالك تتنافر مع تنشئتهم الاجتماعية.

وتولي جماعة التبعية وجهها شطر قائد كلي القدرة التماساً للأمن. وبتصرفهم وكأنهم لا يحوزون عقولاً مستقلة خاصة بهم، ينشد الأعضاء التوجيهات بغير تبصر ويتبعون الأوامر بغير مساءلة. وفي جماعة التزاوج، يتصرف الأعضاء وكأن غاية الجماعة هي إنجاب مسيح، شخص سينقذهم. وثمة مسحة من التفاؤل والأمل بأن عالماً مستحدثاً يلوح في الأفق. أما الجماعة القائمة على الخوف، "الكر أو الفر"، فتنظم نفسها في علاقة بتهديد خارجي متوهم.

وتُمَثَّلُ الجماعة ذاتها كشطر من آلية استقطاب، في حين تُرى الجماعة الخارجية باطراد على أنها خبيثة الدوافع. وإن العالم الخارجي المهدد لَهُوَ في آن تهديد لوجود الجماعة، وتسويغ لوجودها أيضاً.

وبالنسبة للأفراد المغتربين والمهمشين، الذين يميلون إلى إضفاء طابع خارجي على مصدر إخفاقاتهم—بالنسبة للأفراد المجروحين نرجسياً والمتعطشين للمثل الأعلى (كوهوت ١٩٧٧، ١٩٧٨)—فإن الجاذبية النفسية لهذه الحالات لَقَاهِرَةٌ. فحين يحاصر المرء الخوف والشك، يغدو من الجاذبية بمكان أن يسعه تعليق الحكم الفردي وإيداع إيمانه في قيادة شخص يبث بيقين وقطع أنه يحوز الإجابات، وأنه يعلم الدرب، سواء أكان القس مون أو القس جيم جونز، أو أسامة بن لادن، أو أدولف هتلر، أو آية الله الخميني.

ولا سيما عبر الاستخدام الماهر للخطاب، فإنه يقنع جمهوره المفتقر: "اتبعوني وسأرعاكم. معاً يسعنا أن نصنع بداية مستحدثة ونخلق مجتمعاً مستحدثاً. إن الزلل ليس فينا بل في الخارج، وإن الحاجز الأوحد دون السعادة، والسلام، والرخاء الذي نستحقه هو العدو الخارجي الذي يروم تدميرنا".

وثمة مكافأة للتابع المحتمل الذي تغويه أغنية الحورية لقوة القائد ويقينه تأتي من الوعد: "انضم إلى أتباعي ولن تكون وحيداً بعد الآن". ويستمد هؤلاء الأتباع القوة من مشاطرة ولائهم مع الآخرين؛ وتغدو هوية التابع وسام شرف، وإعلاناً بالعضوية في ذات جمعية. وباندماجهم مع الآخر الجمعي، يغدو نجاح الأتباع نجاحهم.

وبالنسبة للأفراد المعزولين ذوي التقدير الذاتي المكلوم وحدود الأنا الواهنة، فإن الشعور بـ "نحن" يخلق ويضفي شعوراً متماسكاً بالهوية. فبالنسبة لأمثال هؤلاء الأفراد، تلتحم الذات والـ "نحن" بحيث تُكابد الذات بوصفها العلاقة. ويميلون إلى دمج أنفسهم مع الجماعة. وتُثَّلُ الجماعة وتتولى معايير الجماعة، كما يصوغها القائد وحواريوه، زمام الأمور وتغدو هي العرف.

وهذا يعين على تفسير الدرجة المذهلة التي يسع الأفراد بها تعليق معاييرهم وحكمهم الخاص والانخراط في أعتى الأفعال عنفاً حين يكونون تحت سطوة سيكولوجية الجماعة إن أُقنعوا بأن قضية الجماعة تُخدم بأفعالهم. بل إن أبدأ الحاجات البشرية—الدافع لحفظ الذات—يسعها أن تُعلق في خدمة الجماعة، كما تجلى بروع في ظاهرة جونزتاون.

وستظل القاعدة هي صميم دعم ترامب ما دام الخطاب الخارجي والحلول التي يوفرها ترامب ما انفكت تبذل السلوى لأتباعه المجروحين. ولئن كان ثلثا الأمريكيين الذين استطلعت شبكة سي إن إن آراءهم قد عارضوا سياسة ترامب لفصل العائلات، فإن ٥٨ بالمائة ممن صنفوا أنفسهم جمهوريين قد ناصروها. والأهم من ذلك، أن نسبة الناخبين الذين صنفوا أنفسهم جمهوريين في استطلاعات غالوب آخذة في الانكماش، من ٣٢,٧

بالمائة قُبيل الانتخابات إلى ٢٨,٦ بالمائة مؤخراً. بيد أن صلابة قاعدة ترامب ستظل توفر أرضية دعم يُركن إليها للرئيس ترامب.

د. جيرولد إم. بوست، أستاذ الطب النفسي، وعلم النفس السياسي، والشؤون الدولية ومدير برنامج علم النفس السياسي في جامعة جورج واشنطن. أمضى الدكتور بوست مسيرة مهنية امتدت لإحدى وعشرين سنة مع وكالة الاستخبارات المركزية، حيث أسس وأدار مركز تحليل الشخصية والسلوك السياسي. وهو حائز على جوائز جمة ومؤلف مشارك لكتابي "حين يلم المرض بالقائد" (١٩٩٣) و"الارتياب السياسي" (١٩٩٧). وهو مؤلف "التقييم النفسي للقادة السياسيين" (٢٠٠٣) و"القادة وأتباعهم في عالم خطر" (٢٠٠٤). وبعد غزو الكويت، برز ملف الدكتور بوست عن صدام حسين بقوة في وسائل الإعلام. وسيكون كتابه القادم، "النرجسي المثالي"، عن دونالد ترامب.

القسم الخامس
بقاء البشرية وبقياها :
أسطورة الحرب النووية
د. جيمس آر. ميريكانغاس، مع د. ترنم إم. لطيف

"يقول قومٌ إن العالم سينقضي في لُجج النار،
ويقول آخرون في زمهرير الجليد."
— روبرت فروست

وكما يتبين، فإن كلا الرأيين صائب. أنا طبيب نفسي عصبي أحوز من الخبرة ثمانية وأربعين حولاً في علاج المرضى المبتلين بخطوب عصبية ونفسية. ولقد عاينت علامات جمة على اضطراب وجداني وفكري في دونالد ترامب وألححت على خضوعه لتقييم للأهلية. كما أنني شهدت انفجاراً نووياً وعاينت ويلات الحرب رأي العين. ولهذه العلة، أستشعر دافعاً قهرياً لتسطير هذا الفصل لأُنبئ القراء بأن امرءاً كدونالد ترامب لا ينبغي له قط أن يضع إصبعه على الزناد—لأن العالم سلفاً قاب قوسين أو أدنى من شفا الفناء.

في عام واحد وأربعين وتسعمائة وألف، كنت رضيعاً أُجلي من القاعدة العسكرية الأمريكية في قلعة جزيرة كوريجيدور الفلبينية جنباً إلى جنب مع الجنرال ماكارثر، وهو العام الذي قصف فيه اليابانيون بيرل هاربر. كان أبي طبيباً قاد مستشفى في أوروبا إبان الحرب العالمية الثانية.

وعشت في ألمانيا غداة الحرب، حيث أبصرت الدمار الهائل للمدن جراء القصف المتعمد للمدنيين.

ومن ثم، فمنذ نعومة أظفاري، كنت على بينة من أهوال الحرب. ولجت الجامعة بمنحة دراسية تامة التكاليف بفضل فيلق تدريب ضباط الاحتياط البحري، وغداة التخرج، بدرجة في الفيزياء، التحقت بمدرسة الصواريخ الموجهة التابعة للبحرية الأمريكية وخدمت كضابط تحميل أسلحة نووية على متن حاملة طائرات في المحيط الهادئ.

وواقفاً على سطح الطيران لسفينتي في التاسع من يوليو عام اثنين وستين وتسعمائة وألف، شهدت انفجار قنبلة هيدروجينية بقوة ١,٤ ميغاطن على ارتفاع ٢٥٠ ميلاً فوق جزيرة جونستون في المحيط الهادئ، وهو آخر اختبار فوق الأرض لسلاح خاص. كانت هذه القنبلة أشد بأساً بخمسة آلاف مرة من تلك التي أُلقيت على ناغازاكي، باليابان، في ختام الحرب

العالمية الثانية. ورُئي الانفجار من على بعد بلغ هاواي، على مسافة تسعمائة ميل. وعطل النبض الكهرومغناطيسي الاتصالات اللاسلكية في منطقة المحيط الهادئ بأسرها وأطفأ ثلاثمائة مصباح شارع في هاواي. وأنار الضوء الأخضر الشفقي الذي ولدته الجسيمات النووية السماء المظلمة لتسعين دقيقة (ويكيبيديا، "ستارفيش برايم"). ولقد تملكني الروع في صمت انفجار في الفضاء الخارجي وتخيلت ما كان ليقع لو أن تلك القنبلة كانت أدنى من سطح الأرض.

وفي العام عينه، كنت في مضيق فورموزا إبان أزمة الصواريخ الكوبية. كانت سفينتي على أهبة الاستعداد وطائراتنا الهجومية النفاثة محملة بالقنابل النووية. كنا متأهبين لإبادة الصين لأنهم كانوا شيوعيين، على الرغم من أن روسيا كانت هي الخصم.

ولحسن الحظ، تراجع نيكيتا خروتشوف تحت وطأة التهديد بالفناء النووي.

والآن، تحمل كل طائرة من طائراتنا المقاتلة القاذفة قوة تفجيرية تفوق القنابل قاطبة التي أُلقيت في الحرب العالمية الثانية. وطائراتنا المحملة بالأسلحة النووية متأهبة للإقلاع أو تحلق متأهبة لتدمير أهدافها المحددة.

وصوامع صواريخنا الباليستية العابرة للقارات (ICBM) وغواصاتنا المزودة بصواريخ بولاريس متأهبة للإطلاق رهن الإشارة. قنبلة واحدة يسعها أن تمحو مدينة كنيويورك، أو واشنطن، أو موسكو.

إننا نحوز الآلاف من أمثال هذه القنابل، وروسيا، والصين، والهند، وباكستان، والمملكة المتحدة، وفرنسا، وكوريا الشمالية تحوز قنابلها. ويُقال إن إسرائيل تحوز أسلحة نووية، بيد أنهم قد يقنعون بجعل الناس يظنون أنهم يفعلون. فهم لم يوقعوا قط على معاهدة حظر الانتشار ولم يذعنوا قط لعمليات التفتيش.

ولقد منحتهم الولايات المتحدة طائرات قادرة على إيصال القنابل وأذنت بـ "سرقة" اليورانيوم أو البلوتونيوم الانشطاري من مصنع في أبولو في بنسلفانيا عام خمسة وستين وتسعمائة وألف. وإن التهديد بانتحار على غرار ماسادا من لدن إسرائيل إن هي غُزيت أو قُصفت لَهُوَ حقيقة تبعث على الروع. وإيران لا تحوز أسلحة نووية.

وجنوب أفريقيا حازت ستة رؤوس حربية بيد أنها فككتها حين انقضى الفصل العنصري. وأوكرانيا، وبيلاروسيا، وكازاخستان حازت أسلحة بيد أنها تخلت عنها مع سقوط الستار الحديدي. وعلى أية حال، ثمة من القنابل النووية ما يفيض عن الحاجة لتدمير الحضارة.

ويقدر اتحاد العلماء الأمريكيين أن ثمة ١٤,٠٠٠ سلاح نووي في الوقت الراهن، انخفاضاً من ٧٠,٠٠٠ في ذروة الحرب الباردة. ولا يفتقر المرء إلى صواريخ كروز، أو طائرات، أو صواريخ باليستية عابرة للقارات لإيصال قنبلة. فأي سفينة حاويات يسعها أن تبحر إلى ميناء وتمحو مدينة دون أن يعلم أحد من أين أتت. ولقد أثارت الاستثمارات المتجددة من لدن الصين، وروسيا، والهند، وباكستان نذر الخطر حتى مع تقدم برنامج الأسلحة النووية لكوريا الشمالية. وفي خطابه عن حالة الاتحاد لعام ثمانية عشر وألفين، قال الرئيس ترامب إن سعي كوريا الشمالية لحيازة أسلحة نووية يتهدد برنا الرئيسي. وكل بلد يستميت الآن لحيازة أسلحة نووية إنما يفعل ذلك لأنه يسع البلدان التي تحوزها أن تتهدده. وإن احتمالية الثأر بالمثل وحدها هي ما يدرأ قهر الأمم الأصغر.

وتسوق زميلتي الدكتورة تارا لطيف، والتي، كشأني، تستشير في المعهد الوطني للصحة النفسية، رواية تبعث على الرصانة عن العيش تحت وطأة التهديد بحرب نووية في الهند. لقد فجرت الهند جهازاً نووياً في عام أربعة وسبعين وتسعمائة وألف. وفي عام ثمانية وتسعين وتسعمائة وألف، فجرت باكستان ستة أجهزة نووية.

ومن عام ستة وأربعين وتسعمائة وألف إلى عام اثني عشر وألفين، تلقت الهند ٦٥ مليار دولار من المساعدات الخارجية الأمريكية، وأقل من

مليار دولار من المساعدات العسكرية، في حين تلقت باكستان ٤٥ مليار دولار من المساعدات الاقتصادية وقرابة ١٣ مليار دولار من المساعدات العسكرية. وعلى النقيض من ذلك، تلقت إسرائيل، علاوة على ٦٥ مليار دولار من المساعدات الاقتصادية، ١٣٤ مليار دولار من المساعدات العسكرية. ولقد تلقت إسرائيل على أساس نصيب الفرد مائة ضعف ما تلقته الهند.

ولقد أيقنت الدكتورة لطيف، التي هاجرت وهي في الثامنة عشرة من عمرها من الهند التماساً لحرية التعبير، والمساواة بين الجنسين، والحق في الجهر برأيها بغض الطرف عن رضا العائلة، أو الطبقة الاجتماعية، أو المرتبة الطائفية، موقنة بأنه يسعها التعويل على الكدح بدلاً من اسم العائلة والقوة الفردية بدلاً من الصلة الاجتماعية، أيقنت أبداً أنها قد بلغت بقعة أفضل ومجتمعاً أشد ارتقاءً. حتى حل عام ستة عشر وألفين. فلم يعد الساسة المتجردون من المبادئ والفساد الذي عصف بمسقط رأسها يبدو بعيداً جداً بعد الآن. وبدا أن مكانة أمريكا كقائد للفكر العقلاني وحافظ للسلام قد استحالت إلى ذكرى غابرة.

لقد تملكها الروع مما قد يعنيه الخلل العقلي لرئيسنا لآفاق حرب نووية في جنوب آسيا وشبه القارة الهندية. لطالما كان وجود الأسلحة النووية في جنوب آسيا موضع قلق دولي بالغ، ولا سيما في ضوء التناحر الطويل، والمعذب، والدموي بين الهند وباكستان. لقد كان تقسيم المستعمرة البريطانية للهند في عام سبعة وأربعين وتسعمائة وألف إلى الهند وباكستان حمام دم من العنف الهندوسي المسلم، أودى بحياة قرابة مليون امرئ وهجر قرابة ١٥ مليوناً، مع تعهد الأمتين المستحدثتين بإبقاء نيران عدائهما متأججة. وفي خضم هذه العلاقة المتوترة، أبت الأمتان الانضواء تحت لواء نظام حظر الانتشار الدولي.

وفي السنين الأحدث، أظهرت كل من نيودلهي وإسلام أباد بصيصاً من التفاعل العقلاني وخطوات متناهية الصغر نحو السلام (تشو ٢٠١٦). وفي هذا التوازن المحفوف بالمخاطر، كان المرء ليرحب أيما ترحيب بدبلوماسية أمريكا وقيادتها، بيد أننا بدلاً من ذلك نلفي أنفسنا مع زعيم يسعه أن يهذي برعونة ويتحالف مع الأحزاب القومية في أي من البلدين إن كان موقفها يوافق رضاه الشخصي.

وإنه لَمِمَّا يبعث على الروع أن نعلم أنه ليس المواطنون الأمريكيون وحدهم من يُضطرون إلى احتمال سلوك الرئيس المتخبط، بل إنه في حقيقة الأمر يسعه أن يعرض حيوات الملايين للخطر على شواطئ أجنبية

حيث بالكاد تُكبح الأسلحة النووية وتقبع تحت رحمة قادة غالباً ما يكونون فاسدين.

وغداة حرب نووية، ستغدو الأرض أشد إشعاعاً من أن تُسكن، وسيستحيل الماء غير صالح للشرب. وفي غياهب الشتاء النووي، لن تنبت المحاصيل.

لقد طوت الحرب العالمية الثانية صفحة قواعد الحرب الإنسانية التي رامت قصر القتال على الجنود والبحارة، حقناً لدماء المدنيين وغير المقاتلين (اتفاقيات جنيف ولاهاي). وإن قصف المصانع ووسائل الإنتاج قد أفضى لا محالة إلى قصف المراكز السكانية بغية إضعاف العدو وتثبيط همته. ففي فبراير من عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، قُصفت دريسدن، بألمانيا، بالقنابل الحارقة، وفي مارس من عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، أحالت القنابل الحارقة الأمريكية ١٠٠,٠٠٠ مواطن من طوكيو إلى رماد. وفي أغسطس من عام خمسة وأربعين وتسعمائة وألف، ألقيت الولايات المتحدة قنابل ذرية على هيروشيما وناغازاكي.

وإن القنبلة الذرية البالغة قوتها واحداً وعشرين كيلوطناً والتي محت ناغازاكي، وهي مدينة يقطنها نصف مليون امرئ، قد أودت بحياة قرابة

١٠٠,٠٠٠ من الرجال، والنساء، والأطفال الأبرياء، بيد أنها لم تقتل سوى ١٥٠ جندياً. وإن أحد المعروضات التي لا تُنسى في متحف القنبلة الذرية في ناغازاكي، باليابان، لَهُوَ يد بشرية التحمت في زجاج زجاجة كوكاكولا، صهرتها الحرارة المهيبة للانفجار.

إن وميض الانفجار الذري لَصَامِتٌ. فموجة من الحرارة والإشعاع تبخر وتحرق، ثم تضرب موجة الانفجار العاتية وتدمر البنى وكل ما هو قائم. وإن سحابة الغبار المشع التي تعقب ذلك لَتَتَفَشَّى عبر الغلاف الجوي فوق الأرض لتسمم أهدافاً غير مقصودة لآلاف السنين (ميليتاري ٢٠١٨).

ليس للأسلحة النووية من نفع تكتيكي سوى القتل الجماعي. فليس ثمة ما يُدعى "ضربة جراحية"، أو "لكمة في الأنف"، حين يتعلق الأمر بالأسلحة النووية. وإن فكرة أن امرءاً واحداً، مهما بلغ من الذكاء أو العقلانية، يسعه أن يطلق العنان منفرداً لآلة يوم القيامة لَهِيَ في حد ذاتها ضرب من الجنون. إبان الحرب الباردة، طرح الرئيس دوايت أيزنهاور، وهو الجنرال الأسبق الذي قاد قوات الحلفاء للظفر بالحرب في أوروبا، وآخرون، خطة "الانتقام الشامل"، أو التدمير المتبادل المؤكد، رداً على هجوم نووي على بلادنا أو حلفائنا في الناتو.

ولقد قُصد بهذه الخطة ردع حرب نووية، بيد أنها واأسفاه قد فاقمت من الخطر. وفي بادئ الأمر، أُعلنت سياسة "عدم توجيه الضربة الأولى"، ناصة على أن الأسلحة النووية لن تُستخدم إلا للدفاع عن النفس. واأسفاه، لقد كان ذلك محض خيال. وكان ثمة خيال آخر يتمثل في فكرة أن الرئيس وحده يسعه شن هجوم نووي بالشفرات القابعة في الحقيبة التي يحملها ضابط عسكري أينما حل وارتحل. فتلك "الكرة" الأيقونية هي ما يسعه أن يبعث بالإشارة إلى الطائرات، والصوامع تحت الأرض، والغواصات الحاملة لصواريخ بولاريس لإطلاق آلاف الرؤوس الحربية إلى مدن في أرجاء روسيا والصين.

ولن تُباد القواعد العسكرية ومواقع الإطلاق فحسب، بل ستُسحق مدن تغص بالمدنيين. وسيلقى شطر سكان روسيا والصين حتفهم في التو واللحظة، وسيقضي شطر الناجين نحبهم رويداً رويداً جراء الإشعاع والمجاعة (إلسبرغ ٢٠١٧). وفي حقيقة الأمر، لقد فُوضت سلطة إشعال حرب نووية لضباط أدنى رتبة تحسباً لمحو واشنطن قبل أن يتسنى بعث الإشارة، أو إن تعذر النفاذ إلى روابط الاتصال وشفرات التأكيد.

واأسفاه، يسع اختراق أنساق أسلحتنا، بحسب مكتب المساءلة الحكومية في تقرير سري رُفع إلى الكونغرس (GAO 2018). فلعل مخترقاً ما يطلق ترسانتنا النووية نيابة عنا.

ومما يزيد الطين بلة، أن وزارة الدفاع قد أنهت بخفاء سياسة "عدم توجيه الضربة الأولى" وباتت تناصر الآن استخدام أسلحة نووية أصغر (بحجم تلك التي محت هيروشيما وناغازاكي)، لا في سبيل الانتقام، بل كبديل للأسلحة التقليدية (مكتب وزير الدفاع ٢٠١٨). وإن سلاحاً نووياً "صغيراً" لَيَسَعُهُ مع ذلك أن يحيل مدينة بأسرها وقاطنيها قاطبة إلى رماد.

وفي الحادي والعشرين من أكتوبر عام ثمانية عشر وألفين، أعلن الرئيس ترامب عزمه على الانسحاب من معاهدة القوى النووية متوسطة المدى التي وقعها الرئيس ريغان مع روسيا في ختام الحرب الباردة في عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف. وإن هذا لَيُتِيحُ تطوير صواريخ تُطلق من الأرض بمدى يتراوح بين ٣١٠ و٣,٤٠٠ ميل لتهديد روسيا من أي صقع في أوروبا، مما يكفل حشداً للصواريخ النووية الروسية لمجابهة تهديدنا (بي بي سي ٢٠١٨).

إن الرئيس، الذي يضطلع بالمسؤولية القصوى عن استخدام أعتى الأسلحة تدميراً في تاريخ العالم، والذي يحوز القدرة الأوحدة على قتل ملايين البشر في طرفة عين، لم يتلقَّ سوى فحص معرفي يسير لعشر دقائق. هذا، على الرغم من الشواهد الدامغة على الحاجة إلى تقييم حالته النفسية العصبية كرجل يبلغ من العمر اثنين وسبعين عاماً أظهر تدهوراً

جلياً في حالته العقلية. وإن الرصد المتصل لخطابه وسلوكه في التسجيلات المرئية وتغريداته التي لا تنقطع لَيُوَفِّرُ معطيات وافية تبعث على القلق فضلاً عن منحنا تحديثات لحظة بلحظة عن حالته.

ولقد كانت بعض مسالكه المرصودة هي تهجماته على الحقيقة والصحافة. وإن التهجمات على الصحافة لَيَسَعُ أن تُقرن باعتداء على الواقع—وهو غالباً علامة على انهيار عقلي.

مقترنةً بتغريداته التي تزداد تخبطاً، فضلاً عن الأكاذيب التحريضية والهذيانات في تجمعات تغص بأنصار مصطفين، فإن هذه تزيد من الشواهد على اضطراب عقلي يقتضي تقييماً نفسياً عصبياً. وإن إجماع آلاف من خبراء الصحة النفسية (dangerouscase.org) لَيَنْعَقِدُ على أن شفرات الإطلاق النووي لا ينبغي أن تقبع في يدي امرئ يُرجح أن يكابد قصوراً عقلياً.

ولما كان من المستبعد أن يُوافق على فحص عصبي مباشر مع اختبارات نفسية، ففي أدنى تقدير يسع إجراء فحص للمخدرات بنهج غير جراحي، وهو إجراء مألوف لمهن أخر محفوفة بالمخاطر.

وإن المواد المرجحة التي تقترن بخطاب مضغوط ومفتقر إلى الكوابح لَتَشْتَمِلُ على منشطات كالأمفيتامينات أو الكوكايين، أو حتى الكافيين

المفرط (دايت كوك). وإن التعديل الخامس والعشرين للدستور لَيُوَفِّرُ السبيل لعزل رئيس "غير لائق" من منصبه، بيد أن التعريف والسيرورة لا يسعهما أن يدرآ مجنوناً من إشعال حرب.

وبحسب برنامج موثوقية أفراد الأسلحة النووية (PRP، 25 مايو ١٩٩٣)، فقد أرست وزارة الدفاع إجراءات واحتياطات معقولة لكفالة أن الأفراد الذين قد يتسببون في تسليح أو إطلاق سلاح نووي يُقيمون ويُراقبون على أساس متصل.

وتوجب هذه الإجراءات: "لا يُؤذن إلا لأولئك الأفراد الذين أظهروا أسمى درجات الموثوقية الفردية للولاء، والجدارة بالثقة، والسلوك، والمسلك، والمسؤولية بالاضطلاع بمهام مقترنة بالأسلحة النووية، ولزامٌ أن يُقيموا باطراد للامتثال لمعايير البرنامج". ولا يتلقى الرئيس أي تقييم كهذا. ولئن كان الرئيس يحوز السلطة للأمر بضربة نووية، إلا أن ثمة ضمانات، وسلسلة قيادة يُقتضى منها أن تتحرك، وهو ما لا يضاهي مجرد ضغطة زر. فإبان الحرب الباردة كانت ثمة إنذارات كاذبة بأن صواريخ في طريقها، بيد أن عقولاً أشد رصانة تحققت وتيقنت من أنها كانت أخطاء، ولم يُؤمر بأي انتقام. ولقد أُشير إلى أن الضباط المسؤولين الذين يُؤمرون بشن ضربة قد يأبون ذلك على أساس أن الإبادة الجماعية منافية للأخلاق.

ولقد طوت محاكمات نورمبرغ للجنرالات النازيين بتهمة الإبادة الجماعية صفحة دفاع "كنت أنفذ الأوامر فحسب"، بيد أنه لا يسعنا أن نعول على ضباطنا لتجاهل أمر ذهاني بإنهاء الحياة على وجه الأرض.

فالقانون الموحد للقضاء العسكري يوجب الامتثال للأوامر المشروعة، بغير استثناء للأحكام الأخلاقية الفردية، ولن يكون ثمة متسع من الوقت لمجادلات فلسفية (باورز ٢٠١٨).

"لا تَشْهَدْ عَلَى قَرِيبِكَ شَهَادَةَ زُورٍ." (سفر الخروج ٢٠: ١٦)

إنه لَمِمَّا سارت به الركبان أن الرئيس ترامب غالباً ما يتفوه بأمور تجافي الحقيقة. لعله محض معتل اجتماعياً (سيكوباتي) لا يكترث بالحقيقة، يكذب لمنفعته الخاصة، بيد أن هذه ليست أكاذيب إن كان يظن أن ما يقوله حق.

فالكذب فعل واعٍ. ولا ندري ما إذا كانت تصريحاته أكاذيب أم ثمرة لخلل دماغي جسيم. فتارةً ما تكون هذه التصريحات زلات عابرة؛ وتارةً تكون تصريحات متكررة، من قبيل "حملة شعواء" و"أخبار زائفة". وكثير من تصريحاته الباطلة تُساق كحقائق يسهل دحضها بوصفها تحريفات لحقائق تاريخية أو إحصائية. وثمة تساؤل عما إذا كانت هذه الأباطيل ثمرة

لجهل مطبق، أو تفكير رغائبي، أو مساعٍ متعمدة للخداع. فإن كان يظن أن ما يقوله حق، فهو اختلاق (Confabulation)، وهو ليس كذباً بل ضلالة. وإن كان محض جهل، فهو علامة على ذاكرة معتلة بشدة لتفرز مثل هذه التصريحات الخاطئة المتواترة.

وإن كان كذبة متعمدة، فهو علامة على اعتلال نفسي (سيكوباتية) سافر وسلوك إجرامي من لدن امرئ يظن أن الناس سيصدقونه ببساطة لأنهم أيضاً جهلة أو أكسل من أن يتحققوا من الحقائق الفعلية. ولا يسع سوى فحص نفسي عصبي كفء أن يتبين علة تصريحاته الباطلة المتواترة.

وعلى الرغم من كونها باطلة بجلاء وبالبرهان، فإن التهجم على التصريحات الصادقة بوصفها "أخباراً زائفة" قد كان تكتيكاً ناجحاً من لدن وكلاء كثر معلومين ومجهولين. وإن هذا الاعتداء على الواقع لَيَقْتَضِي تحقيقاً، إذ قد يكون أدهى من محض اعتلال نفسي أو اضطراب شخصية نرجسية. فثمة أنماط عدة من الاضطرابات النفسية والعصبية الأشد خطورة قد تؤول إلى الكذب المرضي. وإن أحد التفسيرات المنذرة بالخطر للكذب المرضي لَهُوَ حالة عصبية كالخرف الجبهي الصدغي، المتغير السلوكي، أو مرض تنكسي آخر في الدماغ، كضرب من متلازمة كورساكوف. فالأشخاص

المبتلون بتلك الأمراض قد فقدوا القدرة على التعلم أو تكوين ذكريات مستحدثة، في حين يعمون عن نقائصهم الخاصة. وإلا فإن أكاذيبه قد تكون محض تكتيك ماهر لتقويض الثقة في "الإعلام السائد". لقد قال أنجح كذاب في التاريخ، أدولف هتلر: "إن ألمع أسلوب دعائي لن يؤتي أي نجاح ما لم يُستحضر مبدأ جوهري واحد في الذهن باطراد وبانتباه لا يفتر. لزامٌ أن يقتصر على نقاط معدودات ويرددها مراراً وتكراراً. هاهنا، كما هو الشأن غالباً في هذا العالم، فإن الإلحاح هو المطلب الأول والأهم للنجاح" (هتلر ١٩٧١، ص ١٨٤). ولا ريب أن هذا التكتيك، ولئن لم يكن يحاكي هتلر عن وعي دوماً، لَمَأْلُوفٌ، كما يتجلى في تهمة "الأخبار الزائفة". ولقد قال وزير دعاية هتلر، جوزيف غوبلز: "إن رددت كذبة مراراً وتكراراً، فسيصدقها الناس، بل وسينتهي بك المطاف إلى تصديقها بنفسك" (غوبلز ١٩٤٦).

لقد سُطرت مئات الأسفار في مسعى لتفسير هتلر. والنسخة الموجزة هي أن هتلر لعلة كابد التهاب الدماغ الحصبي في طفولته، مما أفضى إلى شخصيته المعطوبة، ولاحقاً أساء استخدام الأمفيتامينات وأظهر علامات خرف جراء مرض باركنسون. ولقد رُوجت "أخباره الزائفة" عبر خطب إذاعية هادرة كان الاستماع إليها إلزامياً؛ أما أخبارنا فهي مقتطفات أقصر

على وسائل التواصل الاجتماعي والتلفاز الحواري. لقد قال إسخيلوس: "في الحرب، الحقيقة هي أولى الضحايا".

لقد أظهر خبراء كثر روعهم من أن الرئيس لم يخضع لتقييم صحة نفسية لائق إبان فحصه البدني الروتيني. ففي ذلك الحين، أجرى طبيبه المعالج في البيت الأبيض فحصاً معرفياً غير لائق وقاصراً لعشر دقائق ليبث طمأنينة زائفة لجمهور قلق بأن رئيسه وقائده العام "لائق للخدمة" عقلياً. ولقد أُقصي الطبيب الآن من الخدمة كطبيب للرئيس، بيد أن "فحصه للصحة النفسية" الصوري لم يُستبدل. كما علمنا أن التقرير الطبي الأوحد الآخر المُفصح عنه لترامب كان من إملائه هو نفسه. ولقد شكك كثيرون في قدرة الرئيس على إدراك الواقع بمعزل عن أفكاره، ومشاعره، وحاجاته الخاصة، ومن ثم قدرته على اتخاذ قرارات رصينة وعقلانية تخدم مصالح الأمة أو الأمن.

وحين يلم بامرئ مرض عضال، قد لا يفتقر المرء إلى طبيب ليدرك أن الشخص عليل. بيد أنه في حالة الطوارئ، يسع العامي أن يقف متفرجاً، في حين لا يسع المهني الصحي ذلك. ففي حالة الطوارئ، لا خيار أمام المهنيين الطبيين سوى اتخاذ الشخص المصاب كمريض. لزامٌ علينا أن

نعالج، وفقاً لميثاقنا الأخلاقي. ومرد ذلك إلى أننا أخذنا على عاتقنا عهداً بإنقاذ الأرواح أولاً وقبل كل شيء. إن الرئيس ليس فوق القانون، ويقيناً ليس فوق السيكولوجية البشرية. لقد أظهر سلفاً نزوعاً إلى العنف: إساءة لفظية، وتباهياً باعتداءات جنسية، وتحريضاً على العنف في المحافل العامة، وتصديقاً على العنف في الخطب والأفعال، بل ومؤخراً تهديد كوريا الشمالية بـ "إبادة تامة". هذا ناهيك عن تصعيد الأخطار العالمية بشن حرب تجارية، وتشجيع المستبدين عبر الإعجاب بهم، وإعادة خلق ثقافة انتشار نووي وحرب بسبل يمكن التنبؤ بها من قصوره العقلي. إن هذه ليست سياسة بقدر ما هي نمط من العجز عن إدراك الواقع خارج أفكاره، ومشاعره، وحاجاته، ونزوع إلى الهجوم إن سُئل أو حتى انتقد نقداً يسيراً.

وإن أولئك الذين يتصنعون أننا في رحاب السياسة في حين أننا في حقيقة الأمر في رحاب الباثولوجيا النفسية لَيَجْعَلُونَ الموقف أدهى وأمر، لأنهم لن يكونوا متأهبين في حين أن مستقبل الكوكب والجنس البشري على المحك.

فهل يسع الولايات المتحدة أن تولي عنايتها لمسائل الصحة النفسية حيث يجب؟ فمن جهة، لقد نادى خبراء وغير خبراء كثر بفحص شامل للصحة النفسية للرئيس.

وما تلقوه، بدلاً من ذلك، كان إجراء طبيب غرفة طوارئ في البيت الأبيض لفحص معرفي. وبالنظر إلى العلامات المرصودة، فإن فحصاً نفسياً عصبياً شاملاً وبطارية من الاختبارات النفسية العصبية للوظيفة التنفيذية للفصين الجبهي والصدغي للدماغ، بما في ذلك التصوير بالرنين المغناطيسي (MRI) والتصوير المقطعي بالإصدار البوزيتروني (PET)، لَهُوَ أمر مطلوب.

والأهم من ذلك، فإن تقييماً للقدرة على اتخاذ قرارات رصينة ومنطقية، بناءً على مواقف ومآلات حقيقية، من شأنه أن يكفل حداً أدنى من الأداء في منصب القائد العام. وتنهض هذه الاختبارات على المعايير الطبية الموضوعية والراسخة التي تُنزل على الأفراد العسكريين الذين يتعاطون مع الأسلحة النووية. ولن تفصل فيمن يسعه أو لا يسعه أن يغدو رئيساً، بل ستقي بأن أولئك في المنصب قادرون على الاضطلاع بالمهمة التي انتخبهم الشعب من أجلها—بما في ذلك حمايتهم من حرب لا طائل منها.

إن الرئيس دونالد ترامب يحوز رهن إشارته القدرة على إنهاء الحياة على وجه الأرض، واستجلاب يوم الطامة الكبرى بنزوة أو اندفاعة غضب. لقد هدد بحرب نووية مع كوريا الشمالية وتساءل لِمَ لم نستخدم الأسلحة النووية في أفغانستان.

لقد أظهر افتقاراً إلى السيطرة على الاندفاعات نعاينه نحن أطباء الأعصاب والأطباء النفسيين كل يوم في مرضانا المبتلين بتلف في الدماغ وعلل نفسية.

وسواء أكانت تغريداته المتصلة غير المسؤولة وتصريحاته الباطلة مسعى متعمداً للخداع أم ثمرة لعقل مختل، فإن ذلك لَمَسْأَلَةٌ لا طائل من الجدال فيها. فالعلة لا شأن لها؛ إن الخطورة لَتَبْلُغُ مبلغاً لزامٌ أن يُوقف لخير البشرية.

عصر ثاناتوس:

المآلات البيئية لعهد ترامب

توطئة

في عام ثمانين وتسعمائة وألف، وإدراكاً للخطر الفادح الذي يتهدد البشرية من لدن الأسلحة النووية، تآزر أربعة من الأطباء، فيهم طبيب نفسي، ليؤسسوا "رابطة الأطباء الدوليين لدرء الحرب النووية". ولما كانت هذه العصبة تنطق بلسان آلاف الأطباء في أرجاء المعمورة، ولما حظيت به من إجلال لترجمتها غوائل الأسلحة النووية إلى لغة يفقهها العوام، فقد تُوجت في عام خمسة وثمانين بجائزة نوبل للسلام. وها هما الآن عضوان من تلك العصبة، الطبيب النفسي المؤسس الدكتور إريك تشيفيان والطبيب النفسي روبرت جاي ليفتون، يطلقان نذير الروع كَرَّةً أخرى: إن التبدل المناخي، بما أوتي من سطوة لخراب العالم، لَيُمَثِّلُ للبشرية ذات الخطر الداهم الذي مثلته الأسلحة النووية في سالف الأيام.

والحق أن سِفْراً حديثاً في هذا الشأن لَيُشيرُ، بنظرة جبرية قاتمة، إلى أننا لربما بلغنا سلفاً نقطة اللاعودة—حيث سُدت سبل الأوبة إلى العافية. وبلغة الطب النفسي، يُوصف المسار الراهن بأنه نزوع جمعي شطر إلحاق الأذى بالذات والانتحار.

لقد قال العلم كلمته الفصل. وانعقد الإجماع القاهر على أن صنيع الإنسان هو العلة الكامنة وراء الزلزال المناخي الراهن الذي يعصف بالعالم جراء الاحترار الكوكبي. فتعويل البشر على الوقود الأحفوري منذ بزوغ فجر العصر الصناعي، وما يقترن به من إنكار "مَرَضِيٍّ مُصاحِب" لمأزقنا، هما أُسُّ البلاء. وباتت عافيتنا البدنية والنفسية في كفة الميزان، تتأرجح على شفا جرف هارٍ.

دور الطب النفسي

يدرك الأطباء النفسيون ما للكلمات من سطوة، ونوقن أن أصواتنا، متى ما تآزرت، خليقةٌ بأن تُتخذ رافعةً للتصدي لهذا الخطر الداهم، ولبيان الضرورة الملحة التي تقتضي منا التحرك من فورنا.

ولقد أبدت الجمعية الأمريكية للطب النفسي توجسها في بيان موقفها هذا بشأن الصحة النفسية والتبدل المناخي:

"تقر الجمعية الأمريكية للطب النفسي بأن التبدل المناخي يمثل خطراً يتهدد الصحة العامة، بما فيها الصحة النفسية. وإن المبتلين باضطرابات الصحة النفسية لَهُم أشد تأثراً، على نحو غير متكافئ، بمآلات التبدل المناخي.

وتقر الجمعية وتأخذ على عاتقها دعم المرضى، والمجتمعات، وسائر منظمات الرعاية الصحية المنخرطة في مساعي التخفيف من الوقع العكسي للتبدل المناخي على الصحة البدنية والنفسية، والتعاون معهم".

ولما كانت الجمعية الأمريكية لأطباء النفس المجتمعيين تدرك، على وجه الخصوص، الأخطار غير المتكافئة للاحترار الكوكبي والسموم البيئية على الفقراء والمحرومين، فقد أصدرت بيان موقف سبق حتى بيان الجمعية الأمريكية للطب النفسي: "تقر الجمعية الأمريكية لأطباء النفس المجتمعيين بأن التبدل المناخي يمثل أخطاراً جسيمة تتهدد الصحة العامة بوجه عام، والصحة النفسية على وجه الخصوص".

واقتفاءً لأثر "أطباء نفسيون من أجل العمل والمعرفة البيئية"، وهي عصبة أقل رسمية أسسها الدكتور موفيك، اتخذ "تحالف الطب النفسي المناخي" المستحدث بياناً لرسالته ينص على: "تكمن رسالة التحالف في تبصير المهنة والعوام بالأخطار الملحة للتبدل المناخي، والوقع العميق للاضطراب المناخي على الصحة النفسية والعافية".

يفقه الأطباء النفسيون أن بني البشر يحوزون آليات دفاع نفسية شتى تقيهم روع الخطوب. وأظهرها الإنكار، واعياً كان أم لاواعياً، والذي قد يجلب نفعاً أو يورث ضراً. ويسع الإنكار أن يسري من الأفراد إلى الجماعات، والعكس بالعكس، عبر العدوى الاجتماعية. وللقادة السياسيين وقعٌ عميق على المواقف إزاء التبدل المناخي.

ونعلم أيضاً أننا قد جُبلنا على الاستجابة الناجعة للكوارث الحادة، بيد أننا نُخفق إزاء الفواجع بطيئة التشكل ممتدة الأجل. وإن الكلمات والعبارات التي تبدو محايدة في رنينها لَخَلِيقَةٌ بأن تبخس تقييمنا للخطر وتقف حجر عثرة دون الإقدام على الفعل. ولذا، فإن العارفين والواقعيين إزاء هذه الظروف ينافحون عن استخدام مصطلحات من قبيل "الزلزال المناخي" و"الاحترار الكوكبي المفرط"، إذ إن هذه الألفاظ تشحذ مداركنا للخطر الحق، فتغدو أقدر على استنهاضنا للفعل.

وفي سبتمبر من عام ثمانية عشر وألفين، صرح الأمين العام للأمم المتحدة، أنطونيو غوتيريش، قائلاً: "إننا لَنُجابه خطراً وجودياً داهماً: فإن لم نُقَوِّم مسارنا بحلول عام عشرين وألفين، فإننا نجازف... بتبدل مناخي منفلت من عقاله، يحمل مآلات كارثية للبشر وللأنساق الطبيعية قاطبة التي تمدنا

بأسباب البقاء... إنني لأستصرخ القيادة—من لدن الساسة، ورجال الأعمال، والعلماء، والعوام في كل صقع... إننا نقف على مفترق طرق وجودي. فإن رُمنا سلوك الدرب القويم—وهو الدرب الأوحد الذي يوافق العقل—فلزامٌ علينا أن نستحضر قوى الدهاء البشري قاطبة".

وفيما تتفاقم الغوائل التي تتهدد بقاءنا جراء التبدل المناخي، تغدو صرخات الاستغاثة للتحرك أشد لوعةً وتمزقاً. ومع ذلك، وها هنا في الولايات المتحدة إبان تسطير هذه الكلمات، يبدو المسار مجافياً للعقل تماماً، وتتكشف الأخطار وتتوالى ساعةً بعد ساعة.

وبما أوتينا من فقه لطبيعة القيادة وكيفية عمل الجماعات، فإننا ندرك غوائل القادة الكاريزميين والمبتلين بنرجسية مَرَضِيَّة، ممن يسعهم التلاعب بجمهور يستشعر أن حاجاته في مهب الريح. كما نفقه كيف يؤول الروع المناخي إلى مآلات تلازم المرء طيلة حياته، ويسعنا هندسة أنساق للرعاية الصحية ترعى العافية والجلد في مجابهة هذه التحديات. بيد أننا، وإن وسعنا تقديم العون، فإن القادة السياسيين وحدهم هم من يملكون التصدي للعلة الجوهرية: ألا وهي التقاعس أو القصور في العمل المناخي.

وفيما يترقب العالم قيادةً تنتشله من أزمة المناخ، ندرك بمرارة أن أمريكا، التي كانت يوماً منارة للأمل، لا تخفق في هذا المضمار فحسب، بل تبذل للآخرين ذريعة للإخفاق أيضاً. وفي غضون ذلك، تُمزق السيرورة إرباً، وتتسارع وتيرة الأخطار.

فما كنه هذه السيرورات وتلك الأخطار؟

أخطار التبدل المناخي

منذ أن غدا التبدل المناخي هماً مجتمعياً، حُددت أخطار شتى. فبسبب التكالب على الموارد، تتفاقم الصراعات الدولية بين البلدان، وهو محفز محتمل قد يزيد حتى من خطر نشوب حرب نووية. ومما عُلم يقيناً أنه يذكي نار العنف حين ترتفع درجات الحرارة في الأقاليم الحارة سلفاً. وفي سوريا، كان اشتداد الحر وما أعقبه من قحط من العوامل الكبرى التي أذكت أتون الحرب الأهلية الأخيرة.

لقد عصف الزلزال المناخي بأنظمة بيئية دقيقة التوازن، فآل المطاف بالعالم الحي إلى الوقوع تحت طائلة هجوم ضارٍ. وباتت الحيوانات والنباتات تنقرض بوتيرة تفوق المألوف بألف ضعف. وفضلاً عن كونها

حيوية لعافيتنا وعافية كوكبنا، فإن كثيراً من هذه الأنواع المهددة بالانقراض لَتَكْتَنِزُ في طياتها منافع صحية جمة للبشر، وهي الآن عُرضة للضياع.

ولا يقع هذا الخطب على المواطنين قاطبة على قدم المساواة. فأولئك الذين كانوا الأقل إسهاماً في إحداث الأزمة المناخية هم من سيكابدون أشد الأذى: ألا وهم الفقراء. ويشمل هذا قاطني البلدان النامية، فضلاً عن الفقراء والأقليات في البلدان الأوفر غنى.

وبالنظر إلى اعتناق المبادئ ذات الصلة من أخلاقيات الطب، يسع طائفة الأطباء النفسيين أن يثروا النقاش الدائر حول القيادة. ولئن كانت هذه المبادئ تنسحب في المقام الأول على الأطباء السريريين، إلا أنه قد جرى تطويعها لتلائم الإداريين والقادة. ولعل الأطباء النفسيين، لو انخرطوا بفاعلية أكبر في مناقشة الخطوب المجتمعية كالبيئة وتقديم المشورة بشأنها، لأسهموا في بناء عالم أصلح.

نماذج القيادة

ولما كان التحدي المناخي خطباً لا ينقضي، فإن تحديد طراز القيادة المبتغاة يغدو أمراً مفصلياً. ولئن تعددت نظريات القيادة، ولئن كانت السمات الرئاسية المقترنة بالنجاح تضم ما قد يعسر التعاطي معه "عن كثب"، بما في ذلك ما يسميه الباحثون "الهيمنة الجسورة"، إلا أن ثمة سمة تبرز بوصفها ضرورة لا غنى عنها في أزمنة الاضطراب: ألا وهي الشغف العارم بصنع الخير. ومما يبرز أيضاً اليقين بأن عظمة أمريكا ينبغي أن تُقاس بقدرة بلادنا على تجاوز مصالحنا الذاتية الضيقة. ولما كانت الأزمة المناخية خطباً عالمياً، ولما كانت الولايات المتحدة تسهم فيها بقسط غير متكافئ، فإن الموقف يقتضي قيادة تولي وجهها شطر الخارج لتستلهم التعاون العالمي، بدلاً من الانكفاء السياسي على الذات.

حين انحسر العصر الجليدي الأخير قبل نحو اثني عشر ألف عام، بَزَغَ فجر حقبة جيولوجية مستحدثة. وبمناخها الأشد استقراراً وطقسها الأدفأ، أتاحت الحقبة الجديدة، حقبة الهولوسين، للحضارة أن تزدهر. وحتى زمن قريب، وعلى امتداد مقياس زمني سحيق، كانت الطبيعة هي من يخلق الظروف التي تسم الحقب الجيولوجية.

وللمرة الأولى، وعلى مقياس زمني بالغ الانضغاط، غدت يد الإنسان هي من يخلق الظروف التي تسم حقبة جيولوجية. وتُدعى هذه الحقبة المستحدثة "الأنثروبوسين" نسبة إلى الكلمة اليونانية "أنثروبوس" التي تعني "الإنسان". فملايين السنين من البحث والتطوير التي اضطلعت بها الطبيعة، تُقلب اليوم رأساً على عقب على يد أشد أبنائها جسارة وتدميراً: البشر.

الضربات السبع المختارة من رئاسة ترامب للأمن المناخي

لقد جمعت اتفاقيات باريس للمناخ شتات العالم لكبح انبعاثات الغازات الدفيئة عند حد يحول دون ارتفاع درجات الحرارة بما يجاوز درجتين مئويتين. واحتفى العالم بهذه الخطوات الأولى نحو ميثاق عالمي لاسترداد الأمن المناخي.

بيد أنه، في الأول من يونيو عام سبعة عشر وألفين، واصفاً التبدل المناخي بأنه أُكذوبة، أعلن دونالد ترامب في تصريح من حديقة الورود انسحاب الولايات المتحدة رسمياً من اتفاقيات باريس للمناخ.

وباتت الولايات المتحدة اليوم البلد الأوحد الذي لم يوقع على تلك الاتفاقيات.

أما "خطة الطاقة النظيفة"، التي أماط أوباما اللثام عنها في يونيو عام أربعة عشر وألفين، فقد رسمت معالم خفض انبعاثات الكربون على الصعيد الوطني، ولاية بولاية، حيث أُنيط بكل ولاية تنزيل صيغتها الخاصة لبلوغ الغايات التي فرضتها الحكومة الفيدرالية. وفي مارس عام سبعة عشر وألفين، وقع دونالد ترامب أمراً تنفيذياً كاسحاً يوعز إلى وكالة حماية البيئة بالشروع في نقض عرى "خطة الطاقة النظيفة"،

تاركاً للولايات مطلق الحرية لتفعل ما تشاء—سواء بخفض التزاماتها، أو صياغة لوائحها الخاصة، أو الركون إلى الدعة بلا فعل البتة.

لقد أبقت الإعانات الممنوحة لصناعة الوقود الأحفوري أسعار الفحم، والنفط، والغاز بخسة على نحو مصطنع.

بيد أن ما لم يُحسب في هذا المضمار هو "التكاليف الاجتماعية للكربون". وتشتمل هذه التكاليف على مليارات الدولارات المنفقة في التطهير، والإصلاح، وإعادة البناء غداة أحداث مناخية متطرفة تزداد ضراوة وتواتراً؛ فضلاً عن الأثمان البدنية، والاجتماعية، والوجدانية الناجمة عن الإصابات، والوفيات، وتمزق أوصال الحياة المجتمعية، والعمل، والمدارس، والترفيه؛ وغيرها من الأعباء والتكاليف التي تتكبدها

المجتمعات في مسعاها للتكيف مع الظروف المتبدلة. وحين نجمع هذه التكاليف قاطبة، نلفي أن الإعانة الحقيقية لصناعة الوقود الأحفوري تبلغ مئات المليارات.

وفي يونيو عام سبعة عشر وألفين، دحرج ترامب اللوائح إلى الوراء وضخ الأموال في شرايين هذه الصناعة، لتنحدر الولايات المتحدة من ريادة مساعي إنهاء الإعانات إلى تذيل قائمة مجموعة السبع.

ويندرج ضمن مهام اللجنة الفيدرالية لتنظيم الطاقة منح التراخيص لتشييد بنى الوقود الأحفوري التحتية، ولا سيما خطوط الأنابيب. ويصف النقاد هذه اللجنة بأنها "ختم مطاطي بيد الصناعة". وإبان إدارة ترامب، رُشح أربعة أشخاص لعضوية القيادة الخماسية للجنة، ثلاثة منهم من غلاة المنافحين عن توسيع صناعة الوقود الأحفوري.

وفي عام اثني عشر وألفين، طرحت إدارة أوباما مقترحها لمعايير كفاءة استهلاك الوقود. وبحلول عام خمسة وعشرين وألفين، كان لزاماً على السيارات والشاحنات الخفيفة قاطبة أن ترتقي بمتوسط كفاءتها من ٢٥ ميلاً في الغالون إلى ٥٤ ميلاً في الغالون، ما يشطر انبعاثات الغازات الدفيئة إلى النصف. وفي أغسطس عام ثمانية عشر وألفين، وإذعاناً

لمصالح أرباب النفط والغاز، أوقفت إدارة ترامب مسيرة التقدم في معايير كفاءة الوقود، متذرعة بأنه مهما "فعلنا"، فإن الكوكب سترتفع حرارته بمقدار ٧ درجات فهرنهايت "على أية حال".

إن التعرض للزئبق لَخَلِيقٌ بأن يلحق أذى بالغاً بصحة الإنسان. فهو أشد فتكاً بنمو أدمغة الأجنة والأطفال الصغار، إذ يحمل في طياته خطر إعاقة الملكات المعرفية: كالتفكير، والاستدلال، والفهم، والمعالجة البصرية والسمعية، والذاكرة، والانتباه، واللغة، والمهارات الحركية الدقيقة، والمهارات المكانية البصرية. وفي ديسمبر عام أحد عشر وألفين، أعلنت وكالة حماية البيئة عن وضع قيود على مقدار التلوث الزئبقي الذي يُسمح لمحطات الطاقة بنفثه. ولئن كان هذا يقتضي تكبد تكاليف إضافية، فإن المنافع الصحية الموازية—أي ما يُدخر من تكاليف الرعاية الصحية بوقاية الناس من السقم جراء التسمم بالزئبق—كانت لترجح كفة تلك النفقات الإضافية وتزيد. وفي سبتمبر عام ثمانية عشر وألفين، دفعت إدارة ترامب شطر إقصاء هذه المنافع الموازية من الحسبان، ممهدة الطريق للزعم بأن التكاليف الإضافية للامتثال للوائح الزئبق لن تكون "مجدية".

لطالما تبوأت وكالة حماية البيئة الصدارة في عرض جهود صفوة الخبراء لتبصير القادة بالمعارف القائمة على العلم لتوجيه السياسات. أما اليوم، فقد طُمست آلاف الوثائق المتعلقة بالتبدل المناخي من المواقع الحكومية. وقُبيل استقالته إثر انتهاكات أخلاقية، جعل المدير سكوت برويت من هذا الأمر غاية كبرى في الوكالة. ويُتوقع الآن أن يقبض أفراد تدعمهم الصناعة على زمام المجالس. ولقد أُلغي مكتب المستشار العلمي في وكالة حماية البيئة واللجنة الاستشارية للتبدل المناخي وعلوم الموارد الطبيعية في وزارة الداخلية، وأُحيلت رئيسة صحة الأطفال في وكالة حماية البيئة إلى إجازة إدارية بغير بيان لعلة ذلك.

إن أندرو ويلر، الرئيس الراهن لوكالة حماية البيئة، لَهُوَ عضو سابق في جماعات الضغط لصالح الفحم. ولقد بذل رئيسه السالف، روبرت إي. موراي من شركة موراي للطاقة، ثلاثمائة ألف دولار لتنصيب دونالد ترامب. وبُعيد التنصيب، التمس موراي صراحة من وزير الطاقة ريك بيري التراجع عن لوائح انبعاثات الزئبق، وسلم نائب الرئيس بنس "خطة عمل" من ست عشرة نقطة تدعو، من بين أمور أخر، إلى الانسحاب من اتفاقيات باريس، وإلغاء خطة الطاقة النظيفة، وتقليص قوانين سلامة المناجم، وشطر موظفي وكالة حماية البيئة إلى النصف "على أقل تقدير". ولقد أُنجزت جل هذه المطالب.

وإن القائد الأعلى في قسم جودة الهواء بوكالة حماية البيئة، والذي سيكون له القول الفصل في القرار، هو ويليام ويروم. وفي ممارسته القانونية الخاصة، ترافع ويروم عن شركات التعدين، ومصافي النفط، وشركات الكيماويات، ومحطات الفحم التي رامت إضعاف قواعد تلوث الهواء التي تحد من الانبعاثات المهلكة.

أزمنة الغسق

إن الاحترار الكوكبي لَيَذْكِي تصاعداً في تواتر وضراوة الأحداث المناخية المتطرفة—كالحرائق، والعواصف، والفيضانات. وحين تستحيل البقعة التي تدعوها وطناً إلى رماد، أو تعصف بها الرياح، أو تغرق في لُجج الطوفان، وحين تفقد مقتنياتك، ولربما حيواناتك الأليفة، ومصدر رزقك، وتبصر الإصابات، والسقم، والموت رأي العين، فإن هذا المزيج من الروع، والغضب، والأسى، والصدمة لَخَلِيقٌ بأن يزج بنا في هوة الانهيار. ويعاين خبراء الصحة النفسية طيفاً واسعاً من الاضطرابات النفسية تطل برأسها: كالاكتئاب الجسيم، والقلق، واضطراب كرب ما بعد الصدمة، وتصاعداً في إدمان المخدرات والكحول. ويفضي الضغط الأسري إلى العنف المنزلي، بما في ذلك الإساءة إلى الأطفال. وباطراد، يطرق أسماع

خبراء الصحة النفسية ما يُعرف بالقلق الاستباقي: "اضطراب كرب ما قبل الصدمة"، وهو صنو لاضطراب كرب ما بعد الصدمة، يكابده أقوام لا يسعهم طرد هواجس الصدمة المناخية المستقبلية من عقولهم. ويصف "القلق المناخي" حالة عامة من التوجس إزاء الظروف. أما "السولاستالجيا" فهو مصطلح نُحت حديثاً لوصف الأسى وشعور الاغتراب الذي ينتاب المرء حين يبصر أراضيه الأثيرة وقد طالها الخراب أو التدهور أبد الدهر.

في دراساته الكلاسيكية في التحليل النفسي، وصف فرويد الدافع البشري أو غريزة الحياة بـ "إيروس"—تيمناً بإله الحب عند الإغريق—وقوتها النقيضة، "دافع الموت" شطر التدمير الذاتي، والتي وسمها الكُتّاب لاحقاً بـ "ثاناتوس"، تيمناً بإله الظلام والموت الإغريقي.

وفيما تنجلي مآلات التبدل المناخي بوضوح أشد، ينعقد الإجماع العلمي على أننا نسلك درباً يتنافر مع بقائنا، في حين يمعن قادة الحكومات، على نحو يبعث على القشعريرة، في المقاومة والإنكار. ولعل الوصف الأصدق لعصرنا هذا هو "عصر ثاناتوس" المروع.

خواتيم ووصايا

أدرك الآباء المؤسسون للولايات المتحدة ما ينطوي عليه دور المواطنين في الديمقراطية من نعم محفوفة بالمخاطر. ولما كان العوام عُرضة لاتخاذ قرارات تجافي العقل والركون إلى الإنكار النفسي، فإنهم يفتقرون إلى قادة يتحلون بالعقلانية والواقعية. وعلاوة على ذلك، ولما كانت الأزمة المناخية حادة ومزمنة في آن، فإن القادة الذين يذعنون للعلم الراسخ ويأخذون على عاتقهم تعزيز تدابير تتسق مع العلم والظروف المتطورة لَهُم ضرورة لا غنى عنها. وفيما يهرول العالم حثيثاً شطر نقاط اللاعودة، فإن القادة الذين لا يقتصرون على مد جسور التواصل مع البلدان الأخر وقادتها، بل يحوزون من الذكاء الوجداني ما يلهمهم للغوص أعمق، والمحاولة بجهد أشق، والعمل بوتيرة أسرع، لن يغدوا محض أنموذج للرئيس الصالح، بل الشرط الذي لا محيد عنه لبقائنا.

إن ضياع الريادة الأمريكية (التي آلت إلى الصين) في مضمار التبدل المناخي لَيَجْلِبُ معه أخطاراً متفردة—تتهددنا شخصياً وتتهدد الديمقراطية هاهنا في الولايات المتحدة، وفي أرجاء المعمورة. فالجميع عُرضة لغوائل التبدل المناخي، بيد أنه مع تفاقم الظروف وتعاظم الخسائر المتراكمة، فإن الأطفال هم من سيكابدون أشد الأذى.

ولقد طفق كثير من الشباب "الواعي مناخياً" يجهرون بعزوفهم عن إنجاب الأطفال، لا لعلة البصمة الكربونية المترتبة على إضافة إنسان آخر إلى الكوكب فحسب، بل توجساً من الفوضى التي يستشرفونها. ويقر البعض برجائهم في حلول جائحة تحد من "الأنواع المعتدية"، وينخرطون في حوارات حول "الانتحار العقلاني". ويتأجج الحنق تجاه حكومة تغض الطرف عن مستقبلهم.

يتساءلون:

أين نلفي مأمننا؟

ومن ذا الذي يرعانا؟

حين نأتي من الأفعال ما يزج بالناس في دروب الهلكة، فإن لذلك اسماً: إنه يُدعى العدوان. مباشراً كان أم غير مباشر، واعياً أم لاواعياً... فردياً أم جمعياً... فإنه يظل عدواناً.

وبالنظر إلى الدور المرتقب للأطباء النفسيين في فقه أخطار التبدل المناخي، فضلاً عن خصال القادة المفلحين في أزمنة المحن، فإن الانخراط النفسي الفاعل في هذه السجالات لَيَغْدُو أشد أهمية من أي وقت مضى.

وسواء أكان ذلك في الولايات المتحدة، أم كندا، أم روسيا، أم الهند، أم بريطانيا العظمى، أم غيرها من البلدان، فإن الأطباء النفسيين وسائر خبراء الصحة النفسية يحوزون ملكات فريدة لا تقتصر على الجهر بخطوب التبدل المناخي، بل تتجاوزها إلى وصف الترياق الذي يوقظ الناس ويدفعهم للعمل. وكما أن السياسة المناخية لابد أن تتجاوز حدود الأوطان، فكذلك ينبغي للتعاون المهني أن يكون. وفي هذا المقام، فإن "مرضانا" ليسوا أولئك الذين يُرى أنهم يكابدون عللاً نفسية فردية فحسب، بل هم أيضاً القادة الذين يفتقرون إلى سمات نفسية بعينها، إذ لا يسعنا أن نرجو أناساً أصحاء على كوكب عليل. إن حضورنا لَمَطْلُوبٌ في منابر الإعلام التي يرمقها العوام ويصيخون السمع إليها، لأن الأرض ذاتها هي من يكابد سكرات الألم.

قاعدة غولدواتر وصمت الطب النفسي الأمريكي

ندوة عام ٢٠١٧

في الملتقى السنوي للجمعية الأمريكية للطب النفسي لعام سبعة عشر وألفين، أسهمت في تنظيم ندوة حول "قاعدة غولدواتر"، ذلك البيان المُدرج في المبادئ التوجيهية الأخلاقية للجمعية عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، والذي بات يُنظر إليه بوصفه حظراً يغل أيدي أي طبيب نفسي عضو في الجمعية عن إبداء أي تعليق على أي شخصية عامة. ولقد ضمت هذه الندوة رئيسين سالفين للجمعية، ورئيساً سالفاً للطب النفسي في وكالة الاستخبارات المركزية، وطبيباً نفسياً-فيلسوفاً. ولقد فاض الحضور عن الحيز المخصص، وتجاوزت حواراتهم مع المنصة الزمن المضروب.

وكان المتحدث الأول هو الدكتور بول أبيلباوم، الرئيس السالف للجمعية الأمريكية للطب النفسي، وأستاذ الطب النفسي والطب والقانون في جامعة كولومبيا، والخبير الدولي المرموق في الطب النفسي الشرعي. ولقد استعرض الدكتور أبيلباوم تاريخ قاعدة غولدواتر، والمسوغات التي دعت إلى طرحها، وتطورها، والعلل التي توجب استمرار مناصرتها.

وبإيجاز، استهلت السيرورة إبان الانتخابات الرئاسية لعام أربعة وستين وتسعمائة وألف، حين جوبه المرشح الجمهوري باري غولدواتر بمعارضة من لدن كثر توجسوا خيفة من كونه من دعاة الحرب وأنه قد يقدح شرارة حرب نووية.

ولقد زاد خطاب قبوله الشهير في المؤتمر ("إن التطرف في الذب عن الحرية ليس برذيلة") من روع البعض. فبعث ناشر مجلة "فاكت" باستطلاع إلى آلاف الأطباء النفسيين، أحجم قرابة ثلثيهم عن الرد أو صرحوا بأنهم يرون غولدواتر سوياً من الناحية النفسية.

بيد أن ثلثهم تقريباً شخص غولدواتر بطائفة من العلل، بما فيها الفصام. فنشرت المجلة قصة غلاف تزعم فيها أن ما ينيف على ألف طبيب نفسي يوقنون بأن غولدواتر معتل نفسياً وغير لائق للرئاسة. وغداة الانتخابات، قاضى غولدواتر المجلة بتهمة التشهير وظفر بقضيته.

وفي عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف، صاغت الجمعية الأمريكية للطب النفسي مبدأً توجيهياً أخلاقياً نصت فيه على أن الأطباء النفسيين حري بهم أن يكونوا فاعلين في المجتمع، بيد أنها أدرجت تحذيراً مخصوصاً ينص على أنه لا ينبغي للأطباء النفسيين الأعضاء في الجمعية أن يطرحوا

تشخيصاً أو رأياً مهنياً حول شخصية عامة إذا انتفى شرطان: أ) نيل موافقة ذلك الشخص، و ب) إخضاعه لفحص شخصي.

ومن ثم، لا ينبغي إبداء أي تعليق مهني ينهض على معلومات مبذولة للعوام حيث ينتفي هذان الشرطان.

وألح الدكتور أبيلباوم على معضلة مفادها أنه في كل دورة انتخابية، كل أربع سنين ولما ينيف على أربعة عقود، دأب الأطباء النفسيون على إبداء آرائهم في المرشحين، غالباً في الجناح اليميني (كترامب وبوش)، وتارة في اليسار (ككلينتون). وحاجج الدكتور أبيلباوم بأن أمثال هذه الآراء المهنية تقتفي أبداً، وبلا استثناء، أثر الميول السياسية لأولئك الأطباء. ولاحظ أن الأطباء النفسيين يسوقون آراءً متباينة في التشخيصات—كاضطراب تشتت الانتباه، والاعتلال الاجتماعي، والنرجسية، والاضطراب ثنائي القطب—للشخص عينه. وقرر أنه حين تُطرح تشخيصات جمة، يسع المرء أن يخلص إلى أنها قاطبة باطلة.

وفي خضم هذه الجلبة من الآراء التي تسوقها السياسة، حاجج الدكتور أبيلباوم بأنه من انعدام المسؤولية أن يبذل الأطباء النفسيون آراءً مهنية حول الشخصيات العامة، ومن ثم فإن قاعدة غولدواتر مبررة.

أما المتحدث الثاني فكان الدكتور جيرولد إم. بوست، أستاذ الطب النفسي وعلم النفس السياسي والعلاقات الدولية في جامعة جورج واشنطن، وكبير الأطباء النفسيين في وكالة الاستخبارات المركزية لما ينيف على عقدين من الزمان. ولقد وصف الدكتور بوست كيف أسهم، في أوائل التسعينيات، في صياغة ملف سياسي لصدام حسين إبان حرب الخليج الفارسي. وأفضى مقال في صحيفة نيويورك تايمز حول عمله إلى رسالة من مسؤول في الجمعية الأمريكية للطب النفسي تثير هواجس من أن عمل الدكتور بوست يجافي الأخلاق وينتهك قاعدة غولدواتر.

ووصف الدكتور بوست كيف أن مسيرته المهنية قاطبة قد انطوت على تقييمات نفسية وطبية لقادة سياسيين لم يفحصهم شخصياً قط ولم ينل موافقتهم. ومع ذلك، فإن هذا العمل كان ذا شأن للأمن القومي والمصالح السياسية للولايات المتحدة، وهو عمل نال عنه تقديراً مهنياً من لدن مهنة الطب النفسي وحكومة الولايات المتحدة على حد سواء.

بيد أنه استشعر قيود قاعدة غولدواتر تارة إلى حد التمزق الأخلاقي. وساق مثالاً على ذلك حين حوصر المتطرف الديني ديفيد كوريش في عام ثلاثة وتسعين وتسعمائة وألف، إذ أُجريت مقابلة تلفزيونية مع الدكتور بوست، فاستشعر العجز عن الجهر بما يوقن به حقاً، ألا وهو أن كوريش يحوز سمات خلاصية بعينها قد تؤول إلى قتل جماعي، وهو ما وقع

بالفعل. وبدلاً من ذلك، كان مكتب التحقيقات الفيدرالي يتلقى المشورة من خبير صحة نفسية غير طبيب، حكم بأن كوريش "معتل اجتماعياً"، وأنه يسع ترهيبه لحمله على الإذعان (كما بالضجيج والموسيقى الصاخبة)، وهو زلل كان مهلكاً لكثيرين في مجمع كوريش. وعلى مر السنين، تساءل الدكتور بوست عما إذا كان صمته، الذي ساقه التوجس من قاعدة غولدواتر، قد أسهم في أحكام مكتب التحقيقات الفيدرالي الباطلة، مما أفضى إلى حصد أرواح تفوق ما كان ليقع لولا ذلك.

ورأى الدكتور بوست أن قاعدة غولدواتر مفرطة في الصرامة وتفتقر إلى المراجعة وتضييق نطاقها.

وحري بالذكر أنه في مارس من عام سبعة عشر وألفين، أصدرت لجنة الأخلاقيات في الجمعية الأمريكية للطب النفسي تفصيلاً لقاعدة غولدواتر، وكان مرد ذلك في المقام الأول إلى القلق المتفاقم إزاء الرئيس الأمريكي الراهن، حيث أُبيح استثناء للتنميط السياسي بتفويض من الحكومة، كما في عمل الدكتور بوست. كما أُبيح استثناء للتنميط الشرعي بأمر قضائي، وللتاريخ النفسي للشخصيات العامة الراحلة.

بيد أن الجمعية زعمت أن هذه السيناريوهات استثنائية ونادرة ولا تبدل الأساس المتين لقاعدة غولدواتر، ألا وهو أنه في السواد الأعظم من

الحالات، يفتقر الأطباء النفسيون إلى فحص المريض مباشرة ونيل موافقته قُبيل إبداء رأي مهني.

وعلاوة على ذلك، وسع بيان مارس لعام سبعة عشر وألفين من قيود قاعدة غولدواتر لتتجاوز مجرد إطلاق تشخيص فعلي؛ إذ نص على أن أي ضرب من ضروب الرأي المهني—حتى التعليق على مسلك شخص آخر، وإن خلا من حكم تشخيصي—غير مباح.

وتصدت المتحدثة الثالثة، الدكتورة كلير باونسي، لبعض هذه المزاعم المخصوصة للجنة الأخلاقيات في الجمعية. والدكتورة باونسي هي الرئيسة السابقة المباشرة لجمعية الارتقاء بالفلسفة والطب النفسي. وهي طبيبة نفسية ممارسة في فيلادلفيا وتحوز درجة الدكتوراه في الفلسفة أيضاً. وكان قطب الرحى في حديثها هو أن الأخلاق لا تقتصر على "القواعد"؛ ولا تنحصر في أوامر النواهي والمباحات. تارة يكون الأمر كذلك. فمن المُسَلَّم به أنه قاعدة، وينبغي أن يكون كذلك، ألا يقيم الأطباء النفسيون علاقات جنسية مع مرضاهم.

بيد أن هذا الضرب من الجدل الأخلاقي الصارخ ذي الخطوط الحمراء لَنَادِرٌ. فجل الأحكام الأخلاقية تكتنفها الفروق الدقيقة؛ وتنطوي على قيم متضاربة، ومآلات متباينة، وآراء متناحرة. ونادراً ما يلوح قرار صائب أو

خاطئ بجلاء. وفي السواد الأعظم من الحالات، يُضطر بنو البشر إلى صياغة أحكام أخلاقية على نحو معقد. والقاعدة البسيطة لا تجدي نفعاً. وهذا ما يُدعى "الفاعلية الأخلاقية".

وحاججت الدكتورة باونسي بأن الأطباء النفسيين الأعضاء في الجمعية لَحَقِيقُونَ ببعض الإجلال والثقة من لدن منظمتهم المهنية الكبرى. فحري أن يُؤذن لهم بإعمال فاعليتهم الأخلاقية وصياغة أحكامهم الخاصة حول ما إذا كان ينبغي لهم التعليق على الشخصيات العامة، وكيف، وعلى أي أساس. وإن الزعم بأن أي تعليق على الشخصيات العامة يجافي الأخلاق لَهُوَ زعم مشكوك فيه من منظور أخلاقي، لأن الأخلاق لا تسير على هذا النحو. وبدلاً من إملاء ما يسع الأطباء النفسيين فعله وما لا يسعهم في هذا الخطب، لكان من الأقوم التباحث في الأبعاد الأخلاقية للمعضلة، وتدارس متى يسع المرء أو ينبغي له أن يناقش الشخصيات العامة، ولأي غايات. وإن نهجاً كهذا لَأَشَدُّ إجلالاً للفاعلية الأخلاقية للأطباء النفسيين، بدلاً من تنصيب الجمعية حكماً أوحداً للأخلاق. ومما يُفهم أن بعض المسالك مستهجنة وتستوجب حظراً جلياً، كالعلاقات الجنسية مع المرضى. بيد أن النقاش النفسي حول الشخصيات العامة ليس مسلكاً من هذا القبيل.

وكنت أنا المتحدث الرابع، واستهللت حديثي بنقطتين نهضتا على تصريحات سالفة في المنصة.

سقت النقطة الأولى بأن الإلحاح على ضرورة الموافقة والفحص المباشر لا يعكس الممارسة التشخيصية النفسية الراهنة، كما سأبين أدناه، بل يعكس ممارسة العلاج النفسي، التي كانت قطب الرحى في الطب النفسي إبان الستينيات والسبعينيات، والتي ما انفكت تحوز أهميتها، بيد أنها تفترق عن سيرورة التشخيص النفسي.

وثانياً، حاججت بأن الزعم بأنه لولا قاعدة غولدواتر لسادت فوضى من الآراء النفسية، لَيَنْطَوِي على مسلمات نسبية/عدمية بعينها حول الطب النفسي. فإن نحن سلمنا بالرؤية القائلة بأنه لا ينبغي لنا أن نجهر بشيء في العلن لأن الأطباء النفسيين يحوزون رؤى متباينة (كاضطراب ثنائي القطب مقابل اضطراب تشتت الانتباه مقابل الاعتلال الاجتماعي مقابل النرجسية)، وكلها باطلة، فلزامٌ علينا أن نقر بأن الأطباء النفسيين لا يفقهون ما يتحدثون عنه ببساطة. ومن ثم لا ينبغي لهم أن ينطقوا بشيء. ويقيناً لا تبتغي الجمعية الإقرار بمثل هذا الجهل المطبق. فإن فعلت،

فستكون الجمعية قد سلمت بالطعن الجوهري لجماعات مناهضة الطب النفسي، ألا وهو أنه لا حقيقة في التشخيصات النفسية.

وإن منظور ما بعد الحداثة هذا، إن اتُخذ أساساً للرقابة الشاملة والمطلقة لقاعدة غولدواتر، لَيَتَنَاقَضُ في حد ذاته مع أخلاقيات العلم، التي تنطوي على النقاش الحر للفرضيات المتناحرة بيقين أن الحقيقة—التي هي خطأ مُقَوَّم—ستنجلي في نهاية المطاف. فالعلم ينطوي على دحض الفرضيات الباطلة، لا فرض الرقابة عليها.

ثم انعطفت شطر ملاحظاتي الكبرى، والتي انطوت على مقاربة معضلة قاعدة غولدواتر من منظورين: أ) مسوغها المزعوم في بيان لجنة الأخلاقيات بالجمعية في مارس لعام سبعة عشر وألفين، و ب) الرؤى المستقاة من حقل التاريخ النفسي.

لقد ساق بيان الجمعية في مارس لعام سبعة عشر وألفين ثلاث علل لمناصرة قاعدة غولدواتر: الموافقة، ومعايير التشخيص، والوصمة. وقلت إن الرؤية القائلة بأن الموافقة هي شطر من الممارسة السريرية المعهودة لَتُدْحَضُ بالممارسة المألوفة في غرف الطوارئ، حيث غالباً ما يُعاين مرضى تجلبهم الشرطة، أو الأصدقاء، أو العوام، وغالباً ما يكون ذلك رغماً

عنهم. فمن المألوف أن يقع التقييم والتشخيص النفسي بغير موافقة المريض في غرفة الطوارئ. ومن ثم، فإن هذه ليست ممارسة نادرة، على النقيض مما تذهب إليه قاعدة غولدواتر. وفيما يخص معايير التشخيص، فإن الفحص المباشر للمريض غالباً ما لا يكون مقتضى أو نافعاً في الممارسة النفسية. ففي حالات الفصام والهوس، ينكر شطر المرضى أعراضهم. وفي الهوس الخفيف، يغدو الأمر أدهى وأمر: إذ ينكر ثلثاهم أعراضهم. وإن هذا الافتقار إلى البصيرة لَهُوَ سمة جوهرية في أكثر الحالات النفسية الجسيمة شيوعاً—الفصام والعلة ثنائية القطب.

وفي هذه المقامات، يغدو الفحص المباشر خلوًا من المعلومات وتطغى عليه المعلومات الجانبية، المستقاة من الأصدقاء أو العائلة أو غيرهم، تماماً كما هو الشأن في تقييم شخصية عامة. ومرة أخرى، فإن هذا الجانب من التشخيص النفسي المعهود لَمَأْلُوفٌ ويناقض قاعدة غولدواتر. كما أُكد على انعدام التخصيص في فحص الحالة العقلية، على النقيض من الفحص "المباشر" في سائر فروع الطب، ومن ثم فإنه يدحض الزعم بأن "الفحص المباشر" جوهري لإطلاق تشخيص نفسي.

وفيما يخص الوصمة، ناقشت المنافع الإيجابية للهوس والاكتئاب، والتي أثبتتها دراسات علمية جمة، حيث يعزز الهوس الإبداع والجلد، في حين يعزز الاكتئاب التعاطف والواقعية. وفي كتابي "جنون من الطراز الأول" (٢٠١١)، جليت كيف أن هذه الأعراض وسمات القيادة كانت حاضرة في بعض من أعظم قادتنا السياسيين، والعسكريين، والتجاريين. ولقد ضم هؤلاء القادة، من بين آخرين، أبراهام لينكولن ووينستون تشرشل، اللذين كابدا نوبات اكتئابية جسيمة، فضلاً عن فرانكلين روزفلت وجون كينيدي، اللذين حازا أعراض هوس خفيفة كشطر من شخصيتيهما (مزاج مفرط النشاط). فالهوس هو حالة من تسارع أفكار المرء، ومشاعره، وسلوكه، وغالباً ما يقترن بالإبداع والإنتاجية. بيد أن الوجه الآخر هو أنه قد يهيئ المرء للاندفاعية والسلوك المتهور أيضاً، ولا سيما إن تفاقمت الأعراض، حتى وإن كان ذلك بصفة عابرة.

ولقد وصفت كيف أن المعرفة المشاعة والمؤكدة حول دونالد ترامب لَتَتَّسِقُ مع أعراض الهوس: كتشتت الانتباه، وتدني الحاجة إلى النوم، والطاقة البدنية والجنسية العاتية، والثرثرة، وتعظم تقدير الذات. وإن هذه الأعراض لَمُطَّرِدَةٌ، وشطر من شخصيته، كما هو الشأن مع المزاج مفرط النشاط. وكما هو الحال مع القادة الآخرين سالفي الذكر، ثمة بعض

المنافع لسمات الهوس هذه، كإبداعه في حياته التجارية فضلاً عن حملته الرئاسية. وثمة بعض المثالب، كاندفاعيته الجنسية الظاهرة في حياته الشخصية واحتمالية اتخاذ قرارات اندفاعية خطرة في حياته السياسية. ومن ثم، فإن إطلاق تشخيص على أمثال هؤلاء الأشخاص لا يوصمهم بالضرورة؛ بل الحق أنه يسعه وينبغي له أن يكون النقيض: فهو يحد من الوصمة ببيان منافع بعض الحالات النفسية. وإن قاعدة غولدواتر لَهِيَ في حقيقتها موصمة، لأنها تفترض أن التشخيص النفسي أمر سيئ، ومؤذٍ، وتحقيري.

وأخيراً، ألححت على أن الشخصيات العامة تتنازل عن بعض حقوق الخصوصية إن هي رامت أن تغدو مسؤولين منتخبين، كالرؤساء. ففي الديمقراطية، يُنتخب القائد بناءً على رضا المحكومين. ولا يسع المحكومين أن يرضوا رضا تاماً إن كانوا غافلين أو إن حُجبت عنهم معلومات مفصلية حول قادتهم. وإن هذا لَمُسَلَّمٌ به على نطاق واسع الآن فيما يخص الأمراض الطبية قاطبة، باستثناء الحالات النفسية، لأن قاعدة غولدواتر موصمة وتناقض مزاعم ابتغاء التكافؤ بين العلل الطبية والنفسية. لقد كابد وودرو ويلسون سكتة دماغية وهو في منصبه؛ ومن المُسَلَّم به الآن أن

العوام كان لهم الحق في المعرفة، بدلاً من حجب المعرفة، مما أفضى إلى حكم فعلي من لدن السيدة الأولى.

ولقد وصفت حالتين مفصليتين أخريين تنطويان على أبعاد نفسية. فقد كابد جون كينيدي داء أديسون، الذي ووري عن العوام إبان حملاته الانتخابية، والذي أورثه اكتئاباً جسيماً تارة واقتضى علاجاً بالستيرويد. ولقد وثقت في "جنون من الطراز الأول" (٢٠١١) أن كينيدي أساء استخدام حقن التستوستيرون لعامين من أعوامه الرئاسية الثلاثة، وهي أوقات كانت فيها قيادته متخبطة وأحكامه غالباً ما تجافي الصواب. وإن تدخلاً من لدن طبيب البيت الأبيض الأدميرال جورج بيركلي قد أفضى إلى خفض هائل في إساءة كينيدي لاستخدام الستيرويد، قُبيل دنوه من حافة حرب نووية في أزمة الصواريخ الكوبية. أما أدولف هتلر فقد كابد علة ثنائية القطب، في تقديري، وهو ما ثبت بناءً على وثائق قدمتها، وتلقى أمفيتامين وريدي، يومياً من عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف حتى مماته، لحالاته الاكتئابية الجسيمة، مما فاقم من حالات هوسه. ولقد دبر الدكتور كارل بونهوفر، رئيس المستشفى النفسي الرئيس في برلين ووالد قائد المقاومة النازية العظيم ديتريش بونهوفر، مكيدة مع جنرالات في عام سبعة وثلاثين وتسعمائة وألف لاعتقال هتلر، وإعلان جنونه، والزج به

في مصحة. فهل كان صنيع بونهوفر المخطط له لينتهك قاعدة غولدواتر؟ أهو مجافٍ للأخلاق، ويضاهي إقامة علاقة جنسية مع المرضى؟

وجماع القول، كانت رؤيتي هي أن العوام يحوزون أيضاً الحق في الوقوف على الحالات النفسية لقادتهم، تماماً كما هو الشأن فيما يخص العلل الطبية، لأن التشخيصات النفسية تلقي بظلالها على القيادة، لا للشر فحسب بل للخير أيضاً. ولقد نافحت عن إباحة مناقشة الشخصيات العامة بتشخيصات صحيحة علمياً (كالعلة ثنائية القطب في مقابل "اضطراب الشخصية النرجسية") وبغير نوايا سياسية مخصوصة، بل للإسهام في النقاش العام بنهج سليم علمياً ومسؤول أخلاقياً.

وكان المتحدث الأخير هو المناقش الدكتور بول سمرغراد، الرئيس الأحدث للجمعية الأمريكية للطب النفسي ورئيس قسم الطب النفسي في مركز تافتس الطبي. ولقد وافق الدكتور أبيلباوم الرأي ولاحظ أن الدستور يبيح تأليف هيئة من الخبراء لفحص اللياقة البدنية والعقلية للرئيس، إن دعت الحاجة. ولاحظ أن قاعدة غولدواتر ليست آلية عامة لفرض الرقابة على الأطباء النفسيين، بل هي، بالأحرى، سياسة للجمعية، تسري على أعضائها فحسب. فأي طبيب نفسي حر في التعليق على

الشخصيات العامة كما يشاء، بغض الطرف عن قاعدة غولدواتر، ما دام ليس عضواً في الجمعية، أو إن رام التخلي عن تلك العضوية. فليس ثمة مآلات قانونية أو ترخيصية أوسع قد تدخل حيز التنفيذ.

وفي خضم نقاش مستفيض أعقب ذلك، أعرب بعض الحضور عن توجسهم من فوضى في الآراء قد تعقب غياب قاعدة غولدواتر، ورأى البعض أن النقاش ينبغي أن يقتصر على الخبراء السياسيين، كالدكتور بوست. وألح الدكتور ألين داير، الذي كان عضواً في لجنة أخلاقيات الجمعية التي أقرت صياغة عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف الأصلية، على أن المفهوم لم يُقصد به قط أن يكون "قاعدة" بل "تحذيراً" مُنح في سياق إباحة دور للأطباء النفسيين كمواطنين في الحياة الاجتماعية والسياسية. ولقد تناقض هذا المنظور مع رؤية الدكتور أبيلباوم القائلة بأن القاعدة لا تغدو قاعدة إن كان يسع خرقها.

تحديث: بعد انقضاء حول

بعد انقضاء حول على هذه الندوة، لم يلوح أي حراك داخل الجمعية لتبديل قاعدة غولدواتر. لقد استقال بعض الأعضاء البارزين في الجمعية احتجاجاً، بيد أن جل كبار الأطباء النفسيين، بمن فيهم أولئك الذين يعارضون القاعدة، لم يقدموا على أمثال هذه الخطوات. ولقد طرحت مقترحاً رسمياً لمطالبة لجنة الأخلاقيات بإحداث تبديلات يسيرة في المبدأ التوجيهي الأخلاقي، بتبديل لغة الإلزام ("يجب") إلى التوصية ("يجوز"). بيد أن هذا المقترح قوبل بالرفض. وبدلاً من ذلك، تظل الرؤية السائدة في الجمعية هي أن قاعدة غولدواتر ينبغي أن تبقى على حالها، وأنها ينبغي أن تُعزز أبعد من ذلك، كما في تحديث مارس لعام سبعة عشر وألفين.

وجماع القول، إن التيار السائد لمهنة الطب النفسي الأمريكية قد نكص أبعد من ذلك عن الانخراط مع المجتمع.

لقد طرح عدد من المراقبين تنويعات على مقترح يسير من شأنه أن يكسر جمود قاعدة غولدواتر. ويسع الحل أن يستهل على النحو الآتي: يُلزم القادة السياسيون قاطبة بتقديم إفصاح مالي وطبي تام إبان حملاتهم. وينبغي لهم الكشف عن ضرائبهم بالكلية والخضوع لمجلس طبي مستقل،

يضم أطباء نفسيين، يراجع سجلاتهم الطبية، ويفحص المرشح، ويصدر تقريراً طبياً ونفسياً تاماً للناخبين. إن مزاعم الخصوصية لَفِي غير محلها. فهؤلاء القادة يسعهم أن يأمروا الآلاف بالسير إلى حتفهم. فحري بهم أن يجلوا حقيقتهم لأولئك الذين يرومون قيادتهم. وفي كنف الديمقراطية، هذا مطلب عادل. وأي تشخيصات نفسية يُخلص إليها ينبغي أن تكون مشرعة لنقاش منصف، وقائم على أسس علمية من لدن خبراء في تلك الحالات.

وإن هذه التحولات لَتَتَجَنَّبُ المزالق التي أفضت إلى قاعدة غولدواتر وستقي المجتمع الأمريكي من قادة يضمرون ما يوارونه. وعلاوة على ذلك، فإنها ستتيح للحالات النفسية أن تخرج من غياهب التحيز، لتُقدر في وضح النهار لمنافعها، لا لأخطارها فحسب.

فإن أخفق الطب النفسي الأمريكي في التخلي عن رقابته الذاتية الصامتة الراهنة، فإنه يجازف باقتفاء أثر الطب النفسي السوفيتي. ففي الاتحاد السوفيتي، كان المنشقون يُودعون في المستشفيات النفسية، ويُشخصون بالفصام (ففي نهاية المطاف، كان رفض الشيوعية ضرباً من الضلال)، بل

ويُعالجون بأدوية مضادة للذهان. ولئن كان هذا النهج مستبعداً في ديمقراطية، فإن زلات أمريكا ستكون زلات إغفال.

يقبع الطب النفسي الأمريكي على الهامش، في حين يقرع رئيس خصومه ناعتاً إياهم بـ "المجانين" و"المخابيل"، فاراً من الواجب المهني في محاربة التحيز ضد العلة النفسية، حتى وإن—ولا سيما إن—صدر ذلك عن رئيس الولايات المتحدة. يقبع الطب النفسي الأمريكي على الهامش، في حين يُظهر زعيم ذو نزعة سلطوية تعاطفاً مع قاعدته السياسية وعداءً لمن يخالفونه. تندلع مظاهرات للنازيين الجدد ولا تُستنكر. وتُسخر الأمم غير البيضاء بألفاظ نابية، ويُحط من قدر المسلمين، ويُشتم المهاجرون الهيسبانيون. وتُتجاهل ادعاءات الخيانة والتحرش الجنسي أو تُسلب مصداقيتها. وتُحتضن بعض الأمم والقادة، ويُنبذ آخرون ويُعزلون، بمسوغات تثير الريبة. ويتصاعد خطر الصراع العسكري في بعض الأقاليم المتأثرة، كالشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن مهنة الطب النفسي—التي تحوز الكثير لتبذله للنقاش العام حول كراهية الأجانب، والسيكولوجية الاجتماعية للتحيز الجنسي، وغوائل الحرب والعنف—تلوذ بالصمت.

إن الطب النفسي الأمريكي لَيَلُوذُ بالصمت حين تشتد الحاجة إلى نطقه. وبذلك يقترف الخطيئة التي عدها رئيس من طراز مغاير، جون كينيدي، أسوأ الخطايا طراً، والذي، في اقتباس محرف من "جحيم" دانتي، طالما ردد: "إن أشد بقاع الجحيم استعاراً لَمُحْتَجَزَةٌ لأولئك الذين يؤثرون الحياد في أزمنة الأزمات الأخلاقية".

هل القائد العام أهلٌ للخدمة؟

اختبار غير حزبي يزاوج بين معايير القيادة في الجيش الأمريكي ونظرية التحليل النفسي

في الأشهر الأولى من رئاسة دونالد ترامب، أفضت صدمة سلوكه المتخبط والذي لم يُعهد له مثيل إلى توجيه عناية عظمى للتعديل الخامس والعشرين للدستور. وهو التدبير، المُقر في عام سبعة وستين وتسعمائة وألف، الذي يبيح عزل الرئيس في حال كان "عاجزاً عن الاضطلاع بسلطات ومهام" منصبه.

وكما تشهد الفصول الأخر في هذا السفر، كان كثير من خبراء الصحة النفسية حينئذ يصارعون خطب استقرار ترامب العقلي فضلاً عن الصراعات المتعلقة بأخلاقيات الجهر بذلك علانية.

بيد أن ما يقل تدارسه هو اللغة المخصوصة للتعديل الخامس والعشرين. فما الذي تعنيه "القدرة على الاضطلاع بسلطات ومهام المنصب" على وجه الدقة؟ فإن حُفز نائب الرئيس ومجلس الوزراء، عند منعطف ما، لاتخاذ هذا القرار، فما هو المعيار الذي سيتوسلون به لبلوغ ذلك؟

إنني أوقن أننا نفتقر إلى تعريف عقلاني، ومستفيض، ومتسق للملكات العقلية المقتضاة للاضطلاع بـ "سلطات ومهام" الرئاسة.

ولئن كانت ثمة أسفار كُدست لرسم معايير الاضطرابات النفسية، فإنه لمما يثير العجب أن نلفي نزراً يسيراً من الأدبيات النفسية التي تُعَرِّفُ الأهلية العقلية، وأقل من ذلك فيما يخص الملكات المخصوصة المقتضاة للخدمة في مناصب ذات مسؤولية جسيمة. وعلى الرغم من آلاف المقالات والكتب التي سُطرت حول القيادة، ولا سيما في مضمار الأعمال، لم أقع إلا على مصدر أوحد بُسطت فيه الملكات الضرورية للقيادة الاستراتيجية بجلاء وشمول: ألا وهو الدليل الميداني للجيش الأمريكي ٦-٢٢ لتطوير القادة.

إن الدليل الميداني للجيش حول القيادة لَوَثِيقَةٌ بالغة الثراء، تنهض على بحوث نفسية ونظرية نفسية رصينة، فضلاً عن القيم والممارسات العسكرية. وهو يُجلي الملكات الجوهرية التي يفتقر إليها قادة الجيش للاضطلاع بمهامهم. وإن المبادئ المبسوطة في دليل الجيش لَتَتَنَاغَمُ تناغماً مذهلاً مع الملكات التي تُعرف بـ "وظائف الأنا" في التحليل النفسي و"الوظائف التنفيذية" في علم النفس النمائي.

وفي جوهرها، فإن وظائف الأنا والوظائف التنفيذية هي الملكات العقلية العليا التي تمكننا من الأداء كبالغين مسؤولين يسعهم الوفاء بعهودهم لأنفسهم ولمجتمعاتهم. إنها السمات والملكات الأصيلة التي تتيح لنا التخطيط، والتعلم، والتواصل، والسيطرة على أنفسنا، والتريث، واستشراف مآلات الأفعال، ومراقبة انفعالاتنا واندفاعاتنا وترويضها، وتحمل المسؤولية عن سلوكنا، وهلم جرا. إنها، باختصار، كل ما نرتقبه من بالغ ناضج، عالي الأداء، ومعافى.

وإن تقييم أهلية الرئيس متوسلين بالمبادئ المبسوطة في الدليل العسكري لَيُؤَدِّي وظيفة اجتماعية/سياسية نفيسة. فبدلاً من التعويل على الخبرة النفسية أو التحليلية النفسية—خبرتي أو خبرة أي طبيب سريري آخر—لاقتراح ما يُشكل "القدرة على الاضطلاع بالمهام"، فإن معايير الجيش الأمريكي التي لا تُدحض لَهِيَ أطوع للاستخدام وأعظم أثراً. فهي بطبيعتها مجردة من السياسة وتنأى عن التساؤل المشحون حول ما إذا كان المرء يشخص شخصيات عامة. وإن السيكولوجية التي تنهض عليها لَرَصِينَةٌ.

وعلاوة على ذلك، فإن هذه المعايير تُلِحُّ على الأداء والسلوك بدلاً من حضور أو غياب الباثولوجيا النفسية. فلقد خلصت دراسة ذائعة الصيت الآن (ديفيدسون وآخرون ٢٠٠٦) راجعت معدل انتشار العلة النفسية في رؤساء الولايات المتحدة إلى أن ٤٩ بالمائة من الرؤساء استوفوا معايير اضطراب نفسي. ولقد استُشهد بهذه الدراسة حتى من لدن بعض النقاد المحافظين في تهجماتهم على الأطباء النفسيين الذين علقوا علانية على دونالد ترامب. والحق أن حالتي أبراهام لينكولن وونستون تشرشل، واللذين يُظن أنهما كابدا اضطرابات وجدانية جسيمة، لَهُمَا شاهد على أن التشخيصات النفسية لا تتنافر مع القيادة العظيمة. بيد أن افتقار المرء إلى الشخصية، والانضباط، والقدرة على التفكير، يتنافر تنافراً قاطعاً مع القيادة المسؤولة.

ويَسَعُ المرء أن يستخلص من صفحات الدليل المكتظة البالغة ١٣٥ صفحة خمس خصال حاسمة:

الثقة

بحسب الجيش، فإن الثقة لَرُكْنٌ رَكِينٌ لأداء أي فريق أو تحالف في أي مقام: "يصوغ القادة المناخ الأخلاقي لمنظمتهم في حين يرسون دعائم الثقة والعلاقات التي تتيح القيادة القويمة". وإن القائد الذي يعاني قصوراً في القدرة على الثقة لا يبذل جهداً يُذكر لدعم الآخرين، وقد يكون معزولاً ومستعصياً على الدنو، وقد يتبلد إزاء التمييز، ويأذن للمسالك المفتقرة إلى الثقة بالبقاء بين أعضاء الفريق، ويقطع وعوداً تجافي الواقع، ويفرط في التركيز على تلميع ذاته.

الانضباط والسيطرة على الذات

يقتضي الدليل أن يُظهر القائد سيطرة على سلوكه وأن يوائم سلوكه مع قيم الجيش الجوهرية: "الولاء، والواجب، والاحترام، والخدمة المتجردة من الأنانية، والشرف، والنزاهة، والشجاعة الشخصية". فالقائد المنضبط لا يكابد نوبات انفعالية أو يتصرف باندفاعية، ويحافظ على رباطة جأشه في المواقف الضاغطة أو العسيرة. وبغير الانضباط والسيطرة على الذات، قد يعجز القائد عن مقاومة الإغراء، أو الحفاظ على تركيزه رغم المشتتات، أو اجتناب الفعل الاندفاعي أو التفكير قُبيل الوثوب إلى

استنتاج. وإن القائد الذي يخفق في إظهار الانضباط لَيَسْتَجِيبُ "بانفعال باطني أو بغضب حين يتلقى أخباراً سيئة أو معلومات متضاربة"، و"يأذن لانفعالاته الشخصية بتوجيه القرارات أو توجيه الاستجابات للمواقف المشحونة وجدانياً".

في الطب النفسي، نتحدث عن "المرشحات"—وهي أنساق كبح عصبية تمكننا من كبح خطابنا وأفعالنا على نحو لائق حتى حين تحضر أفكار مزعجة أو انفعالات عاتية. وإن الانضباط والسيطرة على الذات لَيَقْتَضِيَانِ أن يحوز الفرد مرشّحاً فاعلاً ومتيناً، لئلا يتفوه أو يأتي بكل ما يسنح في خاطره.

الحكم والتفكير النقدي

إن هذه لَوَظَائِفُ عقلية معقدة ورفيعة المستوى تشتمل على قدرات التمييز، والتقييم، والتخطيط، والبت، والاستشراف، وترتيب الأولويات، والمقارنة. وإن القائد الذي يحوز ملكة التفكير النقدي "يسعى لبلوغ أتم وأدق فهم ممكن"، كما ينص الدليل، ويستشرف "المآلات الأولى، والثانية،

والثالثة لمسارات عمل متعددة". أما القائد الذي يعاني قصوراً في الحكم والتفكير الاستراتيجي فيُظهر تفكيراً متصلباً وعصياً على التكيف.

الوعي بالذات

يقتضي الوعي بالذات القدرة على التأمل والرغبة في ذلك. "إن القادة الواعين بذواتهم لَيَعْرِفُونَ أنفسهم، بما في ذلك سماتهم، ومشاعرهم، ومسالكهم"، كما ينص الدليل. "إنهم يُعملون فهم الذات ويدركون وقعهم على الآخرين". وحين يفتقر القائد إلى الوعي بالذات، كما يلاحظ الدليل، فإنه "يلقي باللائمة جوراً على مرؤوسيه حين تُكابد الإخفاقات" و"ينبذ الآراء التقويمية أو يزهد فيها".

التعاطف

ولعل ما يثير العجب أن الدليل الميداني يلح مراراً وتكراراً على أهمية التعاطف كخصلة جوهرية لقيادة الجيش. فالقائد الفذ "يُظهر فهماً لوجهة نظر شخص آخر" و"يتماهى مع مشاعر الآخرين وانفعالاتهم". ووصف الدليل للقصور في هذا المضمار: "يُظهر انعداماً للاكتراث بكرب الآخرين الوجداني" و"يُبدي عجزاً عن تبني منظور الآخر".

إن الدليل الميداني للجيش لَيَرْقَى إلى أن يكون مرشداً للتعديل الخامس والعشرين. أما ما إذا كان مجلس وزراء الرئيس سيُعمل ذلك التعديل حقاً يوماً ما، فذلك خطب آخر. بيد أن ثمة، على أقل تقدير، سابقة تاريخية واحدة. ولقد قص الصحفيان جين ماير ودويل مكمانوس تلك الرواية الدرامية في سفرهما عام ثمانية وثمانين وتسعمائة وألف، "الانهيار الأرضي: تفكيك الرئيس، ١٩٨٤-١٩٨٨".

قُبيل شروعه في عمله كثالث كبير لموظفي الرئيس ريغان، في أوائل عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف، التمس هوارد بيكر من أحد مساعديه، جيمس كانون، أن يجمع تقريراً عن حالة البيت الأبيض. فأجرى كانون مقابلات مع طاقم البيت الأبيض، بمن فيهم كبار المساعدين العاملين تحت إمرة كبير الموظفين المنتهية ولايته، دونالد ريغان. وفي الأول من مارس، قُبيل يوم واحد من تولي بيكر لمهامه، قدم له كانون مذكرة تعرب عن توجس جسيم من أن ريغان قد لا يكون كفئاً بما يكفي للاضطلاع بمهامه. لقد كان ريغان شارد الذهن وفاقداً للاهتمام، كما أفاد الطاقم المغادر، إذ كان يمكث في الديار لمشاهدة الأفلام والتلفاز بدلاً من الذهاب إلى العمل. "تدبر احتمالية إعمال القسم الرابع من التعديل الخامس والعشرين"، هكذا سطر كانون.

وغداة مطالعته للمذكرة، دبر بيكر رصداً جماعياً لريغان في اليوم التالي. وفي الثاني من مارس، قام بيكر، وكانون، واثنان آخران—كبير مستشاري ريغان، آرثر بي. كولفاهاوس الابن، ومدير اتصالاته، توم غريسكوم—بتمحيص الرئيس، أولاً في اجتماع لمجلس الوزراء، ثم في مأدبة غداء. فلم يلفوا أي خطب. بدا الرئيس على سجيته المعهودة من الدماثة والانخراط. فخلص بيكر، ولعله تنفس الصعداء، إلى أن ريغان لم يكن قاصراً أو معاقاً وأنه يسعهم قاطبة المضي قُدماً في أعمالهم.

ولا ريب أن أموراً جمة قد تبدلت منذ عهد ريغان. فبفضل عادات ترامب على تويتر وغيرها من سمات المشهد الإعلامي المعاصر، غدا فيض أعظم من المعطيات حول سلوكه مبذولاً للجميع—للمواطنين، والصحفيين، وأعضاء مجلس الوزراء، وأعضاء الكونغرس. ونحن قاطبة أحرار في مضاهاة ذلك السلوك المرصود بقائمة الخصال التي يراها الجيش الأمريكي حاسمة للقيادة.

إنني لأحجم عن عمد عن بسط تقييمي المفصل لدونالد ترامب إزاء هذه المعايير الخمسة. إنني أبتغي من كل امرئ، من نائب الرئيس مايك بنس إلى أي مواطن، أن يخلص إلى حكمه الخاص. بيد أن تقييمي الشخصي

هو أن ترامب يخفق في المعايير الخمسة قاطبة، وثمة أمثلة لا تحصى من سلوكه تعضد هذا الحكم. إن ترامب لَقَادِرٌ على إظهار إخفاقه إزاء ملكات القيادة الخمس المقتضاة قاطبة في تغريدة أو اثنتين فحسب.

وهاكم مثالاً واحداً فحسب. في يونيو عام سبعة عشر وألفين، نشر ترامب تغريدتين حول مضيفي البرنامج الحواري "مورنينغ جو"، جو سكاربورو وميكا بريجينسكي، مشيراً إلى "جو المعتل نفسياً" و"ميكا ذات الذكاء المتدني"، مردفاً أن السيدة بريجينسكي كانت "تنزف بشدة من عملية شد وجه". وفي ذينك التغريدتين فحسب، جلى ترامب إخفاقه إزاء ملكات القيادة الخمس المقتضاة قاطبة.

ولقد راجعت قائمة التحقق ذات النقاط الخمس مع الدكتور ريتشارد روب، وهو عالم سياسة يحوز معرفة مستفيضة برؤساء أمريكا في القرن العشرين، ولا سيما ريتشارد نيكسون. ولقد "قيمنا" بصفة غير رسمية ريتشارد نيكسون، وجورج دبليو بوش، وبيل كلينتون، ورونالد ريغان وفقاً للمعايير الخمسة. وحتى أشد هؤلاء الرؤساء اعتلالاً بجلاء، ريتشارد نيكسون، قد أحرز درجات إيجابية في معيارين أو ثلاثة على الأقل من المعايير.

لقد جادلني كثيرون بأن احتمالية إعمال التعديل الخامس والعشرين لَبَعِيدَةُ المنال، ومن ثم فإن التركيز على لغته لا طائل منه. وجوابي هو أن أداة التقييم هذه يُقصد بها، بوجه من الوجوه، أن تكون تجربة فكرية، رُسمت لتستثير الحوار، وفي أحسن الأحوال، لتقض مضاجع الناس.

بيد أن الاحتمالية قد لا تكون نائية كما ظن البعض. ففي الحادي والعشرين من سبتمبر عام ثمانية عشر وألفين، أوردت صحيفة نيويورك تايمز أن نائب المدعي العام رود روزنشتاين قد "تدارس، في العام السالف، حشد أعضاء مجلس الوزراء لإعمال التعديل الخامس والعشرين لعزل السيد ترامب من منصبه لعدم أهليته". وبحسب الصحيفة، فقد انبثق توجس روزنشتاين في أعقاب إقالة ترامب لمدير مكتب التحقيقات الفيدرالي جيمس كومي، وإفشائه لمعلومات استخباراتية سرية في لقاءات مع الروس في البيت الأبيض، والتقارير التي تفيد بأن ترامب قد التمس سالفاً ولاء كومي. وكانت مصادر الصحيفة مسؤولين مجهولين في وزارة العدل ومكتب التحقيقات الفيدرالي حضروا اجتماعاً مع روزنشتاين حيث يُزعم أن تلك الهواجس قد أُثيرت. وكان رد روزنشتاين على قصة الصحيفة هو: "إن قصة نيويورك تايمز مجانبة للدقة وباطلة واقعياً"، وأبى أن يزيد على ذلك.

فما هي المآلات على الجيش إن لم يسعهم أن يأتمنوا القائد العام على استيفاء معايير الجيش ذاته لملكة القيادة؟ لقد طرحت هذا التساؤل على اللفتنانت جنرال المتقاعد مارك هيرتلينغ، وهو محلل عسكري وأمني واستخباراتي لشبكة سي إن إن، والذي تصدى لتعليقات شتى تفوه بها الرئيس في سالف الأيام. وهيرتلينغ هو أيضاً خبير في أنموذج قيادة الجيش، ويتوسل به حالياً كأداة لتدريس القيادة في القطاع الخاص، ولا سيما لقادة الرعاية الصحية.

قال لي الجنرال هيرتلينغ: "إنه لمفهوم مُسَلَّم به في القيادة العسكرية أن يسعى من يتبوأون مناصب السلطة باطراد لإرساء دعائم الثقة مع من يخدمون. فإن لم يعمد قادة كالقائد العام إلى بناء تلك الثقة باطراد عبر أقوالهم وأفعالهم، فقد يؤول ذلك في نهاية المطاف إلى أثر مهلك".

وألح على أن الخطب الجوهري هو أن "ثمة مآلات حين يطلب منا أن نأتي بأفعال تجافي القانون أو الأخلاق".

وفي السابع من مارس عام ستة عشر وألفين، أطل هيرتلينغ على شبكة سي إن إن ورد على زعم المرشح ترامب آنذاك، في مناظرة قريبة العهد، بأن الجيش سيمتثل لأوامره بتعذيب المشتبه في كونهم إرهابيين أو قتل عائلاتهم، وهي أفعال تُعد جرائم حرب. (ولقد نكص ترامب لاحقاً عن موقفه وقال إنه لن ينتهك القوانين الدولية).

قال هيرتلينغ، في إطلالته تلك على سي إن إن: "لقد قال السيد ترامب إنه سيأمر الجيش بفعل هذا وسيفعلون—وأقتبس—'سيفعلون ما آمرهم به، لن يعصوا أمري، إن قلت افعلوه فسيفعلونه'".

وأردف قائلاً: "إنها قيادة مسمومة. ولزامٌ على أحدهم أن يذكر السيد ترامب بأن الجيش ليس حرس قصر. إنهم يقسمون يميناً للذب عن دستور الولايات المتحدة ضد الأعداء قاطبة، في الداخل والخارج".

لست أدعي تنصيب نفسي خبيرة في القيادة العسكرية، ولئن كانت قد خلبت لبي عميقاً لأمد بعيد، كما سأبين أدناه. وفي تطويري لأنموذج القيادة هذا الذي يتيح لأي امرئ مهموم أن يتحقق مما إذا كان الرئيس يحوز الكفاءات الضرورية من الشخصية والقدرة المعرفية للاضطلاع بمهامه، لم

تكن غايتي تصوير "نسخة مخففة من القيادة العسكرية" بل بالأحرى ابتكار أداة للمدنيين تركن إلى مصدر لا يُدحض سياسياً.

لقد رمت في بادئ الأمر أن أُدرج "الصدق والقدرة على اختبار الواقع" في الأنموذج. فاختبار الواقع هو القدرة على الفصل بين عالم المرء العقلي الباطن وبين الواقع الموضوعي. فكلنا يحوز رغبات، وخيالات، وأفكاراً وانطباعات تسوقها الانفعالات. وإن أداء البالغ لَيَرْتَهِنُ بالقدرة على التمييز بين ما نعلم يقيناً أنه حق موضوعي وبين ما نتمنى أو نخشى أن يكون حقاً. ولقد استشعرت أن ثمة تساؤلات جسيمة حول قدرة السيد ترامب على الفصل بين الواقع الموضوعي وخيالاته ورغباته. كما تواترت شواهد موثقة وتبعث على الروع بأنه لا ينطق بالحق. بيد أنني آثرت ألا أُدرج هذه الملكة الجوهرية الإضافية في أنموذجي لأنها لم تكن شطراً من الدليل العسكري ومن ثم كانت لترتكز على ميدان مغاير من السلطة الفكرية. ولقد جال بخاطري أن غياب العناية باشتراط الصدق في دليل الجيش لعل مرده إلى أن القدرة على الصدق وإدراك الفارق بين الخيال والواقع لَهِيَ من المسلمات الراسخة، ومن ثم لم يدر بخلد واضعي دليل قيادة الجيش أن يأتوا على ذكرها

وفي نظرة استرجاعية، وفيما كنت أُعمل الفكر في السيرورة التي خضت غمارها في تطوير هذا الأنموذج، أدركت أن شغفي بثقافة القيادة العسكرية يضرب بجذوره في تاريخ طويل. فكطالبة جامعية غضة في عامي تسعة وستين وسبعين وتسعمائة وألف، أمضيت أشهراً ألازم وأتظاهر مع قدامى المحاربين الذين ألفوا جماعة ناشطة صغيرة، فرع نيو هيفن، كونيتيكت، من "قدامى محاربي فيتنام المناهضين للحرب". وإن الانضباط الحديدي، والثقة المتبادلة، والتفكير الاستراتيجي، والوعي بالذات، والتعاطف الذي عاينته في أولئك المشاة البحريين الشباب المتقدين، والمخلصين، والمصدومين العائدين لتوهم من فيتنام، قد ترك في نفسي أثراً لا يُمحى. لم يكن يسعني أن أصوغ أركان قوتهم في كلمات حينئذ، بيد أنني أغتبط لقدرتي على فعل ذلك الآن. وإن أذن لي القارئ، فوددت لو أهدي هذا الفصل إليهم.

عقولٌ مضطربة

الديمقراطية كدرعٍ واقٍ ضد الشخصيات الخطرة

الدرب إلى الباثوقراطية (حكم المعتلين)

ولئن كانت الخطورة لا ترتهن باضطراب بعينه، فإن البحوث في علم النفس لَتُجْلِي بوضوح أن ثمة عدداً يعتد به من الناس في كل مجتمع على وجه البسيطة يجعلهم تكوينهم النفسي خطرين. فالاعتلال الاجتماعي، واضطراب الشخصية النرجسية، واضطراب الشخصية الارتيابية (البارانوية)، على سبيل المثال، تجعل من المحال على أمثال هؤلاء الأشخاص أن يستشعروا التعاطف مع الآخرين، أو أن يروا الآخرين كأي شيء سوى أشياء تُستغل أو تهديدات تُستأصل، ويستعصي عليهم تصور مفهوم المساواة. وبالنظر إلى هذا الواقع، فقد حان الأوان للإقرار بالدور الذي تلعبه هذه الأقلية حالياً في تقويض الديمقراطية واتخاذ خطوات عاجلة للحد من نفوذهم الخبيث.

يمثل المبتلون باضطرابات خطرة تهديداً للمجتمع حين يتصرفون فرادى. ويتجلى هذا، على سبيل المثال، في النسبة العالية من جرائم القتل التي يقترفها المعتلون اجتماعياً. بيد أن خطراً أعظم بكثير ينبثق حين يتآزر أولئك المبتلون باضطرابات شخصية خطرة. ومن ثم، فإن مفتاح فقه

الخطر الذي يمثله المبتلون بهذه الاضطرابات لَيَكْمُنُ في إدراك كيف تستحيل الاضطرابات الفردية إلى باثولوجيا جماهيرية.

ومن فواجع الأقدار، ثمة شواهد جمة على هذا "الانحدار إلى الباثوقراطية" لتجلي كيف يسع أقلية مرضية أن تبسط سيطرتها على مجتمع بأسره. وتشتمل هذه الأمثلة الفاجعة على ألمانيا هتلر، وروسيا ستالين، وصين ماو، وكمبوديا في عهد بول بوت.

وإن سبر غور ديناميات هذه الأنظمة لَيَكْشِفُ عن تيمتين مشتركتين. الأولى، أن ارتقاء القادة المسمومين إلى سدة السلطة ينجم عما يسميه علماء السياسة "المثلث المسموم". فإن الدور الذي يلعبه المبتلون باضطرابات خطرة في العنف السياسي الجماهيري لا يسع تفسيره محضاً بشخصية القادة الأفراد وحدهم. بل إن صعود القادة الخطرين يقتضي أركان "المثلث المسموم" قاطبة، والتي تتألف من قادة مدمرين، وأتباع سريعي التأثر، وبيئات مواتية. فستالين، وماو، وهتلر، وبول بوت لم يرتقوا سدة السلطة كمجرد أفراد معزولين، بل كأعضاء في أحزاب مرضية يسرت لهم الصعود. وفي كل حالة، لم يقتصر الأمر على أن كثيرين من المقربين من كل طاغية كابدوا هم أيضاً اضطرابات خطرة، بل إن المبتلين بأمثال

هذه الاضطرابات قد لعبوا أدواراً مفصلية، نزولاً حتى مستوى القرى، في تأمين قبضة الجماعة المرضية على السلطة بالعنف. وفي هذه الحالات قاطبة، شكل انعدام الأمن الاقتصادي، والتفكك الاجتماعي، والسخط الجماهيري على هياكل السلطة القائمة الضلع الثالث الحاسم للمثلث المسموم، أي البيئة المواتية، التي أتاحت لكل من هؤلاء القادة المرضيين بلوغ سدة السلطة.

أما السمة المشتركة الثانية لهذه الأنظمة فهي الخرائب المروعة التي يخلفها القادة المضطربون نفسياً حين تتجلى باثولوجيتهم في العالم. فمصانع الموت في ألمانيا النازية، ونسق السجون الجماهيري لغولاغ ستالين، وملايين الضحايا لمجاعة ماو، وجرائم القتل الجماعي في حقول القتل بكمبوديا، ما هي إلا تجليات مروعة لباثولوجيا القادة الذين أرادوها. فأوشفيتز في بولندا وحقل قتل تشويونغ إيك في كمبوديا، على سبيل المثال لا الحصر، هي بقاع رعب في نواظر السواد الأعظم من الناس. بيد أنها، في نواظر مبدعيها المرضيين، كانت بقاع تطهير، بقاع أيقنوا أن التاريخ سينظر إليها بامتنان للخدمة التي أسدوها للبشرية.

ولا ريب أن الأفراد المرضيين لا يحتكرون العنف والجشع. وإن وسم الجناة الرئيسيين للعنف السياسي الجماهيري بأنهم مضطربون نفسياً لا يعفي السواد الأعظم من بني البشر الأسوياء نفسياً من الانخراط في أفعال الشر. إذ يُقدر أن ما يبلغ نصف مليون امرئ قد شاركوا في عمليات القتل في المحرقة النازية. ويُظن أن ما يبلغ ١٥٠,٠٠٠ من الهوتو قد شاركوا في الإبادة الجماعية في رواندا. إن هذه الأرقام لَأَضْخَمُ من أن يكون الجناة قاطبة من المبتلين باضطرابات الشخصية. وإن القول بأن الأسوياء نفسياً يسعهم اقتراف الشر ويقترفونه لَهُوَ من قبيل إيضاح الواضحات. بيد أنه، لبلوغ هذا المنعطف، غالباً ما يكون ثمة دور مركزي ومحفز من لدن قائد مضطرب. ولا ينبغي لنا أن نبخس تأثير المبتلين بالاضطرابات سالفة الذكر في توليد الطغيان والقتل الجماعي.

الديمقراطية كدرعٍ واقٍ

إن الإقرار بوجود أقلية خطرة نفسياً داخل كل مجتمع على وجه البسيطة لَيَقْتَضِي منا أن نرمق الديمقراطية في ضوء مغايرٍ جذرياً. فمن هذا المنظور النفسي، تكمن الغاية الكبرى للديمقراطية في وقاية المجتمع من الدمار الذي يلحقه المبتلون باضطرابات خطرة حين يتبوأون سدة السلطة. فمؤسسات الديمقراطية هي دعائم في نسق من الدفاعات يعمل على الحيلولة دون استيلاء الجماعات المرضية على مقاليد المجتمع.

إن الرواية الراسخة للديمقراطية لَمَأْلُوفَةٌ. فبعد ازدهارها العابر في اليونان القديمة، كادت الديمقراطية أن تتوارى لما ينيف على ألفي عام، وهي حقبة ساس فيها الملوك، والأباطرة، والسلاطين العالم. ولئن كانت ثمة استثناءات لهذه القاعدة العامة، وأبرزها في دول المدن في شمال إيطاليا إبان العصور الوسطى، فإن الاستبداد كان هو العرف العالمي بوجه عام. ولم تشرع الديمقراطية في صعودها الدرامي إلا بعد انبعاثها القوي في الثورتين الأمريكية والفرنسية. وفي غضون القرنين التاسع عشر والعشرين، نمت الحكومات الديمقراطية من أقلية لتغدو، على الورق على الأقل، الشكل

السائد للحكم. واليوم، وعلى الرغم من الانحسار الديمقراطي الراهن، فإن ما ينيف على شطر بلدان العالم ديمقراطية بالكلية أو جزئياً.

وإن منظوراً نفسياً لَيُتِيحُ إعادة سرد هذه الرواية المألوفة. ففي هذا السرد المستحدث، شُيد نسقنا المعاصر للديمقراطية التمثيلية الليبرالية لبنة تلو أخرى على يد من سبقونا، وغالباً في أعقاب الحروب والإبادات الجماعية، للوقاية من تدميرية أقلية خطرة. ولئن كانت الشواهد العلمية على وجود وتفشي الاضطرابات الخطرة غير مبذولة للأثينيين القدماء، أو الآباء المؤسسين، أو الموقعين على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، فإن المآلات المدمرة لهذه الأقلية كانت جلية ومؤلمة لهم قاطبة. وبغير أن يصفوا صنيعهم بلغة علم النفس، كان مهندسو الديمقراطية الليبرالية مع ذلك يشيدون نسقاً دفاعياً للوقاية من القادة المضطربين نفسياً وأتباعهم.

وعبر صراع تلو صراع، أرسى ديمقراطيو الأجيال السالفة الدعائم السبع الآتية التي تؤلف نسقنا المعاصر للديمقراطية التمثيلية الليبرالية. سيادة القانون، التي تسري على الجميع على قدم المساواة بغض الطرف عن الثروة أو السلطة. الديمقراطية الانتخابية، التي توفر الفرصة لإقصاء

الأفراد المضطربين خطراً عن السلطة وعزلهم منها ما إن تتجلى طبيعتهم المدمرة. فصل الكنيسة عن الدولة، والذي يغل أيدي الحكومات عن ترويج دين أوحد ويحرم المتعصبين من فرصة اتخاذ الدين ذريعة للتمييز والاضطهاد. الديمقراطية الاجتماعية، التي تروم الحد من التفاوت الاجتماعي ودرء ذلك الضرب من الانهيار الاجتماعي الذي قد يدفع بالطغاة إلى سدة السلطة. الحماية القانونية لحقوق الإنسان، والتي تروم وقاية كل مواطن من التعسف في استعمال السلطة من لدن الحكومات الوطنية ودرء تمييز الأغلبية ضد الأقليات واضطهادها. السيادة المشتركة، حيث يدمج أعداء الأمس جوانب من سيادتهم في مسعى صريح لإرساء سلام دائم. وثقافات التسامح، التي تتيح لشرائح المجتمع قاطبة الحرية لتطوير ملكاتها والإسهام التام في المجتمع، في حين تحرم النخب المرضية من كباش فداء لحملاتها القمعية.

وبتآزرها معاً، يخدم هذا النسق من الدفاعات في الحد من سطوة المبتلين باضطرابات خطرة ويتيح للأغلبية أن تحيا بمنأى عن القهر، وعنف الدولة، والاستغلال. وكما يوضح عالم السياسة رونالد إنغلهارت (٢٠١٨)، فإن المؤسسات الديمقراطية لا تكفل أن ينتخب الشعب حكاماً حكماء وخيرين، بيد أنها توفر سبيلاً منتظماً وخلوًا من العنف لاستبدال الحكام

المفتقرين إلى الحكمة والأشرار. وتفرض مؤسسات الديمقراطية قيوداً صارمة على أفعال القادة الأشرار إبان تبوئهم لسدة السلطة.

توطيد دعائم الديمقراطية

يقتضي المجتمع الديمقراطي من أعضائه أن يحدوا من سعيهم وراء مصالحهم الذاتية بالقدر الذي تقتضيه حقوق بني وطنهم. ويوجب على المواطنين أن يعامل بعضهم بعضاً بما يليق بهم من احترام كأفراد مستقلين يحوزون الحق في السعي في حيواتهم كما يرتأون. كما يقتضي التزاماً بالصالح العام. ولقاء الامتثال لهذه المطالب، تفرز الديمقراطية المنافع العامة التي كابد الناس قروناً لبلوغها، ألا وهي السلام، والعدالة، والحرية، والمساواة، والمجتمع. بيد أنه، بالنسبة للمبتلين باضطرابات خطرة، فإن هذه مطالب يعجزون نفسياً عن الامتثال لها. ومتى ما سنحت الفرصة، سيسعى المبتلون بهذه الاضطرابات إلى الإطاحة بقيود الديمقراطية الليبرالية لخلق الظروف التي يسع فيها لحاجاتهم النرجسية وخيالاتهم الارتيابية أن تتجلى بغير حدود.

والأسفاه، إن الظروف التي تمكن المبتلين بهذه الاضطرابات لَمُتَفَشِّيَةٌ اليوم. ففي الولايات المتحدة وأوروبا، دأبت المؤسسات السياسية والاقتصادية الكبرى لعقود خلت على رعاية ثقافة من الفردانية الأنانية والجشع، مذكيةً مستويات من التفاوت لم تُشهد منذ أجيال. ولقد قوض الانهيار المالي لعام ثمانية وألفين إيمان العوام بالديمقراطية بنقله مآلات الانهيار إلى كواهل المواطنين العاديين في حين أُذن لقادة المؤسسات المالية بالفرار بغير حساب. وإن التحولات العميقة التي تحدثها التكنولوجيا والعولمة لَتَزِيدُ من انعدام الأمن وتقوض الشعور بالهوية لدى الكثيرين. ولقد خلقت هذه الظروف عاصفة هوجاء تمهد أرضاً خصبة لقادة بارعين في تسخير الغضب والقلق لاستجلاب دعم العوام.

وللذب ضد صعود القادة الخطرين ومزيد من التآكل للديمقراطية، لزامٌ علينا أن نؤكد كَرَّةً أخرى على أعراف الديمقراطية وقيمها، ونحد من التفاوت، ونخفف من حدة انعدام الأمن الذي يمزق أوصال المجتمعات، ونصطفي قادة يسعهم رأب الصدع داخل البلدان وفيما بينها. وإن البديل المنذر بالخطر لَهُوَ الانحدار المتصل للديمقراطية، ومزيد من التفشي للأنظمة السلطوية، والعودة المحتملة لحقبة من الحروب المدمرة والأهوال التي لا تُوصف. لقد شُيد سلفاً من النصب التذكارية لضحايا القادة

المرضيين ما يفيض عن الحاجة. وبالنظر إلى حجم المعاناة التي يلحقونها، والتحديات الوجودية التي نجابهها، فإن توطيد دعائم الديمقراطية للحد من النفوذ الخبيث لهذه الأقلية الخطرة قد غدا الضرورة الأخلاقية القصوى في عصرنا.

سحابةٌ من التخبط

لقد صاغت أقلية من المبتلين باضطرابات خطرة معالم التاريخ والمجتمع صياغة عميقة. وإن ظمأ هذه الأقلية الذي لا يُروى للسلطة لَيَعْنِي أنهم يفلحون باطراد في بلوغ مناصب القيادة في السياسة، وغالباً ما يؤول ذلك إلى مآلات كارثية.

فلِمَ لا تُدرك هذه الصلة الحيوية بين السياسة والباثولوجيا النفسية بجلاء أعظم؟

ثمة ثلاث علل كبرى لذلك. العلة الأولى هي الافتقار العام لفهم العوام لماهية الاضطرابات الخطرة. ولهذا الافتقار العام للفهم مآلان. الأول، أن كثيرين يأبون مناقشة الصحة النفسية للقادة السياسيين توجساً من إهانة

القادة أو وصم المبتلين بالعلل النفسية. وهذا توجس وجيه. بيد أن الرد عليه هو أن ثمة حاجة إلى مزيد من التثقيف. فالعلل النفسية متباينة غاية التباين، كشأن العلل البدنية، ولا ينبغي لضرب واحد أن يُعَرِّفَ البقية. فثمة علل تلقي بظلالها في المقام الأول على الشخص المبتلى بها، كالاكتئاب، والفصام، واضطرابات الأكل، على سبيل المثال. فإن اقترف أمثال هؤلاء الأشخاص عنفاً، فالأرجح بأشواط أنهم سيقترفونه ضد أنفسهم ويمثلون تهديداً للآخرين أدنى من الشخص العادي. ثم ثمة اضطرابات خطرة خارجياً تنزل مآلات سلبية على المجتمع. فالأفراد المبتلون بهذه الاضطرابات يحوزون نزوعاً أعلى نحو العنف والعدوان الخارجي، ومن الأهمية بمكان تمييزهم لأن جشعهم وارتيابهم المرضي يسعه أن يقوض النسيج الاجتماعي للعائلات، والمجتمعات، والمجتمعات بأسرها.

والمآل الثاني للافتقار العام لفهم العوام هو أن كثيرين يساوون بين الاضطرابات الخطرة والتصوير السينمائي لشخصيات من قبيل نورمان بيتس في فيلم "سايكو"، وهانيبال ليكتر في "صمت الحملان". وهذا يعني أن السواد الأعظم من الناس يرتقبون أن يكون المعتلون نفسياً قتلة جماعيين خطرين بجلاء، ويوقنون أيضاً بأن المبتلين باضطرابات خطرة نادرو الوجود. وكلتا الرؤيتين باطلتان. فجل المبتلين بشخصيات خطرة

ليسوا بقتلة. فهم يبدون أسوياء في العادة، وإن كانوا "عسيري المراس"، أو "عدوانيين"، أو "متبجحين"، أو "أنانيين"، والأرجح أن تتقاطع دروبنا معهم كل يوم.

وينبع اعتراض ثانٍ على مناقشة الصحة النفسية للقادة السياسيين من توجس مفهوم إزاء إساءة الاستخدام المحتملة للتصنيف العقلي. وهذا أيضاً، بطبيعة الحال، خوف وجيه، إذ إن أمثلة إساءة استخدام التصنيف النفسي لَتَزْخَرُ بها جنبات التاريخ. وإن الاستغلال السياسي الممنهج للطب النفسي في الاتحاد السوفيتي، حيث زُج بقرابة ثلث السجناء السياسيين في مستشفيات الأمراض النفسية، ليس سوى مثال واحد من أمثلة جمة استُخدم فيها الطب النفسي كأداة لقمع الخصوم السياسيين. ولا يفتقر المرء إلا إلى استحضار تصنيف المثلية الجنسية كعلة نفسية وما تلاه من سجن وعلاج قسري بالصدمات الكهربائية لآلاف الرجال المثليين ليتذكر تلك الأخطار.

وثمة علة ثالثة، تبعث على القلق، تفسر لِمَ يمضي القادة المرضيون بغير أن يُتبين أمرهم باطراد، ولِمَ يغدو النقاش العقلاني حول الباثولوجيا العقلية المحتملة لقائد ما محالاً غالباً، ألا وهي أنهم غالباً ما يستهووننا، ولا سيما في أزمنة الاضطراب الاجتماعي والسياسي. فبخلوهم من القلق، والشك في الذات، والشعور بالذنب، يبدون لكثير منا وكأنهم يحوزون خصالاً نود

نحن أنفسنا لو حزناها. فهم "يقولون ما يفكرون فيه"، و"ينجزون الأمور"، ويسعون بغير هوادة وراء أجندتهم و"لا يكترثون بما يظنه الآخرون". وإن الجاذبية العاتية التي يمثلها الأفراد المرضيون لكثير منا لَتَغْنِي أنه، من فواجع الأقدار، لا يقتصر الأمر على إخفاقنا في إبصار وتسمية أشد الباثولوجيات النفسية البشرية خطراً، بل إننا نميل إلى مكافأة المبتلين بها بالسلطة والتملق اللذين يتوقون إليهما. وما إن يتبوأوا سدة السلطة، حتى يمضي كثير منا في مناصرتهم بحماسة تجعل من مناقشة باثولوجيتهم العقلية المحتملة مسعى يورث شقاقاً عميقاً.

لقد حان الأوان لخوض حوارٍ متحضر حول السياسة والصحة النفسية إنه لَمِنَ الأهمية بمكان أن تشرع المجتمعات الديمقراطية في خوض حوار متحضر حول السياسة والصحة النفسية. وإن حواراً كهذا لَمَطْلُوبٌ بإلحاح لتبديد سحابة التخبط التي تكتنف الاضطرابات الخطرة ولإماطة قناع السواء الذي يتيح للقادة الخطرين الارتقاء إلى سدة السلطة.

واأسفاه، إن المتخصصين ذاتهم الذين يتبوأون المقام الأوفق لتثقيف العوام حول هذه القضية الحيوية قد لاذوا بالصمت إلى حد بعيد.

فميثاق الأخلاقيات المهنية الذي يسوس سلوك الأطباء النفسيين وخبراء الصحة النفسية ينص على أنه من المجافي للأخلاق أن يبدي طبيب نفسي

رأياً مهنياً حول شخصية عامة ما لم يكن قد أجرى فحصاً لتلك الشخصية العامة وأُذن له بذلك. وإن ما يُسمى بقاعدة غولدواتر لَتَقِفُ حجر عثرة دون مشاركة خبراء الصحة النفسية مشاركة تامة في النقاش العام المقتضى لتوطيد دعائم الديمقراطية ضد الأخطار التي تجابهها حالياً.

إن المعرفة بالصحة النفسية لَهِيَ قطب الرحى في هذا السجال. أولاً، يسع خبراء الصحة النفسية أن يعينوا على تبديد سحابة التخبط التي تخنق النقاش العقلاني حالياً بجلاء طبيعة، وتفشي، والأخطار المحتملة لاضطرابات بعينها في عقول العوام. ويسعهم الإسهام في مناقشة كيف يرتقي القادة المبتلون باضطرابات خطرة إلى سدة السلطة، وكيف يسع سيكولوجية السواد الأعظم من الناس أن تسهم في هذه السيرورة.
ثانياً، يسع خبراء الصحة النفسية أن يرتقوا بفهم العوام، بغير حاجة بالضرورة إلى تشخيص القادة الأفراد، بالإشارة إلى أن مسالك مزعجة بعينها تغدو مفهومة حين يُنظر إليها من منظور هذه الاضطرابات.
ولنضرب على ذلك مثلاً. إن سلوك ترامب المنذر بالخطر في قمة الناتو، وفي الأمم المتحدة، ومع الحلفاء في الاتحاد الأوروبي لَيُجْلِي بوضوح مقته للتحالفات، التي يراها باطراد على أنها "تستنزف" الولايات المتحدة. وإن

أحد سبل فقه هذا السلوك يكمن في سياق الارتياب. فالأشخاص الارتيابيون قاصرون نفسياً عن تصور التحالفات والشراكات التعاونية. فالعلاقات الأوحدة التي يسعهم تصورها هي تلك التي يُرجح أن يغدر بهم فيها الشريك الآخر. ومن ثم، فهم يوقنون يقيناً راسخاً بأن أمثال هذه التحالفات لَتُمَثِّلُ تهديداً ولزامٌ اجتنابها. وإن سلوك ترامب لَهُوَ عين ما يرتقبه خبراء الصحة النفسية ممن جُبل على هذا الطبع.

ثالثاً، إن إطار الاضطرابات الخطرة لَيَحُوزُ قيمة تنبؤية. فخبراء الصحة النفسية يعلمون أن عقلية المبتلين بعوار في الشخصية لا تتبدل بغتة. ولقد كثر اللغط إبان انتخاب ترامب وغداته حول احتمالية أن يستدير في مواقفه، وأن أشد تصريحاته إثارة للشقاق حول الهجرة، والتحالفات الدولية، والعرق، على سبيل المثال، لم تكن سوى خطاب حملة انتخابية، وأنه سيبدل نهجه ما إن يتبوأ منصبه. وإن فهماً أوسع للعوام، ينهض على طبيعة العوار العقلي، لَخَلِيقٌ بأن يخلق واقعية جمعية أعظم حول ما يُرتقب حين ترتقي أمثال هذه الشخصيات إلى سدة السلطة.

رابعاً، يحوز خبراء الصحة النفسية معرفة متخصصة بمدى الخطورة التي يسع هذه الاضطرابات أن تبلغها. وإن الهمجية والدرك السحيق من انعدام الإنسانية اللذين تمخضا مَرَّةً تلو أخرى حين قبض أفراد مبتلون بهذه الاضطرابات على زمام السلطة لَجَلِيَّانِ من السجل التاريخي. القتل

الجماعي الممنهج، وإزهاق أرواح الرضع والأطفال، والاستباحة الجنسية للنساء والفتيات من لدن المقاتلين، والتجارب الطبية على المدنيين، والتجويع القسري للشعوب، والاستعباد الجماعي والسخرة، وحظر الحب بين الآباء والأبناء، وأمور أخر جمة. إن الخرائب المروعة التي يخلفها القادة المضطربون نفسياً حين تتجلى باثولوجيتهم في العالم لَتَسْتَعْصِي على الفهم ومن ثم تعسر على تخيل السواد الأعظم من الناس. وإن شطراً من الدور الذي يسع خبراء الصحة النفسية أن يضطلعوا به في الحوار المتحضر الذي نفتقر إليه هو إحالة ما يستعصي على الفهم إلى أمر مفهوم ليتسنى لنا مجابهته، بناءً على معرفتهم المتخصصة بما يسع المبتلين باضطرابات خطرة أن يقترفوه.

وفي نهاية المطاف، فإن الغاية من خوض حوار متحضر حول السياسة والصحة النفسية هي توطيد دعائم الديمقراطية وصون إنسانيتنا والذب عنها. وإن رواية التطور البشري وطبيعة الكائن البشري التي يجليها علم النفس لَهِيَ رواية معيارية في صميمها. فالرواية التي تقصها هي أنه، إن سار التطور البشري على ما يرام، فإننا نشب لنغدو بالغين قادرين على الحب، والتعاطف، والإيثار. وحين يسير التطور البشري على ما يرام، فإننا نستمد المعنى في المقام الأول من العلاقات مع الآخرين.

أما الرواية التي يقصها علم النفس فهي أن الاضطرابات الخطرة وما يسمها من مسالك العنف، والارتياب، والأنانية المفرطة ما هي إلا إخفاقات في التطور.

وإن مآلات الإذن للشخصيات الخطرة بتطبيع باثولوجيتهم هي أن ينتهي المطاف ببقيتنا إلى الإيقان بحس زائف للطبيعة البشرية—بأن العنف، والارتياب، والأنانية المفرطة ما هي إلا انعكاسات لطبيعتنا الحقة؛ وأن التعاون، والتعاطف، والثقة، واحترام الآخرين إنما هي شيم "الخاسرين". وكلما طال أمد بقاء القادة الخطرين في سدة السلطة، غدت أمثال هذه الصور الخبيثة من الباثولوجيا النفسية أشد تطبيعاً في المجتمع.

ثمة حشد من العقبات تقف حجر عثرة في طريق خوض نقاش متحضر حول الصحة النفسية للقادة السياسيين. بيد أن نقاشاً كهذا، ولئن كان عسيراً، لَمَطْلُوبٌ بإلحاح. ولا يسع خبراء الصحة النفسية ومنظماتهم المهنية أن يقفوا بمعزل عن هذا الحوار. لزامٌ عليهم أن ينهضوا بواجبهم في التثقيف، وواجبهم في التفاعل مع التخصصات الأخر لفقه دور الأفراد الخطرين في وعكتنا الراهنة على نحو أفضل، وواجبهم في جلاء الدور الحيوي للقيادة الأخلاقية في صون الاستقرار الاجتماعي.

وفي هذه اللحظة البالغة الأهمية، لزامٌ على المهنة أن تفعل ذلك لتفي برسالتها في تنزيل المعرفة النفسية للإسهام في نفع المجتمع والارتقاء بحيوات الناس. وإن حجب هذه المعرفة الحاسمة لَهُوَ في حد ذاته مجافٍ للأخلاق إجحافاً عميقاً.

لزامٌ على الكونغرس أن يؤسس هيئة بديلة لتقييم الرئيس

في عام سبعة وثمانين وتسعمائة وألف، حضر الرئيس رونالد ريغان اجتماعاً مع المحققين الذين كانوا يسبرون غور ضلوعه في فضيحة إيران-كونترا. وكان كبار مسؤولي الإدارة قيد التحقيق لتيسيرهم مبيعات أسلحة غير مشروعة لإيران وتوسلهم ببعض العائدات لتمويل جماعة متمردة مسلحة—الكونترا—في نيكاراغوا. وفي خضم الاجتماع، أوضح السيناتور جون تاور للرئيس ريغان أن أحد أعضاء مجلس وزرائه قد شهد مؤخراً بأن "الرئيس كان غافلاً بجلاء عن شحنة الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران". وفي تلك اللحظة، نهض الرئيس ريغان، وهمس في أذن أحد مساعديه، ومشى شطر مكتب "ريزولوت" ليسحب قصاصة من الورق. ومما أثار عجب الجميع، أن الرئيس طفق يتلو بصوت عالٍ ملاحظة كان جلياً أنها قُصدت له وحده—"إن طُرح التساؤل في اجتماع لجنة تاور، فلعلك تود أن تقول إنك فوجئت". فخيم صمت مطبق على الغرفة. وانفغر فم السيناتور تاور ذهولاً. وغاض الدم من وجوه سائر أعضاء اللجنة.

وغداة هذه الواقعة، يُروى أن كبير موظفي الرئيس المستحدث هوارد بيكر قد تدارس إعمال القسم الرابع من التعديل الخامس والعشرين، والذي لم يُستخدم قط من قبل، لعزل الرئيس من منصبه. فلقد أرسى التعديل الخامس والعشرون، المُقر في عام سبعة وستين وتسعمائة وألف، قواعد جلية للخلافة والاستمرارية في حال الشغور الدائم أو المؤقت لمنصبي الرئاسة ونائب الرئيس. ويبيح القسم الرابع من التعديل العزل المؤقت للرئيس من منصبه لما يبلغ واحداً وعشرين يوماً إذا ما قدم "نائب الرئيس وأغلبية إما من الرؤساء الأساسيين للإدارات التنفيذية أو من هيئة أخرى قد يشرعها الكونغرس بقانون" إعلاناً مكتوباً إلى الرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ (أقدم أعضاء حزب الأغلبية خدمة) ورئيس مجلس النواب بأن الرئيس "عاجز عن الاضطلاع بسلطات ومهام منصبه". ولئن كان يسع بيكر أن يولي وجهه شطر نائب الرئيس جورج إتش. دبليو. بوش ورؤساء الإدارات التنفيذية، فإنه لم تكن ثمة في ذلك الحين (ولا تزال لا توجد) هيئة أنشأها الكونغرس لتخدم كبديل لمجلس الوزراء.

وإن الاهتمام المتجدد بالتعديل الخامس والعشرين، وهو الأداة الدستورية لكفالة انتقال منظم للسلطة حين يغدو الرئيس عاجزاً، لَيَجْعَلُ من هذا الوقت أوفق الأوقات لتدارس ماهية الهيئة التي قد ينشئها الكونغرس— وليس أقل ذلك لأن أعضاء الكونغرس قد طرحوا للمرة الأولى تشريعاً برؤى متناحرة حول ما ينبغي أن تكون عليه. ويستهل نقاشنا ببسط المسوغات لإنشاء بديل لمجلس الوزراء، ويوجز المقترحات القائمة، ثم ينعطف شطر الأسئلة المفصلية في تصميم هيئة كهذه.

لِمَ نتجشم عناء إنشاء بديل؟

إن أوجيه العلل لتأسيس هيئة بديلة هو أن ثمة شواهد تلمح إلى أن التعديل الخامس والعشرين لم يُعمل حين كان حرياً به أن يُعمل. فلقد كان التدهور العقلي للرئيس ريغان في أواخر الثمانينيات وحقبة إدمان الرئيس نيكسون للكحول واكتئابه إبان أشهره الأخيرة في البيت الأبيض لحظتين كان من شأنهما أن تسوغا إعمال القسم الرابع، ولا سيما أنه كانت ثمة شواهد على أن أياً منهما لم يكن في حالة تسعفه لإدراك قصوره. ولو أن التعديل الخامس والعشرين قد أُقر في وقت أبكر، لربما أُعمل بعد أن كابد

الرئيس وودرو ويلسون سكتة دماغية هائلة (وما رافقها من قصور عقلي) في أكتوبر من عام تسعة عشر وتسعمائة وألف.

لقد استشرف صاغة التعديل الخامس والعشرين هذه الاحتمالية المتمثلة في أن دنو مجلس الوزراء (وما يرافقه من ولاء) من الرئيس قد يغدو حجر عثرة دون إعمال التعديل، ومن ثم منحوا الكونغرس السلطة لتأسيس بديل. وفي خضم حواره مع الرئيس إيمانويل سيلر إثر بيانه المناصر للتعديل، لاحظ السيناتور بيرش بايه أن القسم الرابع قد تحسب لـ "الطارئ غير المتوقع المتمثل في أن مجلس الوزراء قد لا يثبت أنه الهيئة الأوفق لتبين عجز الرئيس بالاشتراك مع نائب الرئيس" بإباحته للكونغرس إنشاء هيئة أخرى للإسهام في القرار.

وإن الأخطار المقترنة بتأسيس هيئة كهذه لَيَسِيرَةٌ.

فأي إعمال للقسم الرابع—سواء من لدن مجلس الوزراء أو من هيئة أسسها الكونغرس—يقتضي موافقة نائب الرئيس. وإن هذا لَكَابِحٌ عظيم ضد إساءة استغلال السيرورة لأن نائب الرئيس يكاد يكون يقيناً حليفاً سياسياً وثيقاً للرئيس. كما يحد القسم الرابع من الإساءة المحتملة للقسم الرابع بإباحته للرئيس أن يطعن في إعلان عجزه عن الاضطلاع بسلطات

ومهام منصبه وأن يستعيد المنصب. ويسع دحض طعن الرئيس، بيد أن ذلك لا يكون إلا بموافقة أغلبية الثلثين في كل من مجلسي النواب والشيوخ.

المقترحات القائمة

ولئن لم يؤسس الكونغرس قط هيئة كهذه، فقد طُرح مقترحان مؤخراً: قانون لجنة الرقابة على أهلية الرئيس للنائب جيمي راسكين، وقانون تعزيز وتجلية التعديل الخامس والعشرين لعام سبعة عشر وألفين للنائب إيرل بلوميناور.

قانون لجنة الرقابة على أهلية الرئيس

من شأن مشروع قانون النائب راسكين أن يؤسس لجنة من الحزبين قوامها أحد عشر عضواً تتألف من ثمانية أطباء على الأقل واثنين على الأقل من كبار مسؤولي السلطة التنفيذية السالفين. ويُعين الأعضاء الأحد عشر في غضون ثلاثين يوماً من الانتخابات الرئاسية ويسعهم الخدمة حتى يُعين خلف لهم. وتُوزع مسؤولية تعيين ثمانية أطباء في اللجنة بين قيادات الكونغرس: رئيس مجلس النواب،وزعيم الأقلية في

مجلس النواب، وزعيم الأغلبية في مجلس الشيوخ، وزعيم الأقلية في مجلس الشيوخ، حيث يعين كل منهم عضوين. أما العضوان الإضافيان، واللذان يُشترط فيهما أن يكونا قد خدما كرئيس، أو نائب رئيس، أو وزير خارجية، أو مدعٍ عام، أو وزير خزانة، أو وزير دفاع، أو جراح عام، فيُعينان بالاشتراك بين قيادتي الحزبين في الكونغرس: واحد من لدن الزعيمين الجمهوريين وواحد من لدن الزعيمين الديمقراطيين. أما العضو الأخير في اللجنة—والذي يُشترط فيه أن يكون إما طبيباً أو مسؤولاً تنفيذياً رفيع المستوى سالفاً—فيُعين بأغلبية بسيطة من أصوات الأعضاء الآخرين ويضطلع بمهام الرئيس.

ولن تشرع هذه اللجنة في تحقيق حول أهلية الرئيس للمنصب من تلقاء نفسها بغير موافقة مسبقة من الكونغرس. بيد أنه، وفي غضون اثنتين وسبعين ساعة من إقرار قرار من كلا مجلسي الكونغرس يوعز إليها بذلك، تُناط باللجنة مهمة إجراء فحص طبي للرئيس لتبين ما إذا كان عاجزاً، عقلياً أو بدنياً، عن الاضطلاع بسلطات ومهام منصبه. وفي غضون اثنتين وسبعين ساعة من إتمام الفحص، يُلزم على اللجنة أن ترفع ما خلصت إليه من نتائج واستنتاجات إلى رئيس مجلس النواب والرئيس المؤقت لمجلس الشيوخ. ولئن كان يُباح للرئيس أن يأبى الخضوع للفحص، فإن

إباءه هذا "سيُؤخذ في الحسبان من لدن اللجنة في خلوصها إلى استنتاج في التقرير".

قانون تعزيز وتجلية التعديل الخامس والعشرين لعام ٢٠١٧

ينتهج مشروع قانون النائب بلوميناور درباً مغايراً. فمن شأنه أن يؤسس هيئة تتألف من كل رئيس سالف حي وكل نائب رئيس سالف حي، باستثناء أي من هؤلاء المسؤولين الذين عُزلوا من لدن مجلس النواب وأُدينوا في مجلس الشيوخ أو الذين يخدمون حالياً كرئيس ونائب رئيس. ولا يرسم مشروع القانون معالم فحص الرئيس أو معايير لتبين عجز الرئيس؛ بل إن مهمة الهيئة الأوحدة ستكون تقديم إعلان مكتوب بعجز الرئيس—وهو قرار يُفترض أن ينهض على الحكم والخبرة بدلاً من التقييم الطبي.

اعتبارات مفصلية

أي هيئة؟

يفترق المقترحان حتى الآن أشد الافتراق في الكيفية التي يصطفيان بها أعضاء هيئة التعديل الخامس والعشرين.

فالنائب راسكين يقترح هيئة قوامها أحد عشر عضواً، يُصطفى جلهم من لدن قيادة كونغرس "البطة العرجاء" (المنتهية ولايته) في الأعقاب

المباشرة لانتخابات رئاسية، في حين أن هيئة النائب بلوميناور ستغص بالرؤساء ونواب الرؤساء السالفين الأحياء قاطبة ممن لم يُعزلوا. ولا ريب أن ثمة خيارات أخر لا حصر لها مبذولة—فيسع الكونغرس، على سبيل المثال، أن يصطفي لجنة كونغرسية لتخدم كهيئة، أو يأذن للمجالس الطبية الولائية بتعيين أعضاء في هيئة، أو ينشئ هيئة تتألف من الأفراد الذين يخدمون كجراحين عامين لجيش الولايات المتحدة، والبحرية، والقوات الجوية.

ويسع الكونغرس أيضاً أن يزاوج بين جوانب من كلا مشروعي القانونين بتبني الهيئة اليسيرة التحديد المبسوطة في مشروع قانون بلوميناور في حين يوعز إلى تلك الهيئة، التي تتألف حصراً من الرؤساء ونواب الرؤساء السالفين، بتعيين لجنة من الخبراء تضاهي تلك المبسوطة في مشروع قانون راسكين. ويسع مشروع القانون حينئذ أن يوعز إلى هيئة المسؤولين السالفين المنفذة للتعديل الخامس والعشرين بأن تولي إجلالاً عظيماً في قراراتها للجنة الخبراء التي عينتها للاضطلاع بتلك المهمة.

فما هو حجم الهيئة الأوفق لمهمة تبين قدرة الرئيس على أداء مهام منصبه؟ إن هيئة تتألف من أعضاء يفيضون عن الحاجة قد تغدو أثقل من أن

تتحرك في لحظة تقتضي ذلك حقاً؛ وهيئة تتألف من قلة قد تتصرف بعجلة لا مبرر لها. لقد ارتأى صاغة التعديل الخامس والعشرين أن يأتمنوا "الرؤساء الأساسيين للإدارات التنفيذية" على المسؤولية عينها—وهي هيئة كانت تتألف وقت الإقرار من أحد عشر فرداً وتوسعت منذئذ لتبلغ خمسة عشر. ويأتي مقترح النائب راسكين بعدد مقارب—أحد عشر. أما هيئة النائب بلوميناور فستتأرجح وفقاً لعدد الرؤساء ونواب الرؤساء الأحياء (وإن كانت الهيئة ستُحل تلقائياً إن قل عدد أعضائها في أي وقت عن اثنين). فلو أنها كانت قائمة الآن، لضمت عشرة أعضاء؛ بيد أنها لم تكن لتضم سوى اثنين في عام ثلاثة وسبعين وتسعمائة وألف (نائبي الرئيس السالفين سبيرو أغنيو وهيوبرت همفري الابن). وإن منح ثلاثة أفراد (هيئة لا تضم سوى عضوين فضلاً عن نائب الرئيس القائم) سلطة إعلان عدم أهلية الرئيس للمنصب بصفة مؤقتة لَيَبْدُو طيشاً.

كيف سيُصطفى الأعضاء؟

أينبغي أن يُعين الأعضاء في الهيئة أم ينالون العضوية تلقائياً بناءً على خصلة أخرى؟ إن نسق التعيينات لَيَخْلُقُ جملة من العقبات الإدارية أمام تشكيل هيئة يسعها الاضطلاع بمهام التعديل الخامس والعشرين.

فمثلاً، يقتضي مشروع قانون النائب راسكين مشاركة وتعاون أربعة من قادة الكونغرس فضلاً عن تعاون الأعضاء الذين يصطفونهم ليصطفوا بدورهم رئيساً. وعلى النقيض من ذلك، يكفل مشروع قانون النائب بلوميناور وجود هيئة بغير أي فعل إضافي من لدن طرف ثالث أو أكثر.

وفي الوقت عينه، فإن التعيين التلقائي لا يذر متسعاً لإعمال التقدير في التعيين. فلقد صُممت هيئة النائب راسكين لتكفل تمثيلاً شبه متكافئ للحزبين لأنه بغض الطرف عن الحزب الذي يقبض على زمام مجلسي النواب والشيوخ، فإن كل حزب سيعين عبر قيادته خمسة أعضاء، والعضو الحادي عشر (الرئيس) سيُصطفى من لدن المعينين العشرة للحزبين. وعلى النقيض من ذلك، فإن تكوين هيئة النائب بلوميناور سيرتهن بعدد الانتخابات السالفة التي ظفر بها حزب بعينه وكم من أولئك الممثلين لا يزالون أحياء. ويسع تدارك هذا الخلل في يسر بتعديل مشروع القانون ليقتضي عدداً متكافئاً من الأعضاء من كل حزب سياسي، مع تعيين الرؤساء ونواب الرؤساء الأحدث عهداً في الهيئة قبل أولئك الأقدم عهداً.

ما هي المؤهلات التي ستُشترط في الأعضاء؟

إن الأهلية للخدمة في الهيئة لَهِيَ خيار تصميمي مفصلي آخر. ففي معرض ذبه عن أنموذج مجلس الوزراء للقسم الرابع، لاحظ السيناتور بيرش بايه، المهندس الأكبر للتعديل الخامس والعشرين، أنه "ما من حل آلي أو إجرائي سيوفر إجابة تامة إن افترض المرء حالات متخيلة يكون فيها جل الأطراف من الأوغاد وحيث ينتفي أي حس شعبي باللياقة الدستورية". وهو محق، بالطبع. فالتعديل الخامس والعشرون يسعه دوماً أن يكون ذريعة لـ "اغتصاب" الرئاسة، بغض الطرف عمن يؤلف هيئة تقصي الحقائق المُناط بها تبين عجز الرئيس. ولزامٌ أن يُحد من هذا الاحتمال. وفي حالة بايه، كان ذلك يعني الثقة في أن مسؤولي مجلس الوزراء سيكونون "رجالاً متعقلين" يهديهم "حسهم بـ 'الأخلاق الدستورية'". وفي مشروعي قانونيهما، يضع النائبان راسكين وبلوميناور تلك الثقة في توليفات أخر من المسؤولين الذين قد يحوزون حوافز أقل لوقاية رئيس عاجز عقلياً أو بدنياً أو لعزله بغير أساس متين.

ويبيح مقترحا النائبين راسكين وبلوميناور لكبار مسؤولي السلطة التنفيذية السالفين أن يخدموا، ولعل ذلك لأن خبرتهم كرؤساء أو على مقربة من الرئيس تجعلهم أهلاً للحكم على ما إذا كان امرؤ آخر يسعه الاضطلاع بالوظائف المقتضاة دستورياً. ومع ذلك، فإن أحد الهواجس

إزاء هذا الخيار—ولا سيما كما نُزل في مشروع قانون النائب بلوميناور—هو أن الهيئة المنشأة ستتألف من أعضاء قد يكابدون هم أنفسهم عسراً في الوفاء بمهامهم. ولئن كان الرؤساء ونواب الرؤساء يتبوأون مناصبهم في أعمار شتى، فإن الحقيقة العالمية الأوحدة هي أنهم قاطبة يكونون أسن حين يغادرون مناصبهم مما كانوا عليه حين تقلدوها.

كما يدمج مشروع قانون النائب راسكين ضرباً مغايراً من الخبرة: فباشتراطه أن يكون ثمانية على الأقل من الأعضاء الأحد عشر أطباء مرخصين، فإن مقترحه يولي أولوية أعظم للخبرة الطبية منها لخبرة السلطة التنفيذية رفيعة المستوى. وبفعله هذا، يبدو أن النائب راسكين يتصور أن هيئته لن تعمل إلا في حالات العجز الطبي—ولعل ذلك لأن الرؤساء الأساسيين لمجلس الوزراء التنفيذي قد يكونون في مقام أوفق لاتخاذ قرار ينهض على اعتبارات غير طبية.

ما هي الإجراءات التي ينبغي للهيئة أن تقتفي أثرها؟

ثمة تساؤلان إجرائيان مفصليان: الأول، هل يسع الهيئة أن تتحرك من تلقاء نفسها أم لزامٌ عليها أن تترقب توجيهاً كونغرسياً قبل المضي قُدماً؟ والثاني، ما هي الإجراءات التي لزامٌ على الهيئة أن تتوسل بها في بلوغ حكم حول أهلية الرئيس؟

إن مقترح النائب راسكين لَهُوَ الأثقل إجرائياً في كلا الشقين. فمقترح راسكين لن يجعل الهيئة تتدارس مسألة أهلية الرئيس حتى يُقر قرار كونغرسي يلتمس تقييماً. وإن اشتراط تحرك الكونغرس أولاً لَهُوَ عقبة إجرائية جسيمة في حد ذاتها، حتى وإن كان مقترح راسكين يدمج إجراءات كونغرسية معدلة للمسار السريع من شأنها أن تكفل في الأرجح تدارساً وتصويتاً سريعاً على القرار في كل من مجلسي النواب والشيوخ. كما يقتضي مقترح النائب راسكين أن تجري الهيئة فحصاً للرئيس في غضون اثنتين وسبعين ساعة من إقرار مثل هذا القرار ثم ترفع حكماً مكتوباً إلى الكونغرس في غضون اثنتين وسبعين ساعة من إجراء فحصها.

وعلى النقيض من ذلك، فإن مقترح النائب بلوميناور لا يقتضي تحركاً كونغرسياً ولا يرسم متطلبات إجرائية لزامٌ على الهيئة أن تفي بها قبل رفع حكم إلى الكونغرس. وإن هذه السمات لَتَضَعُ هيئته على قدم المساواة مع هيئة "الرؤساء الأساسيين للإدارات التنفيذية"، والتي لا تفتقر هي الأخرى إلى إذن خارجي للتحرك أو لإجراء فحص للرئيس قبل تمرير قرارها. وإن الخطر الكامن في هذا المقترح هو أن هيئة تغص بالرؤساء ونواب الرؤساء السالفين من حزب سياسي واحد قد تتوسل بسلطتها بموجب التعديل الخامس والعشرين للتدخل في المهام الرسمية لرئيس من حزب سياسي مغاير، ولإحراجه. تخيل، على سبيل المثال، سلسلة من ثلاث رئاسات جمهورية متباينة (كما كان الحال في العشرينيات) يعقبها ديمقراطي يحظى بشعبية ولكنه يثير الجدل (كما كان الحال مع الرئيس روزفلت في الثلاثينيات). وإنه لَمِنَ الأهمية بمكان أن تكون الهيئة محايدة إن خُولت بعزل الرئيس حتى بصفة مؤقتة دون أن تُدعى أولاً لتدارس ذلك الخيار من لدن الكونغرس.

ما هي المعايير التي ينبغي أن تسوس تحليل الهيئة لأهلية الرئيس؟

لقد كان ثمة، بوجه عام، جانبان للسجال حول مدى تعريف عجز الرئيس. ففي أحد الجانبين كان ثمة سيناتورات كجون إيتون وباحثون كثيودور دوايت (وكلاهما استشهد بهما صاغة التعديل الخامس والعشرين)، والذين حاججوا بأن بند الخلافة لا يشمل "أي عجز قد يكون الرئيس على بينة منه"، وأنه لا يسع اعتبار سوى الرئيس المجنون عاجزاً، إذ "ما دام الرئيس يحوز العقل [...] فهو ليس بعاجز بالمعنى الدستوري". وفي الجانب الآخر كان ثمة سيناتورات كإلبريدج لابهام ونواب كجورج إم. روبسون، والذين حاججوا بأن الرئيس يكون عاجزاً متى ما "كابدت المصلحة العامة لأن الرئيس عاجز عن ممارسة سلطاته".

ولقد امتدت هذه السجالات إلى صياغة التعديل الخامس والعشرين. ففي جلسة استماع عام خمسة وستين وتسعمائة وألف، أدخل السيناتور بايه "الاستنتاجات التي خلصت إليها لجنة التنمية الاقتصادية" في السجل. ونص ذلك التقرير على أنه "[ي]نبغي أن يُفهم لفظ 'العجز' باطراد على أنه يشمل كل موقف يعجز فيه الرئيس، لأي علة كانت، عن

ممارسة سلطات ومهام منصبه". كما لاحظ السيناتور بايه أن القسم الرابع قد صُمم على وجه التحديد لـ "التحسب للطارئ المتمثل في أن طبيعة عجز الرئيس تحول دون إعلانه عن عجزه بنفسه". ولم يحسم نص التعديل المُقر هذا السجال، إذ لم يرسم معالم الظروف التي يكون فيها إعلان عجز الرئيس لائقاً.

ولعل مما لا يثير العجب، إذن، أن مقترحي النائبين راسكين وبلوميناور يرسيان معايير متباينة للعجز. فحكم هيئة النائب راسكين لابد أن ينهض على كشف طبي "بأن الرئيس معاق مؤقتاً أو دائماً بعلة بدنية أو إعاقة، أو علة نفسية، أو قصور عقلي، أو تعاطي الكحول أو المخدرات إلى الحد الذي يفتقر فيه الشخص إلى الفهم أو القدرة الكافية لممارسة سلطات ومهام منصب الرئيس". وعلى النقيض من ذلك، لا يضيف مقترح النائب بلوميناور أي تفصيل لمعيار التعديل الخامس والعشرين—العجز عن الاضطلاع بسلطات ومهام المنصب. (ولنلحظ أن أياً من المقترحين لا يلقي بظلاله على الظروف التي قد يصدر فيها مجلس الوزراء إعلاناً بالعجز).

إن مقترح النائب راسكين بتأصيل مفهوم عجز الرئيس في مصطلحات طبية—ما إذا كان الرئيس "يفتقر إلى الفهم أو القدرة الكافية لممارسة سلطات ومهام منصب الرئيس"—لَيُوَفِّرُ مجموعة أضيق ولكن لعلها أشد موضوعية من الظروف التي قد يصدر فيها إعلان. ويُتخذ الحكم من لدن الأطباء في اللجنة فيما إذا كان الرئيس يستوفي هذا المعيار من منظورهم الطبي. ويبدو أن هذا النص يقتضي أن توقن اللجنة بأن الرئيس يسعه أن يفقه التعقيدات المتأصلة في المنصب، ويحوز القدرة العقلية لاتخاذ قرارات تنهض على حجم هائل من الأدلة المعقدة والمتشابكة وإبلاغها. وإن إدخال النائب راسكين لمعيار طبي لَيَحْظَى بمزية الموضوعية، والتي، نظرياً على الأقل، قد تحصن حكماً بالعجز من اتهامات إساءة الاستخدام أو حتى التحزب.

وعلى النقيض من تعريف النائب راسكين الطبي لـ "العاجز"، يلح مشروع قانون النائب بلوميناور على التحديات والمسؤوليات الفريدة للرئاسة وينبذ الإجراء الطبي لتبين عجز الرئيس. ومن ثم، فإن تعريف "العاجز" في مشروع قانون النائب بلوميناور أقرب إلى "تهديد للمصلحة العامة"—وهو معيار لعله يجد دعماً في التاريخ التشريعي للتعديل، بيد أنه أيضاً ذاتي بطبيعته. وبدلاً من تحديد معيار لعجز الرئيس، يترك النائب بلوميناور أمثال هذه الاعتبارات لهيئة المسؤولين التنفيذيين السالفين

التي سيؤسسها مشروع قانونه. ويتيح هذا الخيار لهيئة بلوميناور أن تتخذ حكماً بالعجز في طيف أوسع من الظروف—لا تلك التي تخضع للتشخيص الطبي فحسب؛ بيد أنه يترك أيضاً أي حكم أشد عُرضة لاتهامات إساءة الاستخدام وانعدام الشرعية.

وثمة حجة تُساق لترك مسألة أي صور الإعاقة تسوغ إعمال القسم الرابع مشرعة وتركها لهيئة من الأفراد الذين يفقهون كم ونوع الأعباء العقلية والبدنية للرئاسة.

خاتمة

إن إخفاق الكونغرس في تأسيس هيئة بديلة لتقييم قدرة الرئيس على الاضطلاع بسلطات ومهام منصبه لَيَذَرُ البلاد خلوًا من أحد خيارات الطوارئ التي استشرفها صاغة التعديل الخامس والعشرين. وإن الهيئتين اللتين تصورهما النائبان راسكين وبلوميناور لَتَعْكِسَانِ رؤى متباينة غاية التباين، بيد أن كلتيهما حريتان بالتدبر لأنه يسع التعويل على أي منهما لإجراء تقييم منصف ومستقل لرئيس. فستعول هيئة راسكين على المهنيين والمعايير الطبية، في حين سيضع بلوميناور ثقته في حكم الشاغلين السالفين لأرفع المناصب في بلادنا. وفي عصر يعسر فيه إرساء إجماع بين الحزبين ومعايير موضوعية، سيكون من الحكمة أن يتدبر الكونغرس هذه المقترحات الاستباقية. فالتأهب لأسوأ السيناريوهات أيسر بأشواط من محاولة الرد عليها.

السفير (المتقاعد) نورمان آيزن، زميل أول في دراسات الحوكمة في معهد بروكينغز، ومعلق سياسي في شبكة سي إن إن، ورئيس ومؤسس مشارك لجماعة مراقبة الحكومة "مواطنون من أجل المسؤولية والأخلاق في واشنطن" (CREW). خدم آيزن من عام تسعة وألفين إلى عام أحد عشر وألفين في البيت الأبيض كـ "قيصر الأخلاق" للرئيس أوباما وكان سفير الولايات المتحدة لدى جمهورية التشيك من عام أحد عشر وألفين إلى

عام أربعة عشر وألفين. وهو مؤلف كتاب "القصر الأخير" (٢٠١٨)، وهو سرد للصراع بين الديمقراطية واللاليبرالية على امتداد القرن المنصرم. كما نُشرت كتاباته في صحيفة نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ويو إس إيه توداي، وغيرها من المطبوعات الجمة. نال درجة الدكتوراه في القانون من كلية الحقوق بجامعة هارفارد ودرجة البكالوريوس من جامعة براون.

ريتشارد دبليو. بينتر، أستاذ قانون الشركات في كلية الحقوق بجامعة مينيسوتا. خدم بينتر من عام خمسة وألفين إلى عام سبعة وألفين كمستشار مشارك للرئيس ومستشار أخلاقي للرئيس جورج دبليو بوش وهو عضو مجلس إدارة مؤسس لـ "استرداد جمهوريتنا"، وهي منظمة لإصلاح تمويل الحملات. وتشتمل كتبه على "نيل الحكومة التي تستحقها أمريكا: كيف يسع إصلاح الأخلاق أن يحدث فارقاً" (٢٠٠٩) و"الضرائب بالتمثيل فحسب: الضمير المحافظ وإصلاح تمويل الحملات" (٢٠١٦). كما نُشرت كتاباته في صحيفة نيويورك تايمز، وواشنطن بوست، ولوس أنجلوس تايمز، فضلاً عن المطبوعات الأكاديمية. نال درجة البكالوريوس، بامتياز مع مرتبة الشرف، من جامعة هارفارد ودرجة الدكتوراه في القانون من جامعة ييل.

شكر وتقدير

يُعرب المؤلفان عن امتنانهما العميق للعون الذي لا يُقدر بثمن من كونور شو وغابي ليزرا من "مواطنون من أجل المسؤولية والأخلاق في واشنطن" (CREW) وأندرو كينيلي من معهد بروكينغز.

خاتمة

تجاوز تخوم المهن

د. نعوم تشومسكي، ود. باندي إكس. لي

"إن الخبرة لَيَسَعُهَا إما أن تُشاطر مع العوام لتصدق على أصواتهم وتعمق فهمهم، أو أن تُتخذ مطية للعزل والإقصاء.

ولقد كان اللغوي والفيلسوف-المؤرخ الدكتور نعوم تشومسكي أنموذجاً يُحتذى في تسخير الخبرة لتمكين الآخرين. ولئن كنا لا نعده من بين خبراء الصحة النفسية السبعة والثلاثين، إلا أنه يُعمل ملكات تفكيره النقدي لخدمة البشرية المكابدة، تماماً كما كان ليفعل أي خبير في الصحة النفسية. لقد حرر الاقتباسات أدناه بُعيد تنصيب دونالد ترامب، بيد أنها بعد انقضاء عامين تغدو أصدق من أي وقت مضى: فقد حركت نشرة علماء الذرة عقارب ساعة يوم القيامة لتدنو من منتصف الليل كما كانت في عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف؛ ولم يعد عصر الأنثروبوسين نظرياً بل حل في صورة أعاصير وحرائق كارثية؛ وإن الشعبوية الزائفة "المشيدة على الرمال" لَتَتَدَاعَى فيما يلحق مجلس وزراء من المليارديرات، والإعفاءات الضريبية للأثرياء، والحروب التجارية أشد الأذى بأنصار الرئيس. ومنذ الطبعة الأولى من هذا السفر، ارتحل الدكتور تشومسكي

إلى أريزونا بعد اثنين وستين حولاً في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، بيد أنه ما انفك صوتاً للرؤية الجلية، في حين أسطر أنا من ألاباما، التي علمتني أن أمتنا شعب واحد".

— باندي لي

إنه لَمِنَ الجلي ما الذي يكمن وراء صعود الدعم لترامب، وثمة إجماع عام على ذلك. فإن ألقيت نظرة يسيرة على الإحصاءات الاقتصادية، ستلفي أن شطراً عظيماً من الدعم لترامب ينبثق من أناس بيض في الأغلب، من الطبقة العاملة، ممن نُبذوا على قارعة الطريق إبان الحقبة النيوليبرالية. لقد كابدوا جيلاً من الركود أو الانحدار—فالأجور الحقيقية للذكور تقبع تقريباً حيث كانت في الستينيات. كما طرأ انحدار في الديمقراطية الفاعلة، وشواهد قاهرة على أن مسؤوليهم المنتخبين بالكاد يعكسون مصالحهم وهواجسهم. ولقد حلق الازدراء للمؤسسات، ولا سيما الكونغرس، في عنان السماء. وفي غضون ذلك، خُلقت ثروات بالطبع. بيد أنها آلت إلى أيادٍ معدودات: في الأغلب إلى كسر من أعلى ١ بالمائة، ومن ثم ثمة بذخ هائل.

ثمة خطران داهمان يجابهان الجنس البشري. إننا في موقف يقتضي منا أن نفصل فيما إذا كان الجنس البشري سيبقى في أي صورة لائقة. أحدهما هو الخطر المتصاعد لحرب نووية، وهو خطر جسيم حقاً، والآخر هو الكارثة البيئية. يبتغي ترامب أن يمحو وكالة حماية البيئة فعلياً، وهي إرث ريتشارد نيكسون، وأن يقلص اللوائح، ويهرول شطر الهاوية بأسرع ما يمكن. وفيما يخص النزعة العسكرية، يبتغي أن يرفع الميزانية العسكرية، التي تتجاوز سلفاً شطر الإنفاق التقديري، مما يفضي في الوقت الراهن إلى مواجهات قد تكون بالغة الخطورة (نيومان ٢٠١٦).

وتجمع نشرة علماء الذرة باطراد ثلة من العلماء، والمحللين السياسيين، وغيرهم من الأقوام الرصينين، ليروموا تقديم ضرب من التقدير لما هو عليه حال العالم. والتساؤل هو: إلى أي حد دنونا من فناء الجنس البشري؟ ويحوزون ساعة، ساعة يوم القيامة. حين تبلغ منتصف الليل، نكون قد انتهينا. نهاية الجنس البشري وأمور أخر جمة. والتساؤل في كل عام هو: كم يبعد عقرب الدقائق عن منتصف الليل؟

في البدء، في عام سبعة وأربعين وتسعمائة وألف، بزوغ فجر العصر النووي، وُضعت عند سبع دقائق قبل منتصف الليل. وما انفكت تتقدم وتتراجع منذئذ. وأقرب ما بلغته من منتصف الليل كان في عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف. ففي عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف، فجرت كل من الولايات المتحدة وروسيا قنابل هيدروجينية، والتي تمثل خطراً جسيماً غاية الجسامة على البقاء. وكانت الصواريخ الباليستية العابرة للقارات قاطبة قيد التطوير. والحق أن هذا كان أول تهديد جسيم لأمن الولايات المتحدة. وحينئذ، بلغت دقيقتين قبل منتصف الليل. وما انفكت تتقدم وتتراجع منذئذ.

وفي عام أربعة عشر وألفين، أخذ المحللون في الحسبان للمرة الأولى أمراً كان قد أُغفل: حقيقة أن العصر النووي—بزوغ فجر العصر النووي—قد تزامن مع بزوغ فجر حقبة جيولوجية مستحدثة، ما يُسمى بالأنثروبوسين. ولقد ثار بعض السجال حول الحقبة التي يلقي فيها النشاط البشري بظلاله العاتية على البيئة العامة؛ وثار سجال حول مستهلها. بيد أن المنظمة الجيولوجية العالمية تستقر على استنتاج مفاده أنها تقارب ذات الزمن الذي بزغ فيه فجر العصر النووي. ومن ثم، فإننا في هذين العصرين اللذين تغدو فيهما احتمالية بقاء البشر في مهب الريح بقوة، ومعنا، كل شيء

آخر أيضاً، بالطبع، كل الكائنات الحية—جل الكائنات الحية، التي تقبع سلفاً تحت تهديد بالغ القسوة. حسناً، قبل بضع سنين، شرعت النشرة في أخذ ذلك في الحسبان وحركت عقرب الدقائق إلى ثلاث دقائق قبل منتصف الليل، حيث استقر في العام السالف.

وبعد قرابة أسبوع من ولاية ترامب، حُركت الساعة كَرَّةً أخرى، إلى دقيقتين ونصف قبل منتصف الليل. وهذا أقرب ما بلغته منذ عام ثلاثة وخمسين وتسعمائة وألف. وهذا يعني أن إبادة الجنس البشري لَهِيَ مسألة مشرعة بقوة. لا أبتغي أن أقول إن هذا هو محض أثر الحزب الجمهوري—فمن الجلي أن هذا باطل—بيد أنهم قطعاً في الطليعة في المناصرة العلنية والسعي لتدمير الجنس البشري. أقر بأن هذا تصريح بالغ الفظاظة (غودمان وغونزاليس ٢٠١٧)، بيد أن ديناميات متطرفة تكمن وراءه، ونحن جميعاً نتحمل المسؤولية.

عاجلاً أم آجلاً، ستدرك القاعدة الانتخابية من الطبقة العاملة البيضاء، والحق أن شطراً عظيماً من سكان الريف سيدركون، أن الوعود مشيدة على الرمال. ليس ثمة شيء هناك.

وحينئذ يغدو ما سيقع ذا شأن. فبغية الحفاظ على شعبيتها، سيُضطر إدارة ترامب إلى السعي لالتماس سبل لحشد الدعم وتبديل الخطاب من السياسات التي ينفذونها، والتي هي في جوهرها كرة هدم، إلى أمر آخر. لعلها تتخذ كباش فداء، قائلة: "حسناً، أنا آسف، لا يسعني استرداد وظائفكم لأن هؤلاء الأشرار يحولون دون ذلك". وعادة ما ينصب اتخاذ كباش الفداء على أقوام مستضعفين: المهاجرين، و"الإرهابيين"، والمسلمين، والنخبويين، أياً كانوا. وإن هذا لخَلِيقٌ بأن يغدو بالغ القبح.

أظن أنه لا ينبغي لنا أن ننحي جانباً احتمالية وقوع ضرب من العمل الإرهابي المدبر أو المزعوم، والذي يسعه أن يبدل حال البلاد في طرفة عين (فريل ٢٠١٧).

في الولايات المتحدة، تقبع السلطة بقوة وباطراد في أيدي قطاع ضيق جداً من ثروة الشركات، والثروة الخاصة، والسلطة—ويحوزون نظراء في أصقاع أخر، يوافقونهم الرأي ويتفاعلون معهم جزئياً. وثمة بعد آخر لـ "من يسوس العالم". فالعوام يسعهم أن يحوزوا، وغالباً ما يحوزون، سلطة هائلة. يسعنا أن نعود إلى أول سفر حديث عظيم لديفيد هيوم في الفلسفة السياسية: "في المبادئ الأولى للحكومة". لقد أشار إلى أن القوة في صف

المحكومين. فأولئك المحكومون يحوزون القوة إن كانوا راغبين ومتلهفين لإدراك احتمالية ممارستها. وتارةً يفعلون (نيومان ٢٠١٦).

— نعوم تشومسكي

لقد كانت حركات الشعوب جمة، ولعلها تمثل تلك القوة الكامنة في بني البشر التي تقاوم الفناء وتتلمس طريقها شطر العافية والبقاء. وكشأن الدكتور تشومسكي، الذي كدح بغير هوادة لتبصير العوام وإشراكهم، فحري بنا نحن خبراء الصحة النفسية والشفاة أن نرحب بأي حراك في هذا الدرب ونعضده. وإن "التحالف الوطني لخبراء الصحة النفسية المهمومين"، الذي هب حيث نوقن أن الجمعية الأمريكية للطب النفسي قد أخفقت، قد نما ليغدو منظمة دولية، وسرعان ما سيُعيد تسمية نفسه بـ "التحالف العالمي للصحة النفسية". وسيكون ثمة الكثير لنضطلع به غداة عهد السيد ترامب، حين يغدو لزاماً علينا أن نتآزر بنشاط لرعاية عالم أشد أمناً وعقلانية.

— باندي لي

انتهى..